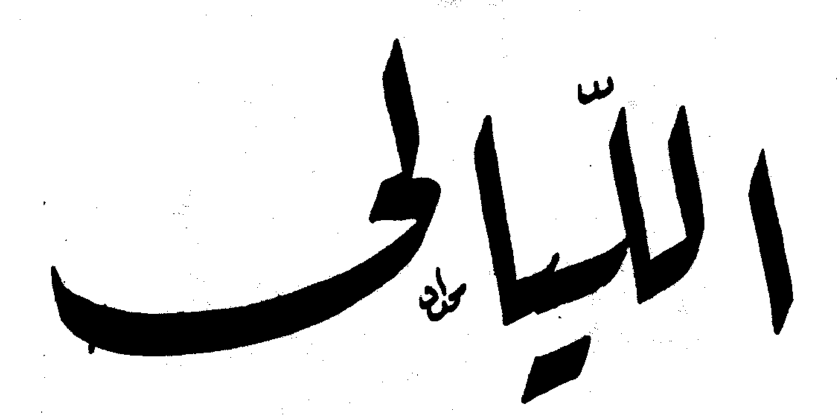
مطبوعات مكتبة مصر

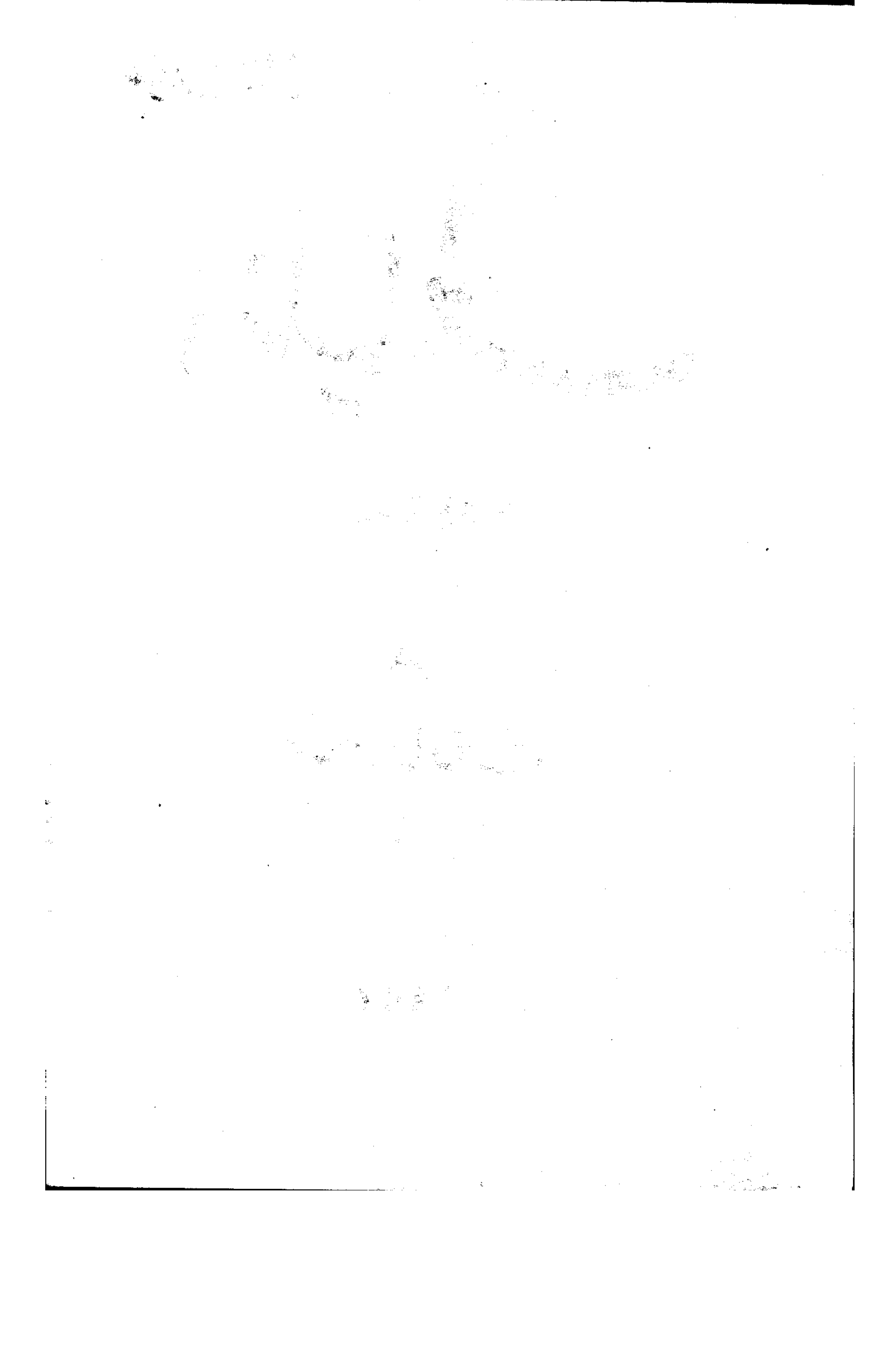


سيرة ذاتية

بقلم

طه وادي

١٩٩٢



في البدء كانت القرية

أحداثُ الحرب العالمية الثانية تتوالى على الكون مثل مطرقة ثقيلة ، وقد نشرت أهوالها الرعبَ والخرابَ في كل مكان ، كما ينتشرُ ـــ سريعا ـــ ظلامُ ليل بهيم . لكن الناس البسطاء في قرى مصر وأحيائها الشعبية ، كانوا يُفسّرون أحداثَ تلك الحرب تفسيرا خاصًا أقربَ إلى الحُلم ، أو الأمل ، الذى قد ينقذهم مما حلَّ بهم من خراب اقتصادى وفساد سياسى . فى قرية من قُرى « الدلتا » جلس محمد عمران وشوقى الدسوقى ، وهما طالبان فى نهاية المرحلة الثانوية يتحدّثان عن الحرب ، ومعهما جريدة فيها صورة للزعيم الألمانى . بالقرب منهما جلس طفل صغير ، يلبس جلبابًا قصيرًا من قماش شعبّى رخيص ، يحاول أن يتابع حديث الصديقين ، دون أن يعيه بشكل واضح . فجأة قال أخوه الكبير :

* تعال يا طه .. انظرْ هذه صورة هتلرْ ، الرجل الذى هزَّ العالم .. ونحن مازلنا فى انتظاره ، لكى يحرر مصر من الإنجليز .

أخذ الطفل الصغير ، يتأمّل الجريدة فى يد أخيه الكبير محمد دون أن يُعلّق . سأله صديقه شوقى :

* لماذا تقول له هذا يا محمد ؟

* لأنه آخر العنقود .. وقد يشهد ما لا نشهده نحن .

* أظن أن هذا ليس سببًا كافيًا .

* ربما ..!!

سكت الصديقان ، وأخذ الطفل الصغير يتأمل صورة « أدولف هتلر » بشاربه المميز وعينيه الحادتين . ماذا يقصد محمد ..؟ لم يكن الطفل يدرك معنى أن بعض المصريين والعرب ، كانوا ـــ أثناء الحرب العالمية الثانية ـــ ينظرون إلى « هتلر » نظرةَ المُخلِّص ، الذى سوف ينقذهم من شرور الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين ، الذين إحتلوا معظم الأقطار العربية ، وخدعوهم بعد الحرب العالمية الأولى بموجب اتفاق « سايكس ـــ بيكو » سنة ١٩١٨ .

طه هو الطفل السادس والأخير فى ترتيب إخوته الذكور . أما البنات فقد توفين ، و لم تبق منهن على قيد الحياة سوى أخت وحيدة ، جاءت بعده . وبحكم أنه صغير السن فقد كان يتنقل بين مجلس الأب وملاعب الإخوة ، ويختار ما يحلو له فى أىّ مجلس أو ملعب ، حتى لو كان ذلك مع أمه وسط عالم الحريم ، فأية امرأة من صديقات الأم ، يمكن أن تقيم وزنًا لطفل صغير؟! لكن المجلس الذى كان يجذبه أكثر ، هو مجلسُ الأب . أحيانا كان يجد مكانا على أريكة من الأرائك المفروشة بالحصير ، ومرة يجلس على الأرض فوق حصيرة الصلاة الملونة ، ليسمع بعض قصص الأنبياء .. أو طرائف الأجداد .. أو حكايات الفلاحين فى الحقل . أهمُّ من هذا ـــ بالنسبة للطفل ـــ أن مجلس الوالد كان يعطيه حقًا فى كوب من

القرفة الساخنة أو الينسون أو الحلبة .

قطع الصمتَ ـ ذات ليلة ـ صوتُ السيد الفار صديق الوالد :

* لماذا لم ترسل طه إلى الكتّاب يا شيخ عمران ؟

* الولد مازال صغيرًا يا رجل .

* يبدو أنك تريد أن تدخله المدارس مثل أخيه محمد .

فردَّ الوالد : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدًا ، إلا أن يشاء الله » .

كان فى السادسة من عمره حين أيقظته الأم ذات يوم مبكرًا ، وألبسته جلبابه الجديد . ووضعتْ فى رقبته كيسًا من القماش . وأعطته رغيفًا وقطعة من الجبن القريش . « اليوم تذهب إلى المدرسة الأولية يا طه » . لم يكن يعرف لماذا يذهب الأطفال إلى المدارس ، ولا سرَّ حفاوة أمه بهذا اليوم ؟! عندما ذهب رأى لأول مرة « البكرى أفندى » ، وهو رجل ربعة أقرب إلى الامتلاء ، يلبس بدلة زرقاء وطربوشًا أحمر . أول مرة يرى « أفندى » بحق . بعد أن جلسوا فى الفصل كل ثلاثة فى مقعد واحد ، قال لهم البكرى أفندى مدرس الفصل :

* سوف أذهب إلى الناظر .. وأترك الطربوش هنا ، ليخبرنى باسم من يتكلم فى أثناء غيابى .!!

سكت الأطفال جميعًا ، وصدَّقوا ما قال ، ووضعوا أيديهم متشابكة على صدورهم ، و لم يجرؤ أىُّ واحد ، حتى أن يخرج كسرة خبز من كيسه القماشى . أحس طه رهبةً إزاء المدرس حين عاد متجهمًا ، و كتب على

السبورة بخط جميل « وزن — أخذ — كتب » . ظل يقرأ وهم يرددون وراءه ، وكل مرة يطلب منهم أن يعلُوَ الصوت أكثر . عاد إلى البيت فرحًا وقد حفظ ما درس ، وارتسمتْ فى ذهنه الكلماتُ ، لدرجة أنه يستطيع أن يكتبها بإصبعه فى التراب على الأرض ، لأنه كان لا يملك كراسة وقلمًا .

حين اقترب من البيت سمع صوت أبيه عاليًا ، مع أنه نادرًا ما يثور ، وإنْ ثار فنادرًا ما يعلُو له صوتٌ :

* أين النقود يا أم محمد ؟

* أية نقود يا رجل ؟!

* أعطيتك ثلاثة جنيهات منذ يومين .

* لا أذكر .

* كنتِ ساعتها أمام الفرن ...

اجتمع بعض الإخوة القريبين من البيت على صوت الأب يصيح :

* أنت امرأة مهملة .. هذه الجنيهات الثلاثةُ هى كل ما معنا .. ماذا سنفعل فى الأيام السوداء القادمة .؟!

حين سمع حامد أخوه الحوار ، تذكّر شيئًا .. تذكر أنه رأى ورقًا نقديًا أخضر ، عليه صورة فرعون فى دولاب الخبز . لا شك أن أمه وضعت النقود هناك ونسيت . اختفى لحظة ، ثم عاد بالورقات الثلاث . قبل أن ينطق بكلمة انتزعها الأب من يده ، وأردف مواصلاً صياحه : أرأيت .. كيف أنك امرأة مهملة ..؟

أجابتْ وهى مستمرة فى غسل الملابس :

* لقد هدَّ حيلى شغل البيت ، كل أولادك ذكور ، ويجب علىَّ أن أخدمك وأخدمهم وأخدم أمك .!!

خرج الرجل متوجهًا نحو الحقل ، وبقى طه ينظر إلى أمه المجهدة ، وجدته العجوز التى ترقد فوق سطح الفرن ، وأخته الصغيرة زينب التى تلعب بعروسة من الخشب — قريبًا من جدتها .

***

حين وعى الدنيا .. كان أول عالم يدركه ، هو عالم الأسرة . الأب يلقبه الناس « الشيخ عمران » ، وهو يلبس العمامة بالفعل ، لكنه ليس شيخًا أزهريًا يُعلّم فى المدارس ، كما أنه ليس صاحب « كتَّاب » ، وليس « فقيهًا » يقرأ القرآن فى المآتم والمناسبات .. لكنه فلاح يملك ستة أفدنة ، ويعمل بالزراعة والرىّ والحصاد ، إذن لماذا يلقبونه بـ « الشيخ » ؟! عرف من خلال جلسات والده — وربما سمعها أكثر من مرة .. وبأكثر من رواية — أن جده « أحمد »[1] مات ، وترك ثلاثة أبناء ذكور : الأول « غازى » ، وكان شابًا يحب الحياة حبًا جمًا . من النوادر التى رواها الأب عنه ، أنه جلس ذات مرة فى دكان بقالة فى القرية ، وأكل بثمن ربع

---

(١) الاسم الكامل للأب هو : عمران أحمد عبد الرحمن وادى ، وكلمة وادى : نسبة إلى .. وادى نجد بالحجاز ، أو نسبة إلى .. وادى النيل ، وتوجد مجموعة أسر كثيرة ومتفرقة تسمّى بهذا الاسم (وادى) فى : مصر — السودان — الأردن — الكويت — قطاع غزة — السعودية فى منطقة الأحساء ومدينة الرياض — تونس .

فدان حلوى .. « ملبن » .! كان وسيمًا يحب النساء الجميلات والملابس الأنيقة والطعام الدسم وتدخين السجائر .. وما عليه بعد هذا ، إنْ خربت الدنيا أوْ لا .؟! الولدان الآخران هما : « عمران » و « أحمد » — الذى سُمى باسم والده ، لأنه ولد بُعَيْدِ وفاته — كانا أصغر من غازى بحوالى عشر سنوات ، كما كانا متقاربيْن فى السن إلى حد ما . وقد ذهبا إلى طنطا ليدرسا العلم فى المعهد الأزهرى ، الملحق بمسجد السيد البدوى رضى الله عنه . لكنهما بعد سنتيْن من الدراسة اكتشفا أن الأخ الأكبر — غازى — باع نصف الأرض ، وصرف ثمنها على ملذاته وأهوائه ، فآثرا العودة إلى القرية قبل أن تضيع بقية الأرض .!

هكذا ترك الوالدُ الأزهر ، لكنه ظل حافظًا للقرآن ، يكمل « عديته » كل ثلاثة أو أربعة أيام .. إلى أن أصابه مرضُ الوفاة . كما كان يردد بعض أوراد الصوفية .. وأدعية دلائل الخيرات ، هذا بينه وبين نفسه ، أما مع الناس فقد كان يسرد كثيرًا من قصص القرآن الكريم .. وبعض سير فرسان العرب : أمثال عنترة العبسى ، وأبى زيد الهلالى ، وسيف بن ذى يزن ، والإمام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه .. غير أن أهم سيرة سمعها من والده .. أكثر من مرة .. وبأكثر من طريقة هى « سيرة الرسول » ﷺ ، وكان الوالد — رحمه الله — يربط بين أحداث السيرة وبين آيات من القرآن الكريم ، وأقوال من الحديث النبوى الشريف ، وبعض أشعار المهاجرين والأنصار .

كان إعجابه بأبيه يزداد حين يراه دائمًا فى الصف الأول من المسجد ،

مواظبًا على أداء الصلاة جماعة ، لا سيما صلاة العشاء والفجر . وقد اكتشف أن أباه وهو فى المسجد يكاد لا يعرفه ، بل يكاد لا يعرف أحدًا ، لقد جاء خاشعًا إلى بيت الله .. ولم يعد يفكر فى شىء سوى الصلاة والعبادة ..!!

***

كفر بدواى القديم(١) ـــ القرية التى وُلد فيها ، تقع على بُعد اثنى عشر كيلومترًا من الشمال الشرقى لمدينة المنصورة .. فى الطريق وأنت متوجه إلى دمياط ، وهى قرية مثل معظم قُرى شمال مصر ، الذى يُسمّى « الوجه البحرى » و .. « الدلتا » . كان أهل القرية فى ذلك الوقت (١٩٤٤) ، يعتمدون على الزراعة وما يتصل بها ، وقلة قليلة جدًا من السكان يعملون بالتجارة والوظائف المدنية الصغيرة . تتكوّن القريةُ من دور مبنية بالطوب الأخضر ، وكل دار ـــ فى الغالب ـــ عبارة عن دور واحد . قليلة هى الدور التى تُبنى بالطوب الأحمر ، إنها دور بعض متوسطى المُلاَّك من الفلاحين وتجار القطن وشيخ البلد .

هناك عدة أماكنُ تعدُّ من معالم القرية الأساسية ، ولا يزال بعضُها قائمًا حتى اليوم ، مثل : المسجد الذى يجمع الناس فى الصلاة ، ويأوى بعض أبناء السبيل ورجال الطرق الصوفية الوافدين لأيام معدودة ، والمدرسة « الإلزامية » (الابتدائية) الواقعة على شط ترعة

---

(١) كفر : القرية الصغيرة ـــ بدواى : نسبة إلى بدوى (من البدو) ، لكن يبدو أنه حدث قدر من التحريف فى النطق ، حيث تغيرت من (بَدوى) إلى بدواى .

« الشرقاوية » ، وهى الصرح الذى تعلم فيه كل أبناء القرية النابهين والفاشلين مبادئ القراءة والكتابة ، وماكينة الطحين ، التى تطحن القمح والذرة ، وتبيِّض الأرز وتكسر الشعير . ثمة مكان لا يزال يحس نحوه برهبة إلى اليوم ، حتى لو تذكره ، وهو بعيد عن القرية .. إنه « الجبانة » ، حيث القبور ، التى تستقبل كل من جاء أجله ، ومازالت تنتظر . بين تلك القبور رُفات أهله .. وهم أعزاء كثيرًا على نفسه . لا يعرف هل سيقدر له أن يدفن بجوارهم .. كما لا يدرى بأىّ أرض سوف تأتيه الوفاة .؟!

وسط الحقول — بعيدًا عن زمام القرية — هناك بيتان .. أو بالأحرى قصران ، الأول قصر « الست أنجة » .. وهى أرملة رجل غنى ، ترك لها القصر والحديقة وعشرات الأفدنة التى تزرع فاكهة وبعض زراعات تقليدية . من هذه الحديقة شم رائحة الورد البلدى والفل أول مرة . القصر الثانى « سراية الباشا » — ومازال هذا اسمه حتى اليوم — وصاحبه « عبد الجليل باشا أبو سمرة » ، وهو رجل إقطاعى ، كان له دور بارز فى حزب « الأحرار الدستوريين » وشغل ذات مرة منصب وزير شئون اجتماعية ، وقد ورد ذكره فى « مذكرات فى السياسة المصرية » لمحمد حسين هيكل ، وله فى القرية حكايات مختلفة ، حول معارك الانتخابات ولعب « القمار » مع الملك فاروق .

أخيرًا .. هناك « ترعة الشرقاوية » ، وطريق الترعة ، وأما الترعة — التى كان يشرب منها كل من فى القرية من البشر والدواب — فقد تعلم فيها السباحة ، وأصيب — وهو صغير — بالبلهارسيا ، وامتزج بوله

بالدم ، فذهب إلى المستشفى وعولج . بعدها حرم على نفسه أن يسبح فى مياه الترعة .. وهى عزيزة عليه .! أما طريق الترعة ، وهو شبه مرصوف تمر عليه السيارات العامة والخاصة — وإن كان معظم أهل القرية يفضلون ركوب « قطار الدلتا » ، الذى كانت تملكه شركة فرنسية ، وهو أرخص وسيلة نقل فى ذلك التاريخ — فتقلُّ عليه — إلى حدٍ ما — حركةُ السير بعد العاشرة مساء . كانت معظمُ الأماكن التقليدية للسهر فى القرية مثل دكاكين البقالين وبائعى الفواكه والخُضر والمقاهى تُغلق أبوابها .. (باستثناء قهوة المعلم مراد العشماوى ، التى كان يمارَسُ فيها لعبُ القمار وشربُ الحشيش) . بعد ذلك الوقت كان يذهب — أحيانًا — مع بعض إخوته وأصدقائهم ، ويسهرون هناك — على طريق الترعة — ساعات ، ونظرًا لأنه صغير بالنسبة لإخوته وأصدقائهم ، فقد كان يتابع أحاديثهم أحيانًا .. ويعجز أحيانًا أخرى عن فهم ما يقولون أو يتهامسون به ، لذلك كان يغيب عنهم متأملاً القمر والنجوم والسماء وصمتَ الكون ، وقد انعكستْ صورةُ ذلك كله على صفحة مياه الترعة ، أو ينظر إلى المزارع اللامتناهية الخضرة والأشكال ، أو يحلم بقطعة سكر .. أو أن يذهب — بسبب أو بغير سبب إلى ماكينة الطحين ، ليرى — من بعيد — بعض بنات القرية ، أو أن يذهب إلى الحقل ، ليأخذ وردة من حديقة « الست أنجة » المجاورة لحقلهم . طريق الترعة كان هو المدرسة الأولى التى تعلم فيها التأمل .. وعرف أحلام اليقظة .. ولحظات السكوت أكثر من الكلام . وما زالت تلك بعض عاداته حتى اليوم .!! أيام وأحلام ..

يا طريق الترعة .. يا طريق الأمل .!!

***

لم أحدثكم عن المستشفى ، لأنها لم تكن موجودة ، وإنما كان حلاّق الصحة .. والدّاية ، يقومان بالتطبيب وعمليات الولادة والختان ووصف الدواء وإجراء بعض العمليات للبشر .. وأحيانًا للحيوانات — إنْ دعت الضرورة .

ولم أحدثكم أيضًا عن مضيفة العمدة ، وحجرة التليفـون الحكومى — مقرّ « السلاحليك » ، وهذا السلاّح عبارة عن بنادق عتيقة ، يبدو أنها من عهد الزعيم أحمد عرابى .. ولا أقول الخديوى إسماعيل ، لأن أبناء القرية يعرفون « عرابى » أكثر ، ويحبونه حبًا عظيمًا .

ولم أحدثكم عن العُمدة .. وكل هذه الأشياء ، لأنه لم يتعامل معها ، وقد اكتشف صاحبنا — فيما بعد — أنه لا يحب التعامل مع أية جهة تمثل السلطة ، حتى لو كان ذلك فى إطار العمل .

تلك حدودُ المكان الذى نشأ فيه طه ، أما الزمانُ فقد كان زمانًا أسود حالكًا : ظلال الحرب العالمية الثانية قائمة ، والفقر قوى الأنياب ، والأحزاب تعبثُ بكل شيء من أجل المصالح والأهواء الخاصة ، والملك فاورق مشغول بلعب القمار ومعاكسة الحريم والجرى وراءَ الملذّاتْ .. كم غضب عليه وتمنّى لو قتله ، حين سرتْ إشاعة أطلقها الحسينى النجار كاتب التليفون الحكومى — (وكان رجلاً نحيلاً ، لا يزيد طوله عن متر

وربع المتر ، لكنه مصدر كثير من المعلومات والإشاعات الغريبة — لأنه يقرأ بعض الجرائد التى ترد للعمدة) — وقد أشاع أنه — أى فاروق — حضر حفلاً غنائيًا لأم كلثوم وأعجب بها ، وصمم على أن ينال منها ، لكنها رفضتْ وقاومتْ ، وردته خائبًا . يومها كره كل الملوكِ ، وازداد إعجابه بست الكل ، « أم كلثوم » العظيمة . وربما كان هذا أحد أسباب إعجابه المبكّر بها ..!!

***

لا يذكر كيف مضت ليالى ذلك الزمانُ البعيد ..!! لكنها بلا شك كانت ليالى قاسية ، وقبل الدخول فى تفاصيل أحداث تلك الليالى ، نذكر حادثة طريفة ، تتعلق بزواج والده من الأم . « الست الأميرة » ، كانت البنت البكرية لرجل إقطاعى من قرية مجاورة يُدعى أبو الفتوح ، وقد ورث ثروة طائلة عن والده وأجداده ، كوّنوها بالحق وبالقوة . مات أبوه وترك لـ « أبو الفتوح » ثروة عريضة ، فأخذ يبعثرها بالشمال وباليمين . وتصادف أنه كان صديقًا للعمّ غازى ، حيث كان الرجلان — غازى وأبو الفتوح — فرسيْن لعربة واحدة ، هى عربة اللذة الطائشة .. والاستمتاع العبثى بالحياة — ولا سيما مرافقة « العوالم » . كانت له عالمة مدللة اسمها وداد .. ويُروى — على سبيل المثال — أنه كان يُعطيها السيجارة ، ثم يشعل عود كبريت فى ورقة فئة خمسة جنيهات ، ومن ورقة العملة المحترقة — التى كانت تكفى لإطعام عشر أسر فى ذلك الزمان — يشعل الجدُّ أبو الفتوح سيجارة وداد .!! ولكى يقوّى غازى — الذى باع كل أرضه — علاقته

بالرجل الغنى أبو الفتوح — طلب من أخيه عمران أن يتزوج ابنته ، التى سوف ترث أموالاً وأراضى كثيرة ، وتأكيدًا لحُسن النوايا .. دفع المهر — مقدمًا — عشرين جنيهًا لوالدها . عندما جاء موعد الزواج .. كان أبو الفتوح قد خسر كل ما يملك ، فقد رهن أرضه لخواجه أجنبى ، واستدان كثيرًا من أجل وداد .. ومن أجل شهوات الشباب ونزواته . وما تزال هناك قرب بدواى قرية صغيرة تسمى « عزبة أبو الفتوح » تشهد على طيْش الرجل ، وربما على استهتار كثير من أهل ذلك الزمان . و لم يكن أمام عمران لكى يتزوج « الأميرة » إلا أنْ يدفع المهر مرة ثانية ... وقد كان ؛ لذلك فإن الأم حين كانت تشكو من كثرة العمل وحدها — فى البيت ، لأن كل أبنائها ذكور — يقول لها الوالد فى شيء من الدعابة التى لا تخلو من شجن : لقد دفعتُ مهرك مرتيْن ، ويجب أن تعملى عمل امرأتين ..!!

مرت الليالى .. وانقضت الأعوام ، لكنه لا يزال يسأل نفسه : تُرى هل أساء القدرُ إلى أبى أم أحسنَ ، حين قدر له الزواج من تلك المرأة الفقيرة ، التى وُلدت فى أحضان الثراء وسمّاها أهلها « الأميرة » .؟! الشيء الذى يدركه جيدًا أن أباه كان لا يجيد كسب المال .. ولا استثماره . وقد أنعم الله عليه — أحيانا — ببعض الأموال ، حين يرتفع ثمن القطن فجأة ، فيشارك أحد التجار فى تجارة .. وبعد سنة أو سنتيْن على الأكثر يخسرُ كل ما معه .. ويعود للفقر من جديد . كانت حافظة الأب دائمًا شبه خالية ، فقد كان يودع كل ما يملك مع الأم ، التى كانت مدبّرةً

حكيمة ، حريصة أشد الحرص ، ونادرًا ما كانت تفكُّ جنيهًا صحيحًا . إنها تبيع البيض وبعض اللبن .. وربّما بعض الحبوب . وقد تقايض على هذا أو ذاك ، حين تشترى الخضروات والفاكهة . أما المال فلم تكن تسمح بإنفاقه إلا فى الضرورات : لوازم زراعة الأرض أو تعليم الأبناء . فى الحقيقة كانت هذه الأم « أميّة » ، ولم تخرج من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها ، ولم تعرف فى الدنيا شيئًا إلا حدود بيتها وضيوف زوجها وأصدقاء أبنائها ، غير أنها كانت تملك فطرة حساسة ، وروحًا شفافة ، وبديهة حاضرة ، ومقدرة على حُسن التصرف لا تُوصف . أكثر من هذا .. أنجبتْ عشرة من الأبناء والبنات وربّتهم وحدها . كانت تطبخ الطعامَ على « الكانون » بالحطب ، وتخبز العيش فى الفرن بقشّ الأرز وحطب القطن والذرة ، وتغسل الملابس فى الطشت .. كل يومَيْن على الأكثر ، وتحلب الجاموسة ، وأحيانًا تضع لها وللحمار بعض العلف من التبن والدريس ، وتربى الدجاج والبط والأوز والأرانب ، لذا لم يكونوا يشترون اللحم إلا فى الأعياد والمناسبات الدينية . لا شك أن البيت بغير امرأة صالحة حفرةٌ منْ حُفر الجحيم .!!

أمر آخر يلحُّ على ذهنه ـــ وهو يتذكر طفولته السعيدة أو التعيسة ... لا يدرى ـــ هو : هل يستطيع ابنُ مهْما كان بارًا أنْ يرسمُ صورةً صادقة لوالديْه .؟ جوابه فى هذا أيضًا أنه لا يظن ذلك أمرًا مقدورًا عليه . لكن المقدور عليه الآن تذكر أن أباه كان نحيل الجسم ، متوسط القامة ، قمحى البشرة . عيناه سوداوان ، أنفه أميل إلى الامتلاء إذا ما قيس بحجم وجهه

الضامر . يلبس عمامة حتى وهو ذاهب إلى الحقل ، ويضع فى قدميه بلغة صفراء اللون . . أما الحذاء لم يكن أهل ذلك الزمان فى القرية يتعاملون معه إلا فى المناسبات الجليلة . الأمر الذى كان يميّز أباه ـــ رغم تقواه وصلاته وصيامه ومداومته على تلاوة القرآن ـــ هو خفة الروح ، وقدر من الميل إلى الدعابة البريئة ، أثناء جلسات السمر فى « المندرة » . كما أنه محب للناس أجمعين ، وجزء كبير من عمله اليومى يقضيه فى مصالحة المتخاصمين ، أو إعادة زوجة غاضبة إلى بيت زوجها . شيء آخر يميز الأب وربما ورثه صاحبنا ، هو الحياء الشديد ، ولا سيما فى المعاملات المادية . وقد ضاعتْ على الوالد أموال كثيرة ، لأنه كان يستحى أن يطلبها من المدينين ، وكان هذا يُسببُ بعض خلافات بين الأب والأم ، فيرد عليها بهدوء المؤمن :

* « لا يكلف اللهُ نفسًا إلا وسعها » .!!

***

أسند الرأسَ على يده اليسرى ، وهو يحاول أن يتذكر تلك المرحلةَ البعيدة من طفولته . أوه .. يا طه .. ما سُمى الإنسانُ إنسانا إلا لنسيانه .. وما سُمى القلب قلبا إلا لأنه يتقلّبُ . لكن كيف ينسى إنسان صورة أمه .. تلك المرأة الحنون ، التى غرستْ فى قلبه بذورَ الأمل ، ووقفت صامدةً بجواره ، مؤمنة بقدراته ، حين تهبُّ رياح المصائب .؟! كانت امرأة متوسطة القامة أميل إلى الامتلاء . وجهها أبيض مشرب بنضرة وحيوية . ذات أنف مدبب إلى حدّ ما ، وفم صغير مبتسم . قوية البنية

صحيحة الجسم .. لم تذهب طوال عمرها إلى طبيب . لم يرها يومًا تلبس الذهب سوى حلق مستدير ، ظل فى أذنيْها الرقيقتين إلى أن ماتت . كل النساء يحببن الذهبَ إلا هذه المرأة . حين فتح الله عليه فى أخريات حياتها طلبت منه أن يشترى لها عقدًا ذهبيًا ، وقُبيل الوفاة ردته ليستبقيه عنده . أشياء كثيرة كانت تحيِّرة حين تتأزم بعض الأمور ، غير أن الأم كانت تفعلها ببساطة وتلقائية ، ويكون ما تفعله هو الحكمة السديدة ، والرأى الصواب ..!

شىء آخر أخذه منها ولا يزال حافظًا له حتى اليوم ، وهو تلك الذخيرة الذهبية من الأمثال الشعبية ، التى كانت تقولها فى كل مناسبة ، حتى ظن أنه يندر أن ترد مناسبة ، لا تعرف أمه مثلاً يلائمها . كانت لأمه جارة عجيبة الشأن تسمى « أم ماضى » . هذه المرأة كانت إذا سمعتْ خبرًا صحيحًا أو كاذبًا ، لا يهدأ لها بال إلا إذا نقلتْهُ إلى كل الجارات خاصة أمه ، التى كانت غريبة عن القرية ، وتعاملها مع نسائها محدود إلى حدٍ ما . ذات يوم نهرها الأب لكثرة ما تستمع إلى أم ماضى ، فردتْ عليه مبتسمة :

* ما شأنك بعالم الحريم يا شيخ .؟!

* هذه المرأة لا عقل لها يا أم محمد .

فقالت وهى تُغلق باب الدار :

* « واحد شايل دقنه ، وأنت زعلان ليه !؟ » .

***

الدار ... دارُ العائلة ، يجب أن أحدثكم عنها ، لأنى لاحظتُ أن بعض الروائيين لا يهتمون كثيرًا بوصف المكان ، ونسوْا أن الإنسان ابن المكان ، الذى فيه وُلد . فالناس جميعًا أبناءُ آدم وحواء ، لكنهم يختلفون فى كل شىء .. كل شىء بسبب المكان . المكان يجعل المرءَ : أبيض أو أسود ، متقدمًا أو متخلفًا ، محافظًا أو منفلتا ، متحضرًا أو غير متحضر ، متدينًا أو غير متدين ، بل ربما لا دين له . وهل الوطنُ فى النهاية إلا مكان تشدُّنا إليه ذكريات خاصة .؟!

كان نصيبُ الوالد من دار أبيه ثلاثَ حجرات و « زريبة » ، ثم صالة ودورة مياه مشاركةً بين الوالد والعمّ أحمد . الحجرة الأولى .. حجرة المعيشة أو الجلوس ، وكانت تسمى « المندرة » ، فيها ثلاث كنبات خشبية ، ودولاب له مرآة مشروخة . هذا الدولابُ كان « تاريخيًا » ، حيث يستخدم فى حفظ ملابس الأعياد والسفر والمناسبات لا سيما للوالد والوالدة ، وفى الأدراج السفلى للدولاب بقايا طقم صينى وبعض ملاعق فضية ، وقمع سُكّر تُخفيه الأم فى جلباب قديم للطوارىء والأزمات . بالإضافة إلى كل هذا كانت لذلك الدولاب وظيفة أخطر .. فقد كتب الوالد — على ظهر بابه — بقلم كوبيا واضح تواريخ ميلاد أولاده الذكور فقط . لماذا لم يكتب أسماء الإناث أيضًا .. هل كان يتوقع لهن الوفاة .. أم أنه لم يكن مطلوبًا لهن معرفة تاريخ الميلاد ، فلن يدخلن المدارس ، ولن يذهبن إلى « القرعة » (التجنيد) .؟!

الحجرة التالية ، كانت لنوم الوالديْن .. حيث يوجد سرير نحاسى

مطلّى باللون الأسود.. بعمود مقاس بوصة ونصف . وفيها أيضًا دولابان : أحدهما صغير يوضع فيه الخبز ، والآخر كبير يتكون من نصفيْن : النصف الأعلى وهو الأكبر ، تُخزْن فيه مواد التموين والطبخ ، وبعض أطباق من الصاج الأبيض الملون وبعض الملاعق والسمن البلدى . (لم يكن السمن النباتى قد عرفته القرية فى ذلك الوقت) .

أما النصف الأسفل .. فكان يُستخدم فى حفْظ اللبن ومشتقّاته .

فى تلك الحجرة الثانية ولد طه يوم الإثنين .. أول أكتوبر سنة ١٩٣٧ م . ورغم أن هذه الحجرة كانت مسقط رأسه ، إلا أن الحجرة الأثيرة عنده هى الثالثة ــ حجرة الفرن ، الذى يُغطّى نصف مساحة الحجرة تقريبًا ، ويمثل سريرًا مبنيًا بالطوب الأخضر ، مساحته متران فى خمسة أمتار تقريبًا . هنا ينام معظم الأولاد مع الجدة « أم يوسف » ، ويأكلون ويشربون ويلعبون ويسمعون بعضَ الحكايات الشعبية والخرافية . ومن أطرف ما يذكره من نوادر ، أنها كانت تلحُّ فى الذهاب إلى دورة المياه قبل النوم مباشرة ، لأن « محل الأدب » فى الليل يصبح مأوى « العفاريت » ، وبما أن جنس العفاريت نجس ، فهم يسكنون فى هذه الأماكن ويظهرون فى الليل ، ولكى يأمن الإنسان شرهم ، يجب أن يقول « أعوذ بك من الخُبْثِ والخبائث » ، ولا يقول « أعوذ بالله » لأن اسم الله الكريم لا ينبغى أن يذكر إلا فى مكان طاهر . (بالطبع الجدة كانت تهدف إلى دور تهذيبى فى التربية .. حتى لا يفعلها واحدٌ منهم فى الليل ، وهو نائم بالقرب منها ..!!) .

ومع أنه غير مُقتنع برؤية الحكيم فى « عودة الروح » الخاصة بعلاقة

الفلاح بحيواناته[1] ، إلا أنه يذكر أن « الزريبة » كانت مستقرًا للجاموسة والحمار ، وبها بعض خزانات صغيرة مبنية بالطين ، لمبيت الدجاج والبط والأوز والأرانب . وفى النهار تكون هذه الطيور حُرّةً تتجوّل فى الدار وخارجها .. وتعود سالمة . (لم يكن لصوص الطيور قد عُرفوا ، صحيح هناك لصوص للمواشى ، لكنهم كانوا غرباء عن القرية .)

***

بقى شىء أخير فى معزوفة الافتتاح ، وسيمفونية المقدمة ، وهو أن نعرف أولاد الشيخ عمران ، وهم بحسب الترتيب :

محمد : كان شابًا موهوبًا ، يُجيد ــ بصوت عذب ــ قراءة القرآن وأغانى أم كلثوم وأداء المواويل ، كما يجيد الرسم وكتابة الخط الجميل . وقد حفظ القرآن دون التاسعة ، وهو جميل الصورة أنيق الملبس . لم يكن يملك سوى جلباب واحد أبيض .. يسميه ثوب « التشريفة » ، يغسله كل يوم ليخرج به ــ عند العصر ــ لزيارة أصدقائه أو المشى فى طرقات القرية . ولم يكن يذهب إلى الحقل ، لأنه « البكريُّ » المدلل ، وهو أيضًا تلميذ فى نهاية المرحلة الثانوية .

(١) يرى توفيق الحكيم أن الفلاحين عندما ينامون مع البهائم فى حجرة واحدة .. فإن هذا يعكس سرًا من أسرار عظمة المصريين ، الذين يؤمنون ــ بقلوبهم ــ بوحدة الكون ، لأن قوة مصر ــ فيما يرى ــ تكمن فى قوة القلب الذى لا قاع له ..!!
رواية « عودة الروح » جـ٢ الفصل السادس ص ٤٠ وما بعدها .

أحمد : لم يستطع أن يحفظ القرآن فى المدة القياسية ، التى حفظه فيها محمد، وفشل ثلاث مرات فى دخول مدرسة المُعلّمين ، لكنه ولد عملى ، يحب العمل والتصدى للمواقف الصعبة ، وهو ذراع أبيه اليمنى بالنسبة لأعمال الزراعة . وهكذا فإنه فشل فى التعليم ، لكنه نجح بجدارة فى الفلاحة والزراعة .. ومجال العمل الوظيفى فيما بعد .

حامد : كان منذ صغره شديد التديّن ، حفظ القرآن فى فترة وجيزة مثل محمد ، لكن عناية الأب بأحمد جنتْ عليه ، أو كما كان يقول هو — أى حامد — « ضاع فى الرجلين » .. ولم يكن أمامه سوى مدرسة الحقل ، يُبدى فيها مهارته ويصرف نشاطه ، ويرضى بقدره . وظل شديد الطيبة .. صغيرًا .. وكبيرًا ، لا يُسىء ، حتى إلى من أساءوا إليه ، لذلك يعرف دائمًا باسم « الشيخ حامد » .

فاطمة وحكمت : طفلتان ولدتا بعد حامد ، لكنهما ماتتا فى المهد .

محمود : ذكى حساس ، سريع الحافظة ، طيب القلب ، يحب قراءة الروايات لا سيما المترجمة والبوليسية ، وقد نقل عدوى هذه الهواية إلى طه . وقد دخل بعد ذلك مدرسة المعلمين ، وكان مدرسًا ناجحًا ، ومع ذلك ظل طوال عمره الوظيفى يرفض الدروس الخصوصية ، ويؤثر الوحدة والراحة .. والبعد عن المشاكل .

مصطفى : خفيف الظل ، يحب الحقل والعمل ويجيد النكتة والسخرية وتقليد كل ما يسمع . أراد أبوه أن يدخله الأزهر .. لكنه خذل أباه خذلانا شديدًا ، فلم يستطع أن يحفظ أكثر من جزء « عمَّ » . ونظرًا

لأن « العريف » كان قاسيًا معه ، هرب من البيت والكتّاب مدة يومين ، ولم يرجع إلا بعد أن أخذ على والده — أمام الساعين فى الصلح والعودة — عهدًا على ألا يّعيده إلى الكتّاب وإلى كرباج « العريف » . فى الحقل وجد سعادته وتفتحت مواهبه العملية . عاش طوال عمره فلاحًـا بسيطًا ، يحب النكتة ، ويجيد السخرية حتى على أقرب الأقربين .

طه : الشخصية المحورية فى هذه السيرة ، وهو أصغر إخوته الذكور . كان وهو صبى هادئ الحركة ، لا يحب اللعب واللهو ، ولا يدخل فى خصومة ، قليل الكلام ، يميل إلى قدر من الصمت ، يجعل صاحبه أقربَ إلى الحزن والتأمل . وقد ورث عن والده كثيرًا من ملامح الوجه .. فهو متوسط القامة قمحي اللون أسود الشعر والعينين . لكن هدوءه وبساطته يجعلان شكله يبدو أصغر من سنه ، كما أن تمهله فى اتخاذ القرار وإصدار الرأى ، وصمته الأقرب إلى الحذر والشك والخوف ، يجعل عقله يبدو أكبر من عمره . وهو فوق كل ذلك ذو قلب عطوف على البشر ، عاشق للطبيعة ، محب للحياة ......!!

فريال : وليدةَ ماتتْ فى المهد ، وقد ولدت فى السنة التى ولد للملك فاروق فيها بنت بهذا الاسم .!

السيدة : آخر العنقود ، وقد سمّاها الوالد « السيدة زينب » تيمنا باسم حفيدة الرسول ، حتى تعيش ، لأن الأم — ربما أكثر من الأب — اشتاقت كثيرًا إلى ابنة . لكن عامل التليفون — الذى كان يُقيد المواليد — رفض التسمية المزدوجة ، فإما السيدة أو زينب .. فكُتبتْ فى دفتر المواليد

« السيدة » ونُودى عليها فى البيت باسم « زينب » .. وهى الابنة الوحيدة ، التى بقيت لأم ، كانتْ تحبّها حبًا شديدًا حتى آخر أيامها .

حين يتذكر هذا العدد الكبير من الإخوة يدعو لأبويه بالرحمة ، لا سيما الأم التى أنجبت عشرة أبناء ، كانت ترضعهم رضاعة طبيعية ، وترعاهم دونْ أن تكل أو تمل . كانت مثل النحلة ، تعمل كل يوم من الفجر حتى بعد العشاء . لم تكن هذه الأسرة سوى شاهد على عظمة ذلك الزمان .. وأصالة أهله .. وكبرياء ناسه .. رغم كل ما كانوا يعانون منه ..!!

إن عائلة الشيخ عمران — مثل كل عائلات مصر — ورثتْ عن مصر نفسها كثيرًا من الصفات والطبائع . مصر « أم الدنيا » ، لأنها أول بلد خط الصفحات الأولى الخالدة فى سِفْر حضارة البشرية . وهى ذات أرض خصبة ، وصحراء مستأنسة ، ونهر دائم العطاء ، وطبيعة ساحرة ، ومناخ معتدل ، وموقع جغرافى متميّز . كل ذلك أكسبَ الشخصيةَ المصرية سماتٍ خاصةً ، فالمصرى ذو شخصية طيبة مؤمنة متدينة ، كما أنه مثَقّف واسع الاطلاع ، مشغول بهموم بلده وعالمه . يحب العمل ويَسْعى إليه ، وهو حين يدخل فى منافسة يظهر جدارته — فى صمت ودأب . والمصريون — خارج بلدهم — يظهرون تفوقًا منقطعَ النظير فى أىّ مجال . المصرى — رغم كثيرة ما عانى طوال عصور تاريخ بلده ، ولا يزال — يبدو مسالمًا متسامحًا ، لكنه حين يغضب ، فإن غضبه يكون مثل البركان الثائر أو الفيضان الزاخر . وهو فى الحرب مقاتلٌ عنيدٌ ، لا يقبل

الهزيمة .. أما فى السلم فإنه ذو قلب مفتوح للبشر أجمعين .!!

***

بقى شىء هام بالنسبة لبنية القرية الاجتماعية .. وهو أنها تتكون من عدة أسرٍ كبيرة ، تكاد تتداخل فيما بينها بسبب علاقات المُصاهرة أو النسب ، ومن أهم الأسر : عائلة « وادى » التى ينتمى لها ، وتسمى أحيانًا « الواديّة » ، وتنتمى إليها فروع شتى مثل أسرة الإمام وأباظة والخن والسلخ وأبو المراسى وأبو عامر . ثم يلى ذلك فى الكثرة عائلات الدسوق والشافعى وأباظة والخنّ والسلخ وأبو عامر وأبو عيد والفار والعدوى وأبو عمر وأبو السيد وعويضة ، وغير ذلك من الأسر التى تتراوح ثروتها الزراعية بنسب متقاربة فى إطار الملكيات الصغيرة . و لم تكن ثمة عائلة إقطاعية فى القرية سوى عائلة « أبو سمرة » ، التى توارثَ أبناؤها منصب « العُمدة » فى القرية حتى اليوم . وهناك بالطبع أسر أو فروع من الأسر فقيرة أو معدمة ، تعمل فى الغالب « شغيلة » بالأجر عند أصحاب الأرض فى القرية وفى بعض القرى المجاورة أو البعيدة .. فهم « عمال تراحيل » ، لم تحل قوانين الإصلاح الزراعى أو غيرها مشكلاتهم حتى اليوم ، لأن المدافعين الحقيقيين عن حقوق الفقراء فى مصر لم يظهروا بعد .. أو على الأقل ليست فى أيديهم سلطة ، ينفذون بها آراءهم الثورية فى المساواة والعدالة الاجتماعية .!

الشىء الذى توقف الصبى عنده متأملاً فى صغره .. هو أن هناك بعض أسر محدودة العدد ، يحترف كل أبنائها مهنة واحدة ، وهذا ما أكد

ظنونه فى أنها — فى الغالب — أسر وافدة ، جاءت من قرى قريبة أو بعيدة ، وعاشتْ معزولة — إلى حد ما — فى إطار الحرف التى جاءت بها .. وشيئًا فشيئًا حاولت أن تلتئم مع نسيج القرية الاجتماعى .

فمثلاً عائلة « شعير » تتكون من أربعة إخوة كلهم يعملون بالحلاقة ، وعائلة « الكِنانى » يمثلها ثلاثة إخوة يعملون جميعًا بالنجارة .. سواء نجارة الزراعة أو المساكن . وعائلة « عِمارة » كانت تملك إبلاً وتؤجرها لنقل المحاصيل وغيرها ، وتشاركها فى هذه المهنة ذاتها عائلة « أم سلمان » . ويبدو أن تلك الأسر التى عملت فى تربية الجمال وتأجيرها ، قد وفدت من قرى محافظة الشرقية . أما عائلة « أبو عطيية » ففيها رجلان يعملان مع أبنائهم فى بيع الخضروات والفواكه . وعائلة « أبو العينين » كانت متخصصة فى صناعة السلال من الغاب ، والقفف والمقاطف من جريد النخل ، وفرع آخر من هذه الأسرة ظل يعمل برعى « الغنم والماعز » فترة طويلة . كما عملت أسرة « الكاتب » فى تذرية القمح والأرز والشعير بالمذراة .. أو عن طريق ماكينات تُدار باليد فى مرحلة متأخرة نسبيًا . ومازال بعض أبناء هذه العائلات يمارسون حرف آبائهم حتى اليوم .

كانت هذه الأسر الوافدة — فى بداية الأمر — تمثل قاع البناء الاجتماعى للقرية ، لكنها تغيرت من خلال « الحراك الاجتماعى » ، شيئًا فشيئًا ذابت فى عالم القرية ، وتداخلت مع عائلاتها . لكن ذلك لا ينفى أنها كانت فى الأصل « وافدة » من قرى أخرى .. لماذا ؟ لا يدرى لذلك

سببًا .. وإنما يرصدها ظاهرة اجتماعية موجودة فى قريته .. وربما فى قرى كثيرة من ريف مصر فى النصف الأول من القرن العشرين وما سبقه ، وهى ظاهرة النزوح شبه الجماعى لفروع من العائلات ـ أصحاب الحرف ـ بحثًا عن الرزق ، وطلبا لحياة أكثر يُسرا .

***

استيقظ الصبى فى الصباح فرأى أنه لم يبق على سطح الفرن غيره هو وجدته . تحسس أعضاءه ليزيل أثر الحصير الجاف عن جسده . كما أخذ يفتح عينيه ، ليذهب أثر النعاس . توضأ وصلى الصبح ، بينما صوت أبيه يتلو القرآن ، ويشع في الدار جوًا من الأمن والأمان . استبدل جلباب النوم المرقع ، بجلباب المدرسة . كل شىء فى تلك الأيام (١٩٤٦) كان يُصرف بالبطاقة : القماش والسكر والزيت والصابون والشاى . بدأ الناس فى مصر يتعودون شرب الشاى ، بعد أن فرض الإنجليز عليهم تلك العادة بحكم بطاقات التموين ـ التى لا تزال سارية المفعول حتى اليوم . لبس القبقاب ووضع كيس القماش فى عنقه ، بعد أن وضع بجوار الكتب رغيفًا ، يأكله عندما يجوع .

جلس مكانه فى الفصل . دخل « البكرى أفندى » لابسًا طربوشه ، وصاح :

* قيام .. تعظيم سلام .. إرسال .. جلوس .

كتب مسألة حساب معقدة ، تعتمد على الضرب والجمع والطرح .. وطلب من صبىّ قريب له ـ أكبر منه سنًا ـ أن يحلّها ، لأنه راسب فى

نفس السنة ،لكن الولد لم يستطع ، فقال [illegible]

* انتظر يا حمار ، سوف يحلها قريبك الصغير .

خرج فى هدوء وأمسك الطباشير ، وحل المسألة على السبورة ، فصاح المدرس فرحًا :

* صفّقُوا له ..!!

تمت عملية التصفيق ، نظر التلاميذُ إلى الطفليْن : أحدهما عن يمين المعلم والآخر عن شماله .. فوجىء الصبىّ بقول المعلم :

* لأنك ولد شاطر وقريبك ولد خائب ، فلا بد أن تضربه « قلمًا » على وجهه ، حتى يتعلم .

كان التلاميذ يرقبون الموقفَ فى صمت ، بينما ظل الصبىّ ساكتًا . شجعه البكرى أفندى مرة أخرى ، فلم يتحرك . دون أن يدرى ضربه المعلم كفًا ساخنًا ، وهو يقول :

* اضربْهُ هكذا يا ولد .

نزلت الدموع حارة من عينيه ، ولم يستطع أن يحرك يده . وقف كالمذهول دون أن يفعل شيئًا . ثم طلب المعلم منهما أن يذهب كل إلى مقعده ، بعد أن أدرك — من صمت الصبى ودموعه — حرجَ الموقف الذى يعانيه .. ويتألم منه .!!

حضر إلى الفصل عبد الرازق أفندى — وهو معلم آخر فى المدرسة .

بعد التحية التقليدية ، أخذ يكلم البكرى أفندى بصوت يسمعه كل الأطفال الصغار ، الذين لا يتحرك فيهم شىء سوى عيونهم البريئة .

عرفوا أنه يريد أن يأخذ تلميذًا من فصل ثانية ـ أول ، حتى يكمل به فصل ثانية ـ ثان .

قال له البكرى أفندى : اخترْ من تشاء .

فأخذ يتجوّل بين المقاعد ، ثم صاح — وهو يشير إلى الصبىّ :

* تعال يا ولد .

* لا .. لا .. أىُّ تلميذ إلاّ طه .

* ألستَ رجلاً .. لقد خيرتنى فاخترتُ يا بكرى أفندى ؟!

دموع الصبى لم تكن قد جفتْ بعدُ ، خرج مكسور الخاطر ، يجر قبقابه فى قدميه . دخل خلف المعلم إلى ثانية ـ ثان ، وهو فصل معظم تلاميذه من الراسبين والخائبين . لكن عبد الرازق أفندى فعل شيئًا أذهب كل ما فى نفسه من حزن ، فقد طلب من التلاميذ أن يصفقوا جميعًا لزميلهم الجديد ، وأمر تلميذًا فى المقعد الأول أن يذهب إلى مقعد خلفى ، ويترك له المكان ، لأنه — كما فهم بعد ذلك — سيرد على أسئلة الزائرين ، حين يُفاجأ المعلمُ بزيارة تفتيشية من أحد الموجّهين .

كانت هذه الواقعة البسيطة أول موقف ، يحدث صدمة فكرية فى وعى صبى فى السابعة من عمره . عرف لأول مرة عن نفسه أنه « ولد شاطر » ، فبدأ يهتم بدروسه وقراءاته ، وحاول أن يكون تلميذًا مثاليًا ، كما تخيله عبد الرازق أفندى . العجيب أنه يوم حصل على الدكتوراه فى الآداب بعد ربع قرن تقريبًا ، قفزت إلى ذهنه صورة ذلك المعلم البسيط . أحس أنه وراء كل ما حصَّل من علم ومعرفة ، وما حقق من نجاح وامتياز

فى الدراسة .!! كان عندما يراه فى أىّ مكان يجرى نحوه مُسلمًا .. مقبلاً يده ، وهو يقول :

* أنت مُعلمى الأول .. وأستاذى العظيم .

فيرد بتواضع : لا تبالغ يا ولد ، سوف يفتح الله عليك ، لأنك ابنُ رجلٍ صالح .

* * *

فى يوم من أيام صيف سنة ١٩٤٦ ، وقع حدثٌ لا ينساه . بعد صلاة عصر ذلك اليوم خرج كثير من أهل القرية ، وتجمَّعُوا عند الكوبرى ، ليستقبلوا « الشيخ حسن البنا » مرشد جماعة الإخوان المسلمين . انحشر وسط الجموع ، التى احتشدتْ بزعامة مسئول الإخوان فى القرية . نزل الشيخُ كما يحلُّ القطب الصوفى . أحاط به الأنصار ، يهتفون بصوت حماسى :

* الله أكبر ولله الحمد .. عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نلقى الله .

اخترق الموكبُ المهيب حارات القرية إلى أن وصل إلى مقر الجمعية « الشعبة » . كان الرجال والشبان يكبّرون ويحملون العصىّ ، ويلوحون بها فى الهواء ، وقد تعالت صيحاتُهم حتى كادتْ تصل إلى السماء . وجد الصبى نفسه وسط الموكب ، يسير ويهتف مع الركب . لكن عزَّ عليه أنهم اعتبروه طفلاً ، وحالوا بينه ــ مثل كل الأطفال ــ وبين الدخول إلى صالة الجمعية ، ليستمع إلى درس الشيخ .

لكن ... إذا كان قد فاته درس الشيخ فى الجمعية ، فلا بد أن يراه عن

قرب فى المسجد . الجمعية مقر الإخوان المسلمين ، أما المسجد — وهو بيت الله — فمفتوح لكل عباد الله . مرَّ فى الطريق على مضيفة العمدة . من عجب — كما أدرك فيما بعد — أن العمدة قد صار « وفديًا » على الرغم من أن أباه كان « دستوريًا » ضليعًا . جمع العمدةُ خفراءه ، ويبدو أنه أراد التحرش بالشيخ وأتباعه ، لكنه أجّل المعركة إلى وقت آخر . وقد أدرك فيما بعد أن الخلافات بين الأحزاب السياسية فى مصر ، كانت أكثر ضراوةً مما بينها وبين الإنجليز الذين يحتلون البلاد ، أو بينهم وبين الملك — الحاكم ، الذى يجب أن يتحدوا جميعًا ضده للحصول على مكاسب سياسية واجتماعية للجماهير ، التى تصدوا لقيادتها . السياسة هذه لعبةٌ خطيرة ، تحتاج إلى رجل فى دهاءِ عَمْرو بن العاص ، وليس إلى إنسان فى طيبةِ أبى مُوسى الأشعَرى ...!!

* * *

عاد إلى البيت بعد العشاء بفترة لا يعلمها ، فلا يوجد أحد عنده ساعة فى البيت سوى والده ، وهى ساعة جيب بسلسلة فضية ، لا ينظر إليها إلا لمعرفة أوقات الصلاة أو موعد الإفطار فى رمضان .. وهو — فى الغالب — لا يستعملها إلا فى المناسبات . كان الوالد قد خرج لحضور مأتم ، والأم أخذت طفلتها زينب وذهبت إلى سلفتها « أم فاروق » زوجة عمه ، فهى صاحبة مجلس ، لأن معظم أولادها بنات — والبنات دائمًا يعطين البيت نكهة خاصة . وذهب إخوته الكبار إلى الحقل للرىّ ، وبقى هو وأخواه محمود ومصطفى ، تحلّقوا حول النَجْدَة فى حُجرة الفرن على

ضوء لمبة جاز صغيرة ، تُسمّى « الونّاسة » ، وأخذوا يطلبون منها قصّ بعض الحكايات .

* حكاية الشاطر حسن يا جدتى .

* لا .. حكاية العنزات الثلاث والذئب .

* حكاية الصياد و ......

ومع أنهم سمعوا حكايات الجدة كلها .. أكثر من مرة .. وبأكثر من طريقة ، إلا أنهم كانوا يحسون أنها تقولها كل مرة بشكل مختلف . طلبتْ منهم كى تُلبّى رغبتهم أنْ يُطقطقوا أصابعَ يديها ورجليها ، ثم طلبت أن يدلّكوا ساقيْها حتى تجرى فيهما الدماء . أخيرًا طلبت منهم أن يذهبوا إلى « محل الأدب » ، ومن يصل فى البداية ، تقص الحكاية التى يريدها أولاً ، خرجوا وعادوا يتسابقون إلى سطح الفرن . شدُّوا الغطاءَ الصوفى حتى يحسُّوا بالدفء . قالت الجدة :

* سوف أحكى حكاية الصياد والقُبَّرة .

* ما القبرة يا جدتى ؟

* القبرة (كانت تنطقها الأُبّرة) طائر جميل صغير مثل العصفور .

* احكى يا جدتى .

* يا سادة يا كرام ، لا يحلو الكلام ، إلا بذكر النبى عليه الصلاةُ والسلام .

* اللهم صل وسلم عليه .

* ذهب صياد يبحث عن رزقه ، وألقى شبكته على شجرة ...

قاطعها مصطفى قائلاً : الصياد يصطاد السمك ، وليس العصافير يا جدتى .

* أنت لا تعرف كل الصيادين يا شقى .!!

بدأت الجدة تقصُّ الحكاية .. لكن الأطفال جميعًا قفزوا مرة واحدة ، وذهبوا لينضموا إلى كثير من البنات والبنين ، وهم يغنُّون :

يـــا بنـــاتِ الْحُـــوزْ   سيُـــوا القمـــرْ يـــدُوزْ[1]

كان القمر مخنوقًا ، فقد حدثتْ له حالة خسوف ، وأهل القرية يعتقدون أنهم يجب أن يغنُّوا له ، حتى تذهب السحابة السوداء التى تخنقه ، وتحجب نوره . أنشد الموكب مرة أخرى كأنما يتغزلون فى القمر :

يـــا قمرنـــا يـــا هـــادى   يـــا لابس الْبُغـــدادى[2]

سار فى الموكب ينشد مع المنشدين ، ورغم فرحه بالخروج واللعب فإنه أحسَّ حزنًا شديدًا لما حدث للقمر . فكّر أن يسأل الجدّة عندما يعود عن القوى الشريرة التى تخنق القمر ، وتمنعه من أن يبسط ضوءه على الكون . عندما عاد كانت الجدة قد نامت .. أو كما تقول هى « تأكل أرزًا باللبن مع الملائكة » . نسى السؤال .. كما نسى أشياء كثيرة عن أيام الطفولة وأساطير القرية وشئون أهلها المعقولة وغير المعقولة . لكنه

---

(١) الحور : جمع حورية ، وهى فتاة أسطورية تتراءى فى البحار والأنهار والغابات والسماوات .

(٢) البُغدادى : الملابس الثمينة ، التى يتبغْدَدُ بها الإنسان .. أى يفتخر بها ويزهو .

لا يستطيع أن ينسى روح المحبة والبساطة ، التى كان عليها الناس فى ذلك الزمان ، زمان الخير والبركة .. زمان البساطة والبراءة والأحلام المتواضعة ..!!

***

مرتْ أيام .. وجاءت أيام .. وأخذت العائلة تستعد لإدخال محمود مدرسة المعلمين بعد أن أتمَّ حفظ القرآن . طلب الوالد من أحد أقاربه ، الذى يعمل مدرسًا إلزاميًا بمدرسة القرية ــ هو رشاد أفندى ، أن يحضر بعد العشاء ليختبر محمودا فيما درسَ ، ويرى إمكانية نجاحه من عدمها . لكن رشاد أفندى يعد أن طمأن الوالد ، قال له :

* يا خالى .. لماذا لا تُقدّم لطه فى مدرسة المنصورة الابتدائية .

* إنه ما زال صغيرًا .. ولم أفكر فى ذلك ، كما أنه لم يأخذ درسًا حتى يستعد للامتحان ، الذى سوف يُعقد بعد أسبوعيْن فقط .

* إنه ليس فى حاجة إلى درس ، وسوف أثبت لك .

نادى الأبُ عليه ، حيث كان يستعد للنوم ، فجاء نصف يقظان أو نصف نائم . طلب منه المدرسُ أن يُسمعه جدولَ الضرب ، فردده دون أن يخطىء ، ثم أعطاه كراسة محمود ، وطلب منه أن يكتب إسمه فكتب ، وأملاه بعض الجمل فكتبها بخط جميل . وهنا انفرجتْ أساريرُ المدرس فقال :

* انظرْ يا خالى .. هل صدَّقْتَ ؟ إن خطه أحسنُ من خط بعض المدرسين .. توكل على الله وقدّمْ له غدًا ، إن شاء الله .

قال فى هدوء : ما دمتَ صاحبَ الاقتراح ، فعليك أن تقدم له ، فلستُ أعرف شئون المدارس كما تعرف أنت .

عاد الصبى إلى حجرة الفرن ، وقد أحس قلبه يخفق ويضطرب . ما هذا الذى يحدث .؟! سوف يدخل المدرسة ، ويلبس البدلة ويصبح أفنديًا مثل البكرى وعبد الرازق ورشاد ، ومثل أخيه محمد . كيف تتحكم الصدفُ فى حياتنا إلى هذا الحدّ .؟! هل كانتْ تبدو عليه بعض ملامح الجد فى تلك المرحلة الباكرة من عمره ، أم أن معلمى ذلك العهد — رغم بساطتهم — كانوا يتّصفون برؤية صادقة لتلاميذهم .؟ أيًا ما كانت الإجابة فإن الذى لا ريبَ فيه أن الصدفة لعبتْ دورًا كبيرًا فى إحساسه أنه « ولد شاطر » له مستقبل . لم يستطع أن ينام تلك الليلة . طارتْ به الأحلامُ الصغيرة — أحلام طفل فى الثامنة — بعيدًا عن حجرة الفرن ، وأخذ يتخيّل المدينة التى لم يرها ، والبدلة التى لم يلبسها ، والقطار الذى لم يركبه .!! سوف ينقذه هذا كله أيضًا من عمل الحقل .. والذهاب إليه ، خاصة وأنه لم تظهر عليه بادرة قبول — حتى الآن — لأىّ عمل عضلى . الحقل عنده .. شجرة توت .. صيد السمك .. أكل ذرة خضراء و .. وردة حمراء من حديقة الست أنجة .

استيقظ أبوه فجر يوم الامتحان ، وأيقظه — لا ليذاكر — وإنما ليصلى معه الصبح جماعةً ، لكى يفتح الله عليه . عندما ركب القطار — كان سعيدًا ، لأنه رأى الحقول والأشجار والترعة تجرى .. وتجرى — أو هكذا هُيّىءَ له . كانت فرحته تسبق سرعة قطار الدلتا ، الذى ركبه لأول مرة .

عندما وصل إلى المدرسة وجد لها بابا حديديا ، وبوابًا أسمر اللون نوبيًا ، ومئات الأطفال فى الفناء جاءوا لأداء امتحان السنـة الأولى أو الثانية الابتدائية .. بحسب السن والاستعداد . لكن الصبى أحس رهبةً ، ونظر إلى أبيه فى خوف ، دون أن يتكلم . فأدرك الوالد ما يعانيه ، فقال مطمئنًا إيّاه :

* لن أتحرك من هنا ، وسوف أنتظرك إلى أن تأتى .

اختفى وسط الأطفال بحيث يرى الوالدَ ولا يراه ، بعد برهة وجد أباه ، قد مشى بعيدًا ، وكاد يغيب عن عينيه . أحس الطفل رهبة قاسية عندما رأى نفسه وحيدًا وسط عالم ، لا يعرف فيه أحدًا . قال للبواب إنه نسى القلم ، ثم خرج يجرى فى الشارع حتى لحق بأبيه ، وظل يسير وراءه . بعد أن سار — خلفه — مسافة طويلة ، لحق به . شدَّ كُمَّ جلبابه .. وببراءة الأطفال قال :

* أبى .. أبى لقد جئتُ .!!

أسقط فى يدىْ الوالد . أراد أن يضرب ولده ، لكنه فيما يبدو خشى من تأثير ذلك على أدائه للامتحان . أمسكه من يده ، وهو يُسرع الخطى ويتلو « سورة يس » .. إلى أن أدخله من الباب ، وانتظر حتى ذهب الأولاد جميعًا إلى الفصول .

بدت المسافةُ كبيرةً بين مدرسة المنصورة الابتدائية ومدرسة القرية الإلزامية . بعد أن وزع عليهم أوراقَ الامتحان شفيق أفندى — (هكذا عرف اسمه فيما بعد — وهو مدرس رياضة ، يرتدى الطربوش بشكل

مائل ، لتصبح زاوية الزر ٤٥ درجة) ـ صعد إلى المكتب الخاص بالمدرس ، ووقف عليه ، يحمل مسطرة طولها متر ، وينظر بعينى صقرٍ ، حتى يَحُول دون محاولاتٍ (الغش) ـ وهى كلمة سمعها لأول مرة . أحس الخوفَ والرعبَ من هول الموقف .. لكنه أخذ يقرأ بعض ما حفظ من سور القرآن ، وتذكّر أباه ـ الذى ظن أنه ينتظره ـ ورأى المدرسين فيه ، فأمسك القلم ، وأجاب عن كل الأسئلة ، وخرج قُبيْل الموعد ، حتى يهرب من الخوف الذى يسببه شفيق أفندى صاحب الطربوش المائل والمسطرة الطويلة .!!

***

صدى الأحزان القديمة

مع بداية العام الجديد لبس البدلة لأول مرة . اشترى له أبوه بدلة جاهزة من عند تاجر يدعى « الحاج باشا مهران » ، تعّجب كيف يكون هذا التاجر الشعبى « حاجًا » و « باشا » فى الوقت نفسه .؟! كان هذا السؤال يلح عليه مع مطلع كل سنة دراسية جديدة .. ولم يجد له إجابة حتى اليوم .!! بالطبع كان البنطلون قصيرًا ، لأنه لم يزل صغيرًا ، أما الجاكتة فقد صُنعت وفى جيبها الأعلي قطعة قماش ملوّن مثبتة فيه ، لتوهم بأنها منديل ، ولون البدلة — فى الغالب — أسود أو أزرق غامق ، حتى تتحمّل الأوساخ طوال السنة الدراسية .

فى المنصورة سكن فى حجرة بالدور الأول ومعه أخواه محمد ومحمود وابن عمه السعيد غازى . كان البيتُ قريبًا مـن شارع « العبّاسى » ، وصاحبته هى « الحاجة سيدة » زوجة عمه غـازى الرابعة .. أو الخامسة ، لأن العم بعد أن باع أرضه كلها على ملذاته ، توسَّط له بعض المعارف ، ليعمل فى وظيفة ملاحظ فى أحد النوادى الرياضية ، بالطبع الوظيفة كانت وظيفة شرفية ، حيث يأخذ راتبًا معقولاً (خمسة جنيهات ..!!) وله حجرة يقيم فيها . تعرف العمّ — أثناء تلك الفترة — على هذه الأرملة ، وكان زواجًا غريبًا ، لأنه زوجٌ يأكل

ويشرب ويسكن دون أن يدفع للزوجة مليمًا واحدًا ، بل إن الزوجة كانتْ مسئولة أيضًا عن سجائره ومشروباته .

فى هذه الحجرة كان طه وإخوته ينامون على سرير نحاسى متواضع (بوصة واحدة) . ويقرءون ويكتبون ويأكلون على حصيرة . وفى الليل يضيئون لمبة غاز « نمرة خمسة » . رفض أخواه الكبيران أن يحتفظا بالمصروف القليل الذى يصل كل أسبوع من الوالد ، فمحمد بدأ يمارس هواية « التدخين » ، ومحمود بدأ يهوى مشاهدة « السينما » ، فخشى كل منهما أن يجور على مصروف الأكل ولوازم المدرسة ، فتركاه لطه يدبّره بمعرفته . كل أسبوع يحضر لهم من القرية ما يسمى « الزوادة » ، وهى سلة فيها خبز وبعض القُرص ، و « حلة أرز معمّر » ، قد يكون معها دجاجة أو بعض البيض المسلوق .. أو الخضروات الطازجة . وينبغى أن تكفيهم هذه الأشياء مدة أسبوع . هكذا تحمَّل المسئولية وهو فى الثامنة من عمره . ذاتَ ليلة جاء إلى محمد صديقه شوقى ، وأخذا يتحدثان فى السياسة والدراسة . بعد مدة طلبا من طه أن يعدَّ العشاء . نظر فإذا الباقى قرشٌ واحد فقط . (القرش كانَ محترمًا فى ذلكَ الزمان) ماذا يفعل وهم يريدون العشاء وسيجارتيْن « هوليود » والسجائر قبل الطعام ؟ . سار بين الأزقة يفكر ماذا يفعل ؟ سيجارتان بستة مليمات ، ويبقى أربعة مليمات ، يشترى بها خضارًا وطعمية .. والخبز فى السلة .. حلت المشكلة .! عندما عاد ، نظر شوقى مبتسمًا ، وقال لأخيه محمد :

* أخوك يصلح وزير تموين .

* * *

كان عليه أن يقطع كل صباح مسافةً أكثر من كيلومتر ، حتى يصل إلى المدرسة ، كما يمشى هذه المسافة نفسها عند العودة عصرًا . فى المدرسة كان مجتهدًا بصورة لفتتْ نظرَ معظم مدرسيه ، وظل طوال سنوات الدراسة من الابتدائى حتى الجامعة يتراوح ترتيبه بين الأول والرابع . كان المدرسون — فى ذلك الزمان — غايةً فى الإخلاص ، يأخذون العملية التعليمية مأخذَ الجد ، حتى دروس الموسيقى والألعاب كانت جادة ، وتعلّم منها الكثير . « زكى أفندى » مدرس الحساب — وهو مشرف الفصل أيضًا — كان يقدّم للتلاميذ الأوائل كل شهـر قصة صغيرة ليقرؤها . كانت القصة — وهى جائزة التفوق — فى حجم كف اليد ، مُصوّرة ومكتوبة بخط واضح جميل . كل تلميذ عليه أن يعيد القصة بعد أسبوع . لكن القصة لم تكن تستغرق معه أكثر من ليلة واحدة ، لذلك كان يقرأ خلال الأسبوع كل القصص التى أعطيت لزملائه . كانت تلك أول علاقة — عن طريق القراءة — بينه وبين فن القصة .. صحيح أنه سمع بعض الحكايات من جدته ، وبعض القصص الدينى من أبيه ، غير أن هذه أول مرة يقرأ فيها القصة . أحسَّ فى القراءة متعة كبيرة ، تحرك مشاعره .. وتنشّط خياله . وهكذا تشكلتْ علاقته بفن القصة منذ سنوات عمره الأولى .

* * *

عاد إلى القرية لقضاء عطلة الصيف الحزين — صيف ١٩٤٧ ، حيث انتشر وباء الكوليرا فى القرية بشكل خطير ، كانت عربة الإسعاف تأتى

كل لحظة لتحمل مصابًا جديدًا ، أو لتعود بجثة ميت . رحل كثيرون من كل الأعمار ، فالوباء شرس ، والرعاية الصحية شبه معدومة . ولم يعد أحدٌ يزور أحدًا ، وخيَّم شبحُ الموت ، وارتفعتْ راياتُ الحزن على كثير من الدور . رأى فى وجه أبيه — رغم شدة تقواه — قلقًا مسيطرًا ، لا يفارقه لحظة . كان الوالد يكثر من الصلاة والدعاء ، ويناجى ربه بصوت متضرع « اللهم قِنا من البلاء ما نعلم .. وما لا نعلم .. وما أنت به أعلم .. إنك أنت الأعز الأكرم ..!! » .

* * *

فى صيف سنة ١٩٤٨ نجح أخوه الكبير محمد فى السنة الرابعة الثانوية « الثقافة » ، ورغم المصاريف الباهظة للتعليم الجامعى فى ذلك الحين ، فإن الوالد كان يتمنّى أن يدخل ولده البكر كلية الحقوق ، ليصبح وزيرًا أو زعيمًا ، أو على الأقل موظفًا له شأن . لكن أخاه رفض بشده ، وأصرّ على البحث عن وظيفة . ظن الصبى فى البداية — مثل أبيه — أن محمدًا أراد أن يخفف أعباء المصاريف عن والده الفقير ، غير أن السّرّ بدأ ينكشف ، مما أثار غيظ الأب بشكل واضح ، فأعلن غضبه الشديد على ولده . محمد أحب فتاة جميلة .. وأحبته ، اسمها « نبوية » ، وهى ابنة موظف صغير ، تعمل أمها خياطة . كانت أول فتاة — فى القرية — تظهر شعرها دون حجاب وتسرّحه بطريقة « ليلى مراد » ، وتضع بعض المساحيق على وجهها . تحابا حبًا شديدًا — كما علم فيما بعد من السعيد ابن عمه غازى ، الذى كان رسول الغرام بين الحبيبين ..!!

عمل محمد كاتب محكمة فى شبين الكوم ، وعاد بعد أربعة أشهر ، يحمل جلبابًا جديدًا للوالد وطرحة للوالدة . أنست هذه الهدايا البسيطة كل ما ران على قلب الوالدين من غيظ وغضب ، ووافقا على أن يخطبا له الفتاة التى أحبها ..!!

كان يذهب لزيارة خطيبة أخيه ، التي كانت تأنس له ـــ بحكم صغر سنه ـــ وعرف منها مدى حبها لمحمد . بدأ يدرك أن هناك شيئًا اسمه « الحب » ، وأن الإنسان يضحى من أجله بأشياء كثيرة .. كما ضحَّى محمد بكل أحلام أبويْه ..!!

وسط فرحة أخيه كانت هناك سحابة سوداء ، لكنها لم تكن تظلل القرية أو مصر وحدها ـــ كما حدث فى صيف الكوليرا السابق ـــ وإنما كانت تُغطّى أجزاءَ أمةٍ مفككة ..! فقد ضاعتْ فلسطينُ وأعلن اليهودُ قيام دولة إسرائيل . سمع عن معركة الفالوجا .. وعبد القادر طه ، وشهداء الإخوان المسلمين ، والأسلحة الفاسدة . كما عرف أن قائد الجيش العراقى رفض الدخول فى الحرب بحجة أنه « ماكوُ أوامر .. » . وسمع أن جيوشًا عادتْ .. كما ذهبتْ . وسمع .. وسمع .. لكنه لم يكن يدرك الحجم الحقيقى للنكبة ..!! ضاعتْ فلسطينُ .. وضاعت معها هيبةُ الأمة ، ولم تبق سوى أغنية حزينة ، تظهر فى كثير من المناسبات المؤلمة .. وهى :

أخى جاوزَ الظالمون المدى ... فحقَّ الجهادُ وحقَّ الفِدا

وقد أدرك فيما بعد أنه من أمة ، تحارب كثيرًا من معاركها بالأناشيد والشعارات ، وتجيدُ صيحاتِ الرفض والاستنكار . تغيّر الحال — يا عرب — وأصبح الأشقاءُ رحماءَ على الأعداء ، أشدَّاء فيما بينهم ......!!

* * *

مضتْ أيام العام التالى بطيئة رتيبة .. وذات يوم دخل مــدرس الموسيقى ليُعلن مقتل النقراشي باشا ، على يد شاب من كلية الطب سنة ١٩٤٩ ، وقد قيل إنه طالب ثأر ، لأن رئيس الوزراء المقتول عذب الإخوان المسلمين كثيرًا ، حين اعتقل بعض زعمائهم ورجالهم دون حق .. وعذّبهم عذابًا أشبه بتعذيب كفار قريش للمسلمين الأوائل .!!

كانت هذ الأحداثُ الحزينة ، تترك جروحًا غائرة فى قلبه ، وجعلته يميل إلى العزلة والوحدة ، كما جعلته يفضّل مجالس الكبار ، ليعرف منهم أخبار بعض الأحداث ، التى تقع فى مصر أو غيرها من أقطار الأمة .!!

لكن مسيرة الحياة لا تتوقف ، فقد أعلن عن بدْءِ انتخابات جديدة ، لتحل حكومة الحزب الفائز محل الحكومة السابقة — حكومة النقراشى . وعرف أن شقيق العمدة — رغم أن أباه كان دستوريًا ضليعًا — دخل الانتخابات تحت راية حزب « الوفد » . لم يكن فى القرية — حينذاك — مقر للجان انتخابية ، وإنما كانت الانتخابات تُجرى فى مدينة المنصورة . يومها اختار العمدة أكثر من مائة رجل قوىّ غشيم ، ووزعهم على مقار لجان الانتخابات ، وكان مندوبُوه يُعلّمون علامةً بالطباشير على ظهر من لم ينتخب شقيق (العمدة) ، وفى الخارج يأكل علقة ساخنة ، تكاد

تُودى بحياته . بعد هذه المعركة الانتخابية الباسلة .. فاز شقيق العمدة — بقوة النبوت — وفاز حزب الوفد . غير أن الذى أرّقه فيما بعد .. هو : هل فاز « الوفد » فى كل الدوائر بهذه الطريقة ، وهل ما يحدث فى بلاده من شئون الانتخابات يحدث فى أىّ بلدٍ آخر من بلاد العالم .؟!! سرعان ما ذابَ تساؤله ، حين سمع عصابات العمدة ، وهم يغنون فى شوارع المنصورة ، ويلوّحون بعصيّهم الغليظة وحناجرهم الخشنة :

* يا محنّى
* ديل العصفورة
* وبلدنا
* هى المنصورة

* * *

شهر « رمضان » فى قرى مصر له مذاق خاص ، إنه مناسبة دينية جليلة ، يستعدُّ لها الرجال والنساء والأطفال . بعد صلاة العشاء توجه الصبىُّ مع أطفال الشارع ، وجلسوا على مصطبة قريبة من قهوة المعلم «عيد أباظة»، يستمعون — من مصطبة قريبة — إلى صوت الراديو، هذه الآلة العجيبة، التى تعمل ببطارية سائلة، ومن يملك راديو — وهم قليلون منهم عمه أحمد — فإن هذا يعدُّ علامة الثراء والعزّ. تلا الشيخ مصطفى إسماعيل آيات من القرآن الكريم ، ثم أعلن « المفتى » ثبوت ظهور هلال رمضان المبارك . بعد هذا اهتزت القرية ، ودبت فيها الحياة والحركة . الأطفال ساروا فى الشوارع يحملون بعض الفوانيس ، ويرددون :

وحوى يا وحوى . إيوحـــه
رحت يا شعبان إيوحـــه

جيت يا رمضان إيوحه

ظل يلعب مع الأطفال منتظرًا خروج « المسحَّراتى » ، يُوقظ الناس للسحور ، مرددًا بصوت رخيم قصيدةً شعبية طويلة فى مدح الرسول ، يبدؤها بقوله :

أوَّلْ مـا نبـدى اليـوم مدحكْ يا نبى استفتـاحْ
يـا مـنْ تُسلّـم علـيكْ الشمس كل صبـاحْ

عاد إلى الدار فوجد أباه يتلو فى « المندرة » — كعادته — بعض سور القرآن الكريم . دخل إلى حجرة الفرن ، فوجد إخوته — جميعًا — مازالوا فى الخارج . كان يخشى أن يتأخر — لأنه .. لا يحبّ أن يلومه أحد — فإذا به أول الحضور . ذهب إلى حجرة أمّه ، فوجدها أعدتْ لوازم السحور من الخبز والجبن وبطاطس محمرة فى الزيت ذات رائحة جذّابة ، وبعض الخضروات مثل الطماطم والخيار و « السريس » . اقترب منها بحذر خشية أنْ تكون نائمة فيوقظها . اقترب أكثر فوجدها تبكى فى صمت :

* مالكِ يا أمى .؟!

* لا شىء يا حبيبى .

بعد مدة أدرك أنها تبكى ، لأن هذا أول رمضان لا يشاركهم فيه محمد ، الذى سافر إلى شبين الكوم ليعمل كاتب محكمة ، رغم أحزانها — أخذت تسأله عما فعل فى الخارج ، وتدعو له ولأخوته أن يُعيدَ الله عليهم وعلى المسلمين أجمعين هذه الأيام بالخير والبركة .

تناول السحور وهو بين اليقظة والنوم لكن من يستطيع أن ينام — فى رمضان — قبل صلاة الفجر جماعةً فى المسجد . الويل لمن يتكاسل ،

فالأب يتهاون فى كل شيء إلا فروض العبادة .. كأنه سمع من أبيه .. « أن من صلى الفجر جماعة أربعين مرة متتالية ، غفر الله ما تقدّم من ذنبه » : لم يكن قد اكتسب سيئة أو فعل ذنبًا ، لكنه تمنّى أن ينال هذه المغفرة ، لذلك أصرَّ أن يصلى الفجر كل ليلة فى المسجد ، حتى ينال غفران الله ورضى الوالد .

حدث شيءٌ زلزل القرية وهزَّ أركانها ، وجعل هذا الصيفَ أكثر كآبة من صيف «الكوليرا» ، إنه صيف ١٩٥٠ . بعد أن فاز أخو العمدة فى انتخابات الوفد ، وصار نائبًا فى « البرلمان » ، أراد أن يُسكت خصومه السابقين من « الإخوان المسلمين » ، الذين بدأوا يزدادون كل يوم . أحضر مجموعة من الرجال ، الذين ينتمون هم أو بعض أبنائهم إلى الجماعة ، ونكّل بهم تنكيلاً شديدًا .. مثل : الضرب بالكرباج والعصا ـــ وضع جوالات السماد على الصدور ـــ حلق اللحية والشارب لمن لا يستجيب للأوامر ـــ السب بكل الألفاظ القبيحة ـــ التهديد بمزيد من التعذيب لمن لا ينوى التوبة والخروج من زُمرة الجماعة ....!!

تمت عملية التعذيب فى قصر الباشا ـــ والد العمدة ـــ وهو على بُعد كيلومتر من القرية ، والخفر يلوحون بالعصىّ لكل من يقترب من سُور القصر . كان العمدة يمثِّل السلطة التنفيذية .. فى الحقيقة كان يمثل كل السلطات ، فهو حاكم القرية ، وأخوه نائب الناحية فى البرلمان ، وينتمى إلى حزب « الوفد » ، الذى أسسه سعد زغلول وزملاؤه ، ليكون « صوت الأمة » ، وجعل شعاره « الحق فوق القـوة والقـوة فـوق الحكومة » ، وكما مات سعد ، مات صوتُ الحق ، وبقى سوطُ القوة ..!!

كان صيفًا مُرعبًا ، أُقيمتْ فيه المآتم الصامتة للرجال ، الذين جعلهم التعذيب فى منزلة بين الموت والحياة . لكن الهزيمة لا تعنى فقدان الأمل ، فبينما استسلم كبار السن أصرَّ بعض شبان الجماعة على الانتقام .. فالعين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم . أول الضحايا هو شيْخُ الخفر ، الذى كان ذراعَ العمدة فى التعذيب — فقد ضُرب هو الآخر فى الليل ضربًا أفضى به إلى الموت دونَ أن يُستدل على الفاعل . بعد ذلك ضُرب أيضًا بعضُ الخُفراء المعروفين بولائهم للعمدة ، من الذين ثبت لأهل القرية اشتراكهم فى عملية التعذيب . اشتعلتْ القريةُ نارًا ، فالأسر فيها مترابطة عن طريق صلة القرابة أو النسب . عمَّتْ الفوضى .. انقسمت كثير من الأسر ، شاع جوٌّ من الإرهاب الغاشم ، فالنار حين تشتعل لا تصيب من أشعلها فحسب ، وإنما تمتد أيديها الأخطبوطية لتأكل الأخضر واليابس . ظلت الفتنة قائمةً إلى أن هرب العمدة فى الليل ، وذهب ليقيم فى القاهرة ، حتى تهدأ الفتنة التى أشعل نارها .

اكتشف الوالد بالمصادفة أن ولده أحمد ينتمى ، أو على الأقل يأخذ صفَّ بعض أصدقائه وأقربائه من الإخوان ، خاصة وأن أحد رجال العائلة كان من ضحايا المعركة ، فأحضره غاضبًا أمام إخوته — كأنما يوجّه الحديث للجميع — وسأله :

* أين كنتَ بالأمس ؟

سكت لأنه آثر ألا يكذب ، فصاح الأب فيه :

* كنت فى مقر الإخوان .. لا تكذبْ .. لقد عرفتُ .

ردَّ دون خوف : الإخوان يدعون إلى عبادة الله .

* وهل عبادة الله تحتاجُ إلى حزب يا ولد . المسجد موجود .. والمصحف موجود ، وليس بين الله وبين أحدٍ من عباده حِجاب .

* لكن يا أبى ...

* إياك أن تنطق كلمةً واحدة ، وإلا ضربتك بالعصا . إنْ ذهبتَ إلى هناك مرة أخرى ، فسوف أعلقك فى الساقية ..!!

كانت هذه الحادثة من المناسبات النادرة ، التى شهد فيها أباه ثائرًا .. بمثل تلك الحدة ، لأنه لم يكن يسوقُ التهديد لأحمد وحده ، وإنما لكل من تسوّل له نفسه من « الأولاد » أن يفعل مثل ذلك .

مرت سنوات وسنوات ، و لم تزل ذكرى تلك الليلة العاصفة محفورة فى ذاكرته . إنه لم ينتم إلى أىّ حزب سياسى أو عقائدى إلى اليوم .. بل إنه أيضًا يكره التعصبّ والتحزّب . هل كان ذلك نتيجة لهذه الليلة البعيدة .. أم أنه لم يقتنع حتى الآن بمبادئ حزب من الأحزاب ، لكى ينتمى إليه ؟! فى الحقيقة ـــ وهذا شىء غريب ـــ أنه لم يقتنعْ حتى اليوم بمبادئ حزب من الأحزاب السياسية حتى ينضم إليه . ومازال يرى أن السياسة فى مصر ـــ وفى كثير من بلاد العالم الثالث ـــ لا تنمو فى جوّ صحىّ ، ولا تقوم على حوار ديمقراطى ، إذ يبدو أن منطق « العمدة » .. لا يزال هو دستور العمل السياسى ..!!

***

توالت الأحداثُ ساخرة .. ساخنة ، فقد حضر محمد فجأة مع واحد من زملائه فى العمل . بدا عليه الإرهاق والضعف بدرجة واضحة . صاحت الأم وهى تحتضنه ـــ حتى لا يقع على الأرض ـــ صارخة :

يا حبيبى يا ابنى ..!!

جلس الشاب الغريب مع الوالد ، وأفهمه أن محمدًا مريض ، وحاول أن يخفف عليه الأمر ، فزعم أنه بات ذات ليلة والشباك مفتوح ، فأخذ نزلة برد . ونصحه بضرورة سُرعة عرضه على طبيب .

كان صاحب الجسد المنهك يحاول أن يخفف عن الأسرة علامات الحزن ، وأخذ يتندر على صهره ، الذى رفض أن تأتى العروس لمشاهدة خطيبها ، حيث أن التقاليد لا تبيح ذلك أثناء فترة الخطبة ، وأقسم أنه لن يجعلها تزور بيت أبيها بعد الزواج ، لكن هذا التطرف لم يصرف الأسرة عن أحزانها المنتشرة إزاء المريض الحبيب .!

فى الصباح أخذ الوالد ولده وذهبا إلى المنصورة لزيارة الطبيب . ظلت الأم تصبُّ دموعها بحرارة ، أحستْ كأنما القلب قد خُلِع من صدرها . أخذت تدعو ربَّها ، ليشفى فلذة كبدها . عاد الوالد فى حالة أسوأ مما ذهب . محمد رئتاه متعبتان ، إنه مرض الصدر ، أو بدايات « السل » .. ربما من كثرة التدخين ، أو التعرّض لنزلة برد حادة ، أو سُوء التغذية : ليس السبب الآن هو المشكلة — واصل الطبيب — وإنما لا بدَّ من نقله إلى مستشفى . و لم تكن ثمة مستشفى للصدر فى مصر سنة ١٩٥٠م إلا تلك الموجودة على أطراف صحراء « ألماظة » بالقاهرة .

* أين كانت تلك المصيبة مخبأة لنا يا حبيبى .؟!

هكذا صاحت الأم ، وهى تضربُ صدرها بيديها ، حين سمعت النبأ الأليم . تمنّى كل واحد أن يفعل شيئًا من أجل محمد ، نوارة الأسرة ، وزهرة شباب القرية ، التى حزن كل من فيها عليه . أخذ الصبى يصلى كل

الفروض فى المسجد ، ويعقب كل صلاة بركعتين يدعو فيهما الله دعاء خالصًا ، كى يشفى محمدًا .

وهو فى الطريق إلى البيت فكَّر فى شىء ، وأصرَّ على عمله ، ذهب إلى بيت العروس ، الذى قاطعه منذ جاء أخوه من السفر . توجه مباشرة إلى حيث توجد . فتح باب الحجرة فوجدها تبكى ، ضمته إلى صدرها ، كأنما تريده أن ينقل رسالتها إلى أخيه . لقد جاء من أجل أن يلومها ويعاتبها ، فما الذى أسكته .؟ أخذت تشكو حُجَّةَ أبيها .. وما يُقال عن العادات وكلام الناس . لم جاء .؟ ليته لم يأت .!! كيف تقف التقاليد سدّاً بين عروسيْن ، يحب كل منهما الآخر حبًا جمًا .؟! إن ما يحدث شىء فظيع .. شىء فوق طاقة محمد ونبوية . لك الله يا محمد .. كيف تذبل وأنت فى عمر الزهور .؟! كان — يحس أن غياب نبوية عن محمد أشدُّ قسوةً على نفسه من المرض ، الذى يتجوّل — متوحشًا — بين رئتيه .

استدان الوالد بعض جنيهات من العمّ أحمد ، الذى كان من عادته أن يَحُل عُسْرةَ كل من قصده ، بعد أن يكتب عليه كمبيالة بالمبلغ والأرباح معًا . لكنه استحى — هذه المرة — أن يعامل أخاه معاملة الغُرباء ، خاصة وأن ابنه مريض . لم تكن نفسُ العم تخلو من قدرٍ من الشماتة ، لأن الولدَ محمدا رفض أن يتزوّج واحدةً من بنات عمّه — وهن كثيرات . وقد طلب العمُّ من بناته ألا يزرنه ، أُسْوةً بما فعلته الخطيبة ، لكنْ واحدة منهن قالتْ بشجاعة :

* نبوية خطيبة محمد ، أما نحن فأخواته ، وما بيننا دم وليس ماء .

لا يدرى ما المناسبة التى قذفتْ به إلى بيت عمه ، لكى يسمع هذا

الحوار . ومن عجب أنه بعد أن كبر ، لم يفكر هو الآخر فى الزواج بواحدة من بنات عمه . ترى هل كان السبب ــ الذى صرف أخاه .. وصرفه من بعد ــ واحدًا .؟! لا شك أن ابنة العم تكون فى مقام الأخت ، ولا سيما إذا نشأت الأسرتان فى بيت واحد . وربما كان هذا هو السبب النفسى ، الذى يكمن وراء فشل بعض تلك الزيجات .

ذهب الوالد بولده إلى القاهرة ، ليدخله مستشفى الصدر بألماظة ، ثم عاد بعد أربعة أيام وثلاث ليالٍ حزينًا ساهمَ الفكر جريحَ القلبِ . صاحت الأم عندما رأته باكية :

* لماذا تركت محمدًا وحده .؟

* ليس وحده .. إن الله معه ومعنا .

أخذت الأم تصيح وتصرخ وتبكى وتندب حظها . تجمعت كثيرات من نساء الأهل والجيران . كان طه يحس فى بكاء الأم نذير شُؤْمٍ مُتوقَّع ، لكنه ظل يستعيذ بالله ، ويدعوه أن يشفى أخاه ، ويحرس أمه وأباه .

بعد يومْين قالت الأم للأب :

* لا بد أن أسافر لرؤية ابني .

* اصبرى يا أم محمد وادعي له .

* لا بد أن أسافر .

صمتَ الرجلُ واغرورقتْ عيناه بالدموع . أول مرة يرى أباه باكيًا ، كان يظنه قويًا جَلدًا ، فهو رجل عامرٌ قلبُه بذكر الله ، فكيف يحزن .؟! لم يكن بكاء الأب على مرض ابنه فحسب ، وإنما بسبب أن إدارة

المستشفى طلبتْ منه أن يُحضر دواءَ ولده من « البنسلين » — إذا أراد أن يُشفى — لأنه غير متوفر لديهم . كان « البنسلين » نادرًا وغالى الثمن ، فاحتار ماذا يفعل .؟!! وهنا صاحت الأم — كعادتها طوال تلك المحنة :

* لماذا لا تبيع الأرض .. أو الجاموسة .. أو حتى الدار ، بل بِعْنى أنا من أجل محمد .. يا عينى عليك يا غريب البلاد يا حبيبى .. يارب خذ من عمرى وأعطِ له .

ترك الصبى مجلس العائلة وصعد إلى سطح الدار ، وأخذ يتأمل السماء ، ويناجى ربه ويدعوه . قفز كالملدوغ فجأة ، وقصدَ بيت نبوية ، وأخبرها أن أمه سوف تسافر إلى محمد قريبًا ، وأنها يجب أن تسافر معها . لم يكن يدرى ماذا يفعل أو يقول . لكنه رغب فى عمل شىء لأخيه محمد ، وهذه الزيارة — لو تمتْ — ستكون ذات أثر قوى فى شفائه إن شاء الله . خرج وقد أحسَّ بقدر من الرضى والأمل ، حين أقسمتْ نبوية بحياة محمد أنها سوف تذهب مع الأم ، فقد كانت هى الأخرى تشعر بقدر من تأنيب الضمير وثورة القلب ، لأنها لم تر حبيبها طوال هذه المحنة .

عاد إلى الدار فوجد أباه يجلس مع أحد الجزارين ، لكى يبيع له الجاموسة الوحيدة التى يملكها ، غير عابىء بما يترتب على ذلك بالنسبة لزراعته وقوت عياله . لكن الرجل رفض وترك للوالد أربعين جنيهًا ، وأقسم ألا يأخذها إلا بعد أن يُشفى محمد بإذن الله .

مرت الأيام بطيئة كئيبة ، وبعد زيارة الوالدة ونبوية بحوالى أسبوع واحد ، سافر الأب ، وعاد معه ولده ، حتى يموت بين أهله وفى بلده .

ذكرياتٌ مرة .. وليالٍ سوداء . ضعف جسدُ محمد ، وصار مثل عود الحطب الجاف ، خرجت روحه مع سَعلة شديدة فى غمضة عين .. كأنه ما كان ..!!

* * *

لم يكن موت محمد حدثًا عاديًا بالنسبة للأسرة أو القرية كلها ، فقد مات شهيد الحب والمرض والفقر .!! أما الأب فقد أسلمه الإيمان إلى صبر جميل ، بينما طاش صوابُ الأم ، وصارت تبكى ولدها صباحَ مساء ، وتزور قبره كل يوم ، وتندبه فى كل جنازة . و لم يستطع أحد أن يُصبِّرها . ذات ليلة بينما هى بين اليقظة والمنام ـــ حيث كانت قد هجرتْ الزوجَ .. وهجرها ، وتلك عادة من عادات القرية ، وهى أن يهجر الزوجُ زوجتَه فى مثل تلك المناسبات الحزينة ، إلى أن يقضى الله أمرًا مقدورا ..!! ـــ ذات ليلة رأتْ ملاكًا على هيئة طائر أبيض ، يلبس ثوبًا أبيض ، يقول لها : لا تحزنى يا أم محمد ، فقد أخذ الله ولدك الأول ، وسوف يُعوضك فى ولدك الأخير .!!

سعد الوالدُ كثيرًا بهذه الرؤيا ـــ التى لم يتوقف عند دلالتها بالنسبة لطه ، فهو صبى صغير ، والطريق أمامه طويل . لكن الذى أسعده فى واقع الأمر ، أنه أخذ منها سبيلاً لتعزية زوجته الثكلى . بدأ يُصبِّرها ويعلمها بعض الأدعية ، لتحميها من وساوس الشيطان ، حتى تهدأ وترعى أسرتها ، التى لا أحد لها سواها . ولكى يطمئنها أكثر ، ذكر أن الرسول ـــ ﷺ ـــ يقول : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هى من الله ، فليحمد الله عليها وليحدِّث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من

الشيطان ، فليستعذ بالله من شرها ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره » .

لم يكن هناك أىُّ حادثٍ يمكن أن يصرف الأم الثكلى عن أحزانها ، حتى الأبناء الخمسة مجتمعين ، فقد كانت تراهم جميعًا دون محمد — الوردة الأولى فى حديقة العائلة . ذاتَ يوم — ربما بعد أكثر من سنة — نادتها إحدى الجارات « بأم أحمد » فقاطعتها مدة تزيد عن شهر . إنه قلب الأم ، الذى يعرفُ الإخلاصَ فى كل شىء حتى الحزن .!!

* * *

فى غمرة الأحزان نُسيتْ بعضُ الروايات الخاصة بموت محمد ، صحيح أن لكل أجلٍ موعدًا ، لكن الله جلتْ حكمته جعل لكل شىء سببًا . التقى الصبى ذات مساء بسعيد ابن عمه ، وذكر له أنه زار نبوية ، وهى حزينة لأن الأسرة كلها قد قاطعتها ، كأنما هى المسئولة عن وفاة محمد . سكت و لم يذكر له أن هذا رأى الأم .. التفت إليه سعيد فجأةً :

* وأنت .. لماذا لا تزورها .؟

* لا أدرى بالضبط ، لكنى سأحاول .

أخذ سعيد يُحدِّثه عن محمد .. وعن حبه الشديد لنبوية ، وحبها المشبوبَ له ، وعن طبيعة الرسائل التى كان ينقلها بينهما ، وعن خصلة الشعر ، التى كان يحملها محمد مثلما يحملُ رجالُ الصوفية المصحفَ الشريف . أخيرًا ذكر له أن محمدًا كان مفرطًا فى التدخين بشكل واضح .. وعندما يشتاق إلى نبوية كان يحترقُ شوقًا مع نار الدخان . يبدو — والله أعلم — أن الإفراط فى التدخين هو الذى أتلف رئتيْه ..

عندما ذهب إلى زيارة نبوية استقبلته أمها بقدر من الجفاء ، فقد كانت تريد أن تنسى ابنتها ما حدث .. وتخاف من شدة أحزانها على الحبيب الراحل : على السطح ـــ كالعادة ـــ جلس معها ، كانت دموعها تنزل من العين ، ودموعه تنزل من القلب . أخذت تندب حظها ، وتبكى حبيبها ، وتؤكد أن الناس حسدوها على حُبِّ محمدٍ لها ، الذى أيقظ فى روحها حبَّ الكون كله . لكن ماذا تصنع فى حبها وقد رحل الحبيب ، وأقسمتْ بالله العظيم ثلاثًا أن تظل عذراء إلى أن تموت .. وطلبت منه أن ينقل هذه الرسالة إلى أهله .

تأملها وهى تجترُّ أحزانها ، وتبكى حبيبها الذى بَخلتْ به الدنيا عليها ، وقد ذبلت زهرةُ شبابها ، وضمر عودُها أكثر .. وصارت عجوزًا فى العشرين .

لم يفكر الصبى فى أن يذكر لأحدٍ شيئًا مما حدث بينه وبين نبوية ، لكنه عندما عاد ، وجد أم ماضى تتحدث مع أمه حديثًا من أحاديثها السرية ، التى لا تبقى سرية أكثر من نصف ساعة . أصرتْ على أن ما رأته فى المنام حقيقة . هناك امرأة ، أمّ لبناتٍ كثيرات (تقصد زوجة العم ..) ، صنعتْ لمحمد عملاً على يد عفريت من الجن . والعمل موجود تحت عتبة الباب ، ويجب إبطاله حتى لا يؤثَر على أحد من إخوته الباقين بعده ، فأم البنات دائمًا عيونها ضيقة .. حسودة .!!

قالت الأم : لا تقولى هذا يا امرأة .. فكل شيء بأمر الله .

هناك رواية أخرى رواها أحد أصدقاء محمد من قرية مجاورة ، فقد ذكر أنه كان مسافرًا فى قطار الدلتا ، وفجأة تحرك القطار ، وكانت به

السلة التى تحمل خبزه وبعضَ ملابسه وكتبه . وظل يجرى خلف القطار ، لكى يلحق به ــ إلى أن وقع مغشيًا عليه . منذ هذه الحادثة ، وهو يشكو غزّةً فى الصدر ، لكنه لم يُعالج المرضَ فى بدايته ، ويبدو أن العلة التى مات بها ، كانت وليدة هذه الحادثة .

أىُّ هذه الروايات صحيح .. وأى هذه الأسباب هو الذى أودى بحياة محمد .؟! لا يعرف على وجه التحديد ، غير أن ما يدركه جيدًا أن وفاته ــ رحمةُ الله عليه ــ خلّفتْ أحزانًا كثيرة على كل أفراد الأسرة .. وربما حركتْ مشاعره ــ بوعى أو دون ــ لكى يكون البديلَ ، الذى بشَرتْ به الرؤيا . منذ ذلك الزمان حَرّم على نفسه أن يسلك سلوك الصبيان ، ومال إلى العزلة .. ومجالسة الكبار .. وعرفَ طريقَ الكِتاب . ووجدَ فى عالم القراءة عِوضًا عن كل ما كان يُشغل به رفقاؤه فى العمر وزملاؤه فى الدراسة .

إذا كانت الذاكرة لا تستطيع أن ترجّح رواية على أخرى فى وفاة محمد ، فإن هناك رواية مؤكدة فى سبب حبه لنبوية ــ التى كانت ابنة لموظف صغير . هذه الفتاة تُعدُّ وقفةً لها دلالة فى تاريخ القرية ، إنها أول فتاة تضع المكياج ، وتلبس فساتين على الموضة .. قصيرة الأكمام (كانت أمها خياطة .. !!) وتمشّط شعرها بطريقة خاصة . يوجد بيتُها أمامَ دكان بقالة لتاجر ، كان محمد صديقًا لابنه ، ويجلس معه على المصطبة ــ أمام الدكان ــ عصر كل يوم فى الإجازات . ومن البلكونة رآها صاحب القلب الغرير ، وهام بها .. وهامتْ به .!! لم تكن قد دخلت المدارس ، لكنها تعرف القراءة ، وتتابع بعض الصحف والمجلات ، وتسمع الراديو .

كانت ترى فى محمد زوجًا منقذًا من حياة الريف ، ومبشرًا بحياة سعيدة فى البندر .

المرأة حين ترغبُ ، تصير أكثرَ وداعةً من الملائكة ، وأعظمَ عطاءً من الريح المرسلة ، وأشدَّ عذوبةً من ماء النبع ، وأعظمَ نضرةً من زهر الروض .!! نما الحبُّ فى هدوء .. وغفلة عن عيون الأهل والعذّال ، فاستوى على عُوده .. وأينعتْ أزهاره . كانت قصة حب لا تُوصف ، لكن أهل محمد لم يعرفوا كثيرًا من التفاصيل التى جذبته إليها ، لأنه مالَ إليها فى سنوات الشباب الأولى — سنوات توهُّج العواطف العذراء ، وعطش القلوب الخضراء ..!!

* * *

هكذا تسير الدنيا ..!!

فى سنة ١٩٥٠ حصل الصبى على الشهادة الابتدائية بتفوق ، أغراه للحظة أن هذه أول علامة فى طريق تحقيق رؤيا أمه . بدأت الأيام الأولى تمضى فى رحلة التعليم الثانوى ، ولعبت الأقدار دورًا ، ساعد على فتح باب التعليم على مصراعيه لكثير من أبناء جيله . فقد كان طه حسين وزيرًا للمعارف ــ آنذاك ــ فى وزارة الوفد ، وأعلن قراره العظيم « التعليم ــ كالماء والهواء ــ حق لجميع المواطنين » ، ولا ريب أن هذا القرار فتح المجالَ لكل من يشغل وظيفة هامة فى مصر اليوم . بالنسبة له كانت ظروف الأسرة المادية تسمح بمصاريف التعليم الثانوى ، لأنه فى المنصورة على بُعد خطوات من القرية ، لكنها لا تسمح مطلقًا بمصاريف التعليم الجامعى فى القاهرة أو الإسكندرية . ولا شك أن أبناء هذا الجيل مدينون لطه حسين الذى فتح لهم بابَ الأمل . ومن عجب أنه منذ هذه الأيام بدأ يتخذ طه حسين قدوةً له ، وأخذ يبحث عن بعض كتبه ليقرأها ، فقد كانت فترة التعليم الثانوى هى فترة الإعداد الثقافى ، ولا سيما فى إجازات الصيف . كل تلميذ فى القرية كان يشترى كتابيْن أو ثلاثة ، ثم تدور الكتب على كل راغب فى القراءة من شباب القرية المتعلمين وغيرهم ، لأن القراءة كانت المتعة الوحيدة المتاحة فى تلك الأيام لبعض الشبان الجادين .

أول كاتب قرأ له هو مصطفى المنفلوطى ، و لم ينم ليلة قرأ رواية « الفضيلة » ، فقد كان يبكى فى داخله على ما أصاب « بول » و « فرجينى » ، أخذ يبحث عن مزيد من كتبه فلم يجد سوى جزء من « العبرات » ، لكنه لم يتأثر به مثلما تأثر بالرواية . ومن عجب أنه حين حاول كتابة القصص ـــ وهو فى بداية المرحلة الثانوية ـــ كانت أول قصة له ، تسير على طريقة المنفلوطى .

أول عمل قرأه لطه حسين هو رواية « شجرة البؤس » ، وبالطبع ليس هناك سرٌّ لذلك سوى أنها كانت الرواية الوحيدة المتاحة عند هُواة القراءة فى القرية . غير أنه لم يستطع أن يكملها بسبب الجوّ الحزين الذى كانت تصوّره ، لكنه أعجب بطه حسين عندما وجد كتاب « الأيام » عند بقال مثقف ، يسمّى الشيخ محمد الشافعى ، الذى درس سنتيْن فى الأزهر ، و لم يُكمل بسبب وفاة والده ـــ كما يدّعى . لكن بعض العارفين بالحال من الكبار ، قالوا إنه لم يُفلح فى الدراسة ، وحاول أن يعوّض ذلك باقتناء الكتب .. ولا سيما سلسلة مجلة « المختار » ، التى كانت تقدم ترجمة مختصرة لكثير من الكتب الأدبية الأوربية ، كما كان يملك بعض كتب التراث مثل « البخلاء » للجاحظ ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، وأجزاء من كتاب « الأغانى » للأصفهانى . لكن ما أعجبه ـــ فى هذه الفترة ـــ من مكتبة الشيخ كان كتاب « الأيام » .. وقد أعجب به ، لأنه يصور سيرة إنسان فقير ضرير ، استطاع بعلمه وثقافته أن يصبح « وزيرًا » .. وتمنى أن يصبح رجلاً ذا شأنٍ فى تاريخ أمته ـــ مثلما كان طه حسين .. !!.

أما توفيق الحكيم فقد تعرّف به فى البداية روائيًا لا مسرحيًا ، وقرأ له « عودة الروح » ، وأعجبَ بشخصية محسن وبحبه لسنية ، لكنه غضب عليها لأنها رفضت حبه . وقرأ له « يوميات نائب فى الأرياف » و « الرباط المقدس » .

ثم قرأ بعد ذلك « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل ، ورواية « زينب » التى أعجب بها إعجابًا . بعد ذلك وقعتْ فى يده رواية « إبراهيم الكاتب » للمازنى فلم يستطع أن يُكملها ، كما لم يستطع أن يقرأ فى هذه الفترة أىّ كتاب لعباس محمود العقاد ، خاصة وأن أول كتاب وقع فى يده كان « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » .

وقد قرأ فى هذه الفترة — فترة التعليم الثانوى — أيضًا بعض الروايات التاريخية مثل « على باب زويلة » لمحمد سعيد العريان ، و « هاتف من الأندلس » لعلى الجارم ، و « سُوحى » لمحمد عوض محمد ، و «واأسلاماه» لعلى أحمد باكثير .. وبعض روايات جورجى زيدان التاريخية .

لم يكن نجيب محفوظ كاتبًا جماهيريًا فى تلك الفترة ، لكنه قرأ له بالمصادفة رواية « خان الخليلى » وأعجب بها .. وتمنّى أن يقرأ له أكثر ، لكنه لم يستطع أن يحقق هذه الرغبة إلا أثناء الدراسة الجامعية فى القاهرة .

هناك كاتب كان يقرأه بعض زملائه ، لكنه لم يقبل عليه مثلهم هو محمد عبد الحليم عبد الله ، فقد قرأ له رواية « لقيطة » ثم « غصن الزيتون » .. و لم يستطع فى تلك المرحلة أن يقرأ له شيئًا آخر .

فى هذه المرحلة الباكرة من حياته ، لم تكن دواوين الشعر مطروحةً

للقراءة بأى شكل من الأشكال ، ورغم رداءة كثير من النصوص التى كان يدرسها فى الكتب المقررة ، فإنه مازال يحفظ إلى اليوم بعض النصوص الشعرية التى أعجب بها : لامرىء القيس وزهير بن أبى سلمى وعنترة بن شداد وحسان بن ثابت وعمران بن حطان وجميل بثينة ومالك ابن الريْب وعمر بن أبى ربيعة والعبّاس بن الأحنف والشريف الرضى والمتنبى وأبى العلاء المعرى ومحمود سامى البارودى وأحمد شوقى وإيليا أبو ماضى . لكن النص الشعرى الذى حفظه عن ظهر قلب فى هذه المرحلة هو مسرحية « مجنون ليلى » لشوقى — وما زالتْ كثير من مقطوعات هذه المسرحية مسجّلة فى ذاكرته حتى اليوم . كذلك قرأ بعض كتب فى علم النفس العام مثل : « دع القلق وابدأ الحياة » و « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس » لـ : ديل كارنيجى .

* * *

لم تكن للصبّى وظيفةٌ بالنسبة لعمل الحقل أثناء وجوده فى القرية صيفًا ، لأن وجوده هناك مثل عدمه ، كما لم تكن له هواية رياضية أو أية هواية أخرى — سوى المشى على طريق الترعة ليلاً . كان من الصعب أن يُوقد لمبة ، كى يقرأ على ضوئها بسبب غلاء « الجاز » . كما أن الضوء يجذبُ الناموس إلى البيت ، لذلك كان يقرأ من الصباح إلى قُبيْل المغرب .. ومن العجيب أنه قرأ فى هذه الفترة روايات مترجمة كثيرة ، تكاد تصل أضعافَ ما قرأ من روايات عربية . ومن الروايات التى قرأها حينذاك : « البؤساء » و « أحدب نوتردام » لفيكتور هوجو ، و « سنوات الأمل » و « الأرض » لإميل زولا ، و « مدام بوفارى » لفلوبير ،

و « مرتفعات ويذرنج » للكاتبة إميلى برونتى ، و « تاييس » لأناتول فرانس ، و « الحرب والسلام » لتولستوى ، وبعض القصص القصيرة لجى دى موباسان ، و « صراع الأجيال » لإيفان تورجنيف ، و « الجريمة والعقاب » لديستويوفسكى ، و « غادة الكاميليا » لألكسندر ديماس ، وكتاب « يوتوبيا » لتوماس مان .. وكان منشورًا حينئذ فى سلسلة كان لها دور كبير فى الترجمة هى سلسلة « كتابى » ، ورواية « الأرض الطيبة » لبيرل بَك ، و « قصة مدينتين » و « أوليفر تويست » و « دافيد كوبر فيلد » لتشارلز ديكنز ، الذى كانتْ تُدرس بعض رواياته بالإنجليزية .. فى سنوات الدراسة الثانوية . كما قرأ بعض المسرحيات بالإنجليزية مثل « مستر بكويك » و « بيت الدمية » و « كريتون العجيب » ، وبعض مسرحيات شكسبير مثل « روميو وجوليت » و « هاملت » .

أما الروايات البوليسية — فكانت تشكل كمًا هائلاً بالنسبة لما يترجم — فلم يقبل عليها كثيرًا ، باستثناء بعض قصص الفروسية مثل « الفرسان الثلاثة » و « الكونت دى مونت كريستو »[1] . كما قرأ بعض روايات « أجاثا كريستى » ومغامرات « أرسين لوبين » .. لكن هذا النوع من الروايات البوليسية ، لم يجذبه كثيرًا .

هذه بعض نماذج لما قرأ خلال المرحلة الثانوية ، وإن كانت الذاكرة قد حفظتْ شيئًا ، وغابتْ عنها أشياءُ . لكن الأمر الواضح بشكل قوى هو

---

(١) الروايتان من تأليف الكاتب الفرنسي « إسكندر ديماس » .

كثرة ما قرأ من قصص وروايات مؤلفة ومترجمة ، وربما وجهته هذه الثقافة الروائية بعد ذلك إلى هواية كتابة القصة ، بالإضافة إلى أن حبه للسينما كان له ـــ أيضًا ـــ أثر كبير فى ميله نحو تلك الهواية .

***

أول مرة ذهب فيها إلى السينما (١٩٥١) كانت بسبب حادثة طريفة ، فقد أخذ عشرة قروش ، وذهب يشترى من بقال يونانى جُبنًا أبيض . كانت الجالية اليونانية ذات وجود ظاهر فى مدينة المنصورة ، وتعمل فى محلات الجاتوه والحلويات والبقالة والمخابز ، التى تصنع ما كان يُسمّى العيش (الفِينُو) أو الأفرنجى . اعتاد هذا البقال ـــ بحكم الجوار ـــ أن يرى الصبى كثيرًا ، حيث يشترى منه بعض ما يلزم التلميذ أثناء الدراسة من جُبن وحلوى طحينية وصابون وأقلام رصاص وكراسات وغيرها . وضع « الخواجة أندريه » الجبن فى ورقة ، ثم أعطاه تسعة وأربعين قرشًا . ذُهل الفتى ، حين رأى البقال يعطيه هذه الثروة الهائلة ، التى لم يمسك مثلها حتى تلك اللحظة .. ووقف صامتًا ، ينقل بصره بين الرجل والنقود .

* خد فلوسك خبيبى .

* هذه ليست فلوسى ، لقد أعطيتك عشرة قروش فقط .

عاد الرجل إلى درج يضع فيه النقود ، وسرعان ما أدرك سر الموقف ، فقد شكَّ أن الفتى ـــ الذى يلبس جلبابًا ـــ أعطاه نصفَ جنيه ، كان يبدو بارزًا فى مقدمة الدرج .

* أنت ولد شاطر خبيبى .. هذه قطعة خلوى ، وهذا قرش الجبن

هدية من عندى ، لأنك ولد أمين . لا .. اسمع حبيبى .. إنت اسمك إيه .؟

* طه يا خواجة .

* ربنا يخرسك ، المرة دى إنتَ مُسْ ياكل جبن أبيض .. (أخذ قطعة الجبن منه .. وأحضر قطعة أخرى دون ميزان) إنت لازم ياكل جبن رومى .. من أثينا .. يا خبيبى .!!

عاد فرحًا إلى الحجرة حيث ينتظره أخوه محمود ، الذي ظنه قد نسى .. وأحضر جبنًا روميًا ، وليس جبنًا أبيض كالعادة . أحس حين رأى نفسه أمينًا ، أن قامته تعلو وقلبه يخفق . حمدَ الله على أن وفقه فى هذا الموقف الصعب . تذكر أباه الطيب فى هذه اللحظة ، وتخيله يقرأ القرآن الكريم فى « المندرة » ، ووعده — فى ضميره — أن يكون أمينًا طوال عمره ، وألا يأخذ شيئًا ليس له فيه حق فى يوم من الأيام .!!

غير أن القرش الذى جاءه على غير موعد ، أرّقه ليلة كاملة ، واحتار ماذا يفعل به .؟ فهو غير معتاد على أن يصرف شيئًا فى غير الضروريات . الفطور فى البيت .. ثم الغداء فى المدرسة . وكم كانتْ وجبة المدرسة — حينذاك — تشكل ركنًا هامًا فى حياته ، وحياةٍ كثير من التلاميذ . رحم اللهُ أيامَ « وزارة المعارف » ، التى كانت (تعرفُ) أن طالبَ العلم يحتاجُ إلى الدرس وإلى الخبز فى آنٍ واحد . وألفُ حسرةٍ على « وزارة التربية والتعليم » ، التى أوقفتْ الغداء .. وأفسدت التربية والتعليم ، بفضل التوسع الرهيب فى كليات التربية .. والوزراء الذين يسدّون (خانة) فى أعضاء الوزارة ، سواء أكانوا يفيدون أم .. لا .؟ المهم أن يرضى رئيس الوزارة .!!

بعد أخذٍ وردٍ مع نفسه ، قرر أن يذهب إلى السينما . كثير من زملائه يتحدثون عنها بزهوٍ وإعجاب . فلم لا يذهب وقد جاءت الفرصة على قرش من فضة على يد « الخواجة أندريه » .. قال لنفسه : صدقت أمى « إن ما يأتى بسهولة .. يذهب بسهولة . » .!!

توجه ناحية « سينما عدن » فى شارع النيل ، أو شارع البحر ، كما يسميه أهل المنصورة ، وكانت تعرض إحدى حلقات « زورو » مع فيلم عربى هو « غزل البنات » . جلس فى السينما على دكة خشبية طويلة ، تتسع لحوالى سبعة أشخاص ، وجد شاشة بيضاء كبيرة يصدر من خلفها صوتُ أغنية . ثم أطفئت الأضواء ، فأحس بقدرٍ من الرهبة ، وأوجس خيفةً ممن يجلسون بجواره . لكن على أى شىء يخاف .؟ ليس معه سوى ملابسه . بدأت حلقات « زورو » صاحب القناع الأسود والجسد الممشوق ، وهو ينتصر بقوة على كل من يقف فى طريقه . كان معجبًا بمهارة « زورو » أو « الشجيع » كما يسميه رُوّاد « الترسو » ، وفى الوقت نفسه ظل متحيرًا إزاء من يقتلهم « الشجيع » من الأشرار . بعد أن تكررت حوادث القتل زاد يقينه أن العملية تمثيل فى تمثيل . ثم جاء الفيلم العربى فشاهده وأعجب به ، وضحك ، وبكى مع « الأستاذ حمام » . خرج من السينما ـــ بعد أن رأى صورة الملك أثناء السلام الملكى ـــ وهو مُصرّ على العودة ، فقد انتهت الحلقة و « زورو » قد دُمّرتْ العربة التى تجرُّها أربعةُ خيُول .. وهو فيها .. فماذا سوف يفعل فى الحلقة القادمة .؟ عاد إلى البيت ، وهو يلعن الخواجة أندريه الذى عرّفه طريق السينما ..!!

فى خلال فترة الدراسة الثانوية كان يدخل السينما كل أسبوع مرتين على الأقل . كانت تعجبه الأفلام العاطفية المأساوية .. والتاريخية .. وحلقات طرزان ، ومورجان ، وزورو ، ودراكولا مصّاص الدماء .. والرجل الذئب ، ومغامرات القراصنة ، وبعض أفلام لا تُنسى مثل : ذهب مع الريح ، وشمشون ودليلة ، والرداء ، ومرارة الأرز ورُوبين هُود ، وبعض أفلام شارلى شابلن ، ولوريل وهاردى ، وبوب هوب .. بدأ يعرف جيدًا كل أبطال السينما المصرية .. وبعض أبطال السينما العالمية . أخذ يدّخر الملاليم والقروش من أجل السينما . لكن هذه الهواية الجديدة اللذيذة ، لم تشغله كثيرًا عن دروسه .

***

اجتمعت عنده هوايتان : السينما والقراءة ، وشغلا كثيرًا من وقته ، وتصادف أنْ بلغ فى هذه السن مرحلةَ المُراهقة ، فأحسّ أنه يمكن أن يصبح كاتبًا كبيرًا ، ونجمًا سينمائيًا عظيمًا . لكن كيف يصبح « نجمًا » وهو فتى انطوائى ، وابن لرجل فقير ، ويعيش فى ضاحية بعيدة عن أضواء العاصمة .؟!

أول موقف صنعه لكى يلفت نظر الناس إليه ، هو أن يخطب فى المسجد . لكنه يعرف أنه لا يحقّ له — بحكم صغر السن — أن يعتلى المنبر ، أو أن يؤمَّ الناسَ فى الصلاة . جاءت الفرصة المواتية فى إجازة الصيف عندما حل شهر رمضان الكريم . كان لبعض أهل القرية عادة فى الجمعة الأخيرة ، التى تسمّى « الجمعة اليتيمة » ، فقد كانوا يذهبون مبكّرين إلى المسجد ، ويكتبون على ورقة صغيرة « ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظلَّ ،

ولو شاء لجعله ساكنًا. ساكنًا ساكنًا» وتكون فترة الكتابة ما بين الآذان ونهاية الخطبة فقط، وتسمى هذه الورقة المكتوب عليها «فائدة»، تُعطى لمن يرغب فى تحقيق أمنية أو صرف مكروه، فيضعها فى جيبه، وسوف يحقق الله له ما يريد. لم يقتنع الفتى بهذه العادة ورآها فرصة سانحة، لكى يخطب قبل الآذان فى المسجد، محذرًا أبناء قريته من شرِّ هذه البِدعة، التى لم ترد فى القرآن أو السنة. وختم كلمته بقول حسان بن ثابت :

«إن الخلائق فاعلمْ شرُّها البِدعُ»

كان الفتى وهو صغير يبدو صغيرًا جدًا، فهو قصير نحيل ذو صوت خفيض، لذلك أخذه المؤذِّن لكى يخطب وهو واقف على كرسى قارئ السورة، حتى يراه المصلون. يومها كفَّ كل الكاتبين عن الكتابة، ونظر إليه بعض «الفقهاء» الذين احترفوا بيع هذه «الفوائد» غيْظًا، واتهمه بعض زملائه ــ بعد الصلاة ــ أنه يحشر نفسه فيما لا دخل له فيه. لكنه أحس أنه فعل شيئًا ــ رغم أنه كان يخطب من ورقة بصوتٍ مُضطرب.. وأن رجليه كانتا ترتعشان تحت الجلباب. وقد حدَّثه كل من يعرف عن رأيه فى هذه الخُطبة، إلا والده.. و لم يعرف حتى الآن هل كان راضيًا عنه أم غاضبًا منه .؟!

***

كان صيفًا لا ينسى.. بل إنه فى الحقيقة يوم لا يُنسى، إنه يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وقبل الحديث عن هذا اليوم، هناك حدث خاص، تم فى إطار الأسرة يستحقُّ وَقفةً خاصة، حتى لا يضيع فى زخام الأحداث العامة. فقد تُوفى محمد، وترك نبوية التى كان قد عَقد عليها، غير أن أهله

— خاصة الوالديْن — كانوا يرونها فأل شُؤم . أما أهلها .. فكانوا يريدون — أيضًا — أن تَعْبُر ابنتُهم الأزمةَ ، حتى يبحثوا لها عن خطيب جديد ، يُنسيها حبَّها القديم .

هكذا تسير الدنيا ، لا يعوقها مرضُ عزيزٍ ، أو وفاةُ حبيبٍ . غير أن الحياة فى واقع الأمر ، لا تحركها العواطف وحدها — مهما تكن ساميةً . لقد دفع المرحوُم المهرَ ، وقدَّم كثيرًا من الهدايا ، وبحكم العُرف السائد والتقاليد المتبعة فى القرية — بل فى مصر كلها تقريبًا — يجب أن تحتفظ العروسُ بكل الهدايا ، ولا تستخدم أيًا منها — مهما صَغُر — إلا فى بيت الزوجية . فكرت الأم — بحسبة عاطفية ومادية — أن تزوّج ولدها التالى « أحمد » من نبوية . ورأتْ أن هذا قد يحقق رغبةً كانتْ للراحل العزيز ، ويُبقى شيئًا من ذكراه حيةً بينهم . ثم — وهذا أمر مهم — ألا يضيع ما دفعه محمد ، الذى حرم نفسه — يا ولداه — من كل شىء ، حتى يتزوج فى أسرع فترة ممكنة .!!

حين فاتحت الأم أحمدَ فى الأمر ، رفض بحجة أنه صعب عليه أن يتزوج من عروس أخيه ، الذى سيبقى طيفُه حائلاً بينه وبينها . لم تقتنع الأم — بالحدْس — برأيه . ظلت تتقصّى الحقيقة ، وعرفتْ أنه يحب فتاة أخرى ، هى أختُ صديق له . هنا رأى الابن الثالث « حامد » أن هذه فرصة ذهبية ، لكى يتزوج نبوية . لكن أهلها رفضوا ، فإما أن يتزوجها من عليه الدور ، وإلا فلن يكون هناك زواج بالمرّة ..!!

هكذا خرجت نبوية من حياة الأسرة . لكن الكارثة الأدهى كانت فى أحمد ، فقد أقنعته فتاته بضرورة البحث عن وظيفة فى المدينة ، لكى

يستطيع أن يتزوجها دون مساعدة من الأسرة ؛ التي لن توافق ــ نتيجة لما حدث ــ على زواجه منها بسهولة . كان أحمد الذراع اليمنى للوالد فى كل أعمال الحقل ، الذى يعد المصدر الوحيد لرزق الأسرة . المرأة إذا وضعتْ أنفها فى شىء ، فلن تخرج منه إلا بما تريد . تحكمتْ فى أحمد عاطفةُ الشباب العاصفة ، فترك الأسرة ، وذهب يعمل فى شركة للنقل العام .

لا يدرى الفتى لماذا ترك أبوه أحمدَ يفعل ما يريد ، و لم يقف فى وجهه ويفرض عليه أوامره ، و كان سهلاً ومقبولاً أن يفرض آباء ذلك الزمان رأيهم على الأبناء .؟! هل كان هذا التصرف يُعبِّر عن ديمقراطية فى التربية ، تعنى أن الوالد يجب أن يترك الحرية لأولاده ليفعلوا ما يريدون ، أم أن ذلك كان قلة حيلة منه ..؟!

يبدو أن الوالد ــ مثل أىّ والد ــ صعبَ عليه أن يجرح شعور ولده ، حتى لو خالفه وخرج عن طوْعه ، لذلك تركه يمضى ، ولسان حاله يقول ما قاله إبراهيم عليه السلام : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربّى » .!!

الشىء الذى لا يستطيع أن ينساه ، هو أن أباه كان يكثر من الدعاء ، صباح مساء ، مرددًا : « اللهم إنى أسألك فُجاءة الخير ، وأعوذ بك من فُجاءة الشر . اللهم إنى أعوذ بك من الهمّ والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من غَلبة الديْن وقهْر الرجال » . كان أهل ذلك الزمان يستعينون على كل شىء بالعبادة والدعاء إلى الله سبحانه ، ليكشف عنهم من البلاء ما يعلمون .. وما لا يعلمون .!!

هكذا ضاعتْ نبوية ، وانتقل أحمد إلى المنصورة ، وخسر حامد

العروس . أكثر من هذا كان ينبغى على حامد أن يكون المسئول الأول عن شئون الحقل والزراعة بعد رحيل أحمد ، لأن محمودًا التالى له تلميذ فى مدرسة المعلمين ، ومصطفى ما زال صغيرًا بعد ، وصاحبنا تلميذ فى الثانوى . وقد ظل حامد فترة يشكو سُوءَ حظه ، لكنه تحمل قدره بشجاعة ، وحمل العبء بعزيمة الرجال إلى أن تُوفّى الوالد ، فرحل يبحث عن وظيفة فى الشركة التى يعمل بها أخوه أحمد .

***

فى هذه الأيام على وجه التحديد ، بينما كان الفتى يجلس مع ابن عمه فاروق ـــ الذى يقاربه فى السن ويزامله فى الدراسة ـــ فى بيتهم ، سمع من راديو عَمه « الفيليبس » صباح ٢٣ يوليو أن رجال الجيش قاموا بثورة ، وأن الملك فاروق قد تنازل عن عرشه لولىّ عهده ، وأن هناك وزارة جديدة برئاسة على ماهر . أما فاروق ابن العم ـــ الذى سُمى باسم الملك ـــ فقد أخذ يُعلن استنكاره لما حدث ، أما هو فقال له : لا تسبق الأحداث ، يبدو أننا سوف ندخل مرحلة جديدة .

حين ذهب يخبر والده بالأمر ردد قوله تعالى : « قُل اللهم مالك الملك ، تُؤتى الملْك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّ من تشاء ، وتذلَ من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » .

توجه نحو أمه لكى يخبرها بالنبأ ، فأخذتْ تصيح فيه ، كى يذهب بالغداء إلى إخوته ومن معهم من الأنفار ، الذين يعملون منذ الصباح على لحم بطونهم فى شتل الأرز .

هكذا قامت حركة الجيش ، والأسرة غارقة فى همومها الخاصة . لم

يستطع الفتى أن يناقش أحدًا من الأسرة فيما يجرى من أمور ، لم تصل بعد إلى واقع حياتهم ، وتصبح قادرة على كشف أحزانهم . غير أن الأحداث السياسية مرت سريعة ، وبعد فترة لمع اسم محمد نجيب قائدًا للحركة وزعيمًا للثورة . وبدأ من أسموْا أنفسهم بالضباط الأحرار ، يعلنون أنهم « زعماء الثورة » ، وصحب ذلك تأييد جماهيرى واسع . ثم ألغيت الأحزابُ السياسية ــ ما عدا جمعية الإخوان المسلمين ، ثم ألغيتْ هى الأخرى بعد ذلك .

بدأ العهد الجمهورى يوم ١٩ يونيو ١٩٥٣ ، وأصبح محمد نجيب أول رئيس للجمهورية ، كما شغل منصبَ رئيس الوزارة . ثم دخل بعض « الضباط الأحرار » ــ لأول مرة ــ فى تشكيل الوزارة ، حيث تولى عبد الناصر منصب نائب رئيس الوزراء ووزير داخلية ، وعبد اللطيف البغدادى وزيري حربية ، وصلاح سالم تولى وزارتين هما : الإرشاد القومى ، ووزير دولة لشئون السودان ، وتولى عبد الحكيم عامر منصب القائد العام للقوات المسلحة (بعد أن « رقى من رتبة صاغ إلى لواء ... أى رقى أربع رتب دفعةً واحدة ..!!!) .

فى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٣ صدر قرار من مجلس « قيادة الثورة » بمصادرة أموال الملك فاروق .. وتبع ذلك مصادرة أربعة وعشرين قصرًا وتفتيشًا ملكيًا ، وثمانية وأربعين ألف فدان وبضعة ملايين من العملة المُودعة فى البنوك ، ومركبيْن هما : اليخت فخر البحار ، وفيض البحار . هكذا توقف حكم أسرة محمد على بعد قرن ونصف تقريبًا ، وانتهى عهد الملكية فى مصر ، وبدأ عهد جديد ، لا يعلم إلا الله هل سيكون أفضل منها أمْ لا ..؟!

فى ٨ نوفمبر من نفس السنة قرر « مجلس الثورة » أيضًا استرداد أموال الشعب وممتلكاته من أسرة محمد على .. التى آلت إلى أبنائها عن طريق الوراثة أو القرابة أو المصاهرة ، مع ترتيب معاش لمن يستحقون منهم . وقد سُمح لمن شاء منهم البقاء فى أحد قصورهم — مدى حياتهم — مقابل إيجار زهيد .!!

منذ هذه اللحظة التاريخية بدأت اهتمامات الفتى السياسية تنمو وتتشكل ، وأخذ يوسّع دائرة القراءة إلى بعض الكتب التاريخية والسياسية . كان يصعُب على كثير من الصبيان والشباب فى هذه الفترة أن ينفصلوا عن فكر ثورة ٢٣ يوليو ، التى كان إيقاع الحركة فيها سريعًا وعاصفًا .!! وبدأت كثير من خُطط مراحل الدراسة المختلفة تأخذ طابعًا « إعلاميًا » ، حتى دروس التعبير ، دارت فى فلك التعريف بالثورة ومبادئها وفلسفتها ، وقرأ الناس فى الجرائد عمّا كان يفعله رئيس محكمة الثورة فى رجال الأحزاب ، بدعوى أنهم أفسدوا الحياة السياسية فى « العهد البائد » ..!!

***

دخل الفتى طورَ المراهقة ، لكنه لم يتخل عن قراءاته الأدبية ومشاهداته السينمائية ، والعناية بأمور السياسة المصرية . مع عطلة صيف ١٩٥٣ ألف ستَّ روايات ، وكتب لها الحوار والسيناريو — كما يفهم فتى فى مثل حاله .!! وبالطبع جعل فى كل رواية « دورا » لشخصية فى مثل سنه ، فقد كان طموحُه — حينذاك — أن يصبح (نجمًا) فى الأدب ، و (بطلاً) فى السينما فى وقت واحد . وكانت قضية السودان — حينذاك

ـــ ساخنة ، والمفاوضات دائرة ـــ بقيادة صلاح سالم ـــ من أجل تدعيم الوحدة بين البلدين ، لذلك جعل إحدى هذه الروايات الستّ تدور أحداثها فى « السودان » . وقد نوع فى موضوعات القصص ـــ التى ألفها ـــ لكى تتيح له أن يمثّل مع كثير من النجوم السينمائية ، الذين كان معجبًا بهم ـــ رجالاً ونساءً .!!

المشكلة الكبرى التى تمثلت أمامه ، هى : كيف يقنع الأسرة بالموافقة على سفره إلى القاهرة ، وتدبير مصاريف السفر وتكاليف الرحلة . ؟! ذهب فى البداية إلى أمه ، وكانت تطبخ أرزًا وبامية وأوزة . (أهل القرية كانوا يسمون الطيور « ظفر » !!) أخذ يحدّثها ، وهى غير ملتفتة إليه ، وهى تهدد ابنتها الصغرى زينب ، لكى تنتهى من تقشير الثوم سريعًا ، لعمل « الفتة » ، لأن الوالد يحبها ، وكان حين يَطعَمها يقول : « فضلُ الثريد على الطعام كفضل عائشة على سائر النساء » .!! أعطته الأم كبدة الأوزة ، وقالت دون مبالاة : كُل هذه ، ولا توجع رأسى .. ليس معى فلوس .

صلَّى العشاء فى المسجد ، حتى يرقب مسيرة أبيه بعدها ، ويجد فرصة يكلمه فيها . تعمّد فى هذه الليلة أن يصلى قريبًا منه فى الصف الأول خلف الإمام . حين شاهده عبد العزيز الرشيدى ، وهو فلاح ضخم الجثة صاح فيه : لم لا تتأخر بعيدًا مع الأولاد .؟ فرد عليه : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وظل فى مكانه .!

سار بالقرب من والده وهو عائد إلى البيت ، لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة ، كى يكلمه فى الشارع . ألحَّ على الوالد أحدُ الرجال ، لكى

يشرب القهوة عنده ، لكنه اعتذر .

أدرك الوالد بعد أن وصلا إلى البيت أن فى الأمر شيئًا ، فسأله :

* هل تريد شيئًا .؟!

حمد الله أن أعفاه الوالد من البحث عن وسيلة لبدء الحديث . أخذ يكلمه بصوت خافت عن مشروعه الأدبى ، وعما ينتظره من مستقبل إذا وافق أبوه وتكرم وأعطاه فرصة . قال الوالد ، وهو يلبس ملابس النوم ، ويضع طاقية من الصوف على رأسه بعد أن خلع العمامة :

* ما زلتَ صغيرًا يا بنّى . انتبهْ لدروسك الآن ، وهذا يكفى .

* لقد نجحتُ .. ونحن فى إجازة .

* يمكن أن تذاكر دروس السنة القادمة ، أوْ أن تحفظ شيئًا من القرآن ، حتى يفتح الله عليك .

* ألم تسمع عن طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل . ؟! إنهم كتّاب كبار ، وقد قرأتُ لهم جميعًا ، يا أبى أطال الله عمرك ، وأنا .... أريد — إن رضيتَ عنى ، وأذنت لى — أن أكون مثلهم .!!

* الصبر طيب .. وربنا يسهل .

كلمة « ربنا يسهل » هذه عند الوالد معناها أنه غيرُ موافق ، ويريد إنهاء الحوار . أحس أن آماله قد صارتْ كومةَ قَش .!! لا فائدة .. الوالدان غير مقتنعين .. ولن يقتنعا .!! خرج إلى طريق الأمل — طريق الترعة ، وسار وحيدًا ، تشدّه الأحلام ، وتشلّه الحاجة ، وتعجزه الفاقة . أخذ يفكر فى كل مصدر يمكن أن يحصل منه على مال . خجل أن يذهب إلى خاله ، الذى يعمل فى بلدة بعيدة ، أو إلى خالته ، التى تعيش فى بلدة

مجاورة ، فكلاهما إذا رآه لا بد أن يعطيه . لكن حتى لو أعطياه .. هل يمكن أن يأخذ ما يكفى لرحلة عمل ؟ إنه يريد مصاريف كثيرة ، ليشترى أيضًا قميصًا وبنطلونًا وحذاء ، لكى يقابل نجومَ السينما ، الذين يحلم بأن يكون واحدًا منهم .. والمظهر شىء أساسى لمن يريد أن يصبح نجمًا ..!!

عند العودة وجد أخاه حامدا يجلس على مصطبة أمام الدار مع بعض زملائه . بعد أن ذهبوا .. كلّم أخاه فى الأمر ، وبما حدث له مع الأم والأب ، وذكر له أنه مُصرٌّ على أن يقوم بهذه الرحلة ، التى قد تفتح له وللأسرة بابًا من ذهب . رأى حامد فى نبرة أخيه حزنًا ورغبة ، فأخبره بأنه يدّخر جنيهًا ، كان يريد أن يشترى به جلبابًا ، لكنه سوف يعطيه إياه ، ويحضر له عنوان قريب لهم فى القاهرة ليقيم عنده . كما أنه سوف يحدّث الأمّ لكى تتصرف ، وتعطيه بعض ما معها ، أو تبيع أى شىء .. فهى طيبة القلب سريعة الإجابة .. وما عليه بعد هذا إذا أعطاه الوالد أو لم يعطه .

***

نزل القاهرة مزهوًا بثيابه الجديدة ، وبسلة الزيارة التى يحملها لقريبه « المتطوع فى الجيش » ، فرأى أولَ ما رأى ميدان « باب الحديد » وتمثال « نهضة مصر » فى وسطه . الفرق شاسع بين المنصورة والقاهرة — التى يسمّونها « مصر » ، فقال فى نفسه « صحيح .. مصر أم الدنيا » . وقد زاد إحساسه بهذا الشعور ، حين وصل إلى ميدان « القلعة » — قلعة صلاح الدين الأيوبى . أخذ — منبهرًا — يتأملها وعبق التاريخ ، يطل من كل مكان فى الحىّ العتيق العريق . أحس قدرًا من التفاؤل ، وهو يجوب

الحارات الملاصقة للقلعة بحثًا عن بيت الشاويش سيد إبراهيم . أخذ يدعو الله فى سره ، فهو يؤمن — مثل كل أهل القرية — أن الإنسان حين يدخل مكانًا أول مرة ويدعو ، فإن الله يستجيب دعاءه . ماذا يستطيع فتى حالم أن يفعل فى مدينة ، نزلها أول مرة .؟! لقد بهرته المدينة الكبيرة بصخبها وزحامها ، وحركة الناس التى لا تهدأ فيها ليل نهار ..!! كان يركب الترام من أول الخط إلى آخره بثمانية مليمات ، لكى يرقب القاهرة بعين العاشق الولهان . وقد اكتشف بالمصادفة أنه يمكن أن يسير من « القلعة » إلى « السيدة زينب » وإلى حىّ « الحسين » مشيًا على الأقدام ، حيث يشهد عن كثب روعة التاريخ وعظمة الماضى .!! كان يخرج فى الصباح ولا يعود إلا مع منتصف الليل ، قبل أن ينام قريبه — الذى أبدى قدرًا من الخوف عليه ، وحذّره من الضياع .. ومن النشّالين .. ومن النصابين . لكن عِشقَ الآثار ملك عليه نفسه . عاش يومًا كاملاً فى القلعة ، وشاهد آثار صلاح الدين ، ومحمد على باشا . ثم رأى الأهرام وجلس يتأمل أحجارها ، وأحس بزهوٍ بالغ ، حين أدرك أنه واحدٌ من أحفاد أولئك العمالقة العظام ، الذين بنوا تلك الأهرامات ، التى تعدّ إحدى عجائب الدنيا .!!

كاد هيامه بالآثار ينسيه الحلم الكبير ، الذى جاء من أجله إلى القاهرة . عاد ذات ليلة ، ونام مبكراً ، حتى يستعد للقاء الخطير .. والحدث الجلل .!! غدًا تبتسم الدنيا ، ويفتح المجدُ أول صفحة فى دفتره ..!! تخيّل نفسه كاتبًا كبيرًا .. ونجمًا لامعًا ، يمثّل فى السينما ، ويظهر بين من أعجب بهم من النجوم .

***

قام فى الصباح الباكر ، وصلّى الصبح حاضرًا ، وأخذ يتلو بعض أوراد أبيه وأدعيته ، مرددًا إياها .. خاشعًا فى الدعاء إلى الله سبحانه ، ليفتح أمامه الأبواب المغلقة . حينما توجه نحو « استوديو مصر » فى شارع الهرم ، وجد على بابه حارسًا نوبيًا ، ضخم الجثة جهم الملامح . أراد أن يدخل ، فنهره بشدة ، قائلاً :

* هنا مكان شغل يا ولد .. إنت فى شغل ..؟

* لا .

* إنت فى موعد ..؟

* لا .

* إنت ما فى شغل .. ما فى موعد .. إنت عايز إيه ..؟

* أنا .. ..

قاطعه بشدة : إنت يروح البيت حالاً .

أغلق البابُ فى وجهه ، فأحس أن الدنيا سوداء معتمة . لم يكن الباب المغلق سوى صخرة حطمتْ آماله الخضراء . مستحيل أن يقبل الهزيمة بمثل هذه السرعة ..!! لا بد من الصبر والتفكير . أخذ يفكر ، وقد أسند ظهره إلى جدار السور . هذا السور ليس سور استوديو مصر ، إنه ـــ كما تخيّل فى تلك اللحظة ـــ سور قصر الباستيل ، الذى كان سجنًا للأحرار عندما قامت الثورة الفرنسية . فى أية رواية قرأ هذا ..؟ لا يدرى ..!!

أخيرًا هداه تفكيره أن يقف على الرصيف المقابل ، وينتظر قدوم واحد من نجومه المفضلين .. أىّ واحد من الممثلين ، وقبل أن يدخل يحدّثه عن مشروعه العظيم ، وسوف يستجيب له بإذن الله ..!! طالت

الوقفة .. حتى عجزت ساقاه عن حمله ، جلس على الرصيف المقابل ينتظر الفرج . لكن السيارات كانت تأتى مسرعة .. وتدخل مسرعة ، ولا يجد فرصة للكلام . استمر ثلاثة أيام ، وهو على هذه الحالة ، بلا جدوى .. أو فائدة ..!!

بدأ يدرك — لأول مرة — أن الموهبة وحدها ، لا تصنع شيئًا . لا بد من واسطة .. أو على الأقل معرفة ، تساعده على الوصول إلى ما يريد ..!! تحت أشعة شمس يوليو الحارقة .. ووسط غُبار الطريق ، بدأ اليأس يدبُّ فى قلبه شيئًا فشيئًا ، وأحس ببرودة الهزيمة ومرارة الانكسار .!! ماذا لو كان أبوه من عِلْيَةِ القوم .. أو ذا مكانة مرموقة .. أو صاحبَ منصب أو ثروة .. أو على الأقل من سكان القاهرة .؟! هل كان سيلقى مثل هذا التجاهل والاستنكار .؟! أحس قدرًا من الأسى وتأنيب الضمير ، حين راودته فكرة أن يُلقى اللومَ على أبيه ، ذلك الفلاح المسكين . إنه لم يتعلم ، ومع ذلك حرص على أن يعلم — ما استطاع — معظم أولاده ، وهو أيضًا — شبه معدم — لكنه يحاول — رغم الفقر — أن يفعل ما يقدر عليه ، معتقدًا أن الله سوف يوفّق أولاده إلى طريق الخير والنجاح ، ببركة صلاته القائمة ، وصيامه المستمر ، ودعائه الذى لا ينقطع .

عاد إلى نفسه حيران أسفًا ، يستغفر ربه على ما خامره من ظنون فى حق والده التقىّ النقىّ . وهو يتحرك راجعًا أبصره البوابُ فأشفق عليه ، وأخذ يقدم له نصائح طيبة حول الدراسة والنجاح ، وأن الشهادة هى طريق الوصول والدخول لأىّ بابٍ مُغلق .!!

بقدر ما سعد بالقاهرة ضاق بها ، وقرر أن يعود صباح اليوم التالى .

لولا ملابسه ، والخشية من قلق قريبه ، لرحل فى التوّ واللحظة . مع هزات القطار أثناء العودة إلى القرية .. كان هناك شيء واحد يشغله ، بل يرعبه ، هو : ماذا يمكن أن يقول لأهله .؟ إنه غير معتاد على الكذب ، ولو فعل ما استطاع أن يُكمل جملة واحدة ، سوف ينكشف أمره ، وتبدو خيبته ناقعة ، خاصة أمام أخيه مصطفى ، الذى يسخر من كل شيء يراه أو يسمعه .!! ستكون كذبةً بيضاءَ .. الأولى والأخيرة ، ولن يفعلها مرة ثانية . قرر أن يدَّعى أن بعض رجال السينما قابلوه .. ورحبوا به ، ووعدوه خيرًا بعد أن يحصل على الثانوية العامة . وقد احتار فى أمر نفسه .. لم لا يقدر على أن يكذب فى أىّ أمر ، بل لو كذبَ لسانُه ، فسوف تفضحه ملامحُ وجهه ، وصفاء عينيه .؟! عمّن ورثَ هذه الخصلة ، التى توقعه — أحيانًا — فى بعض المواقف الحرجة ؟. لا يدرى .. لكنه لا يزال مؤمنًا بأن الصدقَ .. أقربُ طريق للوصول إلى الحق والحقيقة .!!

ومن عجبٍ أن كل ما عمل له ألف حساب وحساب لم يتحقق . لم يسأله أحد عما فعل .. حتى حامد .. وأمه . الكلمة الوحيدة التى سمعها من الجميع هى : حمدًا لله على السلامة .

شكر الله أن أعفاه من الكذب .. ومما هو أسوأ من الكذب .. وهو أن تبدو فاشلاً ، حتى أمام أقرب الناس إليك .!!

***

أول الحب عبادة

انتقل الفتى من المنصورة إلى دمياط ، حيث كان يعيش أخوان له هما أحمد ومحمود ، الذى تخرّج فى مدرسة المعلمين وصار مدرسًا . كان التخصص فى المرحلة الثانوية ـ آنذاك ـ يبدأ من السنة الثانية . اختار الشعبة الأدبية بلا تردد ، كان بينه وبين علوم الرياضة بصفة عامة ، والجبر بصفة خاصة عداء شديد . أما اللغاتُ والمواد الاجتماعية فكان يحبّها ويحفظ دروسها عن ظهر قلب . أكثر من هذا اختار التخصص الفرعى فى اللغة العربية ، لأنه الطريق إلى دراسة الأدب وتنمية الهواية القصصية ، التى شُغل بها قراءةً وكتابةً . أراد فى البداية أن يكون طبيبًا .. لكنه عندما عرف أن طريق الطب يمرُّ بمادة « الرياضة » ودّعه غير آسفٍ ، وقال مرحبًا ثم مرحبًا بالقسم الأدبى . ليس هناك تخصص أفضل من آخر ، المهم أن يُجيدَ المرءُ اختيار الطريق ، الذى يتلاءم مع قدراته وملكاته .. وبالتالى ليستْ هناك مهنةٌ جليلة وأخرى وضيعة . أن تكون مدرسًا ناجحًا أفضل ألف مرة من أن تكون طبيبًا فاشلاً . هكذا كان مقتنعًا بأنه قد وُفّق فى اختيار مجال دراسته ، لأنه نجح بعد ذلك ، وكان الأول على القسم الأدبى بمدرسته فى الثانوية العامة سنة ١٩٥٦ .

فى دمياط عرف طريقَ الحب .. الحب الأول . التقى بسوسن مصادفةً عند جارة لهم ، وهى طالبة فى مدرسة المعلمات ، فى مثل سنّه

تقريبًا . كانت ـــ رغم اليُتم والفقر ـــ عذبةَ الروح ، خفيفةَ الدم ، خصبةَ العطاء .. ذاتَ وجه قمحىّ اللون ، وشعر قصير مموّج ، وعود نحيل ، وعينيْن عسليتين ، تظهران كل ما بداخلهما من مشاعر فياضة . وهى أول كائن يعرف منه أن هناك لغةً للعيون .. قد تكون ـــ أحيانًا ـــ أقوى تعبيرًا من أىّ كلام .!!

سألته فى البداية أن يكتب لها موضوع تعبير .. ثم تطورتْ موضوعاتُ التعبير إلى رسائل غرامية ، تُوضع فى الدفتر أو الكتاب المتبادل بينهما ، لأنه وظّف كافة مهاراته الأسلوبية فى غزْو القلبِ الأخضر .

تواصلتْ الرسائل ، واشتعلتْ نيرانُ الشوق فى القلوب العذراء . قلوبُ الصبا ـــ مثل الكبريت ـــ تُوقدِ من حَكة واحدة . الحبُّ ـــ كما تراءى له فى هذه الأيام ـــ شىء لذيذ ، ألذُّ من الأكل والشرب والنوم ، بل إنه ألذُّ وأعزُّ شىء فى هذه الحياة . فتح الحبُّ طريقَ الشعر ، وبدأ يبحث عن دواوين جميل بن معْمر والعباس بن الأحنف وأحمد شوقى وإبراهيم ناجى ، وأصبح الشعرُ رافدًا جديدًا من روافد قراءاته وثقافته . قرأ عن الحب روايات وقصصًا كثيرة ، لكنه وجد أن الشعر حين يُصوّر الحبَ ينقلنا إلى عوالم محلّقة بعيدة عن الدنيا والناس . أكثر من هذا بدأ يدرك أن كل مواقف الحياة نثر .. لكن الموقف العاطفى وحده ، هو الشعر . كما أن كل كائنات الدنيا نثر .. أما المرأة فهى شِعْرُ الوجود .!!

جعله الحبُّ يزدادُ إيمانًا بحالة العُزلة التى يميل إليها . بدأ يعرف أحلام اليقظة .. وأحلام النوم . كان الحلم كله سوسن ، الحبيبة التى جاءت على غير موعد ، فالحب قدرٌ لا اختيار فيه . لم تكن سوسن فتاة باهرة الحسن

أو بضة الجسد ، لكنها عذبة الروح .. صريحة .. واضحة .. لا تميل إلى اللفّ أوْ الدوران .. ما فى القلب على اللسان . وهذا ما زاده اقترابًا منها وإعجابًا بها .

كان يخرج من المدرسة مع بعض الزملاء ، ويتوجّهون إلى مدرسة المعلمات ، ليرى كل منهم فتاته . بعد قليل يتفرق كل واحد خلف صاحبته ، إلى أن يخلو الطريق من الزملاء والزميلات ، فيلتقى كل محب بمحبوبته ، ويسير معها مسافة يسيرة ، ويحدّثها كلماتٍ محدودة . لكن هذه اللحظة كانت تعادل دهرًا بأكمله من السعادة والبهجة ..!!

***

فى شهر مارس من هذه السنة ، سنة ١٩٥٤ ، أُعفى محمد نجيب من رئاسة الجمهورية ، وشغل المنصبَ جمال عبد الناصر . كان حزنُ العاقلين كبيرًا على نجيب ، لأنه دعا إلى عودة العسكريّين إلى ثكناتهم بعد أن نجحت الثورة ، أو كان يدعو — على الأقل — إلى تطعيم الحكومة — التى تحوّلتْ إلى حكومة كلها من الضباط — بشخصيات مدنية ، حرصًا على سلامة المسيرة ، وضمانًا لتحقيق الديمقراطية . هكذا بدا نجيب للضباط الأحرار شخصية معتدلة أكثر من اللازم ، فدبّروا للإطاحة به ، خاصةً وأنه قد صار — بالنسبة لهم على الأقل — ورقةً أدّتْ كل المطلوب منها ، وأصبحت الثورةُ آمنةً على وضعها فى الحكم والحكومة . تلا ذلك بمدة قليلة أن صلاح سالم فشل فى المهمة الدبلوماسية التى كانت مُوكلة له ، وهى التقريب بين السودان ومصر من أجل وحدة تضم البلدين الشقيقين . لكن بعض الظروف المحلية فى البلدَيْن — بتدبير من الإنجليز

والأمريكان — حالت دون الوحدة ، فانفصل السودان .. وحدث الانفصال بين القطرين بعد وحدة طويلة المدى .!! ثم استقال أو أقيل صلاح سالم ، كما استقال أخوه — جمال سالم — تضامنًا مع أخيه . وهكذا بدأ الضباط ، يُصفّون بعضهم بعضًا .!!

سأل نفسه — فى تلك السن المبكرة — سؤالاً ، ظل يلحُّ عليه فيما بعد كثيرًا ، حول العلاقة بين تنحية محمد نجيب وانفصال السودان . وقد تأكد لديه فيما بعد أن العلاقة قوية بين الاثنين ، خاصة وأن نجيب كان نصف مصرى ونصف سودانى . هكذا انفصلتْ مصرُ عن السودان الشقيق .. وتلك كارثة لم تقع ، حتى أيام الحكم الحزبى .. والملكية الفاسدة .. والاستعمار الأجنبى . لم يكن يدرك بالضبط حجمَ كارثة انفصال السودان عن مصر .. غير أن إحساسًا بالكآبة ، سيطر عليه مدة طويلة . فقد كان يؤمن — ولا يزال — بأنْ لا خلاص لهذه الأمة إلا بالوحدة الشاملة .!!

لم تكن الجرائدُ — فى تلك الأيام — تذكر الحقائق كلها ، غير أن كثيرًا من هذه الأفكار كان يتردد فى مجلس والده ، وبين بعض أصدقاء إخوته .. ولا سيّما بقايا الإخوان والوفد ، الذين كانوا ينظرون إلى عصر الثورة والضباط — أو إلى « حُكم العسْكر » .. كما يقولون — نظرةً لا تخلو من عداءٍ وريبة .!!

***

هناك أمر آخر لم يعرف الكثيرون حجمه الحقيقى فى حينه ، وهو ضياعُ مجوهرات وتحف قصور أسرة محمد على ، التى كانت تمثل جزءًا من

تاريخ مصر وكنوزها الأثرية .. وقد ذهب الكثيرُ منها إلى حيث لا علم لأحد بها — حتى اليوم — سوى الله سبحانه وتعالى . وقد باءتْ بالفشل فيما بعد كل الإجراءات ، التي حاولتْ إعادتها مِن جديد .!!

فى صيف سنة ١٩٥٤ .. أطلق رجل من الإخوان المسلمين النار من مسدس على عبد الناصر ، وهو يخطب فى ميدان المنشية بالإسكندرية . وقد اتُخذ هذا الحادثُ الفردى ذريعةً لضرب الإخوان أجمعين ، وحلّ الجماعة وإغلاق كافة شُعبها ، واعتقال أعضائها البارزين ، إلا من استطاع الهربَ إلى بعض البلاد العربية . وما زال البعضُ يعيش ويعمل هناك إلى اليوم . ليالٍ صعبة وذكريات بعيدة .. لكن الحياة تمضى ، ونجمُ عبد الناصر يزداد بريقًا مع الأيام ، خاصة وأنه كان آسرًا حين يخطب ، جسورًا عندما يتكلم . وبدأ كثير من أبناء الشعب المصرى والعربى ، والعالم الثالث يرون فيه صورةً لزعيم ، مناضل للاستعمار ومحرر للشعوب ، سوف يقوم بدور تاريخى بالنسبة للمنطقة كلها .!!

***

مثلما يحمل المسافر زاده — عاد الفتى لقضاء عطلة الصيف ، وهو يحمل منديلاً أبيض من سوسن ، مرسومًا على أحد أطرافه وردة — رمزًا للحب والأمل — وحولها من الناحيتيْن الحرف الأول من اسم كلٍ منهما . كان ذلك المنديل الجميل .. أول هدية يأخذها فى حياته من امرأة .

عاد إلى القرية .. وإلى العزلة .. وإلى القراءة . لكن نداء الحبّ وأشجان الوجد ، كثيرًا ما كانا يُؤرّقانه . ووجد السلوى فى صديق وحيد ، يأنس

إليه هو حسن الفار . كان فتى حالمًا رقيقًا .. لا يحبُّ الدراسة ، وإنما يحب لعب كرة القدم بكل طاقاته الشابة ، كما يحب الغناء ، ويجيد تقليد أصوات كثير من المطربين والمطربات . وقد تعجَّب من نفسه ، كيف مرتْ عليه كل تلك الفترة دون أن يستمتع بالغناء . الفنون كلها وحدة واحدة ، ومن يحب نوعًا منها يحب بقية الأنواع . صحيح أنهم لا يملكون راديو ، لكن الاستمتاع أمرٌ مقدور عليه ، فقد كثرت أجهزة الراديو فى القرية .. والمواعيد التى تذاع فيها الأغانى معروفة ، ويسهل أن يجد زميلاً يقضى عنده هذه اللحظات . ثم هناك حسن ، وهو على استعداد لغناء أية أغنية عاطفية فى أى وقت . بدأ يعشق الموسيقى والغناء مثلما أحب القراءة .. وحِفْظ الشعر .. وكثرة التأمل .. بسبب الحب الأول ، الذى سيطر عليه .!!

جزء كبير من مشكلة الحب فى بلادنا ، أنه يصعُب .. وربما يستحيل أن تُحدّث فيه واحدًا من أقاربك المقربين . المتنفس الوحيد .. هو زميل أو صديق من نفس سنّ المحب ، وبالتالى يبنى الفتيانُ بيوتًا من الرمال ، قد تنهار مع أول هبة للريح . كان طه يجلس مع حسن ساعات طويلة من الليل .. ويتحدثان عن الحبّ ، وعن أحلام المستقبل . كان كل أمل حسن أن يصبح « حارس مرمى » فى فريق لكرة القدم .. وكان مثلَ طه غارقًا فى حب ابنة الجيران فى المنصورة . بالطبع حبّ بنات القرية ليس سهلاً ، فأكثرهن — غير متعلمات ، وأكثرهن ، حتى لو لم تربط الشباب بهن صلة قرابة أو نسب أو جيرة .. فهنَّ — فى الغالب — فى منزلة تقرب من منزلة الأخوات ، وإذا حدث وتمت قصةُ حب — كالتى حدثت بين محمد

ونبوية — فإنها تتم فى الغالب سرًا .. وحين تبدأ خيوطها فى الظهور ، يرخى أهل المحبوبة الحبل ، أملاً فى زواج قريب .!!

كانت ليلة مقمرة من ليالى أغسطس سنة ١٩٥٥ عندما ذهب إلى حسن ، وجلسا على حصيرة فوق سطح داره ، يتكلمان فى الحب والسياسة ، ويحلمان بالمستقبل البعيد . كان حسن متعاطفًا مع الإخوان — بحكم أن له أخًا منهم ، وكان الفتى مؤمنًا بالثورة ، التى تُعلن فى كل مناسبة حرصها على حرية الوطن والمواطن . ورغم ما كان بين الصديقين من خلافات سياسية ، فإنهما كانا متقاربين .. ومتفاهمين بدرجة قوية . سرعان ما تركا حديث السياسة إلى حديث الحبّ .. وإلى الغناء . وغنّى حسن فى ضوء القمر :

صافينى مرة وجافينى مرة ولا تنسانيش كده بالمرة

وهى أغنية لمطرب جديد ، هو عبد الحليم حافظ ، الذى جذب انتباه الكثيرين — ولا سيما الشباب — بصوته العذب الجميل .!!

فى طريق العودة إلى البيت — (بالمناسبة أصبح لأسرته بيتان متجاوران إلى حدٍ ما — فقد ضاق الأبُ بالبيت القديم ، بعد أن ماتت الجدة — رحمها الله ، كما أن الأبناء قد كبروا ، وصار البيتُ لا يتسع لهم ، فاشترى قطعة أرض وبناها ، وانتقلت الحياة بكاملها إلى البيت الجديد ، لكن البيت القديم ظل على حاله ، مكانًا للنوم ، خاصة لمن يتأخر فى السهر من الأبناء .) — بدت القرية على غير عادتها ، فهى الآن فى موسم القطن ، موسم المحصول الرئيسى للفلاح المصرى . لذلك تدبُّ الحياة فى القرية ، وتغمر القهاوى ، ويكثر بائعو الفاكهة والخضروات . ويسهر

أصحاب دكاكين البقالة والقماش إلى قرب منتصف الليل ، كما تكثر محلات الفول والطعمية فى أثناء ذلك الموسم أيضًا .

قابله أخوه مصطفى يحمل كيسًا من البلح الأسمر والجوافة . أعطاه ثمرة جوافة ، وهو يلفظ نواة بلحة ، فقال له :

* لا تأكل شيئًا قبل أن تغسله .

فرد عليه وهو مستمر فى عملية الأكل : قُلْ يا باسط .!!

كان يعلم أن أخاه مصطفى ــ مثل كل أبناء القرية ــ يخفون أثناء الجنى كمية من القطن فى حقل مجاورٍ دُونَ أنْ يعرف الوالدُ أو الأخ الكبير، ومن ثمنها يشترون ما يشتهون من فواكه وحلويات ، أو يجمعون القروش لشراء جلباب أو حذاء .. أو هدية للفتاة التى يحبّونها ..!! كان مصطفى أكثر إخوته جرأةً فى إخفاء القطن .. وبالتالى كان أكثرهم بذخًا فى الصرف ، فقد كان محمود وطه يجمعان مدخراتهما لشراء بعض ما يلزم لبدْء العام الدراسى .. وحفلات السينما ، أما مصطفى فقد كان فلاحًا عبثيًا ــ بعد نفوره الشديد من التعليم ــ كل ما معه يأتى من اليدِّ إلى الفم . وربما كان هذا هو السبب فى أنه الوحيد ، الذى بدأ يدخّن السجائر فى سن مبكرة . وقد شجعه على هذا أيضًا أن الوالد أرخى قبضته عن الأبناء بعد وفاة محمد . كثيرًا ما حيّرته فلسفة أبيه الديمقراطية فى التربية ، فهو لا يكاد يتذكر أنه سأله يومًا هل يذاكر أم لا ، أو .. فى أىّ صف من صفوف الدراسة هو .؟ كان يؤمن ــ مثل كل رجال القرية فى ذلك الزمان ــ أن عليهم مسئولية الإنفاق .. وعلى الأبناء ــ إن أرادوا مصلحتهم ــ مسئولية النجاح .!!

***

حين يسترجع المرءُ ذكرياتِ الماضى يحسُّ ـــ أحيانًا ـــ أنه حيال إنسان غريب .. وعالم عجيب ، بينهما مسافة شاسعة فى الفكر والسلوك . لكن أيًا ما كان نوع الغُربة أو حجم العَجب .. فإنهما فى النهاية الفارق المنطقى بين مرحلة وأخرى من مراحل الحياة الخاصة والعامة ، لذلك تظل بين الاثنيْن دوْمًا روابط ثابتة ، رغم بعض مظاهر التغيُّرِ والاختلاف .!!

هذا هو الإحساس المطرد ، الذى يعتمل فى صدره كثيرًا ، عندما كان يجلس ليستعيد ذكرياته البعيدة أو القريبة ، بحثًا عن عُنصرىْ الثبات والتغيّر فى مسيرة حياته ومكونات شخصيته . وطالما أن التغيّر هو قدر الحياة والأحياء .. فلا غرو أن تتغير كثير من مظاهر الفكر والسلوك ، وإنْ بقيت بعض السمات النفسية والعادات الخلقية ، التى اكتسبها من واقع القرية المصرية ، هذا الواقع الأصيل ، الذى يتغيّر بهدوء محافظ . وقد رأى ـــ فى النهاية ـــ أنه نبتة طبيعية لمجتمع القرية بكل ما فيه من براءة ، وما هو عليه من ظروف قاسية .

عندئذ وصل إلى هذه الفكرة قال لنفسه : فلندع هذا التفلسف ، ونرجع إلى السيرة والمسيرة ، فإن فيهما صورة صادقة ، لما كان عليه الحال ، وانتهى إليه المآل .!!

أيامُ جنى القطن كانت أيامًا لا تُنسى . بعد أن يُصلى الوالد الفجر ، يوقظ الأسرة جميعًا .. للصلاة قبل مشرق الشمس ، ثم يذهبون إلى الحقل . أما الأم فكانت توقظ هى الأخرى ابنتها الصغرى زينب ، التى كانت تقوم بعمل امرأة وهى فى العاشرة من عمرها ، حيث تساعد الأم

فى خبز العيش فى الفُرن ، وفى طبخ الطعام على الكانون .. (بالطبع استخدام موقد الكيروسين « وابور الجاز » كان نادرًا) ، وفى إعداد الطعام وغسْل المواعين والملابس ، وأحيانًا إحضار الماء من الترعة إنْ مرض السقَّاءُ . كانت الأم تُعْلِمُ طفلتها بما تريد مرة واحدة فقط ، وتطلب منها العمل ، وإن أخطأتْ تقرصها قرصةً شديدة ، حتى تتعلم سريعًا ولا تنسى . الأم وحيدة .. لا معين لها ، والأسرة كبيرة العدد ، كما أنها بدأت تشكو من بعض الآلام الروماتيزمية بعد وفاة محمد . وقد أفادت هذه التربية القاسية زينب فى حياتها فتاة وزوجة .

ومن العجيب أن الأم ، لم تكن تختلف كثيرًا عن الرجال فى موقفها من خلف البنين والبنات ، فهى تعتزُّ — مثلهم — بإنجاب البنين ، مرددة قولتها الشهيرة « الولد وتد » ، أما البنت فهى مصيبة .. أو بلاء على أقل تقدير ، وتقول « موت البنت هنا .. وإنْ كان عِطرها (أى .. جهاز فرحها) على القنا » . رغم كل هذا فقد اكتشف فى مواقف كثيرة أن الأم تحب ابنتها حبًا ، يعادل حب الأبناء الذكور كلهم . كانت زينب بالنسبة لها الابنة .. والصديقة .. ثم كانت هى الوحيدة التى تحملتها فيما بعد أثناء مرض الموت ، الذى أقعدها عن الحركة .

كان مصطفى يقفز من النوم فى الصباح بهمة مثل العفريت ، ويمر على من يحضرون لجمع القطن عندهم رجالاً ونساء . وكان يعمل معهم مثل واحد من الأجراء ، حتى يشدّوا الحَيْلَ فى العمل ، ولا يتكاسلوا . أما حامد فقد صار هو المسئول عن أعمال الحقل بعد أن سافر أحمد إلى دمياط موظفًا .. وأقام هناك مع زوجته وطفله الوليد . حامد هذا كان

شابًا هادئ الطباع ، لا يتكلم كثيرًا ، وإنما يرقب حركة الجميع ، ويدير الأمور فى هدوء وصبر . أما محمود .. فكان يعمل .. ولا يعمل فى الوقت نفسه ، فهو يساعد مَنْ يتخلّفُ من العمال ، ويحمل القطن من الجامعين فى قفة ، ثم يضع القفة تلو الأخرى فى كيس . وحين يمتلئ الكيس قربَ موعد أذان الظهر ، يذهب بكيس القطن إلى الدار على الحمار ، ويعود بطعام الغداء ، الذى تكون الأم قد انتهت من إعداده . الطعام يتكون من خبز بلدى كبير ، وجبن قريش ، أو جبن من المش ، ومجموعة من البصل الأحمر ، وبعض الخضار الطازج مثل الفجل والخيار والطماطم وحلة كبيرة من الطبيخ بها : بامية أو ملوخية أو كوسة أو لوبيا .. ونادرًا ما تكون هناك فاكهة مثل البلح الأسمر أو الجوافة أو العنب ، فهذا ترف كبير ، لم يكن الفلاحون أصحاب الأرض أنفسهم قادرين عليه .!!

أما الماء الذى يشربون ، فهناك « بلاّص » كبير ، يملأ كلما فرغ من الترعة المجاورة ، ويُروَّق بالشبة ، أو نوى المشلمش ، كانت تملؤه دائمًا أسبق العاملات .. ثم تملأ « قُلة » ، تدور بها على من يريد الشرب .

أما الوالد — رحمه الله — فقد كان يمرُّ على حقله أثناء الجنى مرة فى الصباح ، وأخرى بعد صلاة العصر . أحيانًا قليلة .. يبقى اليوم كله مع العمال ومع أبنائه ، حتى يشجعهم على العمل ، وهو سعيد مسرور على غير العادة ، حيث كانت زراعة القطن تشكّل له — ولكل فلاح مصرى — إلى عهد قريب الزرعة الرئيسية . فالقطن المصرى أجودُ أنواع القطن فى العالم — بسبب طول تيلته ، كان كل فلاح يربط مشاريعه الكبرى به ، مثل : بناء بيت .. أو زواج ولد .. أو كسوة العيال .. أو حجّ بيت الله

.. أو ردّ دينْ . وقد ظل القطن المحصول المفضل .. ومصدر الثروة الأولى إلى أن جاء مشروع « التسويق التعاونى » .. فصارتْ زراعة القطن مصيبة كبرى ، بعد أن كانت غنيمة عظمى .. فالحكومة تأخذ المحصول بسعر ــ تحدده هى ..!! ويكتشف الفلاح المسكين بعد خصم ثمن البذور والمبيدات وبعض السلفيات .. أنه مدين للحكومة ، لذلك بدأ الفلاحون يتهرَّبون كثيرًا من زراعته .. بعد أن كان مصدر ثروتهم وسبب فرحتهم .!!

***

كان وجود الفتى فى الحقل مثل عدمه ، فهو يحضر أو يغيب ، فلا يسأل عنه إخوته ، ولا يغضب أبوه . فى الحقيقة كان ــ ولا يزال ــ لا يحبُّ العمل اليدوى ، ويضيق به .. ومنه سريعًا . وقد حاول أن يفسّر ــ لنفسه على الأقل ــ سر ذلك ، فلم يجد لديه جوابًا شافيًا . هكذا خلقه الله .. وهو راض بهذه العادة .. وربما كان سعيدًا بها أيضًا . إنه آخر العنقود ... وأصغر الأبناء ، لذلك كانت تُوزَع أدوار العمل على الكبار . ظل هكذا ينظر إليه على أنه الولد الصغير ، الذى يجب ألا يُكلف بعمل ما . ثم حسم الأمرَ ذهابه إلى المدرسة ، فهو إذن لن يكون « فلاحًا » ، وبالتالى لا فائدة من تدريبه على العمل الزراعى .

فى أثناء الجمْع كان طه يساعد من يتخلف مثل أبيه وإخوته ، ويحضر الماء لمن يريد ، ويستمتع بالحكايات والنوادر والأغانى . العمال فيهم الصغير والكبير من الرجال والنساء ، ولكنهم يصبحون أسرة واحدة ، يعملون سويًا ، ويستمعون جميعًا لما يُروى ، ويرددون ما يُغنّى ، حتى

النوادر التى كانت بها — أحيانًا — نكتة صريحة ، تُروى على مسمع من النساء والعذارى دون خجل أو حياء . والجميع يضحكون من قلوبهم .. فما قيل ليس إلا مادة للترفيه والتسلية . إنهم قوم فقراء متعبون .. حفاة .. لم تهادنهم الأيام ، بل إن بعض النسوة يعملن بثياب ممزقة ، قد تظهر بعض أجزاء من الجسد ، ولكن لا يقمن وزنًا لهذا ، ولا ينظر إليهن أحد من العمال ، حيث يبدو الجميع أسرة واحدة ، تبحث عن كسرة خبز تسكت المعدة ، وقطعة قماش تستر الجسد ، وأما ما دونَ ذلك فهو ترفٌ بعيدُ المنال ، لا يفكرون فيه ، لأن أجسادهم المرهقة أخرستْ كل نداء للعاطفة أوْ الشهوة ..!! رغم الفقر والتعب كانوا يعملون برضى قنوع ، ويتقبّلون الحياة بصبر متفائل .. وبراعة نادرة ..

تذكّر فى تلك اللحظة روايات « زينب » و « الأرض » و « الحرام » .. فأحسَّ — رغم اختلاف محاور الرؤية عند هؤلاء الكتاب — أن الحياة المُرّة للعامل والفلاح المصرى ، لا تزال بعيدة عن أية صورة أدبية ، تحاول رسمَ الواقع الصعب لهؤلاء البسطاء المعذَّبين فى الأرض ..!!

أفاق من شطحاته — وهو مثل الصوفى دائمًا صاحبُ شطحات بعيدة — على صوت عاملة صغيرة ، عمرها بين الصبا والشباب .. اسمها « نعيمة » تغنّى بصوت أقرب إلى الحزن ، فبدت نبراتُها مشروخةً رغم رقّةٍ فى صوتها :

نعيمة : بُستـان حَبيبـى طـرح بلـح
والبلـحْ — يا عـمْ — مُوشْ لِينـا

المجموعة : والبلـح — يا عـم — موش لينـا

نعيمة : والـــخصْم عامِـــلْ فَـــرخْ
والفـــرخْ بـــرضُهْ مُـــوش لينـــا

المجموعة : والفـــرج بـــرضه مـــوش لينـــا

كانت نعيمة مثل الغزال الشارد ، سبقت الجميع فى حقل القطن ، ومضت بعيدة وحدها . تمنّى أن يقترب منها . لكن ماذا يصنع لها ، وهى ليست فى حاجة إلى مساعدة ..؟! تذكّر سوسن .. التى اشتاق إليها .. تمنى أن يراها . بينما هو فى حيرته ، أطلق رجل عجوز صوته مغنيًا بصوت مجروح :

أنا فى إيدى منديل أحمرْ وبلحْ أخمـرْ
واللى مِعاه مالْ من صِنْفِ الْجنيهِ الحْمَرْ
يباتْ يقلّبْ فى شَفايفْ شبهِ الْعسَلْ الحْمَر

صار الوقت عصرًا ، والعمّال يحاولون بالغناء تجديد النشاط وبعث القوة . أثار الموقفُ بكل ما فيه من خواطر متشابكة أشجانه . أحس أن التأمل الحزين فى نعيمة .. أو سوسن ، لا فائدة منه ، فحاول أن ينسى ، وذهب يبحث عن شَربة ماء ، ليبلّ ريقه الجاف ..!!

جلس — وحده — وسط شجرات القطن ، التى صارت عارية بعد جمع القطن منها . أخذ يتأمل الشجرةَ فى حالتيْها .. عندما تكون مكسوة ومنيرة بالقطن ، وعندما تكون عارية .. وحطبًا أسود . العُرى ظاهرةٌ مُحزنة حتى فى النبات .. فكيف يكون الحال مع إنسان من لحم ودم ..؟! كم عانى هو نفسه من آلام الفقر .. فهو يقضي العامَ كاملاً بقميص واحد وبنطلون واحد وبلوفر واحد ، أزرق اللون ، حتى يتحمّل الأوساخ .

كذلك ليس له سوى حذاء واحد .. وجورب واحد . ابتسم سُخريةً .. حين تذكر كيف كانت تصنع له أمه الجورب — أحيانًا — في الشتاء ، وهو صغير . كان أبوه وبعض إخوته الكبار ، يلبسون فانلات قطنية ذاتَ أكمام طويلة ، وبعد مدة — بسبب كثرة الاستعمال — تقطع الأم كُمَّ الفانلة بعد تمزقه من عند الكوع ، ثم تصنع منه جوربًا ، يُدفىء قدميه الصغيرتين في الشتاء . حين استنكر الفكرة — أول الأمر — قالت له الأم دون أن تعبأ بدهشته ، وهي مستمرة في ترقيع بعض الملابس :

* الجورب يُلبس في الرِّجل ، وليس هناك من ينظر إلى الأرض .

استلقى على ظهره متعبًا بجوار « بلاّص » الماء ، وأخذ ينظر إلى السماء ، غير أن أشعة الشمس جعلته يغمض عينيْه ، ولم يعد يرى شيئًا في الضوء الباهر . فيما هو بين التأمل والسخط ، بين اليقظة والنوم ، بين الماضي والحاضر ، أحس كأنما صوتٌ يناديه . لم يتحرك ، تكرر النداء .. إنها « نعيمة » ، الفتاة الصغيرة الجميلة ، التي كانت تغني منذ قليل . تأملها عن قُرب بعد أن همَّ جالسًا ، فرأى أن أشعة الشمس جعلت البشرة البيضاء في وجهها مشوبة بحمرة متوهِّجة . تأمل ضفيرة شعر طويلة تعانق الرقبة . لم يستطع أن يقول شيئًا — رغم أنه معجبٌ بجمالها ، بينما قالت :

* كل أولاد المدارس هكذا ، لا يتحملّون الحرّ . استرحْ يا سي طه ، ربنا ينجحك ..!!

حملتْ البلاص متجهةً نحو الترعة تملأه . حين تأملها من الخلف .. عاودته الأحزان .. على نفسه .. وعليها .. وعلى كل الفقراء ..!!

***

مرت أيامُ الصيف ولياليه بطيئة .. موحشة . أحس أنها أطول إجازة صيف مرت عليه . هل كان مشتاقًا إلى الدراسة أم إلى سوسن ؟! لا شك أن شوقه لسوسن كان المحرك .. والدافع . سوسن .. يا حُبّى الأول ، كم أشتاق إليك !! الحبُّ جعلنى أحس أنى كبرتُ عشرةَ أعوام . اليومَ أبدأ السنةَ الأخيرةَ فى المدرسة الثانوية ، وأنهى السنةَ الأولى فى الحبّ . الحب عاطفة نبيلة وإحساس متدفق ، يجعل المرءَ يحب كل ما فى الحياة .. ويعطيه أملاً لا يُحدُّ ، وتفاؤلاً ليس له ضفاف .!!

احتار ماذا يقول لسوسن بعد هذه الغيبة الطويلة . سوف يكتب خطابًا .. يحكى فيه كل ما يريد أن يقوله ، لكنه استسخف الفكرة . سوف يكلمها .. ويراها . إن نظرةً واحدة إلى المحبوب تُطفىء أشواقَ الصيف الحارة .!!

لا يدرى كيف مرت ليلته الأولى فى دمياط .. ولا كيف مرت الحصص السبع ، التى قضاها يومَ السبت الأول من الدراسة .؟! مرَّ كل هذا بسلام .. وتطاولتْ إلى درجة المستحيل عشرُ دقائق كانت الفارقَ بين خروج مدرسته ومدرستها ، لأن مدارس البنات كانت تنسق المواعيد ، حتى لا يلتقى التلاميذ بالتلميذات . أخيرًا .. ظهرت المحبوبة . أبصرها تختال عن قُربٍ بعيد ، مع بعض صُوَيْحباتها ؛ سار وراءها كما يسير بحار على هَدْيِ بُوصلة . رأى ساعتها — بعيْن قلبه — أن حبيبته أجمل فتاة فى الوجود . لا شك أن الحب لا يجعلنا نرى الأشياء على حقيقتها . مثلما يشتاق الصائم إلى شربة ماء ، أحس أنه مشتاق إلى حبيبته . الحمد لله .. ها قد صارتْ وحيدةً . عندما التقى بها ، تمنّى أن

يقبلها ــ رغم أنه لم يكن قد عرف طعم قبلة رجل لامرأة . لكنها كانت رغبة محب حالم ولهان .!! مدت له يدها مبتسمة ، وهى تقول :

* حمدًا لله على سلامتك .

* سلمك الله يا حبيبتى .

قالت له برقة : هل ستظل يدى فى يدك إلى الأبد .؟!

* ياليت يا حبيبتى .!!

ترك يدها ، وأخذ يبحث عن الكلمات ، التى أخذ يفكر فيها طوال العطلة . لكن كل ما أعدَّه وفكَّر فيه ليالى طويلة تبخّر وتلاشى . نظر إليها فى حب وشوق ، بينما قالت :

* هل ستظل هكذا ساكتًا .. ألم تكن مشتاقًا لأن تقول لى شيئًا .؟

* كنتِ معى كل لحظة .. حتى فى الحُلم .

نظرتْ إليه مبتسمةً : وماذا كنت تقول عنى .؟

رغم كل ما به من شوق وحنين لم يستطع أن يقول شيئًا ، حاول أن يمسك يدها من جديد . قد تنقلُ لمسةُ اليد ما يعجزُ عنه اللسان . قالتْ فى دلال :

* نحن فى شارع قريب من بيتنا ، وقد يرانا أحد .

سرتْ فى مفاصله رعشةٌ ، وهو يترك أطراف أصابعها . كانت اللمسة لحظة .. تَعْدِلُ العُمرَ بكل ما فيه ..!! نظر إليها نظرةَ فرح وشوق . لم يستطع أن يقول شيئًا ، لكنه بلع ريقه ، واستجمع مشاعره وشجاعته ، وقال كلمة أحستْ أنها تصدر من أعماق قلبه ، وليس عن لسانه :

* أحبكِ .!!

ردت بفرحة طفل : ماذا قلت ؟ قلها مرة ثانية .!!

* أحبك .. أحبك جدًا جدًا .

ودَّعها ، ثم عاد والدنيا تكاد لا تسعه من الفرحة . مرت الليالى ، وهو يذاكر بجد واجتهاد من أجلها . ومضت السيرة على نفس الوتيرة ، لكن حدث ذات مرة فى اللحظة التى ودّعها فيها ، أنْ رأى أخاه الكبير محمود أمامه وجهًا لوجه . تردد للحظة وتلعثم ، وتحول البركان المشتعل شوقًا إلى جبل من الثلج البارد . سأله أخوه :

* من أين أنت قادم .؟

سأل نفسه للحظة ، هل لم يره أخوه حقيقة ، أم أنه يريد منه أن يقول بنفسه أين كان .. ومع منْ ؟ لم تكن لديْه فرصة للتفكير . هل يكذب .. وإذا كذب فهل يصدّقه .. وقد رآه بنفسه ؟ ابتلع ريقه وقال متلعثمًا :

* كنتُ ذاهبًا إلى البيت .

نظر إليه أخوه مبتسمًا : لكن هذا ليس طريق البيت ، إلا إذا كنت تريد أن تصل إليه عن طريق « أين أذنك يا جحا .؟! » .

أحس قدرًا من الاطمئنان بعد أن سار أخوه بجواره ساكتًا ، ولم يُعلّق . تمنى أن يقول له شيئًا ، هنا فى الشارع قبل أن يذهبا إلى البيت . قد يخبر محمود أخاهما الأكبر أحمد الذى يعيشان معه ، فيغضب .. أو تشمت زوجته .

مرَّ الموقف بسلام ، لكنه احتار فى اليوم التالى ، هل يذهب للقائها أم لا .؟! لكنه فى النهاية حسم التردد . ذهب وهو مصمم على أن يستمر فى عادته ، على أن يبذل قدرًا من الحذر ، وهو سائر معها ، حتى لا يراه أحد إخوته مرة أخرى .

***

بعد مدة تناسى أو نسى هذا الحدث العارض . وظل عاكفًا على عادته .. إلى أن حدثتْ مفاجأة أخرى أخافته إلى حدٍ ما ، وجعلته يفكّر ألف مرة ومرة فى المشى معها . أصرَّ ذات مرة أن يوصلها إلى أقرب مكان للبيت ، حيث كانت تسكن فى حىّ شعبى فقير . عندما صافحها مودعًا ، وبَعُدَ عنها خطوات ، ظهر أمامه شاب فى الخامسة والعشرين ، يبدو أنه صاحب حِرفة .. أو ربَّما كان لا عمل له ، فهيئته تدل على قدر من عدم الاتزان . اعترض طريقه قائلاً بتحدٍ وسخرية :

* من أين أتيت يا أستاذ .؟!

أحس قدرًا من الخوف ، وأدرك أن الأمر يتصل بها ، وربما كان هذا الرجل أخاها أو أحد أقاربها أوْ جيرانها ، أوْ معجبًا ينوى خطبتها ، فحاول أن يتماسك قائلاً :

* لماذا تسأل .؟

* لأنك ولد صغير .. وأريد أن أنصحك .

لم تعجبه كلمة « ولد صغير » هذه ، لكنه رأى فى وجهه نيةَ شرّ ، فآثر السلامة . سكت بينما واصل الغريب كلامه مهددًا بعصبية ظاهرة :

* هذا الحىُّ الذى تسير فيه هو « منشيةُ المعزّى » ، يمكن أن يُدفن فيه القتيل ظهرًا ، ولا يعرف أحدٌ منْ قتله ، أو حتّى يعرف مكانه .!!

* ماذا تريد بالضبط .؟

* أن أنصحك .. (ثم أكمل بعصبيّة) وقد أعذر من أنذر .

* لماذا .؟

* لأن الفتاة التى كنتَ تمشى معها الآن قريبتى ، وسوف أخطبها على

سُنَّة الله ورسوله .

* لكنى لم أكنْ مع أحد .

* لا داعى للكذب ، فقد رأيتك معها أكثر من مرة .

* ومن حضرتك ؟

* الأسطى فرغلى النجار .

لم يدر كيف تخلّص من فرغلى النجار ، الذى ادَّعى أنه ابنُ عمتها .. وخطيبها المنتظر . لكنه يتذكر أنه وعده ألا يعود لمثل ذلك ، وادّعى أنها زميلة أخته ، وقد جاء ليوصلها . تركه ومضى خائفًا . لكنه نظر خلفه بحذرٍ ، حين أصبح قريبًا من البيت . أحس أن الرجل يُبيّت له نية شرٍ .. لذلك مشى خلفه كل هذه المسافة . قرر أن يُغيّر طريقه ، وأن يذهب إلى بيت زميل له ، حتى يُفوِّت عليه الفرصة ، ولا يجعله يعرف مكان سكنه .

لم يستطع أن يقابلها إلا بعدَ يومين.. وعرف أن الأسطى فرغلى هذا، يريد أن يخطبها ، وأنه حدَّث أمها فى الأمر ، فسأل مستغربًا :

* لماذا لم يُحدّث أباك .؟

* أبى مات .!

أول مرة يعرف أنها يتيمة .. لا شك أيضًا أنها فقيرة ، لكن زىَّ المدرسة الموحّد ، قد يُخفى وراءه أسرارًا ، لا يعرفها أحد . كما أنه لم يكن فى سن تُهيِّىء له أن يسأل عن أصلها وفصلها .

* لم تقولى هذا .

* لم تأتِ مناسبة .

* ما رأى أمك .؟

* لماذا لا تسأل عن رأيى أنا .؟

* صحيح .. ما رأيك .؟

* أنا فتاةٌ متعلمة .. لن أتزوج نجارًا جاهلاً ، وإنما سوف أتزوج من أحب .!

بقدر ما أسعدته إجابتها ، إلا أنها أرقته كثيرًا . إنه يحبها .. ويراها كل شىء فى حياته . غير أن قضية الزواج هذه لم تخطر له على بال قط . افترقا بعد أن تواعدا على أن يقللا من المشى سويًا ، خاصة فى المنطقة القريبة من البيت ، وأن تكون الرسائل بينهما هى البديل المناسب للسير فى شوارع مدينة صغيرة .. وما قد يجر إليه من مفاجآتٍ غير سارة .!

***

مضت فترة وهو مشغول بها أكثر من المذاكرة . ذات يوم جاءه خطاب معذب منها ، فقد عرضتْ عليه ضرورة أن يتقدّم لخطبتها ، لأن الأسطى فرغلى يزنُّ على رأس أمها ، وأخوها الوحيد الصغير لا يرى مانعًا فى هذا .. خاصة وأن العريس سوف يتكفّل بكل شىء . وأخذت تستحلفه بحبها أن يفعل شيئًا .!

ضاعتْ سكرة الحب ، وجاءت فكرةُ الزواج . لكن كيف يتزوج .. وأمامه ثلاثة إخوة لم يتزوج منهم أحد .؟! هناك حامد الذى يعمل فى الحقل ، ومحمود الذى توظف وصار مدرسًا ، ومصطفى الذى جُنِّد فى الجيش . ماذا يقول لأبيه أو حتى لأىّ واحد من إخوته .؟! أخذ يقلّب الفكرةَ من يمين ومن شمال .. فلم يجد لها حلاً . ماذا يفعل مع سوسن .. هل يتركها تضيع .؟ ألا ينبغى أن يفعل شيئًا من أجلها .. ومن أجل كل

هذا الحب العظيم الذى حملته إياه .؟! أيا ما كان الأمر .. فالذى يدركه تمامًا أنه لو تجرأ — رغم كل المستحيلات — وكلّم والده فى الأمر ، لطلب منه أن يعود فورًا ، ليعمل فى الحقل ، وبهذا تهدم كل الآمال التى كان يحلم بها .. فى أن يصير كاتبًا قصصيًا ، بعد أن فترت فى نفسه — قليلاً — فكرة أن يكون نجمًا سينمائيًا .

وضع الخطاب فى كتاب ، وخرج بدعوى أن يذاكر عند زميل له . ذهب إلى صديقه سمير رزق ، وهو ولد قصير داهية من أصل بورسعيدى . اسمه وشكله يجعلانه يتوه بين المسلمين والمسيحيين . وقد هامتْ به — ذاتَ مرة — فتاة مسيحية — أثناء الدراسة الجامعية — بسبب هذا الالتباس .. مدة سنتيْن . شقاوة شباب ..!! بعد أن مضتْ فترةُ صمتٍ ، قال بعدها لصديقه :

* سمير .. أخوك فى ورطة .

* خيرًا .

أعطاه الخطاب فقرأه بهدوء . ثم قذف به على المكتب ، وابتسم ساخرًا ، ولم يتكلم .

* لم تقل شيئًا .

* أريد أن أسمع رأيك ... فأنت صاحبُ المشكلة .

* لو كان عندى رأى ما سألتك .!!

* هذه فتاة مجنونة .. وإنْ سمعتَ كلامها فأنت مغفل .

* سمير .!

* نعم .. مغفل ومائة مغفل أيضًا .

* لماذا .؟

* كل البنات تقول هذا يا حبيبى ، إذا وجدتْ شخصًا تريد أن ترتبط به .. لا أظن أن هناك عريسًا ولا يحزنون . هذا مطبّ صناعى ، لكى يقع فيه « روميو » مغفل مثلك .!!

* بل أنت المغفل ، لأنك لم تعشق و لم تعرف الحب ، والشاعر يقول :

إذا أنتَ لم تَعْشقْ و لم تدرِ ما الهوى   فقمْ واعتلفْ تبنًا فأنتَ حِمارُ

قال مستنكرًا : هذا رأيك يا مجنون سوسن .؟!

ظلا يتناقشان ساعتيْن دون أن يلتقيا ، كان سمير مُصرًّا على أن هذا فخ دبّرته المحبوبة .. وكان هو متأكدًا أنها صادقة ، وأنها لم تكذب فيما ذكرت .

لم ينم طيلة الليلة .. و لم يهتدِ لحل . لكن كلام سمير أيقظ العقل عنده شيئًا فشيئًا . المسألة — فيما تصوّر — ليست مسألة كذب — كما يرى سمير — أو صدق — كما يرى هو ، وإنما المسألة هى : كيف يتزوّج وهو لا يزال تلميذًا فى الثانوية العامة ، وأمامه ثلاثة إخوة ، لم يتزوج منهم أحد ؟ تلك هى القضية ..!!

كان متمسكًا بحب سوسن ، وعاجزًا — فى الوقت نفسه — عن أن يفعل شيئًا من أجلها . أخيرًا كتب رسالة بعد يومين وليلتين من التفكير .

حين قابلته .. قالت :

* ما رأيك ؟

* كتبته فى الرسالة .

* لم لا تقوله الآن .؟

* قلتُ لك إنه مكتوب فى الرسالة .

قالت بغضب لم يكن يتوقعه : لقد عرفت .

* ماذا .؟

* إنك لا تحبنى .

* هل هذا معقول .؟

* الحب ليس كلامًا .

* إذن انتظرينى خمسَ سنوات حتى أتخرج من الجامعة ، وأعمل ..

* تعال قُل هذا لأمى الآن .

* هذا سابق لأوانه .

* لن ترانى بعد اليوم .

* سوسن لا تهدمى ما بيننا .

* أنت الذى تهدم كل شىء .!!

تركته بلا وداعٍ لأول مرة .. ومشى يحمل همومَ قلبٍ مُعذَّب .!

***

اسودتْ سُبل الحياة أمام عينيه .. وظنَّ أن الدنيا قد زُلزلتْ .. وأن الكون قد اضطرب .. وأن القيامة عما قريب سوف تقوم . لم يعد يعمل الواجبات ، لدرجة أن مدرس اللغة الإنجليزية الذى كان معجبًا بذكائه ومشجعًا لاجتهاده ، وبَّخه بشدة فى الفصل .. وطلب أن يقضى الحصة كلها واقفًا فى مواجهة التلاميذ ، عقابًا على إهماله فى عمل الواجب . كان زملاؤه ينظرون إليه فى شفقة ، وهو ذاهل عن كل ما حوله . لم يكن يهمه شىء فى الحياة بعد أن ضاعتْ منه الحبيبة ..!!

صحبه سمير فى الفسحة الكبرى ، فهو الوحيد الذى يعرف سر أزمته . قال له ناصحًا :

* ألا تنوى أن تعقل .؟

* وهل أنا مجنون .؟

* إن لم تكن مجنونًا اليوم .. فسوف تُجن غدًا أو بعد غد ، ثم دعك من العقل والجنون ، وخبِّرنى ماذا تقول لأبيك لو رسبتَ فى نهايـة السنة .؟!

لم يرد عليه ، وإنما نزلت الدموعُ من عينيه . أخرج منديلها من جيبه ، وأخذ يمسحُ دموعَه الحارة .!!

حاول أن يراها ، لكنها كانت تتهرب من لقائه . شيئًا فشيئًا بدأ يستعيد وعيه الذاهل ، ويحاول أن ينسى كل ما عانى من قسوة وحُرقة . ضاعتْ سوسن ولم يبْقَ من ذكرياتها سوى المنديل المطرز و « قصة قصيرة جدًا » ، ما زالتْ محفورةً فى ذاكرته ، لأنها كانت أول قصة كتبها ــ بوحْى من أحلامه المحطمة .!

[« قال لها : أحبّك يا سوسن » .

فردتْ عليه : ما معنى الحب فى نظرك حتى تقول إنك تحبنى .؟

* الحب علاقة سامية وعاطفة نبيلة .

* وما نهاية هذه العلاقة وتلك العاطفة .؟

* الحب فى ذاته كل شىء .. ألم تعرفى أن الحبَّ من غير أمل ، أسمى معانى الغرام .؟!

* اعرفْ ما شئتَ يا صديقى ، لكنى لن أعرفَ سوى شىء واحد .

* ما هو .؟

* الحبُّ الذى ينتهى عند المأذونْ .!! »] .

كانت قصةُ الحب الأول مع سوسن من أصعب المواقف التى مرَّ بها فى صباه . لكنه شيئا .. فشيئًا بدأ يلتمس لها العذر .. فهى بلا شك ضحية الفقر واليُتم ، وهو لا يستطيع أن يفعل لها شيئًا . أكثر من هذا سامحها فيما بعد — بينه وبين نفسه .. وأخذ يدعو الله أن يوفّقها ، وأن يرعاها ، بحجة أن الإنسان إذا لم يستطع أن يُسعد من يحب ، فيجب أن يتركه يبحث عن السعادة عند سواه .!!

***

بعد أن أفاق من الصدمة العاطفية عاد إلى دروسه بقوة وتحدٍ ، وأصرَّ على أن يستعيد ثقة مدرسيه . كان جدوله اليومى يبدأ بعد الخروج من المدرسة مباشرة ، حيث يتغدّى وينام حتى العشاء . بعد ذلك يسهر إلى موعد صلاة الفجر .. يذاكر طوال الليل ، ويحفظ ما يحتاج إلى حفظ ، ثم ينام ساعة واحدة ليقوم بعدها ويذهب إلى المدرسة .

فى هذه السنة (١٩٥٥) كانت هناك دعوة إلى ما يسمى « الحرَس الوطنى » ، فدخله أملاً فى أن يفرغ بعض ما لديه من طاقة فى شىء غير الحب ، الذى نغّص عليه حياته .. وكاد يُودى بمستقبله ، لوْلا أنَّ الله سلَّمَ . بدأ يُدركُ معنى حكمة ساخرة كان يرددها أبوه ، وهى :

« يذوبُ العلمُ بين ذراعىْ امرأة » ...!!

لم يكن قد عرف العلم على حقيقته .. كما لم يكن قد فهم قيمةَ المرأة ، لكنه فى هذه المرحلة كان يُسلِّم بكل ما يقول أبوه ..!!

***

وداعًا .. يا زمان البراعة

مع محاولة نسيان تجربة الحب الأول ، تحول إعجابه من مدرس اللغة الإنجليزية إلى المدرسيْن اللذيْن كانا يقومان بتدريس اللغة العربية ، فقد كان هناك نوع من التخصص « الفرعى » أثناء الدراسة الثانوية ، لذلك درس اللغة العربية فى المقرر (العام) الذى يدرسه كل التلاميذ ، وفى المقرر « الخاص » الذى يدرسه المتخصصون . أما مدرس المقرر العام فكان ذا شخصية عجيبة مُتقلِّبة ، فهو شاعرٌ ضلَّ طريقه إلى الشعر الجاد ، وأخذ ينظم الشعر الساخر « الحلمنتيشى » ، ويقرأه بصوت مُعبِّر ونَغَم مُوقَّع ، فيشدُّ التلاميذ ، لا سيما إذا حضر فى حصة إضافية . الأمر الثانى الذى أربك حياة ذلك المدرس أنه طلَّق زوجته الأولى غير المتعلمة ، وتزوَّج من مدرسة سمراء شمطاء ، يبدو أنه لم يكن موفقًا معها ، فبدا كالمستجير من الرمضاء بالنار . نتيجة لكل ذلك ، كان صاحبَ مزاج متقلِّب ، فهو يشرح النصوص والقواعد بطريقة جَذَّابة ، لكنه عندما يكون ــ كما يقول عن نفسه « متعكر المزاج أغبر » ، يكتب موضوع تعبير على السبورة ، ويترك التلاميذ تكتب فيه أوْ لا تكتب .. المهم أن يبدو لمن يُفاجِىءُ من المسئولين أنه يعمل . وفى حالتَى السخط والرضى كان يعامل تلاميذه على أنهم أبناؤه .. وأصدقاؤه . كثيرًا ما صرَّح بمصيبة أن يُبتلى الإنسان بزوجة لا يستطيع أن يحبها ، ولا يقدر أن يطلقها . وبعد أن

يفيض فى شكواه يستطرد ، ليذكر بعض الطرائف الأدبية .. أو المحفوظات الشعرية . وكانتْ له طريقة جدُّ جَذَّابة فى الحكْى والإنشاد والسُّخرية ..!! كان يعرف الجميعَ واحدًا واحدًا .. كُلاً باسمه ، ويتابعُ أخبار من يستشيره فى أية مشكلة ، ويشجع أصحابَ المواهب الأدبية ، ويصحح ما يكتبون مهما كان ضئيل القيمة .

ومن أمثلة معارضات ذلك المدرس قوله من قصيدة ، لم يعد صاحبُنا يتذكَّر سوى مطلعها :

ألا ليت الشبابَ يعودُ يومًا   فأخبرُه بما فعل الطبيخُ

كما كان يحفظ كثيرًا من أشعار الشاعر الدمياطى الظريف ، محمد مصطفى حمام (١٩٠٦ — ١٩٦٤) .. ويرددها بصوت ساخرٍ فكه :

سَلُوا جِيَبى غداةَ خَلا وذَابا   لعلَّ على الفلوس لهُ عِتابا(١)

ويُسْأَلُ فى الحوادثِ ذُو صوابٍ   فهل ترك الغلاءُ له صوابا

وصَحْنُ الفولِ كان لنا عزاءً   وكان لنا الطعامَ المُستطابا

ومن يحْلُم بفاكهةٍ فإنّى   سأجعلُ يومَ حضرته هِبابا

ومن يَطلبْ إلى «السيما» ذِهابًا   وَددتُ له إلى « الخانكا » إيابا

أما المدرس الثانى الذى درسَ معه اللغة العربية فهو « المدرس الأول » ، وكان رجلاً على مشارف الستين ضئيل الحجم ، متمسكًا بالطربوش — رغم أن الكثيرين قد هجروه — جادًا بشكل متزمِّت فى

---

(١) هذه القصيدة معارضة لقصيدة أحمد شوقى :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا

دروسه . كان المقرر — فى تلك السنة — عبارة عن مختارات من كُتب التُّراث القديم مثل « الأغانى » و « العِقد الفريد » و « الأمالى » و « البخلاء » ... وكان المدرس حافِظًا ، حسنَ الرواية عظيمَ الدراية ، لا يبخل بأية معلومة يعرفها ؛ من هنا فتح له باب التراث — قبل أن يتعرَّف عليه فيما بعد فى قسم اللغة العربية .

فى الحقيقة لم يكن مدرِّسا اللغة العربية هما الجادان وحدهما فى وظيفة التدريس ، وإنما كان الجميعُ مثالَ الأمانة والحرص على الإفادة ، حتى مدرِّسى الرسم والموسيقى والتربية الرياضية . بالطبع لم يكن هناك شىء اسمه « الدروس الخصوصية » . كان التعليم فى تلك المرحلة الذهبية ، رسالةً مقدسةً عند المعلم والمتعلم . ولا شك أن انضباط حركة التعليم هو الخطوة الأساسية الأولى لانضباط سير الحياة فى كافة نواحيها . وإذا فسد التعليمُ فى أية مرحلة ، فقلْ إن كل شىء فيها قد فسد .!!

***

من الأمور التى لا يستطيع أن ينساها عن تلك المرحلة ، مساء الخميس الأول من كل شهر ، موعد حفل السيدة العظيمة « أم كلثوم »، حيث كان الجميع .. فى العاصمة والمدن والقرى والعِزَب ، ينتظرون هذا اليوم السعيد حول الراديو . وقد غنت فى هذا العام أغنيةً جديدة .. هى « رباعيات الخيام » ، التى ترجمها أحمد رامى ، ومطلعها :

سمعتُ صوتًا هاتفًا فى السَّحَرْ ... نادى من الغيبِ غُفاةَ البشرْ
هبُّوا املئوا كأسَ المُنى قبلَ أنْ ... تملأ كأسَ العُمْرِ كفُّ القَدرْ

كلُّ أمر فى تلك الأيام كان جميلاً .. ومفهومًا ، ومعظم الأشياء كانت

رخيصة ومقدورًا عليه ، حتى السكن ليستْ هناك أزمة فيه ، وتستطيع أن تؤجِّر شقة أو حجرة فى أى مكان تريد . أيامٌ .. وليالٍ لا تُنسى ، يومها كانت النفوس نقيةً .. والقلوبُ بريئةً .. والحياة نظيفة .. والحركة مفهومة .. والدنيا جميلة .!!

فى هذه السنة أيضًا كان عبد الناصر يتحدث عن مشروع « السدّ العالى » ، الذى سوف يدّخر مياه النيل أثناء الفيضان للاستفادة منها أيام التحاريق ، بالإضافة إلى فوائد اقتصادية أخرى جليلة ، بدأت الجرائد تكتب عنها . كانت العقبة الوحيدة فى تنفيذ ذلك المشروع هى التمويل ، وقد طلبتْ مصرُ ذلك من البنك الدولى ، فرفض بعد مدة تسْويف ، لأن الولايات المتحدة وبعض حلفائها اتحدوا سويًا على وَأْدِ طموحاتِ عبد الناصر، خشيةَ تعاظم قوة مصر ، خاصة بعد تأسيس كتلة « عدم الانحياز » ، التى دعت إلى الحياد الإيجابى بيْن الشرق والغرب ، لمواجهة « حلف بغداد » الاستعمارى ، الذى تشكل من : إنجلترا وباكستان وإيران وتركيا والعراق . وقد أسهم فى تأسيس هذه الكتلة عبد الناصر (مصر) ، وجواهر لال نهرو (الهند) ، وأحمد سوكارنو (أندونيسيا) ، وجوزيف بروز تيتو (يوغوسلافيا) .

***

فى هذه السنة قام طلبة الثانوية العامة أجمعين برحلة إلى الأقصر وأسوان فى عطلة نصف السنة (يناير ١٩٥٦) ، وهذه أول مرة يرى فيها الفتى هاتيْن المدينتين التاريخيتين . وقد انبهر بما شاهد من آثار فرعونية مُشيَّدة منذ سبعة آلاف سنة ، ولا تزال شامخةً شموخَ الأزل ، خالدةً خلودَ

الدهر ، شاهدة على عظمة مصر « أم الدنيا » .!!

ليست الآثار وحدها هى التى تبهرك فى جنوب الوادى ، وإنما النيل نفسه أيضًا ، فهو هناك واسعُ الضفاف عميقُ الغوْر ، فى وسطه — عند أسوان — جزيرة تسمى « جزيرة النباتات » ، يوجد فيها نباتات وأشجار مختلفة من كل بلاد العالم . ولا شك أن هذا المشهد المهيب للنيل فى الجنوب ، هو الذى أغرى المصريين القدماء بعبادته .. كما قال شوقى :

دينُ الأوائلِ فيك دينُ مُروءةٍ — لمْ لا يُؤَلِّهُ من يقوتُ ويرزقُ ؟!
لو أن مخلوقًا يُؤَلــه ، لم تكــنْ — لسواك مرتبةُ الألوهةِ تُخْلــقُ
جعلوا الهوى لك والوقارَ عبادةً — إن العبــادةَ خشيــةٌ وتَعلُّــقُ

وقد رأى هناك أيضًا المحاجر ، التى كان قدماء المصريين يأخذون منها أحجار المعابد والأهرامات ، ثم ينقلونها فى النيل إلى طيبة (الأقصر) وإلى الجيزة وغيرها ، حيث يبنون آثارهم العظيمة الرائعة .. التى لا تزال قائمة كأنها الجبال الراسيات .!!

كما شاهد أيضًا قبر « أغا خان » فى أسوان ، والوردة الحمراء ، التى توضع على ضريحه كل يوم . هذا الزعيم الدينى ، لم يجد فى الدنيا كلها مكانًا آمنا .. سوى مصر ، ليُدفن فيها .!!

تركتْ هذه الرحلةُ فى فكره وقلبه ذكرياتٍ لا تُمحى . لكن الذى يدعو إلى العجب ، هو أن وزارة التعليم قد ألغتْ هذه الرحلات « المجانية » ، التى كان يقوم بها جميع تلاميذ المدارس فى مصر كلها .!! وهذا أمر شديدُ الأسف ، لأن أمثال هذه الرحلة — إلى تلك الآثار وغيرها من معالم مصر — لا يقلُّ فى جلاله وأهميته عن تدريس مادة من المواد

المختلفة . إن السائحين الأجانب يفدون من كل فج عميق ، لمشاهدة تلك الآثار ، التى قد لا يراها بعض المصريّين فى حياتهم ، إذا لم تتحقق لهم مثل هذه الرحلات المجانية .!!

ليت القائمين على أمر التعليم العام والجامعى ، يُولون أمر تلك الرحلات — إلى آثار مصر الفرعونية والإسلامية والقبطية — عناية فائقة ، ويخططون ، لكى يزور كل تلميذ أو طالب هذه الآثار فى شتَّى أنحاء مصر ، من الإسكندرية حتى جنوب أسوان ، لأن مشاهدة تلك المعالم تترك أثرًا لا يُمحى فى نفوس النشْءِ ، وتعطيهم درسًا عمليًا فى حب الوطن ، والاعتزاز بتراثه ، والإيمان بمقدساته ، والمحافظة على ترابه .!!

***

مرت أيام المدرسة ، وانتهى العام الدراسى ، وجاء شهر رمضان .. وكان امتحان الثانوية العامة بعده مباشرة فى مايو سنة ١٩٥٦ . وقد تفرغ الفتى للمذاكرة طوال هذا الشهر . كان تلاميذُ الثانوية العامة فى القرية يُعدُّون على الأصابع ، ويعملون بجد وتنافس من أجل الحصول على مقعد فى الجامعة ، التى بدتْ لهم حُلْمًا قريبَ المنال . انتهى الامتحان وبعده بشهر تقريبًا ظهرت النتيجة .. وكان الأول — على القسم الأدبى فى مدرسته .

لكن الدنيا تُعطى شيئًا .. وتأخذ أشياء .!! فقد بدأ المرضُ يزور أباه بشكل متواصل ، حيث أصيب بروماتزم فى ساقه اليمنى ، ولم تتحسن صحته بشكل ملحوظ على العلاج . وكان يعزُّ على الوالد أن ينتقل محمولاً لزيارة الطبيب ، لذلك سلَّم أمره إلى الله ولزم الفراش ، واكتفى

بتكرار الدواء . كما لم يعد قادرًا على أداء الصلاة ، فحاول أن يُعوِّض ذلك بتلاوة القرآن سرًا وجهرًا فى اللحظات ، التى تخف عليه فيها آلام المرض .

كانت الأم رغم كثرة مسئولياتها تُقدِّم خدمةَ زوجها على كل ما لديْها ، كأنما هى أمه وليست زوجته . وفاء جميل .. وصبر عظيم .. قامتْ بهما تلك الأم ، التى أصبحت المسئولةَ عن شئون البيت والأسرة .. ومتطلبات الأرض والزراعة .

كان الوالد يرتاح أكثر لو نام وحده فى سرير ، حتى يمدَّ رجله المريضة على راحتها ، لكن الأم رفضتْ بإصرار أن تنام بعيدًا عن الرجل ، الذى قضتْ عمرها بجواره . وفاء نادر .. وعطاء بغير حدود . لم يكن هذا شأن الأم وحدها .. وإنما هو حال معظم أولئك البشر ، الذين نشأوا وتربّوا فى عصور ، تحترم القيم ، وتقدّس المسئوليةَ ، وتحرص على الأخلاق الكريمة ، أكثر من حرصها على الحياة ذاتها .!!

تماثل الوالدُ للشفاء قليلاً .. وأصبح فى مقدوره أن يجلس ، ويستقبل عُوَّاده ويتحدث معهم . دخل الفتى يحمل صينية الشاى للضيوف ، وكان بينهم عبد الرازق أفندى الذى اكتشف ذكاءه فى وقت مبكر ، ورشاد أفندى الذى قدَّم أوراقه للمدرسة الابتدائية بعد أن أقنع الوالد بقدرته على النجاح . عشرُ سنوات مضتْ على ما قال مدرسا المدرسة الإلزامية ، وقد صدق ظنهما فيه . آه .. لو يدرك المعلمون أن تلميذًا قد يتفوقُ .. أو يفشل ، بسبب جملة يقولونها عَرَضًا له .! وقد تذكّر فى هذه المناسبة بيتيْن حفظهما لأحمد شوقى :

قُمْ للمعلّـمِ وفّـهِ التبجيـلا   كادَ المعلـمُ أن يكـونَ رسولا

أرأيتَ أعظمَ أو أجلَّ من الذى   يَبنى ويُنشىء أنفسًا وعقولا ؟!

قال عبد الرازق أفندى : أىّ كلية سوف يدخل طه يا عم الشيخ عمران .؟

فرد الوالد : أنتم أدرى لأنكم أهل العلم .

قال رشاد أفندى : ما رأيك فى كلية الحقوق ، إنها كلية الوزراء والزعماء .

ردَّ الفتى فى ثقة : كلية الآداب إن شاء الله .

قال عبد الرازق أفندى : على بركة الله .. لكن أى قسم فيها .؟

* قسم اللغة العربية .

فقال عبد الرازق أفندى : إنه قسم الدكتور طه حسين .. إن شاء الله تكون مثله ، وأتنبأ لك بمستقبلٍ عظيم. المهم ألا تنسانا فى المستقبل يا أستاذ .

رد الفتى فى أدب وتواضع : أدعو الله أن يوفقنى ، لأكون ابنًا بارًا لكل من أحسن إلىَّ .

***

وقع — فى أوائل الصيف ، وعلى وجه التحديد يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ — حدثٌ خطير ، هو تأميم شركة « قناة السويس » ، ذلك أن البنك الدولى رفض تمويل مشروع السد العالى ، فرأى عبد الناصر أن يُؤَمِّمَ القناة ، ويستخدم إيرادها فى الإنفاق على المشروع . بقدر ما أحدث القرارُ فرحةً كبيرة فى مصر والعالم العربى — الذى بدأ إعجابهُ يزداد بعبد الناصر — أشعل ثورة عند بعض الدول الإمبريالية ، خاصة تلك التى كانتْ لها أسهمٌ كبيرة فى شركة القناة ، وإنجلترا .. التى أحست أنها

سَلّمتْ لمصر بسهولة ، يوم خرجتْ بموجب اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ .
وقد تأكد فيما بعد أن بين مستر إيدن (رئيس وزراء إنجلترا حينئذ) وعبد الناصر ثأرًا شخصيًا . كما أن فرنسا كانت لها حصةٌ كبيرة فى أسهم القناة ، باعتبارها المشرفة الأولى على تنفيذ مشروع حفر القناة منذ مائة عام (١٨٥٤) تقريبًا ، بالإضافة إلى أن فرنسا كانتْ لا تُخفى غضبها على مصر ، التى بدأت تساند ثورة الجزائر .

عمت الفرحة كل أنحاء البلاد ، خاصة بعد أن علم الناس قيمة الدخل الذى سوف تدرّه على مصر فى المستقبل . وبدأ المهندس محمود يونس أول رئيس مصرى لشركة القناة ، يديرها بأيدٍ مصرية لأول مرة .

***

مرت أيام العطلة فى صيف ١٩٥٦ بطيئة على الفتى ، حيث كان يتعجّل الأيام حتى يسافر إلى القاهرة ، ويدخل الجامعة بعد أن قُبلتْ أوراقُه فى كلية الآداب ، التى كان يحلم بها . لكن مرض الوالد أقلقه كثيرًا ، ولم يستطع أن يحصل من القراءة مثل ما حصّله فى سنوات سابقة . لم يكن من عاداته — منذ وعى حتى اليوم — أن يشكو إلى أحدٍ ، فهو يفكّر فى صمت وحده فيما يحدث ، ويحاول أن يرى الصوابَ أوْ الخطأ فيما فعل ، ثم يحاول أن يصحح مسيرته فى هدوء وصبر ، حتى أزمة الحب الأول لم يُحدِّث فيها أحدًا سوى صديقه سمير مرة واحدة ، بعدها فكر واتخذ قرارًا ، بأن يسير فى طريقه . كان يرى أن الحب — فى حد ذاته — هدفٌ نبيل ، يُفتّح طاقاتِ الروح ويطهِّر مشاعرَ القلب ، لكنه أدرك — فى النهاية — أن هذه أحلام « رومانسية » ، يصعب أن نقنع

بها ، من لم يكن مقتنعًا منذ البداية .!!

لكنَّ همَّ اليوم من نوع جديد .. لقد مرض الوالد العزيز فكيف يستطيع أن يواصل طريقه الطويل ؟ حاول أن يستعيد شيئًا من إيمانه بالله .. موقنا بأنه لن يتخلّى عنه . واصل الصلاة والدعاء ، فدعا لأبيه بالشفاء وطول العمر .. كما دعا الله أن يوفقه فى حياته الجامعية القادمة .

ظهرت فى البداية مشكلة بدتْ غايةً فى الصعوبة ، إذ يجب أن يسافر إلى القاهرة مع بداية سبتمبر — موعد افتتاح الجامعة . لكن محصول القطن لم يُجمع .. ولم يُبع .. وهذا أبوه عاجز عن الحركة .!! لم يكن العمُّ أحمد على استعداد لأن يقرض أخاه — ما يريدُ — بعد فشل مشروع زواج أخيه محمود من إحدى بناته . ثم هناك أمر نفسى أشدُّ قسوةً على العمّ من هذا ، فقد رسب ابنه بجدارة ، وعزَّ عليه أن ينجح ابنُ الفقير .. ويرسب ابن الغنى .!!

اجتمع الأب والأم والأخ حامد ، وجلسوا يفكّرون فى حلٍّ للمشكلة ، حتى لا يتأخّر الفتى عن السفر بسبب عشرين جنيهًا . اقترح حامد — الذى كان حسن الظن بعمه ، أملاً فى أن يزوِّجه ابنته — أن يستدينوا من العمّ ، فردت الأم :

* هذا باب مُغلقٌ .. لا تذهبوا إليه .

ومن عجبٍ أن الوالد صدَّق على رأيها . لكن حامد قال : سوف أجرِّب ، ولن نخسر شيئًا .

أخذ حامد أخاه ، وتوجها إلى بيت العمّ . بعد تحية تقليدية ، وعبارات متكلفة ، تشجَّع حامد وحدَّث عمه فى الأمر ، لكنه ردَّ بسرعة :

* من أين يا ابنى ؟ .. أقسمُ بالله ليس معى ..!!

قال حامد : سوف نردُّ العشرين جنيهًا بعد شهر واحد يا عمى ، طه يجب أن يسافر اليوم أو غدًا .

فردَّ سريعًا : يا ليت يا ابنى ..

حينما خرجًا بخفَّىْ حُنيْن .. كان الفتى متعجبًا من كثرة حلف العمّ بالأيمان المغلظة ، رغم اعتقاده أنه كاذب .. كاذب فى كل ما يقول . بعد أن خرجا أغلقت زوجةُ العم الباب بشدّة ، كأنما تطردُ سائلاً ، ثم سمعا صوت العم يقول ساخرًا :

* لماذا يُعلَّم فى الجامعة من ليس عنده مال .؟

كانت الكلماتُ أسياخًا من الحديد المُحمَّى ، تحرق قلبه وعقله . نظر أمامه فأحس أنه لا يرى شيئًا . من المحتمل أن يرفض العم أنْ يعطيَهم سُلفةً فهذا حقُّه .. أما أن يشمت هذه الشماتة ، فلم يكن يُصدِّق ذلك ألبتة .!!

ترك أخاه يدخل الدار ، بينما جلس هو فى الظلام يشكو سوء حظه .. ويبكى على الأب ، الذى ابتلى بالمرض والفقر فى وقت واحد . ظل يبكى فى صمتٍ مُرّ .. وأخذ يدعو الله أن يشفى أباه ، حتى يكون له عونًا على ظلام الليالى ، التى سوف يقابلها .. فالأبُ عِمادُ الأسرة .. وبدونه تصبح الحياةُ جحيمًا لا يُطاق .!!

مسح دموعه فى طرف جلبابه ، وعاد إلى البيت حزينًا أسِفًا . لكنه لم يجد أمه ، و لم يجد أخاه . كان الأب وحده بين اليقظة والنوم ، فحرص على ألا يزعجه . ليتهم استجابوا لنصحه .. و لم يتوجهوا إلى العم ، الذى سخر منهم وشمت فيهم . تذكر قول الشاعر :

أقاربُك العقاربُ فاجتَنِبْهُمْ ولا تركنْ إلى عَمٍ وخالِ

كان الوالد وحده فى عالم آخر ، يناجى ربه ، قائلاً فى صمت حزين :

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرّى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، أسألك مسألةَ المسكين ، ياربُّ كل العالمين ، إليك أشكو ضعفَ قوتى ، وقلَّة حيلتى ، فكنْ لى رؤوفًا رحيمًا ، يا من أنتَ بحالى خبير عليم . يا خيرَ من سُئل ، وأفضل من أعطى وأجابَ يا ألله » .

تقطَعتْ نياطُ قلبه عندما رأى أباه يبكى . إنه لم يبكِ بهذه الحُرقة عندما توفى ولده البكر .. و لم يفعل ذلك أثناء مرضه . لكنه بكى — مثل كل رجل — عندما أحسَّ العجزَ ، واحتاج إلى مساعدة فلم يجدها عند أخيه .. ابن أمه وأبيه ..!! موقف صعب عسير .. على نفس الوالد والولد . تمنّى ألا يذهب إلى الجامعة ، ولعن الفقر الذى جعل أباه يبكى .. ويتوجَه إلى ربه بهذا الدعاء الخاشع . لكن من للفقراء سِوى الله ، علاّم الغيوب ، ومفرّج الكروب .؟!

ترك الحجرة فى هدوء ، فلم يحس الوالد بدخوله أو خروجه . جلس أمام الباب يبكى ، حتى لا يشعر به الأب فيزيد أوجاعه .

بعد مدة — لا يعرف مداها — دخلتْ أمه ، تحمل ورقتيْن من فئة عشرة جنيهات . أرته إياهما فرحة :

* لقد حلَّها اللهُ يا بُنى .. غداً تسافر بمشيئة الله .

بعد دقائق عاد حامد ، واستدان هو الآخر المبلغ المطلوب من رجل آخر ، فرجها الله من عنده .. واستجاب لدعاء الوالد المسكين . تعجَّب

الفتى كيف يكون الغريبُ أحنَّ من القريب .. وكيف حل الله الأزمة بهذه السرعة .؟! ذهب ناحية المسجد ، فتوضأ وصلَّى .. وأخذ يدعو الله أن يشفى أباه .. وأن يوفقه فى حياته الجديدة .!!

***

استعد الفتى ليرحل عن أهله إلى القاهرة ، وآلام مبرحة تقطع نياط قلبه الصغير . ليست هذه أول مرة يسافر فيها من أجل التعليم ، لكن شتَّان بين سفر وسفر ، فالمنصورة أو دمياط كلتاهما على بُعْد مسافة محدودة من القرية .. أما القاهرة فهى بعيدة بعيدة عن كفر بدواى . ولن يستطيع أن يحضر إلا فى عطلة نصف السنة أو العطلة الصيفية . رغم ذلك لم تكن مشاعرُ السفر والغُربة هى التى تُشجيه ، وإنما مرض الأب مع بَدْء بعض تشتت لكيان الأسرة .. فأحمد تزوَّج منذ سنوات وعاش مع زوجته وأولاده فى دمياط . كذلك محمود تزوج وسافر هو الآخر إلى دمياط . أما مصطفى فقد جُنّد مدة ثلاث سنوات ، لأنه لم يُحصِّل أىَّ قدرٍ من التعليم . وبقى حامد وحده يحمل أعباء الأسرة .. وأشجان آماله المجهضة ، حيث لم يتعلم ولم يتوظف ولم يتزوج .. بينما تزوج أخوه الأصغر الموظف . كانت زينبُ هى الأخرى صغيرة ، لكنها وصلت إلى سنِّ الزواج حسب تقاليد القرية . أما الأم فقد هدَّتها المسئولية وكثرة الأعباء ، التى صار عليها أن تواجهها وحيدة . صار مطلوبًا منها أن تُدبِّر كل شئون الأسرة والحقل ، لذلك أطلق عليها مصطفى لقب « الوزير » — وظل هذا اللقب ملازمًا لها حتى وفاتها — لأنها كانتْ تحمل أعباء كثيرة ، مثل أعباء وزير من الوزراء .!!

زاد من هموم حامد — وحزن الفتى عليه — أن الوالد سمح له أن يبحث عن عروس مناسبة لكى يزوجها له بعد محصول القطن ، ولكن أكثر الفتيات اللاتى رغب فيهن حامد رفضن .. فالجميع أصابتهن عَدْوىَ الرغبة المحمومة فى الزواج من موظَّف ، حتى لو كان فراشًا فى مدرسة أو مؤسسة ، أو شاويشًا فى الجيش أو البوليس ، أملاً فى حياة البندر والسكن فى مدينة .!!

كل هذه الأمور بالإضافة إلى مرض الوالد جعلته يغادر القرية منقبضَ القلب ، باكى العينين . لكن الدموع .. لا تمسح الأحزان ، ولا تُوقف مسيرة إنسان .!!

***

في رحاب الجامعة ..!!

رحل الفتى إلى القاهرة أوائل سبتمبر ١٩٥٦ ، وسكن فى حجرة من شقة فى الدور الثالث ، فى منزل يقع فى شارع المأمون ــ القريب من ميدان الجيزة . أقام مع زميل من القرية هو « سيد شعير » ، الذى دخل كلية علوم القاهرة ، وعاش معه معظم سنوات الجامعة تقريبًا . كان زميله يذهبُ إلى الكلية صباحًا ، ويبقى فيها فترةً طويلة بسبب كثرة محاضرات « العملى » ، ثم يأتى ويتناول غداءه ، ثم يدخّن سيجارة ، ويظل نائمًا من المغرب إلى صباح اليوم التالى . بقدر ما كانتْ هذه العادةُ سيئةً بالنسبة لصاحبها ، وجنتْ عليه فرسبَ أكثر من مرة ، إلا أنها كانتْ مريحة تمامًا بالنسبة لزميله ، حتى يتفرغ للمذاكرة والحفظ وحده معظم الليل .

كانت الشقة ملكًا لسيدة مسيحية تعمل مُدرِّسة ، وهى دميمةُ الخِلقة إلى درجة بعيدة ، سمراء قصيرة منكوشة الشعر بسبب عدم كثافته ، أسنانها إما مخلوعة أو مكسَّرة أو مسوسة . حجرتُها ــ لا تكاد تُغلق ، مثل سُوق روبابيكيا ... ــ ضد النظام فى كل شيء : السريرُ أعرج .. الدولاب ليست كل أبوابه موجودة .. التسريحة مشروخة المرايا . فى هذه الحجرة كانت تنام مع ابنتها الوحيدة الوديعة ، وهى تلميذة فى السنة الأولى الثانوية ، تبلغ من العمر حوالى ستة عشر عامًا . ربما ترجعُ وداعة الفتاة إلى المعارك المستمرة بين الأب والأم . فالأب مدرس رسم ، يدّعى أنه فنانٌ

مُضيَّع .. ويبدو أنه كان نادمًا أشدَّ الندم على زواجه من تلك البُومة البشرية . ونظرًا لصعوبة أو استحالة الطلاق عند إخواننا المسيحيين ، فقد حاول أن ينسى ما هو فيه بالإفراط الشديد فى شرب أنواع رديئة من الخمر ، لذلك فإن المعارك كانت بينهما مستمرة ، تحدثُ فى أية لحظة — من لحظات الليل البهيم أو النهار المنير — رغم أنه يبيت فى حجرة مجاورة وحده .

الحجرة الرابعة سكنها ثلاثة إخوة من دمياط : اثنان فى الطب والأوسط فى الهندسة . وترتيب الشقة : فى البداية حجرة طه وسيِّد ، وبعدها حجرة الزوجة وابنتها « هالة » ، ثم حجرة الزوج ، تليها حجرة الإخوة الثلاثة .. وبعد ذلك دورة المياه فالمطبخ . وفى الوسط صالة — لا يملك حق استخدامها سوى أصحاب البيت فقط — بها بعض قطع متناثرة من أطلال أثاثٍ بائس .!!

قام من النوم وتناول فطوره مع زميله ، وهو فى الغالب طبق ساخن من الفول ، يحضر فى حلة صغيرة عن طريق السلة من بائع يمُرُّ يوميًا .. وهناك بقال فى الدور الأول يمدّهما بالخبز وبكثير مما يحتاجان إليه . كما أن الباعة المتجوّلين يمرون طوال النهار ، يبيعون الخسَّ والفول الأخضر والطماطم والخيار والخضروات والبلح والبرتقال والزبادى ، لذلك كان فضلُ السلة عليهما عظيمًا ، لأنها وسيلة الاتصال المريحة مع عالم الشراء والطعام .

لبس ملابسه ، وسار مع زميله إلى الجامعة مشيًا على الأقدام ، وتلك كانت عادتهما يوميًا .. حتى لا يصرفا قرشيْن فى الذهاب والإياب . أما ركوب الأتوبيس فإنه ترفٌ غير مقدور عليه إلا عند الضرورة

القصوى . عندما بلغ سور الجامعة أحسَّ قدرًا من الرهبة والفرحة فى آنٍ واحد . سمع الدقاتِ التقليدية لساعة الجامعة ، فكاد قلبه يخفق خفقانًا أعلى من دقات الساعة نفسها . إيه .. يا طه ، أخيرًا تحقق الحلمُ الجميل ، وها أنت تدخل الجامعة . لا شىء مستحيل فى هذه الحياة ، ومن أراد أن يصل فعليه بالعمل . وقد عمل الكثير والكثير من أجل هذا اليوم التاريخى . ونظرًا لشدّة شوقه إلى تلكم اللحظة الخالدة ، فإن كل تفاصيلها لا تزال محفورة فى ذاكرته ، مثل نقوش الآثار .

عندما اقترب من الباب الرئيسى لجامعة القاهرة ، وجد بعض جنود الشرطة يُوقفون كل من يدخل — فالحرس الجامعى لا يسمح بالدخول إلا لمن يحمل بطاقة (كرنيه) ، والبطاقة لا يحصل عليها إلا من دفع المصروفات ، فالجامعة كانتْ تُحصِّل مصروفات من الطلبة ، لكنه أعفى منها بسبب حصوله على مجموع عالٍ فى الثانوية العامة .

دلفَ من الباب بعد أن أبرز البطاقة ، واتجه صوبَ الكلية الأولى فى رحاب الجامعة . وقد زاد تفاؤله بها ، حين وجدها تقع على يمين الداخل ، وليست على يساره مثل كلية الحقوق . بدتْ قبةُ الجامعة رهيبةً وقورًا وسط الحرم الجامعى . تلك هى الجامعة بحق وحقيق وإلا فلا ...؟! أيتها الجامعة العظيمة ، لم أقتنع بسواكِ مبنًى ومعنًى .. فى كل ما شاهدتُ من جامعات الدنيا ..!!

صعد خمسَ درجات رخامية ليلج إلى كلية الآداب ، بينما كان يتطلع نحو بابها الخشبى العريق ، شاهد لوحة كتب عليها :

« هذه من آثار حضرة صاحبة السمو الأميرة فاطمة ابنة الخديوى

إسماعيل » .. لذلك يتندَّرُ بعضُ طُلاَّب الكليات الأخرى على كلية الآداب بقولهم « كلية فاطمة » ، بسبب هذه اللوحة ، وبسبب كثرة الطالبات فيها وجمالهن أيضًا .!!

لكن الكثيرين ينسون المغزى والدلالة .. إنهم يتذكَّرون النكتة و « القفشة » ، وينسون أن كثيرًا من أبناء أسرة محمد على ، قد قاموا بدور عظيم فى تأسيس المدارس والجامعات على نفقتهم الخاصة .. (وقد عرف فيما بعد أن الأمير كمال الدين حسين هو الذى أسس مكتبة جامعة القاهرة) .. أما أغنياءُ اليوم ، فإنهم لا يتبرعُّون بشىء للصالح العام قط .!!

ليت العمرَ يمتدُّ بى ، حتى أرى الأغنياءَ وأصحاب الشركات والمصانع فى بلادنا ، يُسهمون — بجد — فى إقامة المؤسسات العامة ، التى تعود بالنفع والخير على أبناء المجتمع كافّة . متى نجد من يبنى كلية أو مدرسة .. أو يؤسس مكتبة .. أو يصنع مظلة .. أو يزرع حديقة .. أو يُجمِّل شارعًا .. أو يبنى قنطرة ؟!. لماذا لا تُصلِحُ الحكوماتُ — رغم كثرة ألوانها — من شأن العباد وحال البلاد ، كما لا نفعل نحن الآخرين شيئًا .. سوى الانتقاد والشكوى .؟! صدقَ من قال : أن تُوقد شمعةً أفضلُ من أن تلعنَ الظلام .. فمن يستجيب لهذه الدعوة .. يا سادة يا كرام .؟!

يقابلك وأنت داخل من بهْو الكلية سلمٌ رخامىٌ جميل يُسْلمك إلى الدور الثانى ، حيث يوجد قسم اللغة العربية العريق ، الذى يدخله أول مرة .. وسيظل معلقًا به إلى آخر لحظة فى حياته ، لأنه يرى أن هناك أمورًا ثلاثة ، يصعب على المرء أن يُغيِّرها طوالَ حياته ، هى : النسب والموطن والتخصص .!!

حينما ضمتهم حجرة الدراسة رقم (١٨) ، ليستمعوا إلى أول درس فى الأدب العربى القديم ، يلقيه العالم الجليل الدكتور شوقى ضيف ، كان منبهرًا بالأستاذ الذى يشرح دون أن ينظر إلى أوراق ، ولا يكتب شيئًا على السبورة ، ويروح ويجىء فى الحجرة دون أن يُلقى بالاً للموجودين . استمع إلى معلومات جديدة عن العصر الجاهلى ومصادره وشعرائه ، لكن الجديد الذى سمعه لأول مرة ، دخل إلى أعماق عقله دون عُسْر أو صعوبة ، لأن قُدرة الأستاذ على الشرح ، قربت المادة وصاحبها إلى قلبه وعقله .. فتمنَّى أن يقف نفسَ الموقف ، وأن يُحاكى ذلك الأستاذ العظيم .. شوقى ضيف ، الذى كان أول من صافح عينَه وعقله وقلبَه فى أول يوم له بالجامعة .. ولا تزال لذلك العالم الجليل مكانة سامية فى نفسه حتى اليوم .!!

***

شيئًا فشيئًا بدأ يتعرّف على زملاء الدراسة الأعزاء إلى قلبه حتى اليوم . وقد ساعد على ذلك أن الدفعة كلها كانتْ دونَ الخمسين طالبًا وطالبة ، منهم حوالى سبعة عشر من الصين والملايو والهند ، وخمسة عشر من السعودية والمغرب والجزائر وتونس وسوريا والأردن وقطاع غزة . الباق وهم حوالى النصف تقريبًا من المصريين . لم يكن هذا التعدد النوعى هو الذى يدعو إلى الدهشة فحسب ، وإنما هناك أيضًا خمس عشرة طالبة ، يدرسن معهم ، ويجلسن بينهم ، وأمامهم وخلفهم . ونظرًا لقلة عدد الطالبات اتفق الجميع دون إعلان على أن يتركوا الصفوف الأولى لهن . هذا الموقف الأخلاقى فعله الطلاب من أنفسهم دون أن يطلب منهم أى

واحد ذلك .!!

في الأيام الأولى لحياة الجامعة عرف أن كل طالب دخل قسم اللغة العربية يريد أن يصبح خليفة طه حسين ، وكل فتاة تريد أن تصير شبيهة سهير القلماوى . وفى فورة هذه الثورة الشبابية اندفع فى حماسته ، وكتب فى الصفحة الأولى فى كل دفتر من دفاتره بخط جميل ملون « دكتور طه وادى .. دكتوراه فى الأدب الجاهلى » ، لأنه أراد أن يُحاكى مثله الأعلى المنشود (طه حسين) حتى فى تخصصه . ومن أجل تزكية روح الحماسة فى نفسه ، ظل يكتب — فى دفاتره — هذا البيت الشهير لأبى العلاء المعرى وهو :

وإنى وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

سرعان ما جمعتْ رابطةُ الصداقة وروح الزمالة بينهم جميعًا ، وصاروا يتعاملون إخوةً متحابين وأصدقاء متفاهمين . وقد ساعدتْ على ذلك طبيعة الدروس فى الجامعة ، فهناك محاضرة تعقبها ساعات فراغ وانتظار ، يقضونها فى الحديث والحوار فى ردهات القسم ، أو فى حديقة الجامعة .. أو مكتبتها . أما الذهابُ إلى « البوفيه » أو « الكافتيريا » ، فهو طفرةٌ يسارية ، أو شطحة صوفية ، لا يفعلها الطالب العادى ، إلا إذا كانت فى صحبته فتاة .. وهذا أمر صعبُ المنال لطالب فقير ، يريد أن ينهى دراسته سريعًا .. ويدَّخر قروشه القليلة للضروريات .

أقبل الفتى على دروسه ومحاضراته بانتظام ودأب ، وكان « يُسوِّدُ » محاضراته فى البداية عندما يسمعها من الأستاذ ، ثم « يُبيِّضها » — بعد ذلك — بخط جميل فى البيت ، مستخدما ألوانًا مختلفة . يُؤكد بها ما يحتاج

إلى توكيد فى المحاضرات ، التى يكتبها فى الدفتر على اليسار ، ويترك صفحة اليمين ، ليلخّص فيها ما يقرأ من مصادر المادة أوْ مراجعها .

لم يكن ــ مثل كثيرين من زملائه ــ يقدر على شراء المراجع ، بله أن يستطيع شراء الكتب المقررة ، لكن ذلك ــ رغم قسوته ــ جعله ملازمًا للمكتبة دوْمًا ، لا سيما القاعة الشرقية ، التى تشتمل على كثير من المصادر والمراجع الخاصة بقسم اللغة العربية وآدابها .

وقد ساعده على ذلك أنه اكتشف ــ بعد فترة ــ أن المدينة الجامعية تُقدّم ــ يوميًا ــ وجبة غداءٍ ، للذين لا يسكنون فيها بخمسة قروش . بحسبة مالية بسيطة أدرك أن هذه أكمل وجبة وأرخص بالنسبة إليه . بعدها ظل يأتى إلى الجامعة فى الصباح ، ولا يعود إلا بعد إغلاقِ أبواب المكتبة .

***

عالم غريبٌ عجيبٌ .. ذلكم هو عالمُ الجامعة ، حين يدخله إنسان مشتاقٌ إليه ، متطلع إلى مستقبل يحرص عليه . الجامعةُ عالمٌ مدهش تخطو إليه ، والقلبُ أخضر ، والعقل متفتح ، والأمانى بغير ضفاف . إنها حياة حلوة عذبة متكاملة .. تكتشف خلالها بعض دلالات الأشياء بتلقائية وقلب مفتوح . على ذكر القلب فإن الجامعة تذكّره بحبٍّ .. شغله خلال سنواتها الأربع بطولها وعرضها . فقد تأمل فتيات الدفعة على مهل واحدةً واحدةً ، واختار منهن واحدةً تربّعتْ فى قلبه ، وضاع منه المفتاح . تلك هى « سميحة » التى جذبته ، كما ينجذبُ المريدُ الصوفىّ إلى قطبه ، وسعى إليها كما يسعى المتبتل إلى كعبته . كانت جميلة ذكية ، يزيد فى جمالها أنها

تلبس ملابس عصرية على أحدث طريقة فى التفصيل ، فهى ترتدى فساتين بدون أكمام تقريبا (جابونيز — كانت أحدثَ مُوضة) . حين يختلس النظر إليها وهى منهمكة فى كتابة المحاضرات ، يرى بعض شُعيْراتٍ صغيرة تطل من تحت الإبط . وقد سهَّل عليه تأملها كثيرًا ، أن مكانه المفضَّل — دائمًا وأبدًا — خلفها مباشرةً فى المقعد الذى يلى مقعدها . كما أنها كانت تقصُّ شعرها على أحْدث مُوضة (شعر الولد ..) . وهى بيضاء — بياضًا مشُوبًا بصفرة خفيفة تسرُّ الناظرين ، رقيقة رشيقة ، أقرب إلى الامتلاء النسبى . حديثُها عذبٌ كأنه صدى تغريد الكروان . وهى بالإضافة إلى كل هذا مثقفة تقرأ المجلات ، وتدخل السينما ، وتهوى قراءة الروايات مثله . انبهر الريفى الشابُ بفتاته ... ورأى فيها على كل المستويات أشياءَ لم يرها فى أنثى من قبل ، حتى فى سوسن ..!! بل إنه ليحمد الله أنْ خلّصه من سوسن وأنساه إيّاها ، ليكون قلبُه خاليًا ، لتمرحَ فيه .. سميرةُ القلب الفاتنة . رغم حبه الشديد لها وإعجابه العالى بها .. إلا أنه كان معها يَغْرقُ فى شِبْرِ ماء ، ولا يستطيع ألبتة أن يُلمِّح أو يُصرِّح بأىّ إحساس ، يدور فى أعماقه البعيدة . كثيرًا ما تعلل ... أو تعمَّد .. عدمَ كتابة محاضرة ، ليستعير كشكولها ، وينقل منه ما فاته . يومها كان يحمل الدفتر كما يحمل الصوفىُّ شارةَ الخلافة ، ليكون قُطبَ الجماعة .

كان يقرأ المكتوبَ — فى دفترها — مثنى وثلاث ورباع ، ليشهد فيه أثرًا من آثار صاحبة الكمال .. وملكة الجمال .. وعروس الدلال . ثم يشم الأوراق بحثًا عن صدى لأثر من آثار المحبوبة . أكثر من هذا أنه كان يزهو بهذا الدفتر أمام أصدقائه وزملائه ، مؤكدًا أن هذه الهبة السنيّة ، منحةٌ من

ذاتِ الطلعة البهيَّة ، وأنها معجبةٌ به .. وهائمةٌ فيه .. لكنها لا تُصرِّح . ويزعم أنها سوف تُسلِّم وتستسلم قريبًا بإذن الله — مهما حاولتْ أن تبدُو ثقيلة .!!

وقد صدَّعَ رأسَ زميله فى السكن بكثرة الحديث عنها ، ووصْفِ حبه لها ، فجاء يشهد بنفسه تلك الحبيبة التى أسرتْ قلبَ صاحبه ، الذى يُقلق نومه كثيرًا ، وهو يصيح — بهذا البيت لمجنون ليلى — موقظًا إياه من نومه :

ألا أيها النوَّامُ ويحكم هبُّوا   أسائلكم هل يقتل الرجلَ الحبُّ ؟!

فيرد عليه ساخرًا : الحبُّ لا يقتل وإنما يُجنن يا مجنون .!!

حينما عادا إلى البيت قال له سيد :

* أنتَ تبالغ كثيرًا فى وصفها .. وفى الحديث عن حبّ ، لم أر له صدى فى كلامك معها .

فردَّ عليه غاضبًا : أنت غشيم ، لا تعرف معنى الحب .!

انتهت المناقشةُ بخصام بيْن الاثنين دام أسبوعًا كاملاً .

***

زارهما وافدٌ من القرية جاء القاهرة لقضاء مصلحة خاصة ، وقد ذكر له أن صحة والده قد تحسنتْ ، وجاءه برسالة منه ، كانتْ أول وآخر رسالة يكتبها الوالد ، وقد اعتزَّ بها كثيرًا ، وحملها تذكارًا غاليًا من أب كريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

ولدنا العزيز

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .. وبعد

فاعلمْ يا بنيّ أن الله سبحانه خلق الإنسان وخلق الحيوان ، فمن يعمل ويجتهد ، وينفع نفسه وأهله ، فهو إنسان . ومن يكسل ويفشل ، ويضر نفسه وأهله ، فهو حيوان . فاخترْ يا بنى ، النوعَ الذى تُريد أن تنتمى إليه .!! « وقلْ اعملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسوله والمؤمنون » .

الأسرة تدعو لك بالتوفيق .. والحمدُ لله الصحة تحسنتْ ، والله هو الشافى المعافى .. نسأله العفوّ والعافية ، فى الدنيا والآخرة ، لنا ولسائر المؤمنين ..آمين .

ملحوظة :

مُرسل لكم مع حامله مبلغ خمسة جنيهات ، فاصْرِف وتصرَّفْ بحكمة ، والله يرعاك ، آمين .

٢٥ — ١٠ — ١٩٥٦ .

والدك

الشيخ عمران

اطمأن قلبه برسالة أبيه .. وفرح بالجنيهات الخمسة ، وصممَ أن يدخر من قوته ، حتى يشترى قميصًا من الصوف (بلوفر) ، يلبسه بالإضافة إلى الجاكتة الوحيدة ، التى يملكها .. ويلبسها كل يوم ، حتى يبدو أمام سميحة بمظهر لائق .

لم تكن فتاة أحلامه تدرى شيئًا عما يدور فى قلبه نحوها . كان حبًا من طرف واحد ، لكنه ملأ عليه حياته .. أكثر من هذا أنه اتخذ منه حافزًا قويًا للنجاح والتفوق . بدأ يُعْرف بين زملائه أنه من الطلبة المجتهدين ، وأخذ

يشارك فى كثير من المحاضرات بالمناقشة ، لأنه كان يقرأ كثيرًا من الدروس قبل أن يستمع إليها فى قاعة الدراسة .

***

عاد عصر يوم الأربعاء ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ إلى البيت مبكرًا ، لأن الأستاذ تغيَّب عن المحاضرة . عندما عاد إلى البيت مع بداية المساء ، سمع أن الإضاءة ممنوعة ... وصفارات الإنذار تعوى ، فقد حدثَ صباح اليوم « عدوان ثلاثى » من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر ، ردًا على تأميم قناة السويس . كانت النية مبيتة لأن تحتل فرنسا وإنجلترا القناة ومدنها ، ويزحفون شرقًا .. بينما تزحف إسرائيل غربًا . وعن طريق هذه الكمَّاشة يحاصرون الجيش المصرى فى سيناء ويقضون عليه .

هكذا دائمًا قُوى البغى والعدوان يضمرون لمصرَ سُوءًا .. وكلما حاولتْ أن تنهض وقفوا فى طريقها ، فمصرُ مفتاح الشرق .. إذا نهضت نهضَ الشرقُ كله ؛ من هنا تبدو خطورة مصر .. وخطورة دورها .. وقوة المكائد التى تُدبَّر ضدها .

مصرُ العظيمة أم الدنيا .. ومنارة الكون ، التى كَتبتْ أول سطر .. وخطت أول صفحة فى حضارة البشر ، وهى قلبُ العروبة .. وتاجُ الشرق .. وهمزةُ الوصل بين الشرق والغرب . مصرُ تلك العظيمة دائمًا .. كل شعوب الدنيا ، تريد أن تكون على علاقة معها .. وأن تفيد من تراثها وثروتها بالحق أو بالباطل . الكل يريدونها بالخير أو بالشر .. مع أنها لا تضمرُ سوءًا لأحد ، وقلبها صافٍ صفاءَ سمائها ، وعقلها عظيم عظمةَ آثارها . وقد كُتبتْ اللعنةُ على كل منْ يريدُ بها شرًا . ملعون .. ومهزوم

.. كل من يفكر فيك بسوءٍ يا مصرُ .. يا كنانةَ الله فى أرضه .!!

دارتْ هذه الخواطرُ فى ذهنه ، حينما خرج إلى ميدان الجيزة يستطلع الأخبار ، فوجد الميدان يعجُّ بالناس ، ورأى الحماسة — رغم الظلام — تشع من الأصوات القلقة . فالمصريون قد يختلفون شيعًا وأحزابًا وقتَ السلم ، لكنهم عند الشدة رجل واحد ، وعقل واحد ، ورأى واحد .

يا بُورِكَتْ مصر .. ويا رعاها اللهُ من كل شرّ على مدى الزمان .!!

فى صبيحة يوم الجمعة ٢ نوفمبر ١٩٥٦ — توجه إلى مسجد الأزهر .. وصلى « الجمعةَ » هناك . بعدها صعد عبد الناصر المنبر . كانت تلك أول مرة يراه رأى العين . وقف يخطب ، وقد لبس زيه العسكرى ، وصاح فى الناس بصوته الجهورى المؤثر قائلاً :

« سوف نُحارب .. ولن نُسلِّم أوْ نَستسلم . »

خرج من المسجد ، وقد أصرَّ على أن يتطوع فى صفوف المتطوعين ، فقد حصَّل بعض التدريبات العسكرية ، عندما التحق بقوات « الحرس الوطنى » من قبل . كان يظن أن هذه التدريبات مجرد رياضة واكتساب خبرة جديدة ، لكن الوقت جاء لكى يستفيد مما تعلم . وقد أنشئت معسكرات كثيرة لتدريب المتطوعين .. وقد التحق بمعسكر أقيم فى المدينة الجامعية لتدريب الطلاب .

نجحتْ خطةُ الجيش المصرى فى سحب جنوده سريعًا من سيناء ، وفشلتْ المكيدةُ المدبرة لسحقه فى الصحراء ، كما توهَّم الأعداء . لكن الحرب انتقلت من سيناء إلى بورسعيد .. ونجحتْ بعض البواخر الإنجليزية فى صنع خديعة حين رفعت العلمَ الروسى ، وظن أهل المدينة أنها

سُفن روسية جاءت بمساعدات لمصر ، وبعدها تمكنوا من احتلال أجزاء كثيرة من مدينة « بورسعيد » .

كان الحق فى صف مصر .. وقد وقفت بجوارها روسيا ، التى رأتْ فى عبد الناصر زعيمًا جسورًا فى مواجهة الاستعمار الغربى ، كما وقفت أمريكا ضد العدوان لأن حلفاءها لم يستشيروها .. ودبَّروا ما صنعوا من وراء أذنها . بعد أيام صدر قرار من مجلس الأمن يُلزم المعتدين بالخروج والانسحاب . وقد تم ذلك فيما بعد فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦ . وسُمى يوم « عيد النصر » .

تعطلت الدراسةُ فى الجامعة .. ومع صدور قرار مجلس الأمن ، وضح أنه من الصعب أن يسافر إلى بورسعيد ، لكى يشترك مع الأبطال ، الذين وقفوا يدافعون عن المدينة الباسلة ، ومن ثم عاد إلى القرية ، يحمل هموم الوطن .. والشوق نحو الجامعة .. والذكريات الحلوة لسميحة .

***

لم يتغير شيء ذو بال فى القرية .. لكن الذى ضاعف أحزانه أن الوالد لم تتحسّن صحته ، بل صار هزيلاً شاحبًا ، يقضى معظم يومه فى الصمت ، كأنما ينتظر ساعته . حاول أن يبعد عن فكره هذه الخواطر الحزينة ، لكنه لم يقدر .. ولم يصبر . وقد حاولت الأم ــ حين أحست به ــ أن تخفف عنه وأخبرته أن الوالد سوف يُشفى بإذن الله .. ويشهد معنا قريبًا فرح أخيك حامد .

أشياء كثيرة بالتعوُّد تخفُّ حدَّتُها . وقد خفتْ وطأة الأحزان على الأب ، لأنه كان يحاول رغم ما به أن يبدو طبيعيًا ، حتى لا يعطل فرح

ولده . وفى اللحظات .. التى كان يفرغ فيها ـــ صاحبنا ـــ من الحديث عن السياسة .. والحزن على الوالد ، تعود به الذكريات نحو الجامعة التى لم تكملْ فرحته بها ، واكتشف لأول مرة رغبة جامحة فى قرض الشعر ، فكتبه فى حب مصر .. وفى عشق سميحة . تعجّب من نفسه .. إنه يهوى كتابة القصة ، وله فيها محاولات ، لكنه لم يحاول أن يكتب الشعر ـــ من قبل ، فما الذى جعله يكتبه هذه الأيام . إن حبًا وحدًا يكفى لكى ينطلق اللسان .. فما بالك إذا اتفق سببان على مسبب واحد .؟!

فتحتْ الجامعةُ أبوابها من جديد بعد أن توقفت الحرب .. وانتصرت مصر .. وارتفعت أعلام النصر فى الآفاق . فى الجامعة كان هناك مدرس شاب يتودد إليهم فى المحاضرة .. وبعدها . كان المدرسُ شاعرًا ومشجّعًا للشعر ، وحين علم أنه ينظم الشعر ، طلب منه أن يقول بعض شعره فى قاعة الدرس . وقد لفت ذلك نظر المحبوبة إليه ، لكنه ـــ لِفرط خجله .. أوْ خيبته ـــ لم يكن يُلقى عليهم سوى قصائده الوطنية . وقد أعجب بها المدرس فطلب منه أشعاره كلها .

ومن المصادفات العجيبة أنه أعطاه الأشعار .. وبحث أعمال السنة فى مادة « الأدب الجاهلى » فى وقت واحد . فالطالب الشاب كان يرى فى طه حسين مثله الأعلى .. لذلك أراد أن يدخل معه فى منافسة .. أو حوار علمى ، وأصرّ على أن يكون موضوع بحثه : « طه حسين والشعر الجاهلى .. ماله وما عليه » . وقد قرأ من أجل هذا البحث الأول ـــ فى حياته ـــ كل ما كتب حول الموضوع ، وانتهى إلى أن إعجابه بالأستاذ العظيم ، لا يمنعه من القول بأنه بالغ فى شكّه مبالغة مسرفة .

***

مرت الأيام سَريعةً.. وكانت المحاضرة عصر كل يوم اثنين من الرابعة إلى السادسة مساء. دخل المدرس الشاب قاعة الدرس فى موعده — رغم أنه ما زال حتى اليوم معروفًا بعدم المواظبة. ذكر أنه يودُّ أن يقول كلمةً بشأن الأبحاث والدراسة الجامعية، لطلاب يدخلون الجامعة أول مرة.

توهم أنه سوف يشيد بالبحث الذى كتبه فى خمسين صفحة، لدرجة أن بعض الزملاء قالوا إنه نواةُ رسالة ماجستير، لكن المدرس نسى البحثَ والعلمَ.. وأخذ يقول بصوت يحرص على وضوح نبراته :

إن بعضَ زملائكم يكتبون الشعر، وهذا أمرٌ عظيم فى حد ذاته، لكن القضيةَ ماذا نقول فى هذا الشعر؟ بالطبع كل الموضوعات كتب فيها الشعراءُ منذ الجاهلية حتى اليوم، لكن الطالب حين يكتب الشعر يجب أن يتذكر أنه فى جامعة.. والجامعةُ مجموعة من التقاليد المعروفة، وإن كانت غير مدونة، لكن كل من فى الجامعة يعرفها وينفّذها بدقة، لأننا فى حَرمٍ مقدس.. هو حرم العلم.

قرأتُ مجموعةَ قصائد شعرية جيدة لبعض زملائكم، لكننى ترددتُ، هل أرد هذه القصائد لصاحبها، أم إلى الحرس الجامعى، وأطلب عمل مجلس تأديب له، لأنه تغزّل فى واحدة من زميلاته.؟! بالطبع آثرتُ جانبَ السلامة، وقررتُ إعادة الشعر إلى صاحبه.. على ألا يعود لمثل هذا الضلال فيما بعد.!!

ظل بعد ذلك يتكلم عن الأخلاق والفضيلة.. والفتى فى عالم آخر، لأنه وبعض المقربين من زملائه.. يعلمون بالضبط على من يتكلم الأستاذ المبجّل. اهتزتْ مشاعره، وهو جالس فى مكانه.. لا يدرى ماذا يفعل

أو يقول . وقد تضاعفت المصيبةُ حين آخذه فى تقدير البحث بجريرة الشعر .. وكاد يرسّبه ، لكنه رأفةً به — كما يدّعى — أعطاه درجة النجاح الدنيا لا غير .!!

مادت الأرضُ به عندما خرج مع المدرس بعد المحاضرة ، وهو ينصحه ويرشده كأنه غاوٍ منحرف ..!! وقد اكتشف بعد أنْ أفاقَ من الصدمة بفترة أن الأستاذ .. الذى دافعَ عن الأخلاق ، كان فى الحقيقة مُعجبًا بزميلته سميحة ، ويريدها خالصةَ لنفسه — رغم أنه متزوِّج عن قصة حب — كما يزعم — من إحدى زميلاته فى القسم نفسه وفى الكلية ذاتها ..!!

ومن عجب أن المقرّبين من أصدقائه ، أخذوا ينصحونه بالاستجابة لنصيحة المدرس ، لأنه إذا رضى نجحتَ .. وإذا غضب رسبتَ .! وقد قرر بعدها أن يُطلّق الشعرَ ثلاثًا .. وألا يعود إليه أبدًا ، بعد هذه الحادثة المؤسفة ، التى كادتْ تُوقعه فى مشكلة ، صنعها إنسانٌ ، يُحرّم على البشر ما يُحله لنفسه .!!

الأعجبُ من ذلك كله أن المحبوبة طلبتْ منه — بعد يومَيْن — أن يُريها أشعاره .. فأعطاها ما عنده من شعر وطنى .. وأخفى عنها الشعر العاطفى ، الذى كتبه من أجلها ، ولم تَدْرِ به حتّى اليوم ..!!

هل كان الخوف .. أم الخجل ، هو الذى حالَ بينه وبين تقديم الشعر لسميحة .؟! لا يدرى على وجه التحديد .. لكنه هكذا تصرَّف ببساطة وتلقائية .. فقد كانتْ الرؤيةُ إلى المستقبل هى المحرك الأول لكل تصرفاته فى لحظات الخطر . ويبدو أن تهديد المدرس كان له دور فى تردده ، بل جعله حريصًا على ألا يتسرّع فى إظهار عواطفه ، فما تزال أمامه سنواتٌ طويلة ، سوف تسنح فيها فرصٌ مواتية ، ليعبِّر لها عن حبه النبيل .

هذه هى المرة الثانية التى أحب فيها .. وفى الحالتيْن كلتيهما يُواجَه الحبُّ بالتهديد . لكن الذى هدده عندما أحبَّ سوسن رجل أمىٌّ جاهل ، ومع ذلك فإن له منطقًا ، يمكن أن يُبرِّر أن يُفهَم .. لأنه يريد الفتاة له زوجة ، أما هذا الأستاذ فيصعب أنْ تجد له منطقًا من أىِّ سبيل واجهتَ القضية معه ..!! فهو متزوج بعد علاقة حب له مع زميلة من نفس دفعته . وحتى لو لم يكن هذا الأستاذ متزوجًا ، فإنه يكون أولى بزميلته منه . ثم كيف يكون مُعلِّمًا من هو فى حاجة إلى تعلُّم البديهيات .؟!

فى المساء جلسَ وحده على شط النيل ، متأملاً خواطره الحزينة عبر أمواجه المتلاحقة فى هدوء الليل . وواصل أفكاره متعجبًا من موقف كثير من الناس فى مجتمعه من الحبّ .. سواء الأمّيين أو المتعلمين ، لأن معظم الناس يرون الحب لونًا من ألوان اللعب بالنار .. دونَ سببٍ مفهوم أو منطق معقول ..!!

أيها النيل العظيم .. لماذا يُحرِّم قومك الحبَّ ، وهو أنبلُ عاطفة فى الوجود .؟! سنظل دوْمًا ندورُ فى حلقة مفرغة مثل قصر التية .. إذا لم نكسر « التابوُ » المقدَّس ، الذى نُصادرُ به ، ما قد يدور من حوار حول كثير من قضايا حياتنا الأساسية . ونحن ـــ فى هذا السبيل ـــ قد نصادرُ الرأىَ قبل أن نسمعه .. و « نجرِّم » صاحبه لمجرد أن يقوله . فى مقدمة تلك الأمور الأساسية ثلاثُ دوائر خطرة .. يحظرُ الاقترابُ منها ، ويحرم الكلامُ فيها ، بلا مبررٍ منطقى ، وهى : « الدين ـــ السياسة ـــ المرأة » . فمتى نستبعد من قاموس حوارنا فكرة أن : كل من يناقش فى الدين كافر .. ومن يعمل بالسياسة خائن .. ومن يعشق فاسقٌ ..؟!!

***

تأتي الرياح .. بما لا يشتهي الملاح

ألفَ حياة الجامعة .. وبدأ يثق بنفسه أكثر ، خاصة بعد أن ظهرت نتيجة امتحان الفصل الأول ، وعلم أن تقديراته تعدُّ من أعلى تقديرات النجاح بالنسبة لزملائه . كان يحضر المحاضرات ، ويقرأ في المكتبة.. وفي البيت يستريح قليلاً ، ويسهر إلى ساعة متأخرة من الليل . الحجرة التي سكن فيها كانت تشتمل على سريريْن .. وكرسيّين .. ومنضدة خشبية واحدة ، تُستعمل في الأكل والمذاكرة . بالطبع ليس هناك دولاب للملابس ، فهي تُعلَّق على الحائط . كما يوجد « وابور جاز » للطبيخ وصُنْع الشاي عند الحاجة .

التقى بهالة أكثر من مرة .. وفي غير مناسبة ، لكنه لم يحاول أن يرى فيها شيئًا غير عادي . لفت نظره أكثر من مرة أنها تحاول أن تذاكر في الصالة .. أو في حجرة الأب ، الذي يغيب طويلاً عن بيتٍ ، لا وظيفة له فيه ـــ سوى النوم بعد شرب ثقيل .

ذاتَ ليلة دخلتْ عليه الحجرة في الحادية عشرة مساء ، بينما راح زميله في سبات عميق . كانتْ خمريةَ اللون ذاتَ جمال هادئ ، وقد لبستْ قميص نوم شفاف ، وشعرُها يتساقط على وجهها ، فترفعه بين لحظة وأخرى . هل كانت بهذا تداري قلقها وترددها ، أم تظهر

جمالها ودلالها .؟! لم يحاول أن يتعب نفسه فى البحث عن إجابة لمثل هذا السؤال فى تلك الأيام ، لأن طيْف سميحة ملأ حياته وجدًا وحبًا وهيامًا وعشقًا ، ولم يكن فى حاجة إلى أحد سواها .!! طلبتْ منه أن يقرأ لها بعض كلمات إنجليزية ، ادَّعتْ أنها لا تعرف نطقها . بعد أن قرأ ما طلبتْ ، سألها :

* لماذا لا تسألى ماما ، وهى مدرسة لغة إنجليزية .؟

فقالت ببراءة : ماما دائمًا متعبة .. ولا أريد أن أتعبها أكثر .

* على كل ، إذا أردتِ شيئًا فتعالى .

* لن تتضايق منّى .

* هل يتضايق أخ من أخته .؟!

كان صادقًا فيما قال ، غير أنها بدأتْ تُكثر من التردد عليه . بدأ يشك فى كثرة الأسئلة البسيطة التى توجهها إليه ، فأخذ يسأل نفسه : لم اختارتنى أنا بالذات لهذه المهمة ؟ التمس لها بعضَ العذر ، فالعلاقة السيئة بين الأب والأم ، جعلتْ أيًا منهما غيرَ صالح لأىّ شىء فى الحياة .. وبالتالى لدور الأبوّة أو الأمومة . وإذا كان دور الأمومة متحققًا بالنسبة لها بدرجة ما ، فإذا دور الأب .. مفقود .. مفقود ، بل ليته مفقود بالفعل ، حتى لا يُخلّف تلك الأحزان العميقة ، التى يراها بادية على وجهها ، وفى بعض تصرفاتها ، بسبب كثرة المشاجرات والخلافات بين الأم والأب . كما أن سكان الحجرة الأخرى من « الدمايطة » مثل الإنسان اليابانى : كائنات تتحرك بدون قلب أو روح ، أو مثل اليهود : لا يُكلمون ولا يَتكلمون . وزميله إما غائب فى الكلية .. أو نائم فى البيت .

التمسَ لها بعضَ العذر — فى البداية — حين قصدته .. ولجأتْ إليه . غير أن أىّ موقف إنسانى حين يتشكل ، لا تديره نية طرف واحد . وقد اكتشف بعد مدة أنها تتودد إليه ، لكنها جاءتْ متأخرة .. بل متأخرة جدًا . حدَّث نفسه : إنها فى حاجة إلى أخ ، فلم لا يكون لها كذلك ، بصرف النظر عن كونها مسيحية وهو مسلم .؟ شيئًا فشيئًا بدأت تشكو إليه ، وترتاح إلى الحديث معه . حاول أن يقنعها أنها غير مسئولة عما يحدث بين أبويْها من مشكلات ، وأنها يجب أن تكون محايدة بينهما — إذا كانت قادرة على ذلك الحياد الصعب .!!

إن المشكلة التى تعانى منها عِلةٌ مزمنة ، ليس لها حل ، وينبغى عليها أن تذاكر وتجتهد ، حتى تدخل الجامعة ، وتؤمِّن مستقبلها — دون حاجة إلى أبٍ سكير .. أو أم طائشة .

هكذا حاول أن يحل المشكلة .. وسعد بهذا الحل ، لأنه أراد أن يُثبت — لنفسه على الأقل — أن علاقة الرجل بالمرأة ، ينبغى أن تقوم على البراءة والوضوح ، وأن صداقة طاهرة يمكن أن تنشأ بين شاب وفتاة . تذكّر فى تلك اللحظة قاسم أمين ، ورأى أن ما يفعله مع هالة خطوة فى طريق طويل بدأه ذلك المصلح العظيم ...!!

منذ وقت مبكر فى حياته .. وهو يرى أن قضية علاقة الإنسان العربى بالمرأة ، قضية شائكة .. وخطرة . كل فرد يأخذ دور الراهب « بافنوس » فى رواية « تاييس » — لأناتول فرانس : الحب حلالٌ له وحده .. وحرامٌ على كل البشر أجمعين . وإذا سُئل عن سر ذلك ، حاول

أن يتمسَّح — بالحق .. أو بالباطل — فى عباءة الدين صائحًا :

* أيها الفُجَّارُ .. لا تخْطِفوا الحمامةَ من نَسْرِ الربّ .!!

***

كان طه وبعض زملاءٍ له فى هذه المرحلة صغارًا فى السن ، لكنهم أصحاب طموح مبكر ، ورغبة عنيدة فى التعرف على كثير من الشخصيات العظيمة ، التى كانت تضمها كلية الآداب فى تلك المرحلة . كان طه حسين — مثله الأعلى — يُدرِّس لطلبة السنة الرابعة محاضرات فى الأدب الحديث ، فاندسَّ وسط الطلاب ، حتى يراه رأىَ العيْن . دخل الأستاذ الجليل فسكتَ الحاضرون ، كأن على رؤوسهم الطير . كان يتحدَّثُ عن شعر أمير الشعراء أحمد شوقى . بدأ محاضرته بالسخرية من هذا اللقب الذى صار جُزءًا من اسم صاحبه ، وعلل ذلك بأن الناس يفضّلون مثل تلك الألقاب ، لكثرة ما اعتادوا عليها فى الحياة العامة ، فهم يفرقون بين الشعراء بالألقاب .. كما يفرق العامةُ بين البشر بلقب « باشا » أو « بك » أو « أفندى » . بمثل تلك المقدمات الساخرة كان طه حسين يجذب سامعيه ، ويسحرهم بما يقدم من نقد وأدب .

لم تكن تهم صاحبنا المعلومات التى قالها الأستاذ عن الشعر والشاعر ، بقدر ما حرص على تأمل طريقته الخاصة فى المحاضرة ، ونبراته الواضحة فى الإلقاء ، والسلامة التامة فى نُطق الكلمة وتشكيل العبارة . كان أسلوبُ الرجل متدفقًا كأنما يغْرِفُ من بحر . تُحسّ أن كل ما يقوله يصل مباشرة إلى عقلك وقلبك . نظر إليه كما ينظر الضال فى الصحراء ، إلى نجْم متألق فى السماء . هذا هو طه حسين صاحب « الأيام » و « دعاء

الكروان » و « على هامش السيرة » و « حديث الأربعاء » وقضية الانتحال فى الشعر الجاهلى — موضوع البحث الذى اختاره . ازدادَ ثقةً بنفسه ، حين أدرك أنه يتحرك فى دائرة قُطب جليل ، يريد أن يسير نحوه فى طريق الواصلين إلى المجد .!!

سعى بعد ذلك إلى التعرُّف — عن قرب — على شخصية الدكتور رشاد رشدى ، رئيس قسم اللغة الإنجليزية — حينئذٍ . ذهب إلى المدرج الذى يُدرِّس فيه ، وجلس وسط طلاب أحسَّ بالغُربة عنهم شيئًا ما . بعد فترة جاء الأستاذ يلبس بدلة سوداء وكرافتة حمراء . هناك منديل أحمر من نفس لون الكرافتة فى جيب الجاكتة الأعلى ، ثم منديل آخر فى كم الجاكتة الأيسر ، لم يلتفت إليه فى البداية ، غير أنه لاحظ أن الأستاذ يتعمَّدُ إخراجه بين الحين والحين ، ليجفف عرقه ، الذى ليس له أثر ، لأن الجوَّ كان باردًا إلى حدٍ ما . أخذ الأستاذ يتحدّث عن (ت . س . إليوت) بمقدمة فهم منها بعض معلومات يسيرة ، لأنه غير متمكن من الإنجليزية . بدأ بعد ذلك يُلقى أجزاء من قصيدة « الأرض الخراب » (The Waste land) بطريقة تمثيلية بارعة .. كأنه إنجليزى الأصل . أعجبته طريقة الأستاذ فى الإلقاء الدرامى للشعر ، كما لفتتْ نظره أيضًا أناقةُ «اللورد» الدكتور رشاد رشدى .

سعى فى هذه الفترة أيضًا لسماع الدكتور مصطفى حلمى أستاذ الفلسفة الإسلامية ، والدكتور زكى نجيب محمود صاحب الدعوة إلى المنطق الوضعى فى الفلسفة . واستمع إلى محاضرات الدكتور محمد متولى عن الجغرافيا الاقتصادية للوطن العربى ، وإلى محاضرات فى التاريخ

الإسلامى للدكتور حسين مؤنس .. وحسن محمود .

كانت هذه الشخصيات الكبيرة وغيرها الكثير ، تُزيِّن أروقةَ كلية الآداب فى تلك المرحلة الذهبية . وقد حاول أن يتعرف عليها عن قُرب ، بعد أن قرأ لها أو سمع عنها . وقد دفعته رغبة صادقة إلى مشاهدة أولئك الأعلام من أساتذة الكلية . كان يحسُّ ــ فى تلك المرحلة المبكرة من حياته ــ أن معرفةَ العباقرة عن قُربٍ أيسرُ طريق للتأسِّى بهم ، والسيْرِ على دَرْبهم . كانت تحركه نفسٌ طموح ، نحوَ مستقبل لا تعرف له ضفافًا ..!!

***

كان عليهم فى السنة الدراسية الأولى أن يُقدّموا أكثر من « بحث » ، وقد اشترط عليهم مدرسُ النحو ، أن يقدموا البحثَ خلال أسبوعين ، وأنه لن يأخذه بعد ذلك من أحد . بدأ يقرأ فى كتب النحو القديمة ، ليكتب بحثًا عن « الفاعل » ورأى النحاة فيه . بينما هو فى مكتبة الجامعة ، يقرأ فى كتاب « المفصَّل » لابن يعيش النحوى ، جاءه زميل ، وأخبره أن هناك برقية باسمه عند موزع البريد . خفق قلبه عندما قرأها ــ « احضرْ بسرعة للأهمية .. أخوك حامد » ــ فقد ظن فى البداية أن والده مات ، لكن أخاه لم يشأ أنْ يصارحه بالحقيقة .. أو بالمصيبة . أخذ يطرد وساوس الشيطان ، وهو يحاول أن يعرف سر استدعاء أخيه له . فى الطريق إلى القرية توقّف ذهنُه عن العمل ، ولم يعد يستطيع أن يفكر ، أخذ يدعو الله أن يحفظ والده وأهله من كل سوء .!! ظل طوال الطريق يناجى ربَّه ، ويطلب منه أن يلطف به ، فيما قضى وقدَّر .!!

وجد أباه فى سَكْرَةَ تُشبه سَكرةَ الموت... أو هى إياها. طلب الأبُ أن يراه .. فأبرقوا إليه ، حتى يرى كل منهما الآخر .. فمن يدرى ، فقد لا يلتقيان بعد ذلك .. ووصيةُ المحتضر واجبةُ التنفيذ .!

أخذ يبكى حتى جفتْ دموعه ، لدرجة أن المحزونين على الأب تحول بعض حزنهم إلى الابن ، الذى قد يموت والده ، ولا يعرف أحدٌ مصيره بعد ذلك . حاولت الأم — باكيةً — أن تُفهم الأبَ أكثر من مرة ، أن ولده قد جاء كما أراد ، وطلبت منه أن يكلمه . لكنه يكاد لا يفيق مما هو فيه . بين لحظات متباعدة بطيئة كان يردد بصوت ضعيف : « يارب » ..!!

دار حول الجسد المسجى ، أخذ يقبله فى الوجه واليدين ، يناجيه ويتوسل إليه ، لكنه لم يرد عليه . بدأتْ تُهاجمه بعض حالات « الغيبوبة » الطويلة .. التى تجعل الإنسان قُبيْل الموت يغيب عن الوعى كثيرًا ، ويرى أشياء ، لا يراها منْ حوله .. ويتكلم عمن سبقوه من موتاه ، أكثر مما يتكلم عمن يعيش بينهم من أقربائه . إنها اللحظةُ الفاصلة .. التى تُصارع فيها الروحُ ، لتخرج من عالم بكل ما فيه ، إلى عالم آخر لا تدرى ما الله فاعل فيه .! فى الليل طلب الوالد شربة ماء ، كأنما يُعيد بها روحَه .. وأفاق بعدها قليلاً ، ففرحتْ الأم وطلبت منه أن يكلّم ولده ، وهى تدلك يده بحنان ، وتنظر إليه فى حزن .

* طه فى الجامعة... لم جاء .؟

* جاء كما طلبتَ يا شيخ .

لم يقل الأب بعدها شيئًا ، فطلب منه إخوته أن يذهب إلى المسجد

أو أن يزرو بعض أصدقائه ، حتى لا يتعذّب من رؤية أبيه على هذه الحال . خرج إلى الترعة ليلاً ، وتوضأ فى مصلى أقامها أهل القرية بجوار الكوبرى . أنعشه الماء البارد قليلاً . صلّى العشاء .. ثم أخذ يصلى ويطيل الدعاء : « اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى .. أو فى أهلى . يارب .. قد هدأتْ العيون ، وغارت النجوم ، وأنتَ حيٌّ قيوم . يارب .. خففْ عن أبى المرضَ والبلاء ، وارحمه فى الأرض والسماء . وإنْ كان فى الحياة خيرٌ له .. ولنا ، فأطلْ عمره وأذهب كربه . وإنْ كان فى الموت رحمةٌ له ولنا .. فارحمه ، وارحمنا برحمتك الواسعة .. يارب .!! » .

سار وحدَه على طريق الترعة بغير هُدى . تاهت ملامحُ كل الأشياء فى الظلام . كانت الحقيقة الوحيدة التى يحسُّ بها فى تلك اللحظة الرهيبة .. هى الظلام ، ولا شىء سواه .!! كم مشى كثيرًا فى هذا الطريق .. والأشجار تزينه عن يمين وعن يسار ، ومنظر الأرض الخضراء يمتدُّ إلى ما لا نهاية ، لكنه فى تلك اللحظة لم ير شيئًا ...!!

عاد وهدوء مخيف يُغلِّف جوَّ البيت . نامت الأسرة كلها تعبًا وحزنًا وحسرة . تمدد على سرير آخر فى الحجرة التى ينام فيها والده ، فهو إن لم يستمع إلى صوته ، فعلى الأقل يشم رائحة أنفاسه الطاهرة . لا يدرى كيف .. أو متى نام .؟! قام مع الفجر على صوت أقدام أمه لتقوم بعملية العجين والخبز ، قبل أن تُشغل بعُوَّادِ زوجها . قام على أطراف أصابعه ، وجلس وسطَ الدار يرقب أمه فى صمت ، وهو جالس أمامها . أخذتْ تُوصيه بضرورة الاجتهاد والعمل ، وهى مشغولة بعملية العجين فى طشت من نحاس . ثم أردفت :

* هل تذكر يا طه الحُلم الذى رأيته لك بعد وفاة المرحوم محمد .؟

أومأ لها بإشارة لم ترها .. و لم تكن فى حاجة إلى رؤيتها ، وواصلتْ : لا تحزنْ على أبيك يا بنى ، فكلنا أموات وأولاد أموات .

صاح كالملدوغ : فأل الله ولا فألكِ .!!

قالت وهى تحاول أن تُخلّص يديها من العجين : أبوك زوجى ، و لم أر منه إلا كل خير ومعروف ، وهو أهمُّ بالنسبة لى منك أو من أىّ واحد من إخوتك ، لكننا قوم مؤمنون .. وموحدون بالله . هذه سنة الحياة يا بنى .!

من أىّ معْدِنٍ خلقَ اللهُ تلك المرأة الصابرة المؤمنة .؟! يا رعاك الله أيتها الأم .. وحماكِ ، وأعانكِ على كل ما أصابك . سكتَ و لم يُعقّب ، لكنها واصلتْ :

* كل شيء سوف يسير كما أراد أبوك . لكن أنت الآن أملى .. وأمل العائلة كلها ، فاجتهدْ ولن أقصرٌ معك .

* حفظكِ الله يا أمى ، ولكن ....

* لا تقلْ شيئًا .. اليوم تسافر إلى جامعتك .. لا بد أن تكون الابنَ الذى نفخرُ به ، وإن شاء الله سوف تتحقق نبوءتى فيك .!!

لم يدر ماذا يقول أو يفعل .. لكنه يجب أن ينفذ قرارًا ، اتخذته أم شجاعة ، فى لحظة حزن أليم . بعد ساعات ودع إخوته ، ووقف باكيًا بجوار سرير أبيه . صعدت الأم على السرير ، وأخذت تسقيه كوبًا من عصير الليمون .. رشفة رشفة . بعد أن شرب قالتْ له :

* طه سوف يسافر يا شيخ .

فردَّ بضعف : مع السلامة .

* ألا تريد أن تقول له شيئًا ..؟

سكت كأنما يستجمع قواه الغاربة : قولى له يجتهد .. يجتهد من أجل نفسه .

وضعتْ رأسه على الوسادة ، بينما أخذ طه يقبّل وجهه ويده . جذبته الأم بشدة نحو صالة البيت .. وطلبت من أخيه حامد أن يوصله ، حتى يركب الأتوبيس إلى القاهرة .

ودَّعَ الأسرة ، وطيف أبيه ، ما برح ماثلاً أمامه طوال الرحلة ، وعبارة « اجتهدْ من أجل نفسك » .. تملأ مسامعه ، ولا شيءَ فى أعماقه سواها . ترى ماذا كان يقصد الوالد بهذه الجملة المعبِّرة ، التى كانت آخرَ ما سمع منه ..؟!

***

عاد إلي الجامعة حزينًا ، وحاول أن ينتهى من بحث النحو سريعًا ، حتى يقدمه للمدرس . عندما ذهب إليه ، قال : لن تأخذ أكثر من مقبول ، مهما كان مستوى بحثك .

* لماذا يا دكتور ..؟

* الموعد انتهى أمس .

* عندى عذرٌ قاهر .. والدى مريض ، وذهبتُ لرؤيته ، هذه هى البرقية .

* لا شأن لى بها .

هذا هو الدرس الثانى المؤْلم ، الذى حصَّله من الجامعة . لقد بذل

جهدًا كبيرًا فى البحث .. لكن الأستاذ أصرَّ على أن ينفذ وعيده . هل كان علي حق فيما فعل .؟! لا يظن ذلك .. فالتعليم رسالة مقدسة ، يشترك فيها مُعلّم ومتعلم ، والعنصر الإنسانى ضرورى جدًا ، كى تصل الرسالة . إن صاحبنا يؤمن بالنظام والمبادئ .. لكن ما حدث له كان بسبب عذر قاهر ، يخرج عن نطاق إرادته ، فلم يعامله الأستاذ بهذه القسوة .؟!

انفرطتْ حبةٌ أخري من عقد الجامعة النفيس فى نظره . غير أن ما حدث لم يضعف من إرادته ، وأصرَّ على أن ينجح بتفوق ، حتي يُحقق رؤيا أمه ، وينفذ وصية أبيه ، و .. يُلفتَ نظر سميحة ، ويكون جديرًا بحبها .!!

جاءته هالة ذاتَ ليلة تحمل كتابًا . حيته وجلستْ بجواره ، فى عينيها أمل ، وعلى شفتيْها كلام .. لكنه لم يكن قادرًا على أن يقول شيئًا . ظنت أنه يتثاقل عليها ، أو على الأقل يراها طفلة غير جديرة بحبِّه ..!!

قال بحدة : هاتى ما عندك فأنا مشغول بعمل بحث .

كل شيء يمكن أن يكذب إلا الإحساس . شعرتْ أنها ضيفٌ غير مرغوب فيه ، فسكتتْ لحظةً ، ونظرتْ فى عتاب إليه . ولما لم تجد عنده استعدادًا للكلام خرجت ، وهى تقول :

* تصبح على خير .

لا يدرى ما الذى جعله يتذكَّر هذا البيت :

جُننا بليلى ، وجُنَّتْ بغيرِنا   وأخرى بنا مجنونةٌ لم تُكلَّم

رغم إحساسه بالأسى نحوها إلا أنه كان راضيًا عن نفسه كل الرضا ، فقد أصرَّ على ألا يخدع فتاة ، ليس لها فى قلبه مكان .!!

***

اقتربت الامتحاناتُ أو كادتْ ، وبدأ يُشغل بدروسه .. وتوقّف عن الذهاب إلى الجامعة . شغله مرض والده .. لكن زميله كان دوْمًا يصبِّره ويطمئنه . وظن بدعواته الصالحاتِ خيرًا ، وأن الله سوف يشفى والده . اطمأن لهذه الفكرة ، ومضى يستعد للامتحانات . قام ذاتَ يوم من النوم عصرًا . وأخذ حمامًا باردًا ، حتى ينشّط جسده وروحه . فتح كتابه ، وقبل أن يكمل السطر الأول ، إذا بهالة أمامه ، مرتدية ملابس الخروج .

* أستاذ طه .

* نعم .!!

* جئتُ أودعك .

* لماذا .؟

* سوف أهربُ من البيت .

* ماذا تقولين يا مجنونة ..؟ اجلسى حتى نتفاهم .

* ليس عندى وقت ، هناك صديقة فى الداخل ، سوف أخرج معها بحجَّة المذاكرة ، حتى لا يشك أحد .

* لكن هذا لا يجوز .. ولا يصحُّ .!!

* إذا أردتَ أنْ نتفاهم ، فالحقْ بى بعد خمس دقائق فى ميدان الجيزة .

خرجت الفتاةُ مسرعةً . ارتبك .. واحتار ماذا يصنع .؟ لو كان سيد هنا لاستشاره فى المسألة ، لكنه ما زال فى الكلية . لقد وعدها أن يكون أخًا ، وها هى قد أخبرته بما تنوى أن تفعل ، دون أن تخبر بذلك أمها أوْ أباها . لا .. لا تكن نذلاً . لا بد أن تذهب وراءها . لكن لم أذهب .؟! فلتذهبْ إلى الجحيم فلستُ ولىَّ أمرها ..أو مسئولاً عنها بأية درجة ..!

هل هذا يجوز يا رجل .؟! لا بد أن تكون نبيلاً ، والنبل يقتضى أن تُنقذ فتاة وثقتْ بك فى لحظة ، لم تر فيها أحدًا سواك ..!!

لبس ملابسه على عجل ، وقفز درجات السلم ، وأخذ يجرى حتى يلحق بها . وجدها بالقرب من سينما الفانتازيو هى وزميلتها . عبروا الميدان وساروا فى شارع مراد .

* ما الحكاية يا هالة .؟

* قررت أن أهرب من البيت .

* لماذا .؟

* أنت تعرف السبب .

توهم أنها يمكن أن تظن للحظة أنه رفض حبَّها ، فأراد أن يُبعد شبحَ تلك الخاطرة عن ذهنها ، قائلاً :

* هل كل فتاة يختلف أبوها مع أمها تترك البيت ، وتمضى هكذا .؟!

* هذا ليس بيتًا .. إنه سجن ، كل يوم مشكلات .. ومشاجرات .. وفضائح . لا أحدَ يُحس بى .

* اعقلى يا هالة وتعالى نعود إلى البيت .

* لا فائدة .. لقد قررتُ .

* قررتِ ماذا .؟

* أن أرحل إلى بورسعيد .

* ولماذا بورسعيد .؟

* حتى أكون بعيدة .. بعيدة عن كل من يعرفنى .

ظل يحاورها .. وتحاوره إلى أن وصلا إلى ميدان التحرير ، دون أن

يستطيع إقناعها ، فاجأته قائلة :

* إن كنتَ خائفًا علىَّ فتعالَ معى .

* نعم .!!

أىُّ أوهامٍ زُينتْ لهذه الفتاة الطائشة .؟! يبدو أنها فكّرتْ بجنون .. وها هى تحاول تنفيذ خطتها الشيطانية . تسافر معها إلى بورسعيد ، ثم يكتشف أهلها بعد مدة طالتْ أم قصُرتْ ، أنك كنت معها تُمثّل دورَ المحبِّ الولهان . بعدها تكون فضيحةَ الموسم ، وتكتب صفحاتُ الحوادث « شابٌ مُسْلم يُغْوِى فتاة مسيحية ويهرب معها » . هكذا تُطرد من الجامعة ، وتُفضح فى القرية .. وقد يموت بسببها أبوك ، وهو لما يمت بعدُ .!!

* لو كنتُ أخاكِ لضربتك وأعدتك إلى البيت .

ردت عليه فى تحدٍ :

* قلت إنك أخى — ذاتَ مرة .. لكنك الآن لا تستطيع أن تنفّذ ما وعدت .!!

وصلوا إلى ميدان « باب الحديد » دون أن يلتقيا . لفت نظره أن صديقتها لا تتكلم .. كأنها واثقة أنهما يديران معركةً خاسرة .

استجمع كل أفكاره المشتتة ، وحاول أن يقنعها بالعودة .. دون جدوى . أخرج لها الجنيه الوحيد فى جيبه ، لكنها رفضتْ أن تأخذه . لم يكن يبدو على الفتاتين أىُّ قدر من الارتباك . لا يدرى .. كيف قطع كل هذه المسافة من الجيزة إلى « باب الحديد » سيْرًا على الأقدام .؟! كان — رغم الزحام والظلام — لا يفكر إلا فى شىء واحد ، هو أن يُنقذ فتاتيْن ،

لا يدرى ماذا يدور فى رأسيهما الصغيرين الأجوفين .!!

فى الميدان الكبير افترقُوا — دونَ وداع . اتجهتْ هالة وصديقتها الصامتة ناحية محطة « كوبرى الليمون » ، بينما اتجه هو ناحية موقف الأتوبيس .. كانت رأسُه مصدعة ، وطنين وصخب يدوران فى نافوخه . أوهمَ نفسه أنه عمل ما عليه . ركب أول أتوبيس وعاد إلى البيت سريعًا . الخاطرة الوحيدة التى ألحتْ عليه طوال الطريق هى أن يُخبر والديها ، لكى ينقذاها . عندما وصل إلى البيت مرَّ على الحجرة أولاً . حينَ رآه — مضطربًا — زميلُه سيّد ، سأله عن سبب خروجه ، فقصَّ عليه الحكاية ، وقال إنه يريد أن يخبر والديْها . قام سيد فى هدوء وأغلق بابَ الغرفة ، ثم وضع المفتاح فى جيبه :

* أنت مجنون ، لأنك خرجتَ وراءها ، وسوف تكون أكثر جنونًا ، لو أخبرتَ أهلها بشىء .

جلس على السرير كأنه فرن مشتعل ، صُبَّ عليه دَلوٌ من الماءِ البارد . بدأ زميله يثير فى نفسه مخاوف ، لم يكن قد فكّر فيها من قبل . انتهى إلى أنه إذا أخبر أهلها ، فسوف يشكُّون فى أن له يدًا بشكل أو بآخر فى هروبها . وإذا تهوّروا وأبلغوا البوليس فهو الشاهد الوحيد .. أو المتَّهم الوحيد أيضًا . كيف دارت كل هذه الهواجس فى مخيلة سيد .؟ لا يدرى ..!! لكن كل تحليلاته للموضوع كانت منطقية ومعقولة .. فلم يُلقى بنفسه إلى التهلكة .؟! وافق سيدًا على رأيه . و لم يستطع ليلتها أن يذاكر .. أوْ أن ينام . ظل يفكر فى قضية تلك الفتاة المسكينة ، التى ضاعتْ ... أو سوف تضيع بسبب المشكلات التى تحدث بين أبيها

وأمها . أدرك أن وراءَ كل ابن ضال ، أبوين لم يحترما ميثاقَ الأسرة ..!!

سمع حركةً غير عادية فى صالة الشقة ، تدل على قلق الأم على ابنتها ، لكنه أصم أذنيه ، وقرر ألا يبحث عن المفتاح ، الذى وضعه سيد فى جيبه قبل أن ينام نومةَ أهل الكهف . انتفخَتْ رأسُه من كثرة الأفكار والآلام والأحزان . مع أضواء الفجر تزحف من بعيد ، أحسَّ أنه جثة مستهلكة . لا يدري كيف هبط عليه ملك النوم .. أو هجم عليه كابوس الشيطان .؟!

عندما استيقظ أدرك أن الوقت متأخر . مازالت الأوجاعُ مسيطرة على رأسه وجسده . قرر أن يترك البيت ، وأن يذهب للمذاكرة فى مكتبة الجامعة . وهو عائد من الحمام ، لم يُصدِّق عينيه ..!! وجدها تجلس فى الغرفة . انتهز فرصة دخول أمها الحمّام ، وانشغال سيد بارتداء ملابسه ، ومرَّ عليها متلهفًا .. وسألها :

* كيف عُدْتِ .؟!

قالت وشحوبٌ مسيطر على وجهها ، وآثار سهرٍ فى عينيها ، وأنة حزنٍ فى صوتها : فاتنى القطار .

لم يسأل نفسه .. هل كانت صادقة أم لا .؟ المهم أنها عادتْ وحمد الله على عودتها . لكن زميله كان مصرًا على أنها قضت الليلةَ عند صديق أو عشيق . لم يكن قادرًا على تصوّر أن فتاةً مثلها يمكن أن تسقط .!! لكنه عزم على أن تكون هذه نهاية كل علاقة بينه وبينها .. فقد سلَّمَ اللهُ هذه المرة ، ومن يدرى ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك .. فقد تأتى الرياح ، بما لا يشتهى الملاّح ..؟!

***

مرَّ العامُ الدراسى الأول فى الجامعة بالطول والعرض ، وانتهى امتحانُ الفصل الثانى ، لأن نظام الدراسة كان يشتمل على فصليْن ، وعلى الطالب الجاد أن يعمل باستمرار ، حتى يحصّل دروسَه أولاً بأول . رغم انشغاله بكثير من الأمور الخاصة والعامة فى هذه السنة ، فإنه ظل حريصًا أشدَّ الحرص ، على أنْ يظل محافظًا على مستوى تفوقه . وقد زاره — عن عَمْدٍ ، كما اكتشف بعد ذلك — فى فترة الامتحان أكثر من أخٍ له ، لكى يطمئنوه على سلامة الوالد الحبيب .

فى ليلة السفر إلى القرية بعد الامتحان ، قال له سيد فى نبرة حزينة :

* أريد أن أحدّثك فى أمرٍ ، كان ينبغى أن تعرفه منذ شهر تقريبًا ، لكنّى .. لن أقول لك شيئًا إلا إذا وعدتنى بأن تكون رجلاً .

اضطربَ قلبه ، وهو يرى زميله مُتجهِّم الملامح ، متأثرًا بدرجة أقربَ إلى الحزن . بدأ يدرك أن فى الأمر سرًا .. بل إن فى الأمر شرًا . لم يصدِّق قلبه فيما توقَّع . أخذ يُجمِّع فى هذه اللحظة السريعة البطيئة بعض أمور ظنَّ — ساعتها — أنها حدثتْ مصادفةً ، وهى أن زميله كان يختلى بكل وافدٍ أو مقيم من أهل القرية يزورها ، ويحدِّثه على انفراد فى أمرٍ ما ، لا يقول له عنه شيئًا . آه .. هذا هو السر .. لقد وقعتْ المصيبةُ ، واتفق سيد مع إخوته على إخفاء الخبر عنه ، حتى تنتهى فترة الامتحان ، لأن الوالد العزيز توفى — رحمةُ الله عليه — فى اليوم السابق على أول امتحان له . نعم مات الحبيبُ ، الذى كانتْ تُرْجَى محبّته ، يومَ الجمعة ١٦ مايو سنة ١٩٥٧ ، بينما بدأت امتحاناتُ الفصل الثانى يوم السبت ١٧ مايو . مصادفة عجيبة .. وامتحان أصعبُ من امتحانات الدراسة . مادتْ به

الأرضُ ، ودارت رأسه ، وعلا نشيجه ، واضطربت أنفاسه .

قال صديقه : كيف تبكى ولم أقل لك شيئًا .؟

فردَّ عليه : لقد قال قلبى كل شئ .. كنتُ أحس أن هناك مصيبة ستقع .!!

انخرط فى البكاء والنشيج ، بينما زميله يحاول أن يهدِّئ روعه .

قال بانكسار ودموعه تجرى : هكذا يا سيد تكذبُ علىَّ .؟!

* هذا رأى إخوتك .. وقد وافقتهم عليه ، ونفَّذتُ رغبتهم .!!

كيف يمكن أن يعود إلى الدار ، ولا يجد أباه .؟! من الآن يا طه تكون يتيمًا وحيدًا ، وأنت لا تزال فى أول الطريق .! كان يتمنى أن يفدى أباه بنفسه ، غير أن الحياة لا تسير بالتمنّى ، والمنية تختار خبْط عَشْواءَ .!!

تعمد سيد أن يصل مع زميله إلى القرية فى المساء ، حتى لا يراهما أحد . فى البيت لم تكن الأسرة تعلم أنه عرف الخبر المشئوم ، لذلك بدّلتْ الأم والأخت الملابس السوداء بملابس عادية إمعانًا فى التمويه . حين دخل الدار أخذَ يبكى على صدر أمه ، وهى تحاول أن تُصبِّره قائلة :

* الرجال لا يبكون يا بنى . لقد اختار الله أباك ، ورحمه من آلام المرض ، وقد مات رحمةُ الله عليه ، وهو يدعو لك كأنما أنت ابنه الوحيد .!!

كان وقعُ المصيبة حادًا على قلبه ، وأسفَ أشدَّ الأسف ، لأن العزيز الراحل مضى دون أن يراه . عندما دخل الحجرة التى كان ينام فيها ، لم يستطع أن يحبس دموعه . تخيَّله نائمًا مثلما رآه فى المرة الأخيرة . هذه الدنيا غريبةٌ عجيبة .. تُعطى وتأخذ فى آن واحد . لقد فرح أول العام لأنه دخل

الجامعة .. وها هى الليالى السود ، تسخر منه — فى نهاية العام نفسه — وتسلبه أعزّ إنسان فى الوجود . من سيرعاه بعده .. ومن سيدعو له الله .. ومن يلتمس منه البركة .. ومن يفتح المندرة لاستقبال الزائرين .؟! لم يكن يفكّر فى شىء أثناء تلك اللحظة الرهيبة ، سوى الإحساس بالفقْد .. والشعور باليُتم . لم تكن من عادة الوالد أن يسأله عن أىّ أمر من أمور دراسته ، أو قراءاته .. لكنه كان يستمد منه الأملَ والعونَ والبركة . ويكأننا لا نعرفُ قيمةَ منْ نُعاشرهم إلا بعد أن نفقدَهم .!!

جلس يتناول العشاء مع أمه وأخته وحامد وزوجته الجديدة . هذه المرأة فألُ شؤم ، دخلت الدار من هنا .. ومات الوالد بعدها . هل هذا صحيح أم أنها مجرد مصادفة .؟! ليس هناك شىء اسمه مصادفة . هذه المرأة قدمُ نحْسٍ . أعانك الله يا حامد على تحمُّل ما سوف تأتى به هذه المرأة من لعنة .. وقد تأكدتْ ظنونُه إزاءها فيما بعد ، فقد كانت الوحيدةَ فى زوجات إخوته ، التى لا يستطيع أحدٌ التفاهم معها ألبتة ، وقد أساءتْ فيما بعد إلى زوجها .. وأولادها إساءاتٍ بالغة .!!

***

صار البيتُ باردًا من دفءِ التجمُّع الأسرى .. مات الوالد .. وأحمد انتقل بأسرته إلى دمياط .. ومحمود فى دمياط — أيضًا — مع زوجته وابنه الصغير كارم .. ومصطفى فى الجيش ، لم يعد فى البيت سوى الأم الحبيبة .. والأخت العزيزة زينب .. وحامد وزوجته ، التى لم تنجب إلا بعد مدة .. هاله ما بين الأمس واليوم ..!!

ما أشبه انهيارَ كثيرٍ من الأسر ، بانهيار الإمبراطورية الرومانية ، حيث

تأتيها معظمُ عوامل الضعف والفناء من داخلها ..!!

دفعته الأحزانُ إلى أن يكون أكثر عزلةً وانطوائية ، ولم يعد قادرًا على مواصلة القراءات الحرة بشهية مفتوحة مثل العطلات السابقة . وأصبح يفضّل العزلةَ ، ويبحث عن بعض أصدقاء الوالد ، لكى يحدثوه عنه . فى غمرة هذه الأحزان جاءته رسالة من صديقه عبد المنعم تليمة ، يُخبره فيها أنه قد نجح ، وانتقل إلى السنة الثانية .

ذهب يُعْلم والدته فسعدتْ بالخبر ، فهنأته ، وقالت : إن المرحوم أوصى أخاه الكبير أحمد قبل أن يموت بإخوته خيرًا ، وطلب منه ألا تُقسَّم الأرضُ أو الدار إلا بعد أن تتزوج زينب .. ويتزوج مصطفى .. وتنتهى من دراسة الجامعة . لكن وصية الوالد ماتتْ ، قبل أن يتحلل جسده فى القبر . قبيل انتهاء العطلة نقضَ الوصىُّ الوصيةَ ، فقد طلبتْ منه زوجُه أن يتسلم ميراثه من الآن ، فكل واحدٍ أوْلى بحقه .. وأن أخاه إذا أراد أن يُكمل دراسته ، فعليه أن يبيع ما ورث من الأرض ، ويصرف من مالها . وقد رفضتْ الأمُ ذلك بإصرار فى البداية ، وبكتْ حين سمعت هذا الرأى ـــ الذى تعرف مصدره ـــ وقالت بحزن بعد أنْ يئست من إقناعه :

* هكذا يا أحمد تنسى كلام أبيك ، وتستجيب لرغبة زوجتك .؟ عليه العوض .. لقد ماتَ الجمل .. ولا أمل . المهم اجعلْ ميراثى .. وميراث زينب وطه فى مكان واحد ، حتى يكمل دراسته . سأضحّى من أجله حتى لو بعتُ جلبابى .!!

لم يكن قد عرف ما يُدبّر بليلٍ فى الخفاء . ذاتَ مساء طلب منه أخوه محمود أن يخرج معه إلى طريق الترعة ، حتى يحدّثه فى أمر خاص . بدا

محمود مترددًا ، لا يعرف كيف يبدأ ؟ أخيرًا .. أعلمه الخبر ، لم يستطعْ أن يقول شيئًا .. كان ردُّه بكاءً أخرس ، وصمتًا أبأسَ من أى كلام . فقال أخوه مهوِّنًا وقعَ الأمر :

* إن هذا الحل رغم قسوته حل مريح .

* كيف .؟

* بهذه الطريقة لن يكون لأحدٍ فضلٌ عليك .!!

هكذا كابدَ آلامَ الحزن وبُؤسَ اليتم قبل أن تتمزق أكفان الأب فى قبره . ومن عجبٍ أن الأخ أحمد عرض عليه شراءَ الأرض بالتقسيط ، لأنه لا يحتاج إلى المال جملة .. وسوف يعطيه مصروفه الشهرى من راتبه . لكن الله جلتْ حكمتُه ، جاء بالمساعدة عن طريق آخر ، فقد كان — ابتداءً من السنة التالية — يحصل على تقدير « جيد جدًا » . وقد قررتْ الجامعةُ تشجيعًا للطلبة ، أن تُعطى مكافأة سنوية قدرها ثمانون جنيهًا لمن يحصل على هذا التقدير . وقد شكلت هذه الجنيهاتُ الثمانون — التى كان يحصل عليها كل سنة دراسية — حافزًا آخر جديدًا من حوافز الرغبة فى التفوق والاجتهاد .

كما أن الله جلَّتْ حكمته حين حرمه من الأب ، عوَّضه عن ذلك الحرمان بوجود تلك الأم العظيمة ، التى كانتْ حريصةً عليه أشدَّ الحرص ، وحرمتْ نفسها من أشياء كثيرة ، لكى تدبِّر له ما يحتاج . كبرت الأمُ وشاختْ ، وتنوعت المصائبُ التى واجهتها . مات ولدها البكر . ثم مات زوجها وسندها ، وبدأت الأسرةُ تتفرق وتتمزَّق ، بل لقد أخذ الأولاد يبدون بعض أشكال العقوق ، خاصة أولئك الذين

تزوجوا ، حيث شُغل كل منهم ببيته الجديد . أخيرًا اختارت الأم أن تعود إلى « الدار القديمة » التى تزوّجت فيها ، لتكون ميراثها وميراث طه وزينب .. اللذين كانت تبسط عليهما حنانها الفياض وحمايتها الزائدة ، حتى توصلهما إلى برّ الأمان .. كما وصل إخوة كبار لهما من قبل . حينما كانوا ينقلون أثاثها إلى الدار القديمة ، كانت تصيح باكية : « لماذا متّ وتركتنى يا شيخ عمران .؟! » .

كانت المصائبُ والآلام تزيدها صلابةً وقوة .. رغم ما تواجهه من عُسر وضيق ، لم تسأل أيًا من أولادها شيئًا ، بل كانت هى التى تُعطى دائمًا ، وتُسرف فى ذبح الطيور — التى ما زالتْ تهتم بتربيتها ، وتعتمد على بيضها فى كثير من الوجبات — حين يزورها واحد من الأبناء المسافرين . كانت امرأة صلبة مؤمنةً .. مدبرة .. حكيمة .. رءُومًا بأبنائها وأحفادها الصغار . وأصبح الأحفادُ يُحبّون جدتهم « الوزير » . وصارتْ كلمةُ « الوزير » لقبًا يُدلل به الأحفادُ جدتهم ، حتى تعطيهم قرشًا .. أو بيضة .. أو فطيرة . كانت الأم تذكره بصلابة الهرم الأكبر وشموخه .. وهى — مثله — تهزأ بكل العواصف والأعاصير ، التى تمر عليها . وقد استطاعتْ بحكمتها وصمودها أن تكمل رسالة الأب بعد وفاته . هذه الأم مثل كثير من رجال مصر ونسائها — فقراء الجيب .. قصار اليد ، لكنهم أغنياء الروح .. كرماء النفس .. صابرون عند المحن .. صامدون رغم قسوة الزمن .!!

***

فى هذه العطلة بدأتْ تقوى علاقته ببعض أقارب أمه . كانتْ كل أخواتها — غير الشقيقات — إناثًا ، ما عدا رجلاً واحدًا ، هو الخال « محمد رشاد » ، وهذا الرجل يعد نموذجًا مجسدًا للبرّ بالوالديْن ، فقد رأى أن راتبه لا يساعده على الزواج والإنفاق على أهله فى آن واحد ، فآثر ألا يتزوج إلا بعد وفاة والديْه . كان ساعتها قد جاوز الخمسين بسنوات — وهو يحضر إلى قرية الجد « كفر البرامون » لقضاء فترة العطلة صيفًا . حين اقترب منه أنس إليه ، واتخذ الخالُ منه صديقًا .. وصار يُحدِّثه عن كثير من خبراته وتجاربه فى الحياة . ووجد فيه — أحيانًا — بعض العِوض عن وفاة الوالد . كانت تقيم فى الدور الأول من بيت الجد أبو الفتوح الخالة « جودة » ، وهى سيدة غاية فى الطيبة والعطاء بدرجة ظن فيها أن لسانها لا يعرف كلمة « لا » قط . كانت زوجة لابن عم لها — الشيخ بدراوى مطاوع — وهو عالم من علماء الأزهر ، لا يقل عنها طيبة أو سماحة .. كما لا يقل عن خاله بِرًا بأهله أجمعين . و لم تنجبْ هذه الخالة سوى طفلتين .. الأولى سعدية ، وهى صبية .. طيبة القلب .. مدللة ، وإن كانت إحسان الصغرى مدللة أكثر ، بسبب أنها أصيبتْ بصممٍ فى أذنيْها إثر إصابة بالتيفود لم تُعالج منها . وقد استأنس بمن فى بيت جده واستأنسوا به ، وصار يقضى هناك وقتًا طويلاً من أوقات العطلات الصيفية مع خاله وخالته .

هكذا فإن الله جلّتْ حكمته يقطعُ من هنا .. ويصل من هناك . لكن الشىء الهام فى حياته فى هذه السنة .. أنه صار بعد وفاة أبيه يتحمل مسئولية أمور كثيرة ، وهو لما يزل فى التاسعة عشرة من عمره . كان عليه

أولاً أن يُدبِّر كل أمور حياته بنفسه .. وأن يرعى أمه .. وأن يصادق أخته زينب ، وهو الذى اختار لها فيما بعد صديقًا يثق به ، ليكون لها زوجًا .. وهو الأستاذ غنيم شعير .

أوشكت العطلةُ على الانتهاء .. وبدأ يستعد للعودة إلى القاهرة ، لكن خاطرًا غريبًا سيطر عليه ، هو الإحساس الشديد بفقد الأب .. فكان يذهب عصر كل يوم إلى قبره ، يقرأ الفاتحةَ على روحه . جلس ذات مرة وحده بين المقابر .. المقر الأخير لأبيه ولكل أهل القرية ، وهى تقع على أطراف البلدة وسط المزارع . أمر عجيبٌ أن يتجاور الأحياءُ والأمواتُ ، لكنها حال الدنيا .. كل من عليها فانٍ حتى أبيك . هؤلاء الناس الذين ملأوا الدنيا حركة وبركة .. وأفراحًا وأتراحًا ، تجمّعوا فى هذا المكان الضيق ، ورغم ضيقه مازال لسانُ حاله يقول : هل من مزيد .؟!! لا فائدة من التأمل .. فالحياة فانية والعمر قصير ، المهم أن تعمل عملاً يكون بردًا وسلامًا على روح والدك ، يخلّده ويخلدك .. من بعده . ماذا تريد أن تفعل بالضبط يا صديقى .؟ لم يكن يدرى .. أو يعرف ، لكنه أخذ أمام قبر والده عهدًا ، أن يكون الولدَ الصالحَ ، الذى يفخرُ به أهله وذووه .!!

عاد من زيارة القبور والحزنُ مسيطر عليه . مشى خطواتٍ معدودات ، ثم وصل إلى القرية .. إلى عالم الأحياء ، وهو يتعجّبُ من قِصر المسافة التى تربط بين العالمَيْن .. عالم الموتى وعالم الأحياء . هذه الحياةُ .. وهمٌ كبير .!!

***

الجامعة والجامعيون

آثر فى العام الدراسى الثانى (١٩٥٧ / ١٩٥٨) أن يترك بيت هالة ، وأقام فى شقة فى شارع « البحر الأعظم » ، سكن فيها مع بعض الزملاء ، لأن السكن فى هذه الفترة كان مُيسَّرا ، ولافتة « شقة للإيجار » ، أو حتى « غرفة للإيجار » ، تكاد لا تختفى من أى شارع . رحم الله تلك الأيام الخوالى ، التى كان إيجار شقة فيها على شارع النيل خمسة جنيهات فقط لا غير فى الشهر !!.

أحس منذ بداية السنة أنه يعود إلى عالم يعرفه حق المعرفة ، فقد صار له من زملائه أصدقاء يعزُّهم ويعزونه ، ويحرصون على أن يتفوقوا جميعًا فى الدراسة . وقد سعد باللقاء الجديد .. كما سعد بعودته إلى سميحة ، التى لم تعرف حتى الآن من حكاية حبه العفيف الصامت لها كثيرًا أو قليلاً ، غير أنه اكتفى بمجرد القرب منها والاطمئنان عليها ، وقد عزَّ عليه أن يجد أية فرصة للانفراد بها ، والتعبير عن بعض ما فى قلبه ، لأنها كانت دائمًا مرتبطة بمجموعة من الزميلات ، يجئن ويتحركن فى الجامعة ، ويجلسن فى المدرج سويًا ، بدرجة جعلته يظن أحيانًا أن المرأة هى المرأة .. حتى لو كانت فى جامعة . كان ــ بدافع الشوق والحب ــ يسترق السمع إليها أحيانًا ، فيجدها تتحدث معهن فى أمور جد تافهة .. مثل أهمية شرب اللبن فى الصباح .. وموضات الملابس

والأحذية .. والتعليق على بعض أفلام السينما أو مجلات الأزياء . لم يكن يدور بخلده ، أن تلك هى اهتمامات محبوبته العظيمة ، التى هام بها ... وينوى فى النهاية أن يتزوجها . لكن قلوب المحبين دائمًا أرق من غشاء البيضة . حاول أن يلتمس لها العذر .. وآلى على نفسه ألا يسترق السمع مرة أخرى ..!!

فى تلك السنة درس مادة جديدة فى « البلاغة العربية القديمة » ، وكان الكتاب المقرر هو كتاب « المفتاح فى علوم البلاغة » للسكاكى .. وهو كتاب لغته جافة ، وعباراته مُلغزة . كان الدكتور شكرى عياد دقيقًا فى شرحه ، يحاول أن يوصل معنى كل عبارة من عبارات الكتاب المستغلقة ، التى تحتاج إلى « حاذق » فى علوم البلاغة — على حد قول السكاكى . وقد قابل الطلبة المادة بقدر من النفور لصعوبتها ، لكنه وجد أن أحسن وسيلة لفهم المادة ، هى أن يقرأ موضوع المحاضرة قبل درسه . وقد كثرت تعليقاته وشروحه أثناء المحاضرة ، فقال له الأستاذ :

* يا سيد طه .. عندك طموح مبكر ، يبدو أنك تفهم المادة بشكل جيد ، فاترك فرصة حتى تصل المعرفة إلى غيرك ، ممن لا يعرفون .

كانت تلك دعوة مهذبة من الأستاذ ، حتى يكفَّ عن التعليق والمشاركة فى المحاضرة . رغم أن نصيحة الأستاذ كانت فى محلها .. فإنه رأى فى ذلك مصادرة على رأيه ، كى لا يظهر ما حصل من قراءات قبل المحاضرة ، فقرر ألا يكتب وراء الأستاذ حرفًا ...واكتفى بالقراءة فى المكتبة والسماع فى المحاضرة دون مشاركة ، وقد حصل فى تلك المادة على أحسن تقدير فى نهاية الفصل الدراسى .!

وقد سار فى دراسته سيرًا حميدًا ، وزاد عليه فى هذه السنة وما بعدها أن اكتشف « الجماعة الأدبية » فى الكلية ، التى كان يشرف عليها ويشارك فيها كثير من طلبة القسم ، فواظب على ندواتها .. وشارك فيها ببعض قصصه القصيرة .. وقد ضاعت تلك القصص ، كما ضاعت كثير من المحاولات القصصية ، التى كتبها من قبل منذ السنة الأولى الثانوية (١٩٥٣) .

***

هناك حدث سياسى هام ، وقع فى تلك السنة .. وهو إعلانُ الوحدة بين مصر وسوريا فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ . كان لهذا الحدث صدى قوى فى الأوساط العالمية والعربية ، وأثر كبير عند طلبة الدفعة ، لأن معهم بعض الطلبة والطالبات العرب . وقد أخذ الطلبة ينظرون إلى هذا الحدث العظيم ، بتفاؤل كبير ، آملين أن تكون تلك الخطوة بداية جادة لوحدة حقيقية ، تجمّع صفوف الأمة العربية .. التى لاصلاح لكل أقطارها إلا بالوحدة الشاملة .!! وقد تنازل شكرى القوتلى عن رئاسة سوريا ، وصار عبد الناصر رئيسًا لأول دولة وحدوية .. تتكون من القطر الشمالى (سوريا) .. والقطر الجنوبى (مصر) ، كما أصبح المشير عبد الحكيم قائدًا للجيشيْن .. وصار للدولة الجديدة علم واحد .. ووزارة واحدة .. كما مضوا يعدُّون دستورًا موحدًا للدولة « الجمهورية العربية المتحدة » .

***

مضت سنوات الجامعة سريعًا ، وقد تلقى فيها العلم على أيدى أساتذة عظام ، يدين لكثير منهم بالفضل حتى اليوم ، ومن هؤلاء الأساتذة :

الأستاذ الدكتور شوقى ضيف : ذلك العالم الفاضل الملتزم ، الذى لم يتأخّر عن درس قط ، و لم يتخلف دقيقة عن محاضرة ، و لم يخرج فى أثناء الدراسة حول أية استطرادات جانبية . وقد درس على يديْه الكريمتين الأدب الجاهلى والإسلامى والعباسى فى ثلاث سنوات متصلة ، وقد أثر فى نفسه هذا الأستاذ الجليل كثيرًا ، ومازال يعتز به حتى اليوم ، ويحرص على لقائه ، والأخذ عنه .. والسؤال عليه .

الأستاذة الجليلة الدكتورة سهير القلماوى : كانت هذه الأستاذة الجليلة فى تلك الفترة تشغل منصب رئيس القسم وأستاذة الأدب الحديث . كانت سيدة فاضلة غزيرة العلم ، متدفقة المعلومات ، يتّسع صدرها لكل أبنائها وبناتها ، و لم تثر يومًا فى وجه سائل ، و لم تضق لحظة بأى طالب . عندما توجه إليها الطلبة فى آخر سنة ، كى يأخذوا معها صورة تذكارية ، استقبلتهم بحنان الأم وأجلستهم معها . كان دخول حجرة الأساتذة فى تلك الأيام شبه مُحرم على الطلبة جميعًا . لكنها الأستاذية فى أسمى معانيها .. وقد أعجب بهذه الأستاذة الجليلة والعالمة النبيلة طوال سنوات الدراسة ، ثم درس معها درجتىْ الماجستير والدكتوراه بعد ذلك .

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى : وقد درس عليه ثلاث مواد هى المكتبة العربية والأدب الأندلسى ومادة امتياز فى السنة الرابعة . وقد درّس لهم فيها الموشحات والأزجال من كتاب صدر له فى تلك السنة ، أعطاه « هدية » لكل الطلبة دون مقابل . ورغم أنه كان يشغل منصب وزير الثقافة فى وزارة الوحدة ، لأنه مفكر « قومى » ، فقد كان منضبطًا فى

دروسه ، خصبًا فى مادته ، وسيمًا فى هندامه ـــ رغم أنه أعزب . وقد ظل صاحبنا على علاقة طيبة به ، حتى لحظة وفاته رحمه الله فى مارس ١٩٨٣ .

الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس : وقد درس عليه مادة الأدب الشعبى .. والنثر العربى الحديث . وقد درس لهم موضوع « السيرة الأدبية : الغيرية والذاتية » . وهو أستاذ عصامى ، حلو المحاضرة .. عذب الحديث ، له عبارات خاصة ، ترتسم فى الذهن ، حتى لو سمعتها مرة واحدة . وكان دائمًا يقول له بروح أبوية مرحة « إزيك يا طه وادى النيل » . وقد ظل على علاقة طيبة به ، حتى وفاته رحمه الله فى سبتمبر ١٩٨٨ .

الأستاذ الدكتور عبد الحليم النجار : أستاذ النحو .. والمترجم لبعض كتب المستشرقين الألمان ، وكان بحرًا لا ينفد عطاؤه ، يقدم النحو فى أسلوب سلسل سهل ، يقرّبه إلى العقول ، وكان أحيانًا يستطرد بخفة روح ، ليتحدث عن بعض النوادر ، ليذهب الملل عن الطلاب . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد توفى قبل أن يكتب ويترجم كل ما كان قادرًا عليه .. وقد كان قادرًا على الكثير .

الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين : أستاذ الأدب المصرى ، وهو رائد هذا النوع من الدراسة والتخصص فى « أدب مصر الإسلامية » .. وكان على علم واسع بكل تراث مصر الأدبى منذ الفتح الإسلامى حتى آخر العصر العثمانى . ونظرًا لأنه أستاذ للأدب المصرى فقد كان « مصرى المزاج » ، وله قفشات وتعليقات طريفة فى أثناء المحاضرة . وقد صحبهم فى رحلة ذات مرة إلى المتحف الإسلامى والمتحف القبطى ، لمشاهدة آثار

مصر القديمة الإسلامية والقبطية . كان يومًا لا يُنسى ، جعل طه يزداد إحساسًا بعظمة مصر وعراقة تاريخها ، وانتهى ذلك اليوم من سنة ١٩٥٩ بأمسية فى قهوة « الفيشاوى » ، وجلس الطلبة فى مودة مع الأستاذ يحدثهم عن عظمة مصر وعراقة شعبها . وقد مات هذا الأستاذ العظيم فى وقت مبكر (حوالى سنة ١٩٦٢) ، وضاعت ـ أو ضُيّعت ـ مكتبتُه التى كانت تحوى كنوزًا من المخطوطات فى أدب مصر الإسلامية ...!!

ومن الأساتذة الأفاضل الذين درس عليهم أيضًا : الدكتور خليل يحيى نامى ، والأستاذ عبد الوهاب حمودة ، والدكتور شكرى عياد ، والدكتور حسين نصار ، والدكتور السيد يعقوب بكر ، والدكتور كامل جمعة ، والدكتور يوسف خليف .

أما الأساتذة الذين درس عليهم من غير القسم ، فهم : الدكتور محمد متولى ، والدكتور حسين مؤنس ، والدكتور حسن محمود ، والدكتور أبو الوفا التفتازانى ، والدكتورة زاكية رشدى ، وأستاذة ألمانية درس معها اللغة الألمانية مدة ثلاث سنوات .. وكانت سيدة فاضلة ـ كبيرة السن نسبيًا ، لذلك تبنت طلبتها ، وكانوا حوالى عشرة فقط ، وكانت تصحبهم فى رحلات ترفيهية إلى منطقة الأهرام ، وتثقيفية إلى « المركز الثقافى الألمانى » بالقاهرة .

على يد هؤلاء الأساتذة العظام درس علوم اللغة العربية وما يتصل بها . وقد استفاد من هذه الدروس كلها فوائد علمية وأدبية وإنسانية جمة ، واستقرت فى ذهنه بعدها خريطة كاملة للأدب العربى ، وعلوم اللغة والبلاغة والنقد عبر العصور ، كما تعرف على كثير من أمهات ذلك التراث

الزاخر .. ومن حقه — وحق كل أبناء جيله — أن يفتخروا بأنهم أدركوا آخر حلقات العصر الذهبى للجامعة . يومها كانت الجامعة جامعة .. والأستاذ أستاذًا .. والطالب طالبًا . الكمال كل متكامل ..!!

وقد ظلت .. وما برحت صورة هؤلاء الأساتذة سامية فى نفسه ، تشكل مثلاً أعلى يحاول الوصول إليه . لقد جاء إلى الجامعة وليس فى ذهنه إلا طه حسين ، أما اليوم فقد أصبح يرنو إلى مجموعة الأساتذة العظام الذين درس عليهم ، محاولاً أن يتأسّى بهم ، أملاً فى أن يصل فى يوم من الأيام إلى ما وصلوا إليه . وهو يردد قول القائل :

فتشبهوا ، إنْ لم تكونوا مثلهم   إن التشبـهَ بالرجـال فَـلاحُ

***

وقد تخرج صاحبنا الشاب فى دور مايو سنة ١٩٦٠ ، بعد أن حصل على درجة الليسانس الممتازة بتقدير « جيد جدًا » مع مرتبة الشرف الثانية.. وكان عمره وقتئذ اثنتين وعشرين سنة تقريبًا .!!

وكما سَعِدَ بأولئك الأعلام الذين تلقى على أيديهم الدراسة ، اعتز أيضًا بمجموعة من الزملاء ، الذين صاروا أساتذة فى كثير من الجامعات المصرية والعربية ، ولا تزال علاقته إلى اليوم وثيقة بمعظمهم . ومن أولئك الأصدقاء المقربين إليه :

د . عبد المنعم تليمة .. وهو صديق تبلغ صداقته درجة الأخوة . وقد سعد بصداقته فى كل مراحل العمر وسنوات الدراسة ، والزمالة بعد ذلك فى القسم .

د . محمود فهمى حجازى : صديق عزيز منذ مرحلة الطفولة ، لأنه — مثله — من المنصورة ، ويحمل كل منهما للآخر مشاعر أخوية طيبة .

د . النعمان القاضى .. د . أحمد شمس الدين الحجاجى .. ورغم أنهما كانا من دفعة سابقة عليه (١٩٥٩) ، إلا أنه ارتبط معهما بصداقة قوية وزمالة نبيلة منذ كانوا طلبة وبعد التّخرج ثم قويت أكثر عندما تجمعوا مرة ثانية أعضاء هيئة تدريس بالقسم . لكن الأقدار خطفت النعمان — رحمه الله — سنة ١٩٨٤ ، وكان يُعول عليه الكثير .!

د . عزت عبد الموجود : الذى ترك دراسة الأدب العربى ، واتجه إلى دراسة التربية .. وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. ثم عاد أخيرًا إلى مصر .

الدكتورة سيزا قاسم : أستاذة الأدب المقارن بالجامعة الأمريكية .

د . عصمة عبد الله غوشة : أستاذةُ الأدب العباسى بجامعة الأردن .. وهى أستاذة فاضلة .. لا تزال — إلى اليوم — على علاقة طيبة بمصر وجامعة القاهرة .

د . نعيم اليافى : أستاذ الأدب والنقد الحديث بجامعة دمشق .

د . أحمد الضبيب : مدير جامعة الملك سعود بالرياض .

د . عبد الرحمن الأنصارى : عميد كلية آداب الملك سعود بالرياض .

د . عبد العزيز الفدا : أستاذ الأدب الأندلسى بجامعة الملك سعود .

د . محمد برادة : أستاذ النقد الأدبى بجامعة محمد الخامس بالمغرب .

د . على الشابى : رئيس جامعة الزيتونة بتونس .

هذه بعض الأسماء التى زاملها .. وهناك كثيرون غيرهم ، تفرقت بينه

وبينهم سُبل الحياة .. وأماكن العمل ، لكن لا تزال لكثير منهم ذكريات عطرة فى أعماق نفسه وسويْداءِ قلبه .

***

بقى من حديث الجامعة أمرٌ وصل .. ولم تتصل نهايته ، وهو حبُّ صاحبنا زميلته سميحة ، فقد ظل يحبها فى صمت ، ثلاث سنوات . وفى السنة الرابعة حدث أن اختلفتْ معها زميلة سليطة اللسان فى أمر عادى ، فتبادلتا بعض العبارات الغاضبة ، وأنهت معها المحادثة قائلة :

* تدّعين البراءة .. وأنت تبادلين طه الحب ، وهذه دفاتر محاضراته ، وقد كتب فى مقدمة كلٍّ منها إهداءً لك ، يقول فيه : « إلى النجمة المضيئة التى أستمد منها الأمل والحب والسماحة .. من أجل مستقبل مشرق يجمع بيننا . » .

لم يكن موجودًا فى المدرج أثناء تلك المشادة ، لكنه علم بها من صديقه عبد المنعم تليمة . وقد ترتب على ذلك أن سميحة ، بدأت تعامله بحذر أقرب إلى المقاطعة ، حتى فى محاضرات مواد الامتياز ، التى كانا يلتقيان فيها مع مجموعة قليلة من الطلبة .

كان المحبُّ الخجول راضيًا بحبه الصامت آملاً أن تأتى لحظة مكاشفة . حمَّالةُ الحطب .. أفسدتْ كل شىء ، وأغضبت المحبوبة . لكنه صمم على أن ينتهز فرصة يصحح فيها ما حدث . دارت الأيام .. وكان ذلك فى بداية السنة الرابعة . ظفر بها — مصادفة — تجلس فى بوفيه الكلية مع زميلة لها ، فألقى التحية .. وشاركهما الجلسة . بعد فترة قامت الزميلة لبعض شئونها ، فأخذ يشجع نفسه ، حتى يقول شيئًا . نظر إليها فوجدها

تتشاغل بالنظر إلى الكتاب ، فلم يستطع أن يقرأ أثر الموقف فى عينيها . تأمل شعرها المقصوص ، ووجهَها البدرى المرتوى ، ورقبتها المرمرية القصيرة ، وصدرها الرشيق .. ويدها — الناعمة — تحمل الكتاب ، وقد أكسب طلاءُ الأظافر أصابعها رقة جذابة . تمنى أن يكون ذلك الكتاب .. ليس هذا وقت الشطحات يا رجل .. لا بد أن تنطق .. شهر كامل وأنت تبحث عن فرصة .. سوف تأتى الزميلة .. حاول وإلا ... أخيرًا استجمع شجاعته المضيعة ، وقال :

* سميحة .

* نعم .

* أريد عنوان بيتكم .

* لماذا .؟

* أريد أن أقابل أباك ، لأطلب يدك منه .

قالت مرتبكة ، وهى تغلق الكتاب : آسفة .!

اضطربَ .. ومادتْ به الدنيا . خرجت قطراتُ العرق البارد من خلايا جسمه كلها . سكت كأنما نزلتْ عليه صاعقة . هكذا يا سميحة .. بعد كل هذا الحب .. تقولين « آسفة » ..!!

جاءت الزميلة ، فمشتْ معها فى هدوء .. كأنها لم ترتكب إثمًا . جلس وحده مذهولاً . لم يستطع أن يهم بالقيام ، فقد أحس أنه التصق بالكرسى ، الذى جلس عليه ، وأن الدنيا قد ضاقتْ به .. و لم يعد هناك ثقبٌ من رجاء .!!

ماذا جرى له .. أو للدنيا .. لا يدرى .؟! عندما أحبته سوسن طلبتْ

منه الزواج فرفض ، وها هى سميحة يحبها ويريدُ الزواجَ منها .. فترفض ....!! لكن .. لماذا ترفض تلك الفتاة المغرورة .؟! أليستْ معذورة فيما فعلت .. ألم يكن من اللائق أن يُمهِّد لحديثه هذا معها ؟! سميحة فتاة من « البندر » ، كان الأمر يتطلب معها مشاورات .. ومحاورات .. وتلميحات .. ومعاكسات ، حتى ينشأ ويولد فى قلبها ، ما ترعرع ونما فى قلبه . أحس أنه طُعن « طعنة نجلاء » — كما يقول أستاذه المنفلوطى ، وأن كرامته قد تناثرتْ ، وأن سميحة قد ذبحتْ قلبه بسكين ثالم . عندما بدأ يفيق من هول الصدمة حمل دفاتره .. وتوجه ناحية المدينة الجامعية ، حيث يسكن فى هذه السنة الأخيرة . دخل الغرفة وأغلق على نفسه الباب . ضم الوسادة إلى صدره ، وأخذ يبكى حبًا لم يولد .. وأملاً لم يتحقق .. وحُلمًا عصفت به المحبوبة . هُيِّئ له أن سميحة قد أهانته ، وقابلت حبه بعقوق غير مبرر . رغم قسوتها معه وتحطيمها لسفينة أحلامه ، لم يكن قادرًا على أن يظن بها أى ظن سيِّئ.حاول أن يلتمس لها العذر . من المخطئ .. ومن المصيب فى هذه الحياة .؟! لا أحد يدرى .. حتى لو درى فإنه يجب أن يعفو ويصفح .. هذا هو منطق الحب العذرى ، الذى كان يعرفه .. ويعيشه .. ويحفظ من أجله أشعار الغزلين ، ويؤمن بفلسفتهم المثالية :

تحملْ عظيمَ الذنبِ ممن تحبُّه وإنْ كنتَ مظلومًا فقلْ أنا ظالمُ

اضطربتْ خواطره فجأة ، حين تذكر أنه كتب فى السنة الثانية بحثًا فى مادة الأدب عن الشاعر جميل بن معمر صاحب بثينة ، جعل عنوانه « قيثارة تحطمت » . هل كان البحث تنبؤًا بمستقبله الغرامى معها .؟!

لا شيء جديد تحت سماء هذه الدنيا الدنية : مصير طه سميحة .. هو مصير جميل بثينة ، الذى كان الحب عنده « جهادًا روحيًا » من نوعٍ خاص :

يقولون : جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ   وأيُّ جهادٍ غيرَهنَّ أريدُ ؟

***

صمم أن يثبت لمحبوبته المغرورة ، أنه كان صادقًا فيما طلب منها ، لذلك فإنه عندما سافر إلى بلدته فى عطلة منتصف العام ، ذهب إلى بيت خالته ، وقال لها :

* أريد أن أخطب سعدية .

* خيرًا تفعل يا بنى .. وأنا أنتظر سماع هذا منك منذُ مدة . تعلمَ أنه ليس لى أولاد ذكور ، وأنا أريدك لها أخًا وزوجًا .. حتى تريحنى أيضًا من أقارب أبيها ، الذين وجعوا رأسى .

توجه بعد ذلك إلى أمه يستشيرها ، فقالت :

* هذا قرارك .. فخذه بإرادتك ، حتى لا تلومنى فى يومَ من الأيام . والمثل يقول « امشِ فى جنازة ، ولا تمشِ فى جوازة » .

ذهب بعد ذلك إلى خاله محمد . وحدَّثه فى الأمر ، فقال له :

* لم أنت متعجل يا بنى ؟ أنا أكبر منك بربع قرن ، و لم أتزوج حتى الآن . لا تظن الزواج قطعةَ « تورتة » . لكن .. على كلٍ أنت ابن أختى .. وهى أيضًا ابنةُ أختى .. مبروك ....!!

ذهب إلى أخيه الكبير أحمد يستشيره ، فقد كان يكنُّ له مكانة طيبة — رغم كل ما حدث منه . قال فى برود هادئ .. أو هدوء بارد :

* أنت حر .

* لو كنتُ حرًا ، ما طلبتُ رأيك .

* الزواج مسئولية .. وأنت أدرى بظروفك .

شكلت هذه الردود المغلقة حافزًا للتحدى ، فأصر على أن يمضى قُدما ، فيما عزم عليه . عاد ثانية إلى بيت الخالة ، وقابل عروسه المنتظرة ، أول مرة ينظر إليها بعين أخرى ، كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، حين أخذ رأيها قالت له فى طيبة ووداعة :

* كنت دائمًا أعدك أخى الأكبر .. أن تكوْن أخى وزوجى ، فهذا شىء لا أرفضه بعد أن قالت أمى الكثير عنك .

* هناك أمر يجب أن تعرفيه من الآن ... لن أقدم لك شبكة تليق بك ، وإنما دبلة فقط لا غير .!!

* ومن قال إنى أريد سواها .

بهذه البساطة والسرعة انتهى الموضوع ، وتمت الفرحة ، وأعلن خطوبته . أحس أنه سوف يكون مع قريبته سعيدًا راضيًا كل الرضا . الحب شىء والزواج شىء آخر . جميل أحب بثينة ، كذلك قيس وليلى ، وحسن ونعيمة . الحبُّ حُلمٌ وردى جميل .. جميلٌ جدًا ، لكنه صعبُ المنال ، خاصة عندما نكون خُضرَ القلوب صِفْرَ الجيوب . كلهن عيُّوشة .. وما تملكه هذه ، تملكه تلك .!! كما تقول العامة ـــ قِسْمةٌ ونصيب .!!

تمت الفرحة ، وأعلنت الخطبة خلال إجازة منتصف العام (يناير ١٩٦٠) . لكنه عندما عاد إلى الجامعة ، لم يكن قد نسى ثأره مع سميحة ، لذلك أوحى لبعض أصدقائه أن يكتب على السبورة ، حتى يغيظ سميحة : « طلبة القسم يهنئون زميلهم طه على خطوبته الميمونة » .

من يُصدِّقُ أن الأقدار يُمكن أن تعبثَ بالبشر إلى هذا الحد .؟! إنه بحكم تكوينه وقراءاته شاعرى الهوى متوهِّج العاطفة .. وقد سعى إلى الحب مُريدا وراغبًا أكثر من مرة ، لكنه آمن فى النهاية أن الحب قدرٌ ، فرضى بما قدر اللهُ .. وقد سعد بعروسه الريفية سعادة ، لا يظن أنه كان يسعد بمثلها مع واحدة من بنات المدينة ، فقال مرددًا قول شوقى :

قدَّرتُ أشياءً ، وقدر غيرَها   حَـظٌّ يخطُّ مصائـرَ الإنسانِ

***

فى أثناء دراسته الجامعية ، بدأ يتعرف على بعض مظاهر الحياة الثقافية فى مدينة القاهرة . حضر بعض محاضرات عامة للناقد الكبير الدكتور محمد مندور .. وكان محدثًا غزير المعلومات ، شامل النظرة ، يسحرك تدفق حديثه ، كأنه داعية سياسى ، وليس ناقدًا أدبيًا فحسب ، وقد بدأ يميل إلى منهجه النقدى ، الذى يربط الأدب بالواقع الاجتماعى ، ويهتم بالنصوص التى تدعو إلى العدالة ، وتنتصر للمظلومين . وقد وجدتْ آراؤه صدى كبيرًا فى نفسه ، فذهب يبحث عن كتبه .. ومضى يقرأ فيها .

كذلك حضر بعض الندوات التى كانت تُعقد فى بعض الجمعيات الأدبية ، واستمع إلى بعض الأمسيات الشعرية ، وتعرَّف على شاعرين جديدين من رُوَّاد حركة الشعر الحرّ فى مصر وهما : صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى . وبمناسبة الشعر فإنه أعجب أيضًا فى هذه المرحلة بالشاعر السورى نزار قبانى والعراق بدر شاكر السياب .

وفى هذه الفترة بدأ يتعرف أيضًا على بعض كتاب الواقعية فى مصر ،

أمثال : يحيى حقى ونجيب محفوظ ومحمود البدوى وسعد مكاوى وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس ولطيفة الزيات .. وقد اتسعت قراءاته فى مجال القصة والرواية ــ بحكم هوايته الخاصة فى هذا المجال .

فى هذه المرحلة .. كان صاحبنا وزملاؤه ــ فى الدراسة الجامعية ــ صغارًا فى السن نسبيًا ، لكنهم كانوا ذوى اهتمامات راقية ، وثقافات واسعة ، وطموحات لا تُحدّ . يتناقشون فى مبادئ السياسة ونظريات الفلسفة وجماليات الأدب ، مناقشات عاصفة أحيانًا .. سواء بين المحاضرات أو فى المجالس التى تجمعهم فى أوقات السمر ، وأثناء قضاء عطلة آخر الأسبوع . ومن تلك اللقاءات التى لا تُنسى جلسة مساء الخميس عند الصديق عبد المنعم تليمة ، الذى كان يسكن وقتذاك مع أسرته فى مصر القديمة ، حيث تستمر الجلسة من بعد العشاء إلى قبيْل الفجر ، ويحضرها أصدقاء من القسم ومن كليات أخرى ، يتحدّثون فى السياسة والأدب ، ويلقون الشعر ، ويتحاورون فى كثير من أمور الحياة بقلب مفتوح وفكر يقظ .

كان قُطبا الرحى فى كثير من هذه الجلسات الصديقين النعمان القاضى وعبد المنعم تليمة ، فالنعمان .. يمينى متدين ــ فكرًا وطريقة وحوارًا ، لأنه كان من « الإخوان المسلمين » ، أما عبد المنعم فعلى النقيض يسارى معتدل .. وإنْ كان عنيدًا فى تحاوره ، يكاد لا يسلم بسهولة فى أى حوار . وقد يتواجد فى المجلس ذاته الصديق « الأسطورة » صاحب القلب الأبيض أحمد شمس الدين الحجاجى ، فيزيد فى إشعال الحوار ، تارة مع هذا ، وأخرى مع ذاك . ومن روّاد هذا المجلس أيضًا الصديق أحمد

حمد ــ وهو قاموس نُكتٍ مصرية ، يحفظ كل ما قيل من نكت فى شمال مصر وجنوبها .

كانت هذه الأمسيات المتنوعة ، تشكل ندوات فكرية ساخنة ، وجلسات إنسانية عامرة ، تُوحِّد بين أولئك الشبان الجادين ، رغم ما بينهم من خلافات .

ومن الأمور التى لا ينساها أثناء دراسته فى الجامعة كذلك ، حضور بعض مناقشات الرسائل العلمية فى الماجستير والدكتوراه . وكان يتابعها بشغف بالغ ، متمنيًا أن يلبس ذات يوم ذلك الروب الأسود المهيب ، وأن يجلس مجلس طالب الماجستير أو الدكتوراه . ولم يكن يدور فى خلده ألبتة ، أنه سوف يكون أحد أولئك الذين يمنحون درجات الماجستير والدكتوراه فى يوم من الأيام .!!

***

السؤال الذى يدور فى خاطره عند تسجيل هذه الذكريات البعيدة هو :

تُرى لو وُجدتْ جامعتُه فى مكان آخر .. فهل كان يتعرض لمؤثرات ثقافية ، مثل تلك التى وجدها فى القاهرة .؟!

الإجابة بالطبع لا .. وألف لا .. إن الجامعة باعتبارها بداية للتخصص العلمى ، ومعهدًا يعلِّم منهجًا فى التفكير ــ لا أن يحشو ذهن الطالب ببعض المعلومات والمعارف ــ لا تصلح لوجودها أية مدينة معزولة .. أو أى تجمع لا يخضع لمؤثرات ثقافية رفيعة .. هذا من رابع المستحيلات .!!

وليس أدل على صدق هذه الحقيقة من تلك الجامعات الهشَّة ... الممسوخة .. التى يسمونها « الجامعات الإقليمية » ..!! ، لأن عواصم كثير من الأقاليم ، التى أنشئتْ فيها تلك الجامعات لا تصلح — ألبتة — لإنشاء كلية .. بله أن تكون فيها جامعة ..!!

وقد تحولتْ كثيرٌ من هذه الجامعات الإقليمية إلى مدارس ثانوية خاصة ، تدرس قشورَ العلم ، وهوامشَ المعرفة . وسوف يواجه التعليمُ الجامعى بكارثة علمية محققة ، إنْ لم نتدارك تلك الجامعـات (غير الشرعية) من مدنية وأزهرية ، التى انتشرت — حتى فى بعض المراكز والضواحى — كما ينتشر « السرطان » فى لوح زجاج ..!!

الأدهى من ذلك والأمرُّ ، أن بعض هذه الكليات قد لا يوجد فيها سوى أستاذ واحد فقط لا غير ، هو العميد .. ومع ذلك يفتحون بابَ الدراسات العليا على مصراعيْه ، ويمنحون الماجستير والدكتوراه بدون حساب .. كيف .. ولماذا .؟ لا أحد يدرى ..! وهل يظنن ظانٌّ أن فاقدَ الشىء قادرٌ على منْحه ..؟!!

ولسوف تبدى الأيام سوءَ العاقبة ، لهذه الكارثة العلمية المؤسفة ، وهى مأساة الجامعات الإقليمية فى مصر .. وفى غيرها من البلاد العربية ، وانتظروا فإنَّا معكم من المنتظرين . فنحْنُ فى الشرق العربى ، لا نحل أيَّةَ مشكلة إلا إذا استشرتْ — مثل الوباء المعدى — وهنا يكون العلاجُ الوحيد .. هو البترُ .. أو الكىُّ بالنار ...!!

وعلى ذكر شجون الجامعة .. لستُ أدرى ما الدافع الحقيقى وراء تشويه وظيفة جامعة عريقة مثل « جامعة الأزهر » ..؟ فقد حدث أن

تولى أ . د . محمد البهى سنة ١٩٦٢ وزارة الأوقاف وشئون الأزهر ، وتم فى عهده « تطوير جامعة الأزهر » وصارت مثل أية جامعة من الجامعات الأخرى ، تشتمل على كليات نظرية وأخرى عملية : فى الطب والهندسة والتجارة والتربية .. وغيرها ، بل لقد بلغ التطور أقصاه بإنشاء كلية للغات الأجنبية والترجمة وأخرى للإعلام . هكذا حدثتْ أكبر (مأساة علمية) فى تقديرى .. وشُوّه تاريخُ تلك الجامعة العريقة ، التى تعدُّ أقدمَ جامعات العالم . لقد حدث أن الكليات — التى لا أصل لوجودها — فى إطار تخصصات الأزهر القديمة ، سارتْ — مع حُسن الظن — مثل مثيلاتها الأخر ، حيث قفز إليها أساتذة كانوا محرومين ، أو محصورين — على الأقل من الترقّى — فى كلياتهم الأصلية .

لكن المأساة الحقيقية وقعت فى الكليات القديمة ، مثل : اللغة العربية والشريعة وأصول الدين ، إذ لم تتغيَّر مناهجها أو كوادرها العلمية ، وبالتالى لم يتغير مستوى درجاتها العلمية ، ولم تتحرك خطوة إلى الأمام — إن لم تكن قد تخلَّفتْ — بالفعل — عن عصر الشيخ محمد عبده . وقد ساعد ذلك التوسعُ الكبير والسريع فى فروع جامعة الأزهر بالأقاليم ، على تدهور معظم الكليات القديمة ، التى يتولى عمادة الكثير منها أساتذة مساعدون ، تمت ترقيتهم عن طريق « لجان داخلية » .. خاصة ..!!

إن جامعة الأزهر كانتْ جامعةً ذات وظيفة (مقدسة) سامية منذ أنشئت ، وهى : الحفاظُ على التراث « الروحى » للأمة الإسلامية — خير أمة أخرجت للناس . لكن هذا الدور الجليل .. تضاءل وتواضع كثيرًا ، بعد ذلك المسخ العلمى لوظيفة تلك الجامعة العريقة ، التى

خرَّجتْ أمثال : عبد الرحمن الجبرتى ، وحسن العطار ، ورفاعة الطهطاوى ، وحسين المرصفى ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، ومصطفى عبد الرازق ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى ، ومحمد مصطفى المراغى ، ومحمود شلتوت ، وعبد الحليم محمود ، ومحمد أبو زهرة، وغيرهم كثيرون من الرجال العظام .

اليوم خبا الضوءُ هناك .. وشُوِّهتْ وظيفةُ الجامعة .. وضاع دورُها الحقيقى . ليت القائمين على أمر تلك الجامعة العريقة — التى تعدُّ أقدم جامعات العالم — يعيدون الأمور إلى نصابها ، قبل أن يأتى الطوفان ..!!

ولا شك أن نُذر هذا الطوفان واضحةٌ لكل من يُمعن النظر ، ويتدبَّر واقع « الجامعة الأزهرية » بعد التطوير .. (أو فلنقل دون خشية بعد التخريب) . لكن كثيرًا من القائمين على أمرها ، لا يفكرون — بجد وحق — فى شأنها ، ولم تعد تُغنى النذر .. « فلا وربك لا يؤمنون ، حتى يروْا العذابَ الأليم » .!!

وقد حدث هذا المسخُ العلمىُّ أيضًا بالنسبة « للمعاهد العليا » ، التى كانت تخرج بعض أصحاب الحرف المهنية والفنية ، ليقوموا بدور هام فى خدمة المجتمع ، ومن هذه المعاهد : معهد الفنون التطبيقية — والجميلة — التجارة الخارجية — التربية الفنية — التربية الرياضية — الخدمة الاجتماعية — البريد .. وقد تجمعتْ هذه المعاهدُ فيما يسُمَّى اليوم « جامعة حلوان » ، وحتى يكبر نصيبُ الجامعة من الكليات التابعة .. أنشئت فيها بعضُ كليات جديدة مثل التربية وغيرها . وقد حُولت تلك المعاهد كلها إلى كليات ، صارتْ تمنح درجات الماجستير والدكتوراه فى « التربية

الرياضية » و « الرسم » ، و « الموسيقى » و « الخدمة الاجتماعية » .. لذلك ضاع الهدفُ من إقامة أمثال تلك المعاهد ، لتخريج بعض الفنيين لسدّ حاجة (خاصة) فى تنمية المجتمع ، وشغل وظائف مهنية وفنية هامة فى كثيرٍ من المجالاتِ .

كل ذلك أدى إلى « الهرم المقلوب » فى نظام التعليم فى بلادنا .. وأصبح التعليمُ عندنا ــ مثل السوق الشعبى .. فليس هناك تخطيط منضبط لوظيفته .. ومناهجه .. أو ربط بحاجات المجتمع الحقيقية . وبدلاً من أن يُسهم التعليم الجامعى فى حل مشكلات المجتمع ، صار أكبرَ مشكلة فى المجتمع . وتعددت المعاهدُ ، التى تخرّج موظفى مهنة واحدة .. وأصبح الصراع الفكرى والإنسانى بينهم على أشدّه ، كما نجد على سبيل المثال فى « مدرس اللغة العربية » .. فهناك خريجون من كليات :

١ ــ الآداب ، ٢ ــ دار العلوم ، ٣ ــ التربية ، ٤ ــ الأزهر .

ونفس الأمر تجده فى وظيفة « مهندس » ، حيث نجد خريجين من كليات :

١ ــ الهندسة ، ٢ ــ الفنون التطبيقية ، ٣ ــ الفنون الجميلة ، ٤ ــ البترول والتعدين بالسويس ، ٥ ــ معاهد التكنولوجيا ، ٦ ــ كلية العلوم .

هذان فقط مثالان صارخان ، لتعدد المستوى العلمى والفكرى لبعض أبناء « المهنة الواحدة » . لست أدرى .. ما نتيجة هذه (التوليفة) غير

المتجانسة بالنسبة لمعاهد التعليم وأماكن العمل .؟!

ليت القائمين على شئون التعليم يتداركون مشكلاته ، ويحلُّون أزماته قبل أن تتضخم بشكل سرطانى .. يصعبُ معه أى علاج ، لأن خرابَ التعليم معناه خراب كيان الأمة ..!!

***

وبالمناسبة أيضًا :

نشير إلى أن الحديث عن « جامعة أهلية » أو « جامعة مفتوحة » أمر مرفوض من أساسه .. فالعملية التعليميَة ليست مشروعًا (خاصًا) ، يتحمّل المغامرة .. أو المقامرة . جامعة أهلية .. تعنى فتح أبواب التعليم لطلاب لا تؤهلهم قدراتهم الذهنية له .. لكنهم يملكون مالاً . بالمال تستطيع أن تفعل أمورًا كثيرة .. وتشترى أشياءَ أكثر ، إلا التعليم ، فإنه يجب أن يكون (وقفًا) على من تُؤهله قدراته .!! أخشى ما أخشاه .. أننا إذا فتحنا الأبواب لمن يكون المالُ هو مؤهلهم الوحيد ، فسوف تفتح أبوابًا واسعة للعبث بأمور كثيرة فى حياة مجتمع ، نريد أن ينمو طاهرًا متطهرًا ، وأن تكون الكفاءة العملية هى السبيل الوحيد لوضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب .

***

وفى مجال الحديثِ عن الجامعةِ ــ التى نقدرُها حقَّ قدرها ، ونعتزُّ بدورها العلمى والثقافى والاجتماعى ــ نودُّ أنْ نُعبِّر عن وِجهةِ نظرٍ

خاصة ، فى الأزماتِ التى تُواجهُ جامعاتنا فى هذه المرحلة ، ونُقدمَ بعضَ الحلول ، التى قد تُساعدُ على الإصلاح والتقدّم ..!!

***

يعزُّ على كثير من العاملين أن يتناولوا بالنقد المؤسساتِ التى يعملون فيها ، جريًا وراء ممارسات خاطئة ، تزعم أن الإنسان ينبغى أن يدافع — بالحق أو بالباطل — عن مكان عمله ومصدر رزقه . لكن الحق يدفعنا إلى ضرورة كشف الحقيقة ، حتى لا تغرق « سفينةٌ » يُفترضُ أن تقودنا — جميعًا — إلى برّ النجاة .

إن الجامعة — فى كل مجتمع — تعدُّ بمثابة العقل المدبر ، الذى ينظّم حركة الحياة فى مجال الفكر والعمل ، وقد اهتمتْ كل المجتمعات — رغم تفاوت مستوياتها الحضارية والثقافية — بإنشاء صروح جامعية ، تؤهل لحياة أفضل على كافة المستويات . وهذه الرؤيةُ تتوجه بالنقد — أساسًا — إلى الجامعات المصرية . ولكن .. لا يظنن ظانٌّ أو متشكك أن الجامعات العربية أسعدُ حظًا من شقيقاتها الكُبر .. فكلنا فى الهمِّ شرقُ .!!

إن خطورة الدور المنوط بالجامعات المصرية تأتى من عدة أمور .. ذلك أن عُمر الجامعة فى مصر ، يتجاوز ثلاثة أرباع القرن — (أنشئت الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨) — ناهيك عما سبق ذلك من تأسيس محدود ، لكليات مدنية فى عهد محمد على — مثل الألسن والطب والمهندسخانة .. وغيرها . وهذا التاريخ الطويل — نسبيًا — يُفترض أن

يكون عاصمًا من بعض الانحرافات الجسيمة والأخطاء الكبيرة . كما أن الجامعات المصرية ذاتُ تأثير علمي وثقافي واسع ، يتجاوز حدود مصر نفسها ، بحكم مكانة مصر بين شقيقاتها العربية والإسلامية ، وعُمق الروابط التي تربط مصر بكثير من هذه الدول . كما أن الأمل منوط بالجامعة ، لكي تُخْرج مصر — أو أيّ مجتمع — من حالات التخلف ، والفقر ، والقهر ، والانحياز لسيطرة اتجاه واحد في السياسة الداخلية أو الخارجية .

هذه بعض النقاط الهامة ، التي قد توضح خطورة دور الجامعة .. فهل (الخريطة) الجغرافية للجامعة ، تساعد على أن تكون لها هيْبة علمية ، ووجود صحيّ وصحيح ..؟! للإجابة عن ذلك — بصدق وصراحة — نقول :

إن خريطة الجامعة في مصر تنتشر — بفوضى شاملة — مثل الأعشاب الشيطانية ، ففي كل محافظة جامعة .. وفي كل مدينة كلية أو معهد . وتتبارى في هذا الانتشار السرطاني الجامعاتُ المدنية والدينية — على حدٍ سواء . وأسرعُ الكليات انتشارًا هي كلياتُ التربية ، التي قضتْ على هَيبة الجامعة ، وأفسدتْ التعليم في وقت واحد . وهناك تناسبٌ طردي بين التوسع في هذه الكليات « المزعومة » وفساد المعلم والتعليم ..!!

ونظرًا لتلك السرعة — غير المفهومة أو المبررة — في الإنشاء والانتشار ، تحتل الكلية الجديدة مبنى أية مدرسة موجودة .. أو السكن الداخلي لمدرسة قديمة ، ثم يتولى العمادةَ أستاذٌ مساعد أو تستعير الكلية (المزعومة) أستاذًا للعمادة من كلية مُناظرة أو مجاورة ، ويكون معظمُ

رؤساء الأقسام أساتذة مساعدين أو مدرسين حديثى الخبرة و .... ، ويقوم المعيدون والمدرسون المساعدون بالعبْءِ الأكبر فى التدريس والتصحيح ، وأحيانًا فى الإشراف على زملائهم طلبة الدراسات العليا ، لأن معظم الجامعات الأقليمية تُطالب غداةَ قيامها بإنشاء دراسات عليا . ويزيد الموقفَ خطورةً أن معظم الأعضاء دخلوا الحرمَ الجامعى بأخرة من العُمر .. أو من الأبواب الخلفية .. أو انتقلوا من كليات كانوا معزولين فيها — لأسباب علمية كثيرة — أو ترقوا بعيدًا عن تقويم اللجان العلمية الدائمة ..!!

هكذا تحولتْ الجامعةُ إلى « مولد » ، يتبارى فى دخوله كل من هبَّ ودبَّ .. أو وجد واسطة . و لم تعدِ للعلم قيمةٌ فى ذاته ، وإنما أصبح الهمُّ الأكبر لكثير من أعضاء هيئة التدريس بيْعَ الكتب والمذكرات — التى ليست لها قيمةٌ علمية تُذكر ، وأحيانًا إعطاء الدروس الخصوصية ..... كما أن الطلبة بدورهم صار هدفُهم الحصول على شهادة ، لا مضمون لها ، تتساوى فى ذلك الدرجاتُ العلمية الأولى .. والثانية .. والثالثة..!!!

وإذا كان هذا هو حال معظم الجامعات الإقليمية ، فإن هناك أمورًا خطيرة ساعدت على تصدُّع الجامعات القديمة ، منها :

أولاً : فتح باب الإعارة والاستقالة على مصراعيه :

حدثتْ فى السنوات العشرين الأخيرة عمليةُ تصفيةٍ أقربَ إلى التخريب ، فقد نزحَ من الجامعة كثيرٌ من الأساتذة على سبيل الإعارة ثم الاستقالة بعد ذلك . وأصبح من المألوف أن يبحثَ كل عضو عن حل فردى — لأزماته الخاصة ، من هنا وجدنا الكثيرين يحسبون المدة باليوم

والشهر ، حتى يخرجوا .. ومن يخرجُ يعودُ أوْ لا يعودُ بغير حساب أو عقاب .. أو نظرٍ لصالح وطنٍ ينتسب إليه ، أو مستقبل مؤسسة علّمته وكوّنته . ومن العجيب أن القانون كان يسمح بالإعارة أربعَ سنوات ، ثم صارتْ خمسًا .. فستًا أحيانًا .. والبقية تأتى . وقد بلغت نسبةُ الإعارة فى بعض الأقسام إلى ما يقرب من النصف ، بل إن كلية قديمة مثل « دار العلوم » (تأسست ١٨٧٢) ، يكاد لا يوجد فيها عشرةُ أساتذة . ونفس الأمر يمكن أن يُقال عن كليات كثيرة : مدنية وأزهرية . وهذه أو تلك فى النهاية أسعدُ حظًا من كليات إقليمية ، لا يوجد بها سوى أستاذ واحد فقط لا غير .. وحين يُعار تصبح الكَليةُ بلا أستاذ واحد ..!!

ثانيًا : انهيار مستوى الدراسات العليا :

نتيجة لكثرة عدد المهاجرين : إعارةً أو استقالةً ، فقدت معظمُ الأقسام العلمية كثيرًا من الأساتذة الكِبار ، كما أن الإيقاع السريع لحركة الإعارة ، يجعل الطالبَ الواحد — أحيانًا — يخضُع لإشراف ثلاثة من الأساتذة ، الذين قد يربكونه أكثر مما يفيدونه . ثم إن المقيمين ليسوا متفرغين تمامًا للإشراف ، لأنهم — أيضًا — فى إعارة « داخلية » ، ويعملون فى أكثر من جامعة . ولا شك أن غيابَ دور الأستاذ جعل كثيرًا من الرسائل الأكاديمية — فى الإشراف والمناقشة — يصل مستواها العلمى إلى درجة يُؤسف لها. ولست أدرى كيف يكون مستوى هؤلاء «الدكاترة» الجُدد، حين يتصدون للتعليم والتأليف .؟! هل فاقدُ الشيء يُمكن أن يعطيه ..؟!

وقد ساعد على تفاقم هذا الانهيار فى مستوى التكوين العلمى لأعضاء الجامعة انقراضُ نظام « البعثات » تقريبًا ، كما أن الذين يحصلون على

« الدكتوراه » من الداخل ، تكاد لا تتاح لواحدٍ منهم فرصةُ السفر لجامعة أجنبية مناظرة مدة سنة على الأقل ، حتى يطلع على الجديد والمفيد فى مجال التخصص .

ثالثًا : انحدار مستوى الأبحاث والكتب :

توجد لجانٌ علمية موحَّدة للترقية ، ورغم حيادها النِّسْبى إلى حدٍ ما — إلا أن بعض المرقين ليسوا جديرين بالترقية . كما أنهم يتوقفون تمامًا عن التأليف بعد « الأستاذية » ، لأنهم تعوّدوا الكتابة استجابةً لـ « سيف الترقية » من أجل المرتب ، وليس من أجل العلم . وهذا ينطبق على كثير من أساتذة العلوم الإنسانية والتطبيقية فى الجامعات ومراكز البحوث العلمية . وحين نتأمل المجلات العلمية « المُحكَّمة » ، لا نكاد نجد لمعظمهم حضورًا أو متابعة ، من هنا اختفتْ إلى حد كبير المؤلفات الجادة فى مجال العلوم الإنسانية . كذلك فإن أساتذة العلوم التطبيقية ، لا تكاد تظفر لهم بأى ابتكار علمى فى مجال التكنولوجيا ، والاستفادة من قواعد العلم من أجل تطوير الصناعة والزراعة وخدمة البيئة . معنى هذا : أن الجامعة قد تحوّلت إلى مدارس عُليا ، واكتفتْ بدور تعليمى متواضع ، وليس بدور متقدّم فى البحث والابتكار والإضافة العلمية الجادة .

رابعًا : التوسع فى قبول الطلاب :

لا أعتقد أن هناك بلادًا تهتمُّ بالكمّ — دون الكيْف — مثل بلادنا العربية ، لذلك تقبل الجامعات أعدادًا رهيبة ، تكاد لا تتسع لهم حجرات الدراسة ، ولا يُوجدُ لهم أساتذة ، والأستاذ إن وجد يُملى محاضراته ،

أو يعتمد على كتبه ومذكّراته . والمكتباتُ متخلفة وقاصرة ، والأجهزة العلمية لا تواكب ما حدث من تطور فى تكنولوجيا التعليم فى الخارج . وقد ساعد على مزيد من الفوضى فى حركة التعليم الجامعى ، أن بعض المبانى الجامعية لا تصلح — ألبتة — لإقامة الآدميّين .. ولا تتسع لوجودهم .

نتيجة لكل هذه الظروف .. وفى ظل هيمنتها ، نجد أن كليات الآداب والحقوق والتجارة والزراعة والخدمة الاجتماعية والكليات الأزهرية والمعاهد المتوسطة ، تخرِّج فى سنة واحدة حوالى مائة وخمسين ألف طالب وطالبة ، لا تتطلب حاجة المجتمع أكثر من ١٠ ٪ منهم — مع حُسن الظن والتقدير . لست أدرى لم نصنعُ المشكلات ثم نبكى ، لأننا لا نجد حلاً لها ..؟!

خامسًا : الحلول الجزئية :

يدور اليومَ حوارٌ عالى الصوت — من القمة إلى القاعدة .. على طريقة الهرم المقلوب — من أجل إصلاح التعليم الجامعى . ويتشكل مضمون هذا الحوار فى أغلبه ، حول رفع نسبى للرواتب والبدلات . ولسنا نُنكر أن رجالَ الجامعة (مظلومون) ماليًا .. ونقابيا .. وخدماتٍ ، بالنسبة إلى غيرهم من أصحاب الكوادر الخاصة ، مثل القضاء والجيش والشرطة . بيد أن تحسينَ الراتب شيءٌ ، وإصلاح النظام الجامعى برمته شيءٌ آخر ، يحتاج إلى نظرة شمولية من الألف إلى الياء ، حتى نُعيد للجامعة هيبتها ، وللتقاليد الجامعية الرصينة روحها التى كادتْ تزهق ، وحتى تكون الجامعة قادرةً — بالفعل — على القيام بدورها العلمى الجاد فى خدمة

المجتمع : تنويرًا للفكر ، وتأصيلاً للقيم ، وإسهامًا فى تطوير كافة جوانب الحياة .

***

من أجل القضاء على ما ذكرتُ — وما لم أذكر — من سلبيات ، تكاد تعصفُ بالمؤسسات الجامعية .. ومن أجل إصلاح جذرى للتعليم الجامعى ، نطالبُ بما يأتى :

١ — استقلال الجامعة :

الجامعة مؤسسة علمية ذات طبيعة نوعية خاصة ، لذلك ينبغى أن يكون لها استقلالها ، ويكون المجلسُ الأعلى للجامعات هو صاحب القرار الأول والأخير فى أمور الجامعة . كما أن أعضاء هيئة التدريس هم الفئة المدنية الوحيدة ، التى ليستْ لها (نقابةٌ) مهنية ، ترعى شئونهم وتقدم بعض الخدمات الاجتماعية والطبية لهم ، وتصدر توصيات ملزمة خاصة بهم . ومنذ حوالى ربع قرن تكافح نوادى أعضاء هيئة التدريس من أجل الاعتراف بوجودهم ، والسماح لهم بإصدار لائحة تنظِّم مُجمل حركتهم ، وتقنن القواعد الخاصة بتطوير اللوائح الجامعية : على المستوى العلمى والوظيفى . لكن ما يطالبون به منذ سنة ١٩٥٦ ، لا يجد أذنًا واعية .. حتى اليوم .!!

وفى سياق الحديث عن استقلال الجامعة نقول أيضًا : إن هناك جهات كثيرة سياسية وأمنية ، تتدخل تدخلاً سافرًا فى شئون الجامعة .. وتُعيِّن أو تفصل أو تستبعدُ بعض أعضاء الهيئة التدريسية لأسباب خاصة . لستُ أدرى : ما أهمية أن يكون رئيسُ جامعة أو عميد كلية أو معهد من حزب

الحكومة .؟! كما لا يقرُّ أى جامعى محترم أن يكون « قائدُ الحرس » عميدًا ثانيًا للكلية . إن تدخل جهاز الأمن أدى إلى كثير من الأزمات بالنسبة للجامعةِ: أساتذة وطلابًا ، كما حدث فى سنوات ١٩٥٣ — ١٩٥٨ — ١٩٦٨ — ١٩٧٢ — ١٩٧٦ — ١٩٨١ ..!!

٢ — إلغاء معظم الجامعات الجديدة :

ينبغى أن نلغى فورًا معظم الجامعات الجديدة ، التى صدر قرار بإنشائها حديثًا ، وبالتالى عدم السماح بإنشاء أية كلية جديدة .

(يمكن أن نستبقى فقط جامعة المنصورة لخدمة شرق الدلتا .. وطنطا لخدمة غرب الدلتا .. والقناة لخدمة القناة وسيناء .. وأسيوط لخدمة الوجه القبلى .. على أن تكون الكليات كلها فى عاصمة المحافظة دون سواها .. وما عدا ذلك ينبغى أن يُلغى .. ويُغلق فورًا) .

ومن الكليات الجديدة التى نُطالب بالحدِّ من انتشارها السريع كليات التربية ، ونعود للنظام القديم ، وهو أن تكون دراسةُ التربية — لمن أراد العمل فى التعليم — فى معهد عالٍ بعد الجامعة .. كما كان الحال من قبل ، لأن هذه الكليات الممسوخة أساءت إلى الجامعة .. والتعليم فى آن واحد .

وعندما نحدُّ من هذه الإنشاءات الجديدة ، سوف تتوفر لدينا أموالٌ كافية لإصلاح الجامعات ، واستكمال النقص الواضح فى كافة شئون الجامعة ، ولا شك أن وجود ثمانى جامعات محترمة (القاهرة — عين شمس — الإسكندرية — المنصورة — طنطا — القناة — أسيوط — الأزهر) أفضلُ من أن يكون عندنا عشرون جامعة ممسوخة .!!

وبالمناسبة .. فإننا نتحفظُ شديدًا على تطوير جامعة الأزهر وانتشارها

فى كل الأقاليم . ليت القائمين على أمرها ، يعيدون لها الدورَ التاريخى ، الذى قامت به من أجل الحفاظ على التراث الروحى واللغوى . كما أننا نتحفظ بشدة على ما أصاب جامعة حلوان ، وعلى مسخِ الدور التقنى الذى كانت تقوم به معاهدُها ..!!

٣ ـــ العناية بالمكتبات والمعامل :

إن الجامعة مجتمع متكامل ، إذا اشتكى منه عضو عجزت سائر الأعضاء عن الوفاء بمهمتها ، لذلك ندعو إلى البدء فورًا بتطوير المكتبات ، واستكمال المعامل ، والاستعانة بالوسائل التكنولوجية الحديثة ، وتأثيث المدرجات وغُرف الأساتذة ، وتجميل مبانى الجامعة .. والتوسع فى عدد البعثات ، وغير ذلك من الوسائل المعينة ، التى تساعد على حُسن أداء العملية التعليمية ، ويمكن الاستعانة على ذلك بمصدريْن :

أ ـــ العملات الصعبة التى تُحصَّل من الوافدين :

إن الطلبة الوافدين فى كل مراحل التعليم الجامعى يدفعون رسومًا جامعية ـــ بالعملة الصعبة ـــ تُشكِّل حصيلةً لا بأس بها ، وهذه الأموال تصرف ـــ أحيانًا ـــ فى غير ما شُرعتْ من أجله .

ب ـــ إسهام الشركات والمؤسسات العامة والأغنياء :

فى كل محافظة بها جامعة ، توجد أكثر من شركة أو مؤسسة ، ترى أن أرباحها من حق العاملين بها فقط لا غير ، فلماذا لا تُسهم فى العمل العام ، خاصة وأن الجامعة تمدّها بالخبرات العلمية المؤهلة .؟! كذلك لا أدرى لم تقاعس الأغنياء والوجهاء الجدُد عن الإسهام بدورٍ ما ، فى خدمة المجتمع والتعليم .!!

٤ ـــ إعادة تنظيم سياسة القبول :

التعليم الثانوى العام يشكل جوهر العملية التعليمية بالنسبة للتعليم المتوسط ، بعد أن تضاءل التعليم المهنى المتوسط والعالى ، وبالتالى فقد أصبح على الجامعة أن تقبل عددًا يقرب من ربع مليون طالب وطالبة كل سنة ـــ تقريبًا . وهذا العدد الضخم الرهيب لا يتناسب مع الإمكانات الحقيقية للكليات والمعاهد ، كما أن المجتمع نفسه ليس فى حاجة إلى كل هذا العدد . وقد أدى هذا الاضطراب فى سياسة القبول إلى ضعف مستوى خريج الجامعة من ناحية .. ومن ناحية أخرى نجد بعض خريجى الطب يعملون « جرسونات » فى الفنادق ، وبعض خريجى الآداب يعملون سائقى تاكسى ، وبعض خريجى التجارة والزراعة يعملون فى مجال البناء والتعمير ... الخ . والسؤال الآن هو : لم أدخلنا كل هؤلاء الجامعة .؟!

٥ ـــ الحدُّ من سنوات الإعارة :

إن فتح باب الإعارة والاستقالة على مصراعيه ، أدى إلى تخريب علمى متعمد للمؤسسات الجامعية ، وأثر تأثيرًا سلبيًا فى مستوى التعليم الجامعى والدراسات العليا . وهذا يتطلب ـــ بالضرورة ـــ الحدَّ من سنوات الإعارة لتصبح ست سنوات ـــ على مرحلتين ـــ بدلاً من عشر سنوات ـــ كما هو معمول به الآن . إن عضو هيئة التدريس بعد أن يُؤهَّل بالدكتوراه ، يعمل فى المتوسط عشرين سنة ، فإذا سمحنا له بأن يقضى ـــ خارج جامعته ـــ نصف عمره الوظيفى .. وهو فى سن العطاء ، فإن هذا يكون كرمًا لا مبرر له ، وهذه فى الوقت نفسه ميزة ـــ لا تُمنح لكثير

من العاملين فى الدولة .

كذلك ينبغى ألا تتساهل الجامعات فى أمر قبول استقالة الأساتذة ، خاصة وأن معظم المستقيلين يتمثلون فى درجة « أستاذ » — أى وهم فى قمة عطائهم العلمى — وأن يكون هناك عقاب رادع ، يحدُّ من هجرة المستقيلين — مهما كانت الدوافعُ والمغريات .

وفى المقابل فإن على الجامعات دورًا ، لا تكاد تقوم به ، وهو استعادة الكوادر العلمية المهاجرة ، لأن هناك عددًا هائلاً من الأساتذة .. ذهبوا للحصول على الدكتوراه ولم يعودوا .. أو أعيروا ثم استقالوا .. كل أولئك وهؤلاء ينبغى أن تعيد الأقسامُ العلمية الحوار معهم ، كى يعودوا إلى أماكنهم ، مع احتساب ما وصلوا إليه من خبرات ودرجات علمية ، طالما أنهم رُقُّوا فى جامعاتٍ معترف بها .

هذه — بصفة عامة — بعض هموم الجامعة والجامعيين ، وقد ركزت على أمور واضحة ، أملاً فى جامعات متقدمة : تنشر العلم الصحيح ، وتبصّر بالحرية الحقة ، وتنير آفاقَ الديمقراطية ، وتستصلح الأرضَ الخرابَ من أجل غد أفضل .

***

ومازالت الأيامُ تبدي العجائب

حين حصل على درجة الليسانس الممتازة ، ظنَّ أن المستقبل المشرق سوف يفتح له ذراعيْه ، وأصبح يرى أن من حقه أن يُعين « مُعيدًا » فى القسم الذى تخرج فيه .. لكن ذلك يقتضى أن يقف فى طابور طويل منتظرًا دوره . وحتى تحين اللحظةُ المناسبة لتحقيق ذلك الحلم البعيد ، توجه إلى « المعهد العالى للتربية » فى المنيرة ، وقدَّم أوراقه ، حتى يؤهل تربويًا لوظيفة « مدرس » . عندما ذهب لأداء تلك المهمة ، أمسك الموظف المسئول ورقه ، وقال ساخرًا :

* مثلك كان لا ينبغى أن يقدم أوراقه .!!

* هل هناك حل آخر .؟!

* كنت ترسل لنا ، ونحن نذهب لاستلامها ، تقديرًا لما حصلت عليه من تقدير ممتاز .!!

حين بدأت السنة الدراسية ، وجد أن الدراسات التربوية لا تعْدِلُ شيئًا ، إذا ما قُورنت بالدراسات الأدبية واللغوية الجادة ، التى حصلها فى قسمه . وقد قضى — مثل كل زملائه — سنة دراسية مع اللعب اللذيذ ، كانت العلاقةُ فيها بين الطلبة والطالبات وثيقة جدًا ، وبدأوا يشكلون مجموعة من « الشلل » ، يلتقون فى أثناء الدراسة وبعدها .. ويتعاملون بقدر من الانفتاح الفكرى والإنسانى .. تسمحُ به الحياة

الجامعية فى أسمى صورها . وقاموا فى أثناء تلك السنة برحلات علمية ترفيهية ، قرَّبتْ بينهم ، وجعلته يتحسَّر على قضاء فترة الدراسة السابقة ، دون أن يمارس حياة جامعية حقيقية ، لأنه كان مشغولاً بالمذاكـرة والتحصيل فقط .

إن فترة الجامعة تعد من أسْعد المراحل فى حياة المتعلم ، لأنها تتم فى مرحلة الشباب المبكر ، حيث القلب أخضر ، والفكر مفتوح ، والمسئولية شبه منعدمة . وهناك صور كثيرة من الأنشطة الثقافية والاجتماعية ، يمارسها الطلبة والطالبات بإشراف الأساتذة ، وهذا ما يزيد الشبابَ معرفةً بالحياة ، ورغبةً فى المساهمة فى العمل الوطنى بعد ذلك .!!

فى هذه السنة نفسها تقدم للحصول على السنة التمهيدية للماجستير من قسمه ، وكان يدرس صباحًا فى المعهد ، ومساء فى كلية الآداب . وقد نجح فى الشهادتين كلتيهمـا فى نهاية السنة الدراسيـة (١٩٦٠ — ١٩٦١) ، وحصل على دبلوم عام » فى التربية وعلم النفس بتقدير « جيد جدًا » ، وكان ترتيبه الثانى على دفعة كبيرة ، يزيد عددها عن مائتى طالب وطالبة . وقد أغراه بعض أساتذة التربية كى يواصل دراسات عليا فى التربية ، فرفض ذلك بإصرار ، لأنـه مـازال يؤمـن أن الوسيلـة (الوحيدة) ، لتصير معلمًا ناجحًا ، هى أن تكون عارفًا تمام المعرفة بطبيعة المادة ، التى تتصدَّى للقيام بتدريسها .

لقد زاد عددُ كليات التربية بشكل لافت للنظر ، وصار هناك فى كل محافظة كلية أو أكثر ، وهذه هى النتيجة .. الفوضى الشاملة فى كل مراحل التعليم : الابتدائية والإعدادية والثانوية . هناك إذن تنـاسبٌ

(طردى) بين التوسع فى كليات التربية ، والفساد الزائد فى نظم التعليم .
ليت القائمين على أمر التعليم الجامعى فى الوطن العربى كله ، يعيدون النظر فى أمر هذه الكليات .. التى أضرت نظامَ التعليم وطريقة التربية ، بشكل يدعو للأسى والأسف .!!

***

خلال هذه السنة تم بناءُ « السد العالى » ، الذى حاربتْ مصرُ ، وحوربت من أجل بنائه ، ولا يمكن أن ينسى دور الاتحاد السوفيتى فى تحقيق هذا المشروع . وبمناسبة الحديث عن السدّ العالى — بعد أن مضى على إنشائه ما يزيد على ربع قرن — يتساءل الإنسان — حزينا — حين يرى :

— نهر النيل العظيم .. وقد تحول هو وفروعه إلى قنواتٍ .. وبركٍ راكدة .. ملوثة .. وما قد يترتبُ على ذلك من آثارٍ خطيرة على الإنسان والحيوان .. والأرض ..!!

— الثروة السمكية .. وقد تضاءلتْ بشكل ظاهر .

— الأرض الزراعية .. وقد أجدبتْ .. وصارت أشبه بالأرض الخراب ، بعد أن فقدتْ « الطمى » .. الذى كان يُحييها كل سنة .

— الشواطئ المصرية الشمالية ، وقد تآكلتْ بسبب « نحر البحر » . وقد يؤدى هذا فى المستقبل البعيد إلى ضياع الدلتا .. أو أجزاء كبيرة منها — على الأقل .

عندما يتأمل الإنسان هذه الآثار المرعبة — التى تحيق بالإنسان .. والحيوان .. والأرض .. والزراعة — يتساءل هل فوائد هذا المشروع

تغطى أضراره .؟ وفى حالة الفائدة — إنْ تحققتْ — فهل تساوى ما يُذل فى إنشائه من معارك وحروب وأموال وديون .؟!

ليت المسئولين — يومذاك — استمعوا إلى الأصوات العاقلـة .. الشجاعة .. التى عارضتْ إنشاء السدّ . ومن عجبٍ أن هذه الأصوات اتُهمتْ بالخيانة .. و لم ينقذها من الموت — وربما مما هو أكثر ضررًا من الموت — سوى الهرب خارج الوطن ..!!

***

وقد حدثت خلال تلك السنة أيضًا حادثة سياسية هزت وجدان الناس كثيرًا فى مصر وفى بعض البلاد العربية ، وهى حادثة الانفصال وتمزيق الوحدة التى تمت بين مصر وسوريا ، فقد تحرك كثيرٌ من تجار سوريا — وبعضُ قادة البعث العلوى — للقيام بحركة انفصالية وإعادة سوريا إلى حجمها « القُطرى » ، الذى كانت عليه قبل سنة ١٩٥٨ . ويبدو أن عبد الحميد السرَّاج رغم ثقة عبد الناصر القوية فيه ، قد لعب دورًا ما فى أحداث هذا الانفصال .

وقد خطب عبدُ الناصر عشيةَ ذلك اليوم المشئوم ، ورغم ما تحملته مصر من جهد ومال فى سبيل مبدأ وحدة الصف ، إلا أن الرجل قال فى خطبته « أعان الله سوريا الحبيبة على محنتها ، وسدد خطاها ، وبارك مسيرتها .. ولكن ستبقى هذه الجمهورية رافعة رايتها ، محافظة على مبادئها » . وقد ظل اسم مصر .. منذ سنة ١٩٥٨ هو « الجمهورية العربية المتحدة » إلى أن تولى أنور السادات الحكم ، وغير التسمية فى أوائل حكمه إلى « جمهورية مصر العربية » .

وقد تمت حركةُ الانفصال بانقلاب عسكرى ، أساء كثيرًا إلى بعض الموظفين المصريين ، الذين كانوا يؤدون وظائف مدنية أو عسكرية فى سوريا . كما حدث الانفصال وفى ذمة سوريا ملايين الجنيهات ، لم تردها حتى اليوم إلى مصر .!!

ومن عجب أن مصر مازالتْ تُؤمن بـ (الوحدة) سبيلاً لجمع راية العرب وتحقيق مصالحهم القومية العليا ، لذلك فما زال يوم ٢٢ فبراير من كل عام يحتفل به فى مصر ، على أنه رمز ليوم الوحدة المأمولة بين الشعوب العربية .

فى أعقاب حركة الانفصال ظهر سنة ١٩٦١ ما يعرف بـ « ميثاق العمل الوطنى » ، وقد سبقه ما سُمى بـ « القرارات الاشتراكية » ، التى سادت فى مصر قبل ذلك . وترتب عليها إعلان « فرض الحراسة » على ممتلكات بعض الإقطاعيين وأصحاب رؤوس الأموال ، ثم نشأة « القطاع العام » وغير ذلك من القرارات الاقتصادية ، التى شُرعت فى ذلك الوقت . وإذا كان لبعض تلك القرارات الاقتصادية فضلٌ على السياسة الداخلية .. وخاصة بالنسبة لنشأة « القطاع العام » ، وبعض مشاريع الصناعة الثقيلة والحربية ، فإن قرار « فرض الحراسة » قد ترتبتْ عليه مآسٍ إنسانية فادحة ، وأهدرتْ كرامةُ كثير من أسر الأغنياء ، ونُهبت ثرواتهم ، وسُرقت ممتلكاتهم دون وجه حق . وقد ساعد القائمين على تنفيذ القرار — فيما ارتكبوا من مظالم — أن هذا الجهاز — جهازُ « فرض الحراسة » كان كله من العسكريين ، الذين يعملون تحت إشراف عبد الحكيم عامر ..!!!

وفى معرض الحديث عن دور مصر القومى فى هذه المرحلة ، لا يستطيع أحدٌ أن ينسى دورَ مصر فى تأييد « ثورة الجزائر » ، حتى تم الاستقلال ، بفضل مساندة الشعب المصرى ماديًا ومعنويًا ، منذ بدء قيام « جبهة التحرير الجزائرية » سنة ١٩٥٤ ، إلى أن تحقق الاستقلال سنة ١٩٦٢ .

وكانت مصر تساعد فى هذه الفترة وما قبلها بعض الدول العربية التى تحتاج إلى مساعدة ، وقد حدث هذا مع شعب العراق خاصة فى أثناء حكم عبد السلام عارف ، الذى أعلن هو الآخر عن قيام وحدة شكلية بين مصر والعراق سنة ١٩٦٣ م . وقد أحيتْ هذه الوحدة الجديدة شيئًا من الأمل فى نفوس الجماهير العربية ـــ خاصة فى مصر ، التى تؤمن بالوحدة مصيرًا ، ليس عنه بدٌّ للأمة .

ولكن هذا الأمل سوف يخبو بعد مدة قليلة .. باستشهاد أو اغتيال عبد السلام عارف محترقًا فى طائرة ، بتدبير من بعض أجنحة البعث فى العراق . وكان لاستشهاده صدى أليم فى نفوس الشعب المصرى ، وحزن عليه كثيرًا ، لذلك سُمى أحد الشوارع باسمه فى قلب القاهرة ، وآخر فى ضاحية « مصر الجديدة » .

وفى مجال الحديث عن دور مصر القومى ، لا ينسى أن كثيرًا من الطلبة العرب ـــ الذين درسوا فى الجامعة ـــ كانوا يدرسون دون أن يدفعوا مصروفات ، وكانوا يُعطون منحًا مالية سخية ، وقد ضيع بعضهم هذه المنح السخية ـــ حين ذاك ـــ فى الليالى الحمراء وزجاجات المياه الصفراء ، بينما كان هو وكثير من زملائه ، يكادون لا يجدون بعض

حاجاتهم الضرورية وكتبهم الدراسية .

الحديث عن دور مصر « القومى » ، ينبغى أن نذْكره دوْمًا ، ونُذكّر به .. تقديرًا لحق .. وتقريرًا لحقيقة . إن مصر هى الشقيقة الكبرى لأقطار الأمة العربية والإسلامية ، وهى منهم بمنزلة القلب من الجسد ، وهى حين تؤدى هذا الدور « القيادى » ، تفعله استجابة لنداء الواجب المنُوط بها ، وتقوم به دون انتظار لردّ الجميل .

وإذا كانت بعض البلاد العربية — التى تدَّعى الثورية .. أو التى تملك بعض مصادر الثروة — تكاد لا تعترف بأفضال مصر عليها ، فإننا نذكرهم بأحداث تاريخهم الوطنى ، وضرورة إحصاء ما قدَّمتْ مصرُ لهم من تضحياتٍ بشرية ومادية ، لأنه لا يكاد يوجد بلد عربى ، ليس لمصرَ فضلٌ عليه ..!!

***

جاءت عطلة صيف سنة ١٩٦١ ، وذهب إلى القرية كعادته . وقُبيْل ذلك بمدة قصيرة ، تزوج أخوه مصطفى بعد أن أتم فترة تجنيده ، وفى نفس الفترة تقريبًا تزوجت أخته زينب . هكذا أدت الأم الصبور دورَها فى الحياة .. وأكملت رسالة الأب من بعده . وكانت حريصةً على أبنائها الصغار ، إلى أن استقرَّ كل واحد منهم فى بيت خاص به ، لقد تحملتْ الكثيرَ حتى تقوم بدورها .. وكم أعطت .. ولم تطلب لنفسها شيئًا من أى من أبنائها . كانت تفتح وحدها بيتا بلا مورد أو دخل ثابت .. لكنك حين تدخل عندها تجد الفرحة والبشاشة والرغبة الصادقة فى العطاء . ولم تكن تستطيع أن تخفى فرحتها الكبيرة بأحفادها مرددة « أعزّ الولد .. ولد

الولد » . وقد آلى على نفسه بعد أن تخرج ، أن يكون ـــ وحده ـــ المسئول عن أمه منذ أن توظف . كان يشعر بسعادة غامرة عندما يُوفّى بعض مالها من حقوق . كانت آناء الليل .. وأطراف النهار ، تدعو له بالخير والتوفيق والسعادة ، وهو يعتقد أنه قد وُفّق فى الحياة ببركة دعاء هذه الأم الصالحة ـــ رحمها الله رحمة واسعة .!!

عندما كان يزور بيت خالته يحس بقدر من الأسى ، لأنه لا يستطيع أن يحمل لخطيبته بعض ما يحمل الخطيب دائمًا فى هذه الظروف . لكن العروس وأهلها لم يشعروه لحظة بأنه فى غير بيته ، واستمر يقيم عندهم لفترات طويلة ، وعندما شكا ذلك ذات مرة لعروسه ، قالت له :

* عندى بعض المال ، فخذه واشتر ما تريد .. بشرط أن تشترى ما تحتاجه أنت .

شكرها .. وأكبرها فى نفسه ، وتعجب من الصورة الحالمة التى رسمها من قبل فى مخيلته للحبّ والحبيبة . هل هذه الفتاة من معدن خاص .. أم أن كل الفتيات هكذا ، عندما يشعرن بالأمان ، فإنهن يفعلن المستحيل ببساطة وبراءة .؟!

لكن الخطيبة الحبيبة إذا لم تكن تطمع فى هدايا أو هبات ، فلا شك أن أباها لن يزوّجه إياها ، إلا بعد أن يدفع المهرَ المتفق عليه ، وهو مائة جنيه بالتمام والكمال .!!

***

عاد إلى القاهرة مع بداية سبتمبر ١٩٦١ ، وراح يسأل فى وزارة التربية عن المكان الذى سيُعيَّن فيه ، وإذا بمفاجأة سارة ، فقد عُين فى

مدرسة « النقراشي الإعدادية النموذجية » بحدائق القبة ، تقديرًا لتفوقه ، وهذه ميزة لم يحصلها أحد من زملائه ، فحمد الله الذى لا يضيعُ أجر من أحسن عملاً . عندما أحس الفرحةَ ، تذكر أباه — ودعا له بالرحمة — وأمه — ودعا لها بطول العمر — واستعاد ذكرى الحُلم الذى رأته أمه ، وهو صغير عقب وفاة أخيه محمد .

ذهب إلى المدرسة واستلم عمله الجديد بفرحة وأمل . وكان أول راتب يستلمه فى حياته قدره ثلاثة عشر جنيهًا وخمسة وسبعون قرشًا . أما أول مشكلة واجهته بعد ذلك فهى البحث عن سكن ، وقد أوجد صديقٌ له شقةً ، فى بيت مجاور للمدرسة يسكن فيه هو الآخر ، كان إيجارُ الشقة إثنى عشر جنيهًا . فى رأيه — حتى اليوم — أن الإنسان ينبغى أن يسكن سكنًا مناسبًا محترمًا ، حتى لو كان ذلك على حساب بقية النواحى الأخرى مثل المأكل والملبس . المهم أن يعيش الإنسان مع الآدميين ، وليس فى خرابة ، لأنه يُؤمن بنظرية « هيبُو ليت تين » ، التى ترى أن الإنسان ثمرة لعوامل كثيرة من أهمها « البيئة » التى يحيا فيها . وقد حلا له هو الآخر أن تكون له نظرية فى السكن ، مؤداها :

« قل لى أين تسكن ، أقل لك من تكون ..!! »

مضى شهران ، وهو سعيد بعمله الجديد ، وقد أحب تلاميذه وأحبوه ، كما أحب وظيفة التدريس ، بل هيّئ له أنها الوظيفة الوحيدة المناسبة له . إنها مهنة مقدسة ، ورسالة نبيلة ، تشكل فيها عقول التلاميذ وقلوبهم .. وتوجههم نحو ما يؤمن به ضميرك من قيم وسلوك . وقدأدى وظيفته التعليمية بنجاح وتوفيق ، لأنه تمثل وهو يقوم بعمله كل المدرسين

المخلصين ، الذين علّموه منذ عبد الرازق أفندى فى المدرسة الأولية .. وانتهاء بأساتذته فى الجامعة . كان يحاول أن يقتبس من روح كل أستاذ علّمه سمةً معينة ، تقرّبُ علمه إلى تلاميذه ، وتحبب شخصيته إليهم . وهو لا يزال يؤمن .. بأن المدخل الصحيح بالنسبة لأى مُدرس ، هو أن يكسب حبَّ تلاميذه واحترامهم . فالتلاميذ إذا أحبوا المعلم أحبوا المادة التى يُدرّسها ، كذلك فإن الاحترام يكسبه هيبةً ، ويجعل لنصائحه صدىً فى أفئدة تلاميذه .

وقد فوجىء فى تلك المدرسة بمفاجأة أخرى سارة ، ذلك أن تلاميذ المدرسة معظمهم من المتفوقين ، ولكى يحافظوا على مستوى تفوقهم العلمى ، كانوا يأخذون دروسًا خصوصية فى المواد كلها تقريبًا . ذات يوم جاءه مدرس علوم قديم فى المدرسة ، وطلب منه أن يُعطى درسًا لأحد تلاميذه ، فقد كان هناك شبه اتفاق بين كل المدرسين ، يقضى بألا يأخد واحد منهم تلميذًا من تلاميذ غيره . وقد رفض العرضَ فى البداية ، فهو يذكر أنه لم يأخذ درسًا طوال عمره ، وأنشأ يذكر لزميله ، أن ذلك أمر غير أخلاق .. وأنه يرفض إعطاء أى درس ، ويستحيل أن يطرق بابًا مثل بائعى اللبن والخبز والخضار .

قال زميله عبد الرحيم بهدوء : أنا معك فى كل ما قلت ، شرط أن يُكره المدرسُ التلميذَ على أخذ الدرس ، المدرسُ يا صديقى مثل الطبيب .. كل الأطباء يعملون فى الحكومة نهارًا ، ويأخذون رواتب عالية ، وبدل عيادة .. لكنهم يفتحون عيادات خاصة ، ويذهبون إلى بيوت المرضى .. فهل نحن أفضل من الأطباء .؟!

* بالطبع لا .

* ثم أنت خاطب .. كما عرفتُ ، ألا تنوى أن تتزوج ؟ كيف تؤجر شقة ، وتدبّر المهر .. وتعول العروسة .. وولى العهد القادم ؟ كن مثلى يا صديقى .. لا تعط درسًا إلا إذا طُلبتَ بشكل كريم .. وأدّ واجبك بأمانة ، ما دمتَ تأخذ الأجر ، الذى تريده .. وبعدها سوف يبارك الله لك .

* لكنى أستحى أن أساوم ولىَّ أمر فى أجر درس .

* لقد أرحتك من كل هذا .. واتفقتُ أنا معه .

فتح الله عليه .. وكثُرتْ دروسه ، لأنه لم يكن يتقيد بموعد فى الحصة ، وإنما يبقى مع التلميذ ، إلى أن ينتهى الجزء الذى يشرحه .

ذات مرة كان يُعطى تلميذًا درسًا ، فجاءت الأم تطلب الابن ، لأن الحلاّق يريده أيضًا ، فتركه للحلاق وهو يقول مبتسمًا : لا مانع يا مدام ، كلنا ننظف رأسه ، لكن واحدًا من الداخل ، والآخر من الخارج .

خرج بعد أن ودعته زوجة لواء الجيش .. أم التلميذ ، وهو يشك أن تكون قد فهمتْ ما يعنى .!!

ذات مرة طلب منه مدرس اللغة الإنجليزية أن يعطى درسًا لتلميذ آخر ذكى ، لكنه ضعيفٌ بعضَ الشىء فى اللغة العربية ، لأنه ولد فى أمريكا ، أثناء سفر والده فى بعثة ، للحصول على دكتوراه فى الهندسة . كان هذا الولد « حسن » ولدًا غربيًا ، لم يشهد مثله . ذهب إليه .. فوجده قد أعد كتبه ودفاتره و « ترمس » شاى . حين أخبره — مثل كل التلاميذ — أنه

سوف يراجع معه الدروس أولاً بأول ، رد عليه قائلاً :

* لا يا أستاذ .. أنا فاهم كل الدروس ، لكن هناك أسئلة تخطر لى ، لا أجد لها إجابة .. وأريد أن نتناقش فيها .

شيء عجيب أول مرة يكون التلميذُ سائلاً والمعلم مسئولاً ، لكنه أعجب بالتجربة . فقال : هاتِ ما عندك .

* لماذا كانت علامةُ الرفع فى اللغة العربية الضمة ، والجر الكسرة ، والنصب الفتحة ، والجزم السكون .؟

* مالك أنت وهذا يا ابنى ؟! لقد تركتَ النحوَ إلى فلسفة النحو ، وتركت دروس اللغة إلى فقه اللغة .

أعجب بذكاء تلميذه ، لكنه لم يكن مستعدًا أن يجيب عن سؤاله ، دون العودة إلى بعض المراجع اللغوية ، وطلب منه مهلة ، حتى يستطيع أن يجيبه .

منذ تلك الفترة ، وهو يؤمن أن المعلم قد يفاجأ — أحيانًا — بسؤال لا يعرف له إجابة ، وقد يقبل منه الطالب أى تفسير ، لأنه أحيانًا يسأل ببراءة ، نتيجة وحى لحظة .. قد ينساها بعد ذلك . لكن المعلم الذى يحترم نفسه ، عليه ألا يُفتى دونَ علم . فالعلمُ دائمًا يحيا .. وينمو بالقراءة والمذاكرة . وويلٌ للمعلّم إذا زعم أنه حَصَّل عِلمَ الأولين والآخرين ، وأهمل مصادر العلم والثقافة . فالإنسان يظل — دومًا — فى حاجة إلى المعرفة طالما هو حىّ ..!!

تعلَّمْ ، فليس المرءُ يُولدُ عالمًا ‏ ‏ ‏ ‏ وليس أخو علمٍ ، كمنْ هو جاهِلُ

***

رغم انشغاله بوظيفة التدريس ، إلا أنه لم ينس دراساته العليا ، فسجّل فى بداية سنة ١٩٦٢ موضوع رسالة الماجستير ، تحت إشراف أستاذته الجليلة الدكتورة سهير القلماوى .. وهو :

« الدكتور محمد حسين هيكل .. حياته وتراثه الأدبى » .

كان دور الطالب شاقًا فى هذه الفترة من الزمان ، فهو الذى يختار الموضوع ، ويضع خطته ، ويحدد مراجعه .

السرُّ وراء هذا الاختيار لموضوع الماجستير ، أنه أدرك بحكم هوايته القصصية ، أنه ينبغى أن يتخصص فى مجال « الأدب الحديث » الذى يحلم بأن يكون أحدَ أعلامه ، ولا شك أن دراسة هذا الموضوع ، سوف تتيح له فرصة دراسة بعض فنون النثر الأدبى المختلفة ، التى كتب فيها هيكل ، الذى ينتمى أيضًا إلى المنطقة التى ينتسب إليها ، وهى محافظة « الدقهلية » .

كانت مطالب الحياة .. وضرورات العيش تشغله كثيرًا ، وتستولى على كثير من جهده ووقته . لكنه لم ينس لحظة حلمه الكبير .. أن يكون « أستاذًا فى الجامعة » . وقد بدا له الحلم نجمًا عصيًّا المنال . لكن كل زيارة للجامعة كانت تُحيى فى نفسه الأمل ، وتذكّره بما ينبغى ألا ينساه ، وتجعله يستعيد ذكريات أيامه السالفة ، بكل ما فيها من كفاح جاد وحب برىء ، فتخرج من صدره آهة عميقة ، وهو يردد قول إبراهيم ناجى :

هذه الكعبةُ كُنّا طائفِيها والمُصلِّين صباحًا ومساءْ
كم سجدْنا وعبدْنا الحُسْنَ فيها كيفَ باللهِ رجعنا غُرباءْ ؟!

***

عندما انتهى العام الدراسى ، ذهب إلى صهره الشيخ بدراوى مطاوع فى صيف ١٩٦٢ ، وأعطاه المهر .. وأخذ لعروسه هدية من الذهب — فالذهب أفضل هدية تحبُّها المرأة . أحسّ أنه يُعوِّض تقصيره نحوها خلال السنتيْن الماضيتين . لم ينس أيضًا أن يشترى لأمه وأخته بعض الملابس الجديدة ، كما أخذ بعض الهدايا الرمزية لإخوته . فهو يحب أهله ، ويحاول دائمًا أن يكون بارًا بهم ، لأنه يؤمن بمثل تردده أمه كثيرًا ، وهو « الشجرة التى لا تُظلل أهلها ، تستحق قطعها » .!!

بدأت الدنيا تبتسم له ، وأحس أن الله قد عوضه عن فترات الحرمان ، التى عانى منها طوال حياته . فى أول ديسمبر سنة ١٩٦٢ تزوَّج .. وسعد مع عروسه سعادة بالغة . كانت « سعدية » يوم تزوجته فى الثامنة عشرة من عمرها ، لكنها تمتاز بطيبة متناهية ، وصفاء عذب ، ولا تحمل شرًا لأى إنسان . وكانت تسعد بأهله وأصدقائه عندما يزورون البيت . ليست السعادة بالضيف أن تقدم له الطعام والشراب ، وإنما أن تفرح بلقياه ، وتسمع شكواه ، وأن تشاركه مشاعره ، فيما يستحق الفرح أو المواساة . عندما استأذن زوجته فى أن يحضر أمه لتقيم معه ، قالت :

* هذه ليست أمك وحدك .. وإنما هى أمى أيضًا .

أكثر من هذا أنها تركتها تختار ما تطهو من طعام .. بالطريقة التى تودُّ أن تطهو بها ، لأنه — كان ولايزال — لا يستطيب إلا ألوان الطعام ، التى أكلها من يد أمه فقط . أحيانًا يأكل فى بيتٍ ، فيجد طبقًا لم تعتد أمه تقديمه ، فلا يقترب منه . وأشد ما ينفره من ألوان الطعام تلك التى تتكون من مواد كثيرة تخلط ببعضها ، كما أنه لا يستريح للشطة أو الكارى

أو البهارات الكثيرة فى الطعام .

المأكولات التى يحبها منذ تذوقها من يد أمه هى : اللحوم والطيور والسمك ولا سيما المشوى منه ، والمطبوخ فى صلصة ، (حبذًا لو كان صينية فى فرن) ، والأرز ولا سيما « المعمَّر » ، الذى يطبخ باللبن والملح فى الفرن . أما الخضروات فتأتى على رأس القائمة فيها : الملوخية والبامية والمسقعة والبطاطس . ثم يأتى بعد ذلك « المحشى » بكل أنواعه .. والكشرى الذى يتكون من الأرز والعدس . وعلى ذكر العدس تأتى شُوربة العدس ، والبصارة ، والسلطة الخضراء .. والخضروات الطازجة مثل : الخس والفلفل الأخضر والجزر والسريس والجرجير .. وأولاً وأخيرًا طبق الشوربة .

كذلك يُفضِّل نوعًا من الكباب يُصنع من « فريك الذرة » مضافًا إليه اللحم المفروم ، وكفتة الأرز واللحمة . ثم هناك الثريد اللذيذ ، المصنوع من خُبز الرقاق مع الشوربة ، يضاف إليه بعض الثوم المقلى . وأشهى الحلويات عنده طبق الأرز باللبن والسكر ، ثم المهلبية ، والبسبوسة والكنافة .. وأخيرًا طبق « أمّ على » اللذيذ — شريطة أن يكون ساخنًا .!!

عندما كان يعود من العمل مرهقًا ، ويجلس للأكل مع والدته وزوجته .. يحس أنه سعيد كل السعادة ، فيحمد الله على ما أنعم به . ويمد يده إلى الطعام مكررًا ما كان يقول أبوه « اللهم .. أدمها نعمة ، واحفظها من الزوال . » .

***

فى تلك الفترة قامتْ ثورةُ اليمن الشمالى فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، ثم أرسلت حكومةُ مصر بعض قواتها المسلحة لمساعدة الثورة الوليدة ، التى قامت بقيادة على عبد المغنى .. كما تولى عبد الله السلال رئاسة الجمهورية . وقد خالف عبدَ الناصر — فى الرأى الخاص بإرسال قوات عسكرية إلى اليمن — بعضُ زملائه مثل كمال الدين حسين وغيره ، لكن عبد الناصر أصرَّ .. فاستقال كمال الدين احتجاجًا على عدم الأخذ برأيه .. أو أقيل ، الله أعلم . بدأت تعظم جماهيرية عبد الناصر فى العالم العربى .. وفى العالم الثالث ، من هنا كان مُصرّاً على أن تقوم مصر بدورها القومى رغم أن الميزانية المصرية ، قد تعبتْ نتيجة الوحدة مع سوريا .. ثم من المساعدات الجليلة التى قدمتها لثورة الجزائر . لكن عبدَ الناصر آمن بالدور العربى لمصر ، حتى لو كان ذلك على حساب قوت أهلها .!! وقد قدمت مصر فى أثناء مناصرة الثورة اليمنية كثيرًا من الضحايا — لم تصدر بهم بيانات رسمية حتى اليوم ، كما تحملت الخزانةُ أعباءً مالية ، لا يُحصى عددَها إلا الله ...!!

كانت لزوجته ابنة عم تسكن بالقرب منهم ، وقد رحل زوجها مع المحاربين إلى اليمن ، وكانوا يزورونهم بحكم القرابة والجيرة . بعد مدة بنى الزوج بيتًا فى « المطرية » من مكافأته فى حرب اليمن ، وكان يسمّيه صاحبنا « قصر صنعاء » .!! ومن عجب أن ابنته الدكتورة منى قد تزوجت فى شقة من هذا البيت .. بعد ربع قرن من الزمان الآتى (سنة ١٩٨٦) .

***

مضت الحياة طيبة .. ونعم بالاستقرار فى العمل والبيت . وفى يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٦٣ رزقه الله بولده الأول . وقد سماه « محمدا » على اسم شقيقه الكبير المتوفى . وهكذا صار طه أبا محمد ، وفرح بوليده ، كما فرحت به الأم والجدة . وقد زاد هذا الوليد الجديد من حبه لزوجته ، وحرصه على بيته . وحمد الله على ما أنعم به . بدأ يدرك أن الأبوة « وظيفة اجتماعية » تجعل الإنسان ، يخلص فى عمله ، ويحب بيته ، ويعطف على كل أطفال الدنيا ، كأنهم قد صاروا أولاده هو . ما أتعس من لا يتزوجون .. ومن لا يُنجبون .!!

***

فى أواخر سنة ١٩٦٣ .. دعا عبد الناصر أثناء خطاب له فى « عيد النصر » ببورسعيد إلى عقد أول « مؤتمر للقمة العربية » ، لبحث ما يترتب على محاولة إسرائيل تحويل مجرى نهر الأردن . وقد حضر الزعماء العرب كلهم رغم اختلاف بعضهم معه . وعُقد المؤتمر فى أوائل ١٩٦٤ بمقرّ جامعة الدول العربية بالقاهرة . هكذا أرسى عبد الناصر تقليدًا جديدًا فى درب السياسة العربية ، وهو انعقاد مؤتمرات للقمة ، فى لحظات الخطر والأزمة ، لتدارس المشكلات الساخنة ، واتخاذ رأى سريع وحاسم فيها .

وسط دفء الحياة العائلية بدأ يواصل القراءة والدراسة من أجل الانتهاء من الماجستير . إن هذه الشهادة سوف تحمله إلى الجامعة .. وإلى تحقيق حلم قديم ، لمَّا يزلْ متمسكًا به ، خاصة بعد أن عُيِّن بعض زملاء له من قبل فى الجامعة . لكن هذا الأمل الخاطف أخذ يشحب شيئًا ما ،

حين بدأت الجامعة تستنّ سنة جديدة غير حميدة ، وهو ما سُمى « بأوامر تكليف المعيدين » من خريجى السنوات الجديدة ، وقد عُيِّن فى نهاية صيف ١٩٦٣ بعض المعيدين الجدد فى القسم ، بناءً على هذا التقليد . غير أنه لم ييأسْ ، وظل يواصلُ العمل فى الرسالة .

تواكب سيْرُ المحبطات بعد ذلك ، فقد حدث أن صدرت نشرة من الوزراة فى سبتمبر سنة ١٩٦٤ ، تقرر بموجبها أن يُرقّى إلى وظيفة مدرس ثانوى فى محافظة بنى سويف ، على أساس أنها أقرب الأماكن إلى القاهرة ، التى يتمسك بوجوده فيها .

وقع — على إثر ذلك — فى خطأ كانت له آثار سيئة على نفسه مدة ثلاث سنوات ، ذلك أن زميله .. الذى يسكن معه فى نفس البيت ، كان يريد الشقة لأخٍ له ، وزيَّن له ضرورة تركها ، حتى لا يفتح أكثر من بيت . وقد وافق على ذلك دون تفكير ، ثم سافرت الزوجةُ مع وليدها إلى بيت أبيها . وذهب هو إلى بنى سويف .. فرآها لا تصلح لإقامة الأسرة ، أو هكذا هُيِّئ له ساعتها ، فقرر أن يسكن فى شقة مع زميلْين نُقلا معه من المدرسة التى كان فيها ، وهما : على الألفى وأحمد الحاوى .

وقد شعر نتيجة ترك سكنه أنه متزوج ورب أسرة مع إيقاف التنفيذ ، وكان معظم مرتبه يضيع فى السفر من بنى سويف إلى المنصورة ذهابًا وإيابًا مرتيْن فى الشهر على الأقل . وقد أحس بندم شديد لأنه هدم بيته .. وصار مشردًا .. بعيدًا عن أسرته . لكن صهره وهو عالم من علماء الأزهر ، كان يواسيه ويصبِّره ، ويطلب منه أن يتحمل حتى تمضى الأيام ، وينقل بعد ذلك . ويقول محاولاً أن يخفف عنه :

* لم أر موظفًا فى الدنيا يسخط على ترقية مثلك .!!

* وهل هذه ترقية ؟! إن وزارة التربية تعبث بموظفيها مثل اللعب بورق « الكوتشينة » ، وتنقلهم عشوائيًا دون أن تعرف حقيقة ظروفهم .

***

ذهب إلى مديرية التعليم فى بنى سويف ، وقابل المفتش الأول فرحب به ترحيبًا ، لا يعرف له سِراً ، وأخيرًا قال له :

* اختر أية مدرسة تريد ، لأن اسمك أول اسم فى كشوف الترقيات .

* لا أعرف هنا أية مدرسة .. فى أىّ مكان سوف أعمل .

* ما شاء الله يا بنى .. ممتاز ومؤدب أيضًا . يبدو أنك من أصل طيب ، لذلك تكون — بإذن الله — مدرسًا فى ثانوية البنين القديمة .

حين توجه للمدرسة ، وجد أن أحد المنقولين من المدرسة اسمه يشبه اسمه ، وقد أحدث هذا التشابه قدرًا من التقارب بينهما ، ونصحه هذا الزميل بأن يتمسك بفصل كان معه ، وهو « ثانية — أدبى » ، لأنه يستطيع أن يفيدهم بمعلوماته الأدبية ، طالما أنه يُحضّر للماجستير ، فطلب بإصرار من المدرس الأول أن يجعل هذا الفصل من نصيبه . عندما توجه إلى الفصل ، وكان الجو صيفًا ، دخل على التلاميذ بقميص أبيض نصف كم ، وكان صاحبنا نحيلاً متوسط الطول ، فبدا أصغر حجما من بعض التلاميذ . كتب على السبورة موضوع تعبير ، وأخذ يناقشهم فيه ، فلم يستجبْ منهم أحد .. كأنما اتفقوا — جميعا — على عدم الكلام ، ومضى كل منهم يشغل نفسه بأمرٍ ما . مضت الحصة كأنها دهر ، فخرج مثل سجين فُكَّ حبسُه ، وتوجه مباشرةً نحو حجرة المدرس الأول ، وصاح فيه :

* لا بد أن أترك فصل ثانية أدبى .
* لقد أصررتَ عليه قبل وضع الجدول .
* كنت أظن أن به تلاميذ .
* وماذا وجدت .؟!
* كائنات غريبة .. لا تفهم ، ولا تريد أن تتعلم .
* لا أستطيع أن أفعل شيئًا ، لأنى لا أقدر على تغيير الجدول الآن .
* لن أدخل هذا الفصل مرة أخرى .
* اسمع يا أخى .. أنت الآن فى أول حياتك العملية ، وسوف تتعرض لمواقف أصعب من هذا . وما تقوله الآن ليس فى صالحك .
* نعم .؟!
* أنت مدرس ممتاز ، وهذه أول تجربة لك فى الثانوى ، فيجب أن تثبت أنك قادر على التدريس لأى صف .

أحس أنه فى موقف تحد ، فرد بانفعال وسرعة :

* اسمع يا أستاذ .. لقد سحبتُ كلامى ، سوف أروضهم حتى لو كانوا وحوشًا ، وأعلّمهم حتى لو كانوا حميرًا .

ابتسم الرجل ، وهو يقول مهنئًا :

* هذه روحُ الشباب ، التى كنت آملُ أن أجدها عندك ، والحمد لله صدق ظنى .

لم يكن يعرف هل انهزم فى النقاش أم انتصر .؟! لكنه أدرك أنه فى موقف تحدٍ ، وأن عليه أن يعمل ، فقد جاء للتدريس ، وهذا هو واقع الحال وحقيقة المستوى . تحسر على أيام مدرسة النقراشى النموذجيــة وعلى

تلاميذها . أصر أن يثبت نجاحه فى العمل ، رغم أن الفصل كان به ما يزيد على خمسين طالبا .. ضخام الحجم .. متبلدى التفكير ، إلا أنه أخذ يكسب ودَّهم واحترامهم مع الأيام . أصر أيضًا أن يكون رائد الفصل .. واستطاع فى نهاية العام أن يجعل نسبة النجاح خمسة وثمانين فى المائة .

***

مارس صاحبنا فى بنى سويف حياة الموظف التقليدى ، يذهب صباحًا إلى المدرسة ، ويعود لعمل الغداء مع زميليْه ، ثم ينامون عصرًا ، وفى المساء يذهبون للعب الطاولة فى المقهى .. بعد ذلك يعود للقراءة والعمل فى الماجستير . عاوده طيفُ الهواية القصصية ، فكتب رواية سماها « عصفور الجنة » ما زالت لديه .. هى وبعض أعمال قصصية كثيرة ، كان يكتبها من أجل نفسه .. ولا يدرى لماذا لم يفكر فى نشر بعضها أثناء تلك الفترة .؟ لأنه ربَّما لو نشر قصصه فى تلك الأيام ، لتغيرت مسيرة حياته .. ولكن (لو) هذه لا فائدة منها .. ولا أمل فيها .!!

فى العاشر من إبريل سنة ١٩٦٥ رُزق للمرة الثانية بمولودة سماها « منى » . حمد الله على ما أعطى .. فقد وهبه ولدًا .. وبنتًا ، وهو الآن « أب » بكل معانى الكلمة . لكن الشىء الذى كان يؤلمه كثيرًا هو البُعد عن أسرته .. وعن أهله خاصة أمه ، التى عادت إلى القرية ، لتعيش وحدها فى دارها القديمة .

فى يونيو سنة ١٩٦٥ .. ناقش رسالة الماجستير ، وكانت اللجنة مكونة من الأساتذة : د . سهير القلماوى ـــ د . عبد العزيز الأهوانى ـــ د . عبد الحميد يونس . تلفت أثناء المناقشة فوجد زميلته سميحة . هاهى

سميحة ، التى كنت تركض وراءها من قبل ، قد جاءت إليك الآن .. ليتك انتظرت .. إنها لم تتزوج بعد .. لم تزل عذراء ، رغم مضى خمس سنوات ، ما زالت تذكر حقوق الزمالة .!! انتهت المناقشة .. وحصل على الدرجة بتقدير « جيد جدًا » . سعد عندما سمع قرار اللجنة ، كما سعد أكثر حينما صافحته سميحة قائلة :

* مبروك .. ألف مبروك يا أستاذ طه .

* عُقبى لك يا سميحة .

* لا أفكّر فى هذا .. ولن أفكر فيه .

* والليسانس الممتازة التى حصلِت عليها .؟!

* أعمل بها موظفة قدَّ الدنيا .

خرج من المناقشة سعيدًا بالحصول على الدرجة ، وبرؤية سميحة .. وحاول أن يستعيد ذكرى الأيام البعيدة معها ، فغطت عليها صورة زوجته ، تهدهد طفلتها الوليدة منى .!!

لا يدرى ما الذى جعله يتذكّرُ هذا البيت :

ومن عَجبِ الأيام أنك هاجِرى ومازالتِ الأيامُ تُبْدِى العجائبا

***

تجربة قاسية

بعد أن انتهى من مناقشة الماجستير ، ذهب إلى الجيش ، لكى يقضى فترة التجنيد الإجبارى . إن هناك أمرين يربطان المواطن بالوطن .. هما : دفعُ الضرائب .. وأداءُ التجنيد . ومعنى هذا أن التجنيد واجبٌ وطنى عظيم ... على الرغم من تراثه النفسى السيئ لدى كثير من الناس ، لأن فترة التجنيد تُؤدى فى أوقات السلم العادية ، دون تحقيق فائدة تُذكر بالنسبة للشخص المجند . صحيح أنه يتدرب على حمل السلاح وخشونة العيش وطاعة الأوامر ، لكن كيف ينام .. ويأكل .. ويشرب .. ويقضى وقت فراغه .. و .. و ...؟!! بعد هذا وقبله : ما المقابل « النقدى » الذى يحصل عليه ، حتى يُرتب أمور حياته .؟ قروش معدودة قد لا تكفى ثمنَ سجائره ، رغم أنه قد يكون ـــ قبل تجنيده ـــ موظفًا له دخل معقول .. وصاحب أسرة تحتاج إلى معاش كريم .

إن معظم زملائه ـــ فى السن ـــ قد أعفوا من التجنيد ، لأنهم « لم يصبهم الدور » ، أما هو فقد أجل تجنيده ثلاثَ مرات ، وهو طالب فى الجامعة .. ثم وهو فى معهد التربية .. وأثناء العمل مدرسًا ، لأن لوائح التربية والتعليم تُبيح تأجيل تجنيد المدرس ثلاث سنوات ، على اعتبار أن العمل فى التعليم تجنيدٌ من نوع آخر . ويترتب على هذا أن المؤجَّل

تجنيدُهم لا ينظر فى حالهم ، إلا عند تسليم أنفسهم لإدارة التجنيد ؛ وعلى هذا فقد أصابه الدور ، وحكم عليه القدرُ بأن يقضى سنة التجنيد ، ضمن القلة القليلة من مواليد سنة ١٩٣٧ .

هكذا جُنِّد صاحبنا وعمره ثمانية وعشرون عامًا ، وكان عليه فى هذه الفترة أن يعول نفسه ، وأمه ، وزوجه ، وطفلين ، لكن الراتب — بحكم القانون — يتوقف أثناء التجنيد ، ويصرف لكل مجند (جنيهان) فقط لا غير ، وهذه مصيبة فادحة .. إنْ لم تكن كارثة ، إذ كيف يذهبُ المرء لأداء واجب وطنى مقدس ، ومع ذلك يُحْرم من أهم حقوق المواطنة .. وهو الراتب . ليت القائمين على أمر التجنيد ، يُراجعون هذا القرار غير العادل ، الذى يُعامل به كل المجندين من المؤهلين وغيرهم . لماذا لا يكون هناك راتب معقول بالنسبة للمجند .. خاصة وأن أكل الجيش غالبًا لا يُؤكل ، وإن أكل فهو لا يسمن ولا يغنى من جوع .؟! تذكر أنه أخذ ذاتَ ليلة هو وتسعة من زملائه قطعة لحم كبيرة ، تعوم فى « قروانة » وسط بحر من « الشوربة » . وقد حاول عشرةُ الرجال أن يقطعوا القطعة دون فائدة .. فأكلوا الخبز « الجاف » بالشوربة . وكان هذا عشاءهم فى ليلة من الليالى الأولى ، لذلك كان كل واحد يحضر ما يكفيه مدة أسبوع من الخبز والجبن والبيض المسلوق والمعلبات وغيرها .. حتى لا يموت جوعًا .!!

عاودته آلامُ الفقر من جديد ، لكن فقر الصغر كان مقدورًا عليه ، لأنه لا يُؤثر إلا عليه وحده ، أما الآن فماذا يصنع من أجل أمه .. ومن أجل أسرته ، ثم هو نفسه يسافر إلى أهله فى المنصورة مرة كل أسبوع ، يحتاج

فيها إلى مبلغ كبير ، بالإضافة إلى نفقات طعامه الذى يشتريه دائمًا .؟!

الأمر الثانى الذى جرحَ إنسانيته أثناء التجنيد ، هو المعاملة غير الكريمة ، المتعمَّدة — أحيانًا — من بعض الضباط العاملين بالنسبة للمجندين المؤهلين ، حيث كان البعض يقولون لهم بسخرية :

* كل مُؤهَّل عندما يدخل الجيش ، يجب أن يترك مؤهله عند بوَّابة المعسكر ، ويأتى مجرد (نفر) ، حتى يعامل مثل غيره سواء بسواء .!!

حدث ذات مرة أن ذهبوا إلى أحد المعسكرات ، لأخذ فترة تدريب ، تسمى بلغة الجيش « فرقة » . وقد ظلوا يومىْ السبت والأحد دونَ عمل ، ثم عرفوا أن « البرنامج » الخاص بالتدريب ، لن يبدأ إلا يوم السبت التالى ، فقرروا — جميعًا — أن يطلبوا إجازة . كان حجم « السريَة » الخاصة بهم ، لا يتجاوز أربعين فردًا فى معكسر ، تعداده لا يقل عن ألفين ، ووجودهم فى المعسكر ليستْ له ضرورة .

طلبوا — بواسطة حكمدار السرية — مقابلة الضابط المسئول ، فأمر بإحضارهم إليه فى حجرة ضيقة إظهارًا للتكبُّر والتعالى — أمام واحدٍ منهم ، كان زميلاً له فى المرحلة الثانوية .! بدأ كل واحد منهم ، ينتحل عذرًا لطلب إجازة :

* أمى مريضة .. وأريد عرضها على طبيب .

* زوجتى حامل .. وهذا موعد دخولها مستشفى الولادة .

* ابنى مريض ، ويحتاج لإعادة كشف عند الطبيب .

* أعدّ رسالة دكتوراه .. أو ماجستير ، وأريد مقابلة الأستاذ المشرف .

* أريد أن أذهب إلى مقر العمل ، لتقديم بعض الأوراق الهامة .

تأملهم الضابط جالسًا ، وهو يشرب شايًا ، ويدخن سيجارة ، ويطرد دخانها من فمه بطريقة درامية . بعد أن استمع إلى الجميع واحدًا واحدًا .. قال لهم ، وهو يعبث بعلبة السجائر تارة ، والولاعة تارة أخرى :

* الجيش ليس مسئولاً عن مشكلاتكم الشخصية ، وفترة التجنيد كلها ملك للجيش ، والجند يجب أن يدرب على كل الأعمال ، صحيح أنه ليس لكم برنامج تدريب ، لكن عليكم أن تنظفوا المعسكر ، وتجملوا الحديقة ، ونظرًا لأنكم مؤهلون سوف أعفيكم — فقط — من تنظيف دورات المياه .!

بعد ذلك وقف متشامخًا وقال للرقيب ، الذى جاء بهم :

* انتهت المقابلة . انصراف .. يا شاويش .

عاد الجميعُ يحملون أكوامًا من الإحباط والأسى ، وهم يبحثون عن مبرر مفهوم للمنطق الصلف ، الذى يتكلم به هذا الضابط . لكن الجيش ليس فيه ديمقراطية أو مناقشة . « نفذْ الأمر .. ثم تظلمْ ».. هذا هو المنطق العسكرى . لكن كيف يتظلم الإنسان من ظالمه .؟! إن الذى ظلمك أو فَرض عليك تنفيذ أمرٍ ما ، هو الذى ينبغى أن يحولك إلى رتبة أعلى ، لكى تشكوه وتتظلم منه .!

***

مرتْ — عليه وعلى زملائه — سنةُ التجنيد هذه ، بالطول مرة وبالعرض مرات . كانوا يقضون الشهور الأولى فى فترات تدريب

صباحية ، وفى الظهر يتغدون ويستريحون ، وعند المغرب يذهبون إلى « طابور التمام » ، وبعدها يقضون الليل الطويل العريض فى مناقشات جادة حينا .. وساخرة فى أحايين كثيرة ، حول الوطن والسياسة .. والأدب والفكر .. والحاضر والمستقبل . شباب — مثل الورد — من تخصصات متعددة .. وهموم متنافرة .. ومهن مختلفة ، كما أن الكثير منهم مسلم والبعض مسيحى . كان الرابط الوحيد أنهم (دفعة) واحدة من مواليد ١٩٣٧ . معظم المناقشات كانت تنتهى حيث بدأت .. وهم مختلفون فى تقييم الثورة .. ودور مصر ، هل ينبغى أن يكون وطنيًا .. أم قوميًا ، والفن للفن .. أم للمجتمع ..؟! وتنتهى المناقشات بجملة ساخرة يرددها شاعر حزين : « أيها الوطن العزيز .. كم من الجرائم تُرتكب باسمك ..!! » .

وسط دياجير الأحزان الفكرية والنفسية ، بدتْ له بارقةُ أمل خاطفة ، حين اتفق مع مكتبة « النهضة المصرية » على طبع رسالة الماجستير . فور كتابة العقد تسلم تسعين جنيهًا .. هى كل حقوق الطبع بالنسبة له . كان هذا المبلغ (كنزًا) هبط عليه من السماء ، وحل بعض مشاكله المستعصية . كان يحس أثناء فترة التجنيد ، أنه .. متعلم .. وموظف .. ورب أسرة مع إيقاف التنفيذ . وقد عصفتْ هذه السنة القاسية بفكره .. وجعله الفراغ يتأمل كل شىء .. ويشك فى كل شىء .. بل يُسيئ الظن أحيانًا بكثير من حقائق الوجود .. ووقائع الحياة ..!!

خلال هذه السنة نفسها فى سبتمبر ١٩٦٥ .. فُتحتْ أبوابُ السجون على مصراعيْها ، وتمتْ أكبرُ حركة اعتقالات فى مصر ، حيث قُبض على

من بقى من رجال الإخوان المسلمين .. وبعض فصائل اليسار الشيوعى . وهذه واقعةٌ لم تحدثْ من قبل كثيرًا على هذا النحو المتوازى ، إذْ كان من المألوف أن يُقبض على أصحاب اليمين فقط .. أو أنصار اليسار فحسب .. أما أن يتم إطلاقُ الرصاص علىَ كل الجبهات ، فهذا أمرٌ يكاد لا يحدث فى مصر إلا نادرًا .!!

ولا شك أن النشاط المريب لأجهزة المخابرات .. وما يتبعها من فروع سرية .. وعلنية .. وسياسية .. وإدارية ، كل هؤلاء أرادوا أن يُهيئوا لعبد الناصر .. أن « قوى الثورة المضادة ما زالتْ تحلم بالاستيلاء على الحكم » . وهذه الجملة مشجب مناسب ومريح .. تأخذ به كثير من الأجهزة ، حتى تزين وتزيف للحاكم ، أنها القوى (الوحيدة) ، التى تحافظ على وجوده ، فى حين تحافظ على وجودها الذاتى بالدرجة الأولى .

ومن عجب أن عبد الناصر ــ وهو إنسان غير معصوم سامحه الله ــ استجاب لهذا كثيرًا .. ولقى كثيرٌ من رجال السياسة والدين وبعض المفكرين ــ فى عهده ــ مظالم تُذكِّر ببعض ما حدث من أنواع التعذيب فى العصور الوسطى .!!

***

أخيرًا .. جاء الفرج ، وانتهت فترة التجنيد ، وعاد إلى عمله أول إبريل سنة ١٩٦٦ .. لكن المفتش الأول ذكر له أن مدارس المدينة كلها مزدحمة ، ولا يوجد مكان إلا فى مدارس الضواحى . عندما سمع ذلك ثار فى وجهه قائلاً :

* عندما جئتُ إلى هنا أول مرة .. كنت أعمل فى أفضل مدرسة فى

المدينة . واليوم بعد أن حصلتُ على الماجستير .. وأديت الخدمة العسكرية .. بعد هذا كله تقول لى اذهبْ إلى الأرياف .!

بعد أخذ وردٍ .. وجهه المفتش إلى مدرسة فنية ، وليس إلى مدرسة ثانوية عامة ، بحجة عدم وجود أماكن . وقد رأى فى تلك المدرسة كائنات ممسوخة من المدرسين ، الذين تخرجوا من كليات فى جامعة الأزهر ، أوْ فى غيرها ، لا علاقة لها بالتدريس ، واستقروا هناك ـــ كما استقر هرم ميدوم ـــ لأنهم من القرى المجاورة . وقد اندمج هؤلاء مع أولئك سنين عددًا ، وبحكم أنهم يعملون فى مدرسة فنية ، كان العلم والتعليم آخر شيء يفكرون فيه . عندما جاء إليهم ، أحسوا أنه إنسان غريب عليهم .. وقابلوه بعدم ارتياح .. كذلك قابلهم هو الآخر بنفور شديد . أحس أنه ضحية .. وأن كل ما كان يحلم به قد تبخر .. وصار هباء . الحقيقة المرة .. هى مدرسو متحف الشمع ..!! ما فائدة القراءة .. والدراسة .. والماجستير والاستعداد للدكتوراه . ؟! كل شيء باطل .. وقبض الريح .. لا فائدة .. لا أمل . عاش فترة ضياع كامل ، واغتراب حزين .!! كانت سنة من أسوأ السنوات التى قضاها فى سلك التدريس .. بل فى حياته كلها ....!!

ظل يعمل فى محافظة بنى سويف إلى مايو سنة ١٩٦٧ . أخذ على نفسه عهدًا ـــ فى نهاية تلك السنة الدراسية ـــ إما أن ينقل إلى المنصورة بلده .. أو إلى القاهرة مركز أحلامه ، وإذا لم يحدث هذا .. أو ذاك ، فسوف يستقيل .. ويبحث عن أى عمل .. أى عمل ، يلمُّ شعثَ أسرة ممزقة ، ويضعه فى مكان ، يحقق فيه بعض بقايا أحلامه الموءودة ، ويجد فيه من

يستطيع أن يتفاهم معهم . وقد نفذ جانبًا من قراره ، واتخذ له سكنًا فى المنصورة .. وجمع شمل أسرته من جديد فى صيف سنة ١٩٦٧ .

أذكى مرارة الحسرة والحيرة فى نفسه أثناء تلك الفترة أن الأمل فى أن يعين بالجامعة .. قد تبخر .. وتلاشى ، بعد الاستمرار فى تكليف الخريجين الجُدد . لستُ أدرى ما مصيرُ العلم والتعليم ، حين يتولّى هؤلاء المعينون بأوامر تكليف — أو تفريغ — قيادة الأمور فى الجامعات ..؟!! هكذا وصل صاحبُنا إلى عتبة الثلاثين .. وهو ساخط أشد السخط على حظه التعس .. فكل ما كافح من أجله قد طار من بيْن يديه .!! الإحساس بالظلم شعور مُدمِّر ، يجعل المرءَ .. يشك فى الحياة .. والأحياء .. بل فى نفسه .. وفى علة وجوده ، ويرى أن الحياة خرافة كبيرة .. ونحن أدوات شطرنج فى يد لاعب ماهر ، لا يهدأ حتى يحطم الجنود والطوابى ويأكل الوزير والملك ، أو على الأقل يقول له « كش ملك » .!

وهذا ما حدث .. قيل له « كش ملك » . وبقيت له لعبة واحدة .. فإما أن يبقى .. أو يفنى .؟!

***

كان عزاؤه الوحيد فى هذه المرحلة .. أنه ومصر يمران بظروف بالغة القسوة ، ذلك أن إسرائيل أعلنتْ عن نيتها فى ضرب سوريا (لم يكن أحدٌ يدرى .. هل هذه حقيقةٌ مؤكدة .. أم خدعة مدبّرة — ربما من المخابرات الإسرائيلية نفسها .) عندئذ صرحتْ مصرُ على لسان عبد الناصر بأن العدوان على سوريا اعتداء على مصر . وقد نسيت مصرُ .. كل ما فعله تجار البعث العلوى وعصاباته أثناء الانفصال ، وتذكرتْ شيئًا واحدًا ،

هو الواجب القومى ..!!

مضت إسرائيل تحشد قواتها بالقرب من حدود سوريا ، و لم تجد مصر بُدًّا من حشد بعض القوات فى سيناء ، رغم أن جزءًا كبيرًا من الجيش المصرى ، كان لا يزال موجودًا فى اليمن منذ سنة ١٩٦٣ .

كان الوضع فى اليمن غريبًا .. ومقلقًا ، وتحول من مناصرة ثورة ، إلى حرب استنزاف لقدرات مصر ، وتحطيم لشعبية عبد الناصر ، ذلك أن جنود مصر ذهبوا لتأييد ثورة الجيش اليمنى ، التى تهدف إلى إسقاط حكم الإمام محمد البدر ، ورغم نجاح الثورة إلا أن البدر لجأ إلى السعودية واحتمى بها . وكانت تحت حكم الملك سعود بن عبد العزيز ، الذى بدأ يخشى من قيام جمهورية يسارية — فى تقديره — بجوار حكم ملكى محافظ . كما كانت البلدان : مصر والسعودية ، تتنافسان على زعامة الأمة .. هذه مؤيدة من الاتحاد السوفيتى ، وتلك مدعمة من الولايات المتحدة . نتيجة كل تلك الأمور المعقدة وغيرها ، تطورتْ مناصرة ثورة اليمن إلى حرب استنزاف للجيش المصرى ، الذى أرهق من قبل فى القيام بدور فى تحقيق استقلال بعض الشعوب الأفريقية مثل الكونغو .. ومساعدة بعض الدول العربية من قبل مثل الجزائر وسوريا ، وقد تأخَّر خروجُ بعض قوات الجيش المصرى من اليمن إلى لحظة قيام الحرب بين العرب وإسرائيل يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ المشئوم ، حيث حُملتْ بعض تلك القوات من اليمن إلى سيناء مباشرة .

بدأ عبد الناصر يستعد للمعركة ، خاصة بعد أن سأل المشير عبد الحكيم عامر (الذى صار أقوى شخصية ذات سلطة حقيقية ، ربما من

عبد الناصر نفسه .. بحكم تحكمه فى قيادة الجيش) عن مدى قدرة الجيش على الدخول فى المعركة . فقال قولته المشهورة ، التى صارتْ مثار سخرية فيما بعد ، وهى : « برقبتى يا ريّس » .!!

وقد أكثر عبدُ الناصر من التصريحات قُبيْل المعركة ، وأصدر عددًا من القرارات ، التى كشفتْ فيما بعد أن القرار السياسى آنذاك ، لم يكن يصدر ـــ أحيانا ـــ عن دراسة أو حكمة . أول هذه القرارات هو المطالبة بسحب قوات « الطوارىء الدولية » ، التى كانت تقف على الحدود بين مصر وإسرائيل بعد حرب ١٩٥٦ .

كذلك رفض عبد الناصر ـــ بالنسبة لإسرائيل ـــ قرار حرية الملاحة فى « مضيق تيران » المؤدى إلى خليج العقبة . بعد ذلك انتقل معظم الجيش .. وكثير من قوات الاحتياط إلى شبه جزيرة سيناء . وقد عقد عبد الناصر فى إحدى القواعد الجوية ، اجتماعًا مع الطيارين .. وأخذ بعضَ الصور الصحفية معهم ، فى استعراض درامىّ لعرض القوة ، وصرَّح بأن القوات المصرية والعربية سوف تدمر إسرائيل . وأعلن أنه لن يكون ضعيفَ الإرادة مثل « إيدن » (الخرع) ، الذى فشل فى إعداد خطة العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ .

وقد لعبتْ الصحافةُ والإذاعةُ والأغانى دورًا حماسيًا فى إذكاء المشاعر .. وإشعال العواطف .. وأعدّتْ بعض القوات المتقدمة على الجبهة الأعلام العربية ، لترفعها على المنشئات الإسرائيلية ، التى سوف تستولى عليها . وأصبح الجميعُ يدركون أن فى هذه المعركة نهايةَ إسرائيل المزعومة ، وتحطيم كبريائها المتغطرس .!!

***

كان المقدر فى البداية أن تشترك فى الحرب كل من سوريا ومصر ، لكن الملك حسين ، أعلن قبيل المعركة بلحظات معدودة ، أنه سوف يدخل الحرب تضامنًا معهما .

فى صباح السبت ٣ يونيو ١٩٦٧ .. قرأ ، كما قرأ غيره على صدر الصحف باللون الأحمر أن « الحرب خلال ثمان وأربعين ساعة » . ومعنى هذا أن الحرب لن تكون مفاجئة ، وإنما هى حرب معلومة ، تدرك جميع الأطراف أنها على وشك الحدوث ، وتستعد لها استعدادًا عالى الدرجة ، فى انتظار « ساعة الصفر » ولحظة البدء .!!

مع الساعات الأولى من صباح الاثنين ٥ يونيو .. بدأت تتوالى البيانات العسكرية من محطة « صوت العرب » بإذاعة القاهرة .. مُعلنةً بشائر النصر .. وأن طائرات إسرائيلية كثيرة ، سقطت أثناء هجومها على مصر .. وأن القوات العربية سوف تقتحم حدود إسرائيل .

مع مساء الليلة الأولى بدأت تظهر أشواك الهزيمة المُرَّة ، وبعد أيام معدودات احتلت إسرائيل هضبةَ الجولان ، والضفةَ الغربية .. وقطاعَ غزة ، وشبهَ جزيرة سيناء . وما لبث أن صدر قرار « مجلس الأمن » رقم ٢٤٢ ، يدعو إلى وقف الحرب ، وضرورة خروج إسرائيل من أراضٍ احتلتها بالقوة .

وقد غلت الدماءُ فى عروقه .. وفى عروق كل أبناء الأمة على هذا التردى السريع وتلك الهزيمة المنكرة . توجه إلى مندوب التجنيد طالبًا أن يذهب إلى المعركة ، على أساس « الرديف » .. أو التطوع ، فرفض بحجة عدم وجود اسمه ضمن المطلوبين . كان يريد أن يفعل أى شىء .. أملاً فى

دفع الهزيمة . لكن القضاء نزل ، وتمت فصول المأساة ، فعاد إلى البيت جسدًا منهكًا بغير روح .. أو قلب .. أو عقل .!! ولم يعد قادرًا على النظر فى وجه أمه ، التى شاخت وبدت على وجهها آثار هموم ثقال وسنين طويلة .!!

علت الكآبة الوجوه وحفرت الحسرةُ فى القلوب مجرى عميقًا ..!! وقعتْ الهزيمةُ المرة .. التى سُميت فيها بعد باسم « النكسة » . كان وقع هذا الحدث المأساوى فادحًا على قلوب أبناء الأمة العربية من المحيط إلى الخليج . استيقظ الناسُ جميعًا على كابوس فظيع ، مؤداه أن إسرائيل كانتْ الخنجرَ الذى استهانوا به . وها هو يكبر ويطعن الأمة فى سويداء القلب ، ويحتل أجزاء كبيرة من أربع دول عربية هى مصر والأردن وفلسطين وسوريا ، بل إن ما احتلته إسرائيل .. كان أوسعَ بكثير من المساحة التى أقامت عليها دولتها العنصرية المزعومة .!!

هيئ له ولغيره أن الهزيمة بهذا الحجم الكبير والسريع .. لا يمكن أن تكون قد تمت إلا نتيجة خيانة .. أو على الأقل نتيجة إهمال فظيع ، يصل إلى درجة الخيانة العظمى فى حق الأمة بأسرها ...!!

***

فى مساء الجمعة ٩ يونيو ١٩٦٧ أعلن عبد الناصر ، أنه يتحمل مسئولية الهزيمة وحده ، وقرر أن يتنحّى .

على الرغم من السخط الشديد ، الذى كنا نحمله لعبد الناصر — فى تلك الأيام — إلا أن هذا القرار المفاجىء أحدث صدمةً فى وجدان الكثيرين ، لحظتها قال أخوه حامد :

* هذا قرار حكيم .. كل الرؤساء إذا انهزموا يفعلون ذلك .

فرد عليه بانفعال :

* كيف يترك الحكم بعد الأزمة .. والبلد فى نكسة .؟.. من أفسد شيئًا فعليه إصلاحه .!!

خرج يجوب — فى الظلام — أرجاء مدينة المنصورة ، فوجد الناس فى الشوارع .. صغارًا وكبارًا .. نساء ورجالاً ، الكل حزين .. حيران .. قلق .. مهموم .. يرى أن الليل ليس له آخر . لم يكن أحد يدرى حجم المأساة ، لكن الجميع أحسوا عار الهزيمة .. وذل الانكسار . وزاد الطين بلة قرار عبد الناصر المفاجىء .!!

اندفعت الجماهيرُ — سواء أكان ذلك تدبيرًا أم مصادفة — تطالب عبد الناصر بالبقاء .. حتى يحقق النصر من جديد . وقد بدا له فى تلك اللحظة أن مصيبة الناس فى تنحىّ عبد الناصر ، أشدُّ من مصيبتهم فى النكسة ذاتها .

هذا هو رد الجماهير فى ٩ و ١٠ يونيو على أحداث النكسة ، وهو ردٌّ يحمل كثيرًا من مشاعر الوجدان الجمعى ، غير أنه فى ذات اللحظة رد يؤكد الإصرار على إزالة أسباب الهزيمة .

خيبتْ عودةُ عبد الناصر إلى الحكم ، توقعاتِ كل قوى الإمبريالية والاستعمار .. بل إن بعض أنصار الرجعية العربية أنفسهم ، لم يكونوا يتوقعون ذلك .!!

***

عاد عبدُ الناصر — رغمَ الجُرْح ومُرِّ الكأس — أصلبَ عودًا مما كان

عليه . وأخذ يُحاول إعادةَ ترتيب البيت المصرى من الداخل . وأعلن سنة ١٩٦٨ عن تكوين لجنة لمحاكمة المسئولين عن النكسة برئاسة حسين الشافعى ، وسُميت « المحكمة العسكرية الاستثنائية » . كان على رأس المتهمين شمس الدين بدران وزير الحربية ، والذراع اليمنى للمشير عبد الحكيم عامر ، الذى انتحر بالسم عشية النكسة . أو هكذا قيل ، فالبعض يظن أنه اغتيل . حتى لو كان ذلك صحيحًا ، فإنه يستحق أكثر من القتل .!!

وقد اتضح — دون دليل ملموس — أن عبد الناصر كان مجرد صورة أو شكل خارجى للحكم منذ الانفصال (١٩٦١) إلى حدوث النكسة (١٩٦٧) ، أما الحاكم والمحرك الفعلى لكثير من الأحداث ، فهو عبد الحكيم عامر وبعض أنصاره من قادة القوات المسلحة .

وقد دعا الرئيس السودانى إسماعيل الأزهرى إلى عقد مؤتمر للقمة فى الخرطوم ، عقد فى سبتمبر ١٩٦٧ ، وقرر المؤتمر أن : لا تفاوض مع إسرائيل ، ولا صلح .. ولا اعتراف ، لذلك سُمى مؤتمر « اللاءات الثلاث » . كما تقرر صرفُ دعم مادي لكل دول المواجهة .. وما زالت بعض الدول تصرف هذا الدعم حتى اليوم ، رغم أنها باعتْ القضية .. وتناستْ الأجزاءَ المحتلة .!!

***

تركت النكسة على مصر آثارًا سلبية ثقيلة الوطء .. وبدأ الناس يستخفون برجال الجيش ، الذين تولوا معظم قيادات البلاد العسكرية والمدنية .. ونالوا من الامتيازات ما لم يحصله أحد بالحق أو بالباطل .

ثم أعلن « بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ » ، لوضع ملامح التغيير المطلوب ، وإعادة ترتيب البيت المصرى من الداخل .. وتوقف أو كاد نشاط منظمة الشباب الاشتراكى ، التى كان يقودها على صبرى . وقد أحدثتْ تخريبًا داخليًا واسع المدى ، لأن معظم أعضائها — ظنوا أنهم إدارة مخابرات أخرى للحكومة ، ومضوا يكتبون تقارير مزيَّفة حول ما يشاركون فيه ، ومن يعملون معهم ..!!

وبالمناسبة فإن بعض أجهزة المخابرات فى هذه الفترة .. كان لها نشاط داخلى مريب وتحفظات غير صحيحة إزاء كثير من المواطنين الشرفاء . وقد أحدثتْ قدرًا هائلاً من الخراب الفكرى فى نفس المواطن المصرى ، لا تزال بعضُ آثاره مترسبةً فى نفوس بعض الناس حتى اليوم ..!!

***

هكذا كشفتْ ليالى النكسة — كما كشفتْ ليالى كربلاء — عن محن .. وانحرافات ، لا تعدُّ ولا تحصى .. ولا يُعقل حجمها . الحسنةُ الإيجابية (الوحيدة) لمرحلة النكسة ، هى أنها أخرجتْ أعمالا أدبية عظيمة فى مجال الرواية والقصة والشعر والمسرح .. بل إن ما كتب عنها من أعمال أدبية وفنية ، يفوق من حيث الكم .. ويتفوق من حيث الكيف عما كتب حول انتصار أكتوبر ١٩٧٣ .

وبمناسبة الحديث عن الأدب والفن .. فإن الأعمال الأدبية التى صدرت عن تلك الفترة وصورتها ، لا تزال قائمة وموجودة . أما بالنسبة للفن فإننا نشير إلى دور اثنين من عمالقة الغناء المصرى .. هما أم كلثوم وعبد الحليم حافظ — رحمهما الله — فقد قاما بدور كبير فى إقامة حفلات

فى معظم البلاد العربية والأوربية ، من أجل رفع الروح المعنوية لدى الجماهير .. كما أن إيراد هذه الحفلات كله ، وُجه لدعم المجهود الحربى للقوات المسلحة .

وقد لعبتْ جريدة « الأهرام » دورًا كبيرًا فى إشاعة جوّ من الثقة فى قيادة عبد الناصر ، ذلك أن محمد حسنين هيكل ، رئيس تحرير الجريدة — بعد تجديدها — كان يكتبُ صباح كل يوم جمعة مقاله الأسبوعى تحت عنوان « بصراحة » ، يعرض فيه بقدرٍ من الذكاء والدهاء ، ما يطرأ من قضايا وأحداث ، محاولا إقناع الجماهير العربية — وليس المصرية فحسب — بسداد توجهاتٍ قيادة عبد الناصر ، وإيمانه القريب والقوى بالنصر .

***

فى سياق الحديث عن « النكسة » لا بد من وقفة عند حدث جلل ، وهو ما عُرف « بمذبحة القضاء » (أغسطس ١٩٦٨) ، ذلك أن القضاء خلال تلك السنوات حكم فى بعض القضايا — التى لها قدر من الصلة بأمور السياسة — أحكامًا لم ترضَ عنها السلطة السياسية ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى ، فأثير أمرٌ جدُّ خطير ، وهو ضرورة « تسييس القضاء » ، وبكل أسف فقد أيد هذا الموقف وزيرُ العدل آنذاك . وكان هذا يتطلبُ بالضرورة فصل بعض القضاة ، الذين لا ترضى عنهم السلطة . فما العمل .. والدستور ، لا يُجيز فصلَ القضاة ، لأن القضاء ليس جهة عمل حكومى ، وإنما سلطة ثالثة من سلطات الدولة .؟! كان الحلُّ — بفتوى ليس لها سابقةٌ من قبل ، حيث صدر قرار من رئيس الجمهورية بحل كل الهيئات القضائية مدة أربع وعشرين ساعة . ومعنى

هذا أن تبقى البلادُ كلها بلا قضاء مدة يوم كامل ، وفى اليوم التالى أُعيد التعيين للجميع ما عدا (٢٨٠) قاضيًا . ومعنى هذا أنهم مفصولون أو محالون إلى التقاعد ، لأن الحكومة لا ترضى عنهم ، لأسباب خاصة من وجهة نظرها هى ..!!

وقد استمر فصلُ هؤلاء القضاة إلى ما بعد مايو ١٩٧١ ، حيث أعادهم السادات بعد حل اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى .

ولا شك أن هذه الحادثة تشير إلى (صفحة سوداء) فى تاريخ مصر الحديث ، لأن السلطة السياسية ، حاولت ـــ بالقوة ـــ أن تُسيِّس القضاء ـــ وهو مُحايدٌ بالضرورة ـــ وأن تعده مجرد مصلحة أميرية ، تحكم بما يراه الحاكم والحكومة .. وليس بما يوحيه العدل والقانون .

وهذه نكسة دستورية لا تقل عن هزيمة الحرب .. بل إن هزيمة الحرب يُمكن أن تبرر ، أما هذا التخريب الدستورى فليس له ما يبرره ألبتة ، لأن الفساد إذا ظهر ولم يُحارب ، يُصبحُ قاعِدةً .. أو عُرْفا .!!

وقد أدى هذا كله إلى أن تحرص نقابة المحامين على اتخاذ بعض المواقف الصلبة فى اللحظات الحرجة ، كما أن معظم رجال القضاء يحرصون ـــ قدر طاقتهم ـــ على الحياد والعدل ، فى المواقف المتأزمة بين الحكومة .. وفصائل العمل السياسى .

وهكذا فإن النكسة ـــ رغم مرارة الهزيمة وذل الانكسار ـــ قد كشفتْ عن كثير من عوامل الفساد السياسى والخراب الاجتماعى .

ابتسم صاحبنا ساخرًا ، وهو يقول لنفسه : « ربَّ ضارةٍ نافعة » .!!

***

وجاء مؤنس ..!!

في سبتمبر ١٩٦٧ انتقل للعمل بمحافظة دمياط ، وعمل مدرسا في مدرسة « الزرقا » الثانوية التجارية . أقام بمدينة المنصورة ، وكان يسافر يوميا من مقر الإقامة إلى مكان العمل ، وقد سجل سنة ١٩٦٦ موضوعا للحصول على درجة الدكتوراه بإشراف أستاذته د . سهير القلماوى وعنوانه : « صورة المرأة في الرواية المصرية » ، وقد اختار هذا الموضوع الجديد ليكون في مجال هوايته الأولى وشاغله القديم . إنه بهذا يصطاد عصفورين بحجر واحد .. فهو من ناحية يُعمِّق حقل الهواية ، ومن أخرى يؤصل ميدان التخصص ، لكنه بعد أن سجل الموضوع .. وجمعَ معظم المصادر والمراجع التي تتصل به ، تقاعس ـــ شيئا ما عن إكماله ـــ لأن أمل الحصول على وظيفة « معيد » في القسم قد شحب .. وتضاءل ، أمام قرارات « التكليف » لكثير من الذين تخرجوا بعده . قال لنفسه مبررا تكاسله : إذا لم يكن هناك أمل في الجامعة .. فلم التعب ووجع الرأس .. عشْ حياتك يا عزيزى ، وارضَ بما قسم الله لك .. أنت مدرس ناجح ، ورب أسرة سعيد .. فماذا تطلب بعد ذلك .؟ إذا كان الحديد يصدأ .. فكيف لا تصدأ نفس الإنسان .؟!

غير أن المصائب قد يكون لها بعض الفوائد أحيانا ، من ذلك أن الجامعة تراجعتْ عن قرارات تكليف الخريجين الجدد بعد نكسة

١٩٦٧ ، وأعلن عن خلوّ درجتينْ لوظيفة « معيد » بالقسم ، وقد أبرق له صديقه البار عبد المنعم تليمة — الذى عُين قبله بعدة سنوات فى القسم — فى صيف ١٩٦٨ يخبره بالنبأ العظيم .. الذى طال انتظاره .

سعد بالخبر سعادة لا تُوصف .. وأخذ يعدُّ أوراقه ، ثم قدمها إلى الكلية . كان عدد المتقدمين لشغل الدرجتيْن حوالى خمسين ، ورغم ذلك لم يفارقه ضوء الأمل . بعد شهور أعلنت النتيجة ، وقد حصل على الدرجتين هو .. وزميله شوقى رياض .

أخيرا .. تحقق الأملُ بعد ثمانى سنوات كاملات من التخرج . يالها من فرحة .. وياله من سعيد .!! أحس أن الله لم يتخل عنه ، وأن دعواتِ أبيه لم تذهب سُدًى ، وأن أحلام أمه البعيدة .. قد تحققت .! هل كانتْ هذه الأم قديسةً يومَ رأتْ له تلك الرؤيا القديمة .. وهو لما يزل بعدُ طفلا غريرا .؟! توجه بعد سماع الخبر لزيارة قبر أبيه .. ورؤية أمه . أحس أن ما يحصل عليه من نجاح ، إنما هو بفضل تقوى أبيه .. ودعوات أمه . شكر الله على ما هيأ له ، وقال فى نفسه : « ربِّ إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير » .!!

عاد إلى كتبه يزيل عنها الغبار ، وإلى ذاكرته يجدد فيها معالم ما قرأ ، أصرَّ على أن يواصل مسيرته ، ولام نفسه ، التى استجابت — فترة — للحظات الضعف ومشاعر الأحزان..!!

***

فى تلك المرحلة شبَّ ولداه محمد ومنى ، وأصبحا طفلينْ مشرقينْ ، يملآن البيت حركة وبركة . وقد رضيت الزوجة العاقلة بولديها .. ورأتْ

فيهما الكفاية ، حتى تستطيع أن تُحسن تربيتهما ، غير أن أمه استنكرت ذلك منها ، وأخذت تذكّرها بضرورة الإنجاب ، مرددة : « المرأة التى لا تنجب ، مثل الشجرة التى لا تثمر » .!!

كذلك رأى هو أن الاكتفاء بطفلين فى الأسرة ، قد يجعلهما عرضة للتنافس والخلاف ، فقرر — بنظرة تربوية — أن يكون لهما ولد ثالث ، حتى تكبر الأسرة ، ويختفى التنافس والخلاف — إن وُجد — بين الولدين . وقد اضطرت الزوجة للتسليم بهذا القرار ، خاصة وأن جسمها قد تعب من تعاطى حبوب « منع الحمل » . هكذا تضافرت الأسبابُ ، وتجمعت الرغباتُ .. وجاء مؤنس فى ١٥ ديسمبر ١٩٦٨ . جاء فى غمرة الفرح بتحقق الأمل .. ودخول الجامعة ، فى ليلة باردة من ليالى الشتاء ، تزامنت مع ليالى شهر رمضان الكريم . حين رأت الأم أن المولود ولد — وهى بالمناسبة تحب الذكور ، رغم أنها امرأة — قالت لابنها ، وهى تبشّره :

* ولد .. جاءك ولد يا طه .. سيكون — بإذن الله — قدم السعد عليك .

* أطال الله فى عمرك « يا وزير » حتى تربّيه بمعرفتك .

* يقول لى الناس .. يا « وزير » ، وأنا أريدهم أن يقولوا لى .. « يا أم الوزير » .

* ما تقولين يا أمى .؟

* إن شاء الله تكون وزيرًا يا بنى .!!

حيرته آمال أمه .. وشغلتْ فكره لحظةً ، حتى كاد ينسى أن يدخل

على زوجته ليطمئن على صحتها بعد الوضع . استمرأ لعبة الأحلام القديمة ، وسمى المولود « مؤنس » ، وصورة طه حسين مثله الأعلى القديم تلحُّ على مخيلته . ظن أن الدنيا قد ابتسمتْ له ، وأن الآمال قاب قوسيْن أو أدنى . شغلته النبوءة .. الجديدة لأمه . كان يدرك واعيا أنها أحلام امرأة بسيطة ، وأمانى أم فقيرة ، تتمنى لابنها الخير ، وترى أن غايةَ الأمل منصب الوزارة ، فلم لا تأمل فيه ، لابن بار بها .؟ سعد ببشري أمه .. وتمنّى أن يحققها الله ، فمن ذلك الذى لا يتمنّى أن يكون وزيرا .؟! لكن الذى يحيره أكثر — عندما تذكر هذا الموقف بعد ما يزيد على عشرين سنة من حدوثه — هو أن تلك المرأة البسيطة ، كانت قادرة على زرع الأمل فى نفسه ، وغرس دوافع الطموح فى قلبه ، وهذه « قُدرةٌ » نفتقدها اليومَ عند كثير من الأمهات المتعلمات .!!

***

قلبٌ بدون أملٍ .. جسدٌ من الروح خالٍ ، وها هى الروحُ قد عادتْ بمجىء مؤنس .. والترشيح للجامعة . وقد تواكب تجدد الآمال فى قلبه ، مع تجدد آمال الأمة فى الانتصارات الخاطفة ، التى تُوحى بها « حربُ الاستنزاف » . إن اليهود قد احتلوا سيناء كاملة ، وبنوا « خط بارليف » على الشط الغربى للقناة — التى توقف العبور فيها منذ حرب « الأيام الستة » . وأشاع اليهود أن هذا الخط هو النهاية الطبيعية لحدود دولتهم المزعومة ، وأنهم لن يسمحوا بإعادة سيْر الملاحة فى قناة السويس ، إذا لم يحصلوا على نصف إيراداتها ، لأنهم بحكم وجودهم الحالى ، يملكون

نصف القناة بالاستيلاء على الضفة الشرقية منها . وقد دفع هذا التبجحُ العاهر قادةَ الجيش ، وعلى رأسهم الفريق محمد فوزى وزير الحربية إلى أن يبدأوا ما أسموه « حرب الاستنزاف » لإقلاق اليهود فى سيناء . وقد شجعهم على هذا أن مدن القناة الثلاث قد هُجِّر معظم سكانها ، حتى يكونوا فى مأمن بعيدا عن غدر الحرب . ورغم أن هذه المناوشات والضربات الخاطفة لم تكن ذات نتائج حاسمة ، إلا أنها حققت قدرا — كان مفتقدا — من الثقة بالنفس ، لدى جماهير الشعب المصرى والعربى ، التى أصيبتْ بإحباط معنوى بالغ . وقد حدثت أثناء تلك الحرب بعضُ الأعمال الفدائية المحدودة ، لكنها كانت ذات تأثير حماسىّ كبير ، مثل ردّ العدوان عن جزيرة « شدوان » فى البحر الأحمر ، وإغراق المدمرة الإسرائيلية « إيلات » . وقد استشهد أثناء تلك الفترة المشير عبد المنعم رياض ، رئيس أركان حرب الجيش ، وهو يتفقد جنوده على جبهة القتال . ورغم محدودية أثر هذه المعارك إلا أنها فى الحقيقة شكلت المقدمةَ الضرورية لحرب أكتوبر ١٩٧٣ . وقد قامتْ وحداتٌ من الجيش بأعمال فدائية فائقة البطولة ، لم يُكشف عنها النِّقابُ بعد ، لأن الذين كتبوا بعض أحداثها بدمائهم ، ماتوا فى أثناء تسجيلها .!!

على أن أكبر دعم معنوى قومى فى هذه الأثناء ، هو نجاح ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ ، بقيادة العقيد الشاب معمر القذافى . وقد أعلنتْ الثورةُ الليبية غداة نجاحها وضع إمكاناتها لمؤازرة المعركة القادمة ، كما دعا القذافى عبد الناصر لزيارة ليبيا ، وقد تمت الزيارة ، وكان لها صدى كبير فى نفس عبد الناصر ، الذى أصيب بعد النكسة بالسكر وضغط

الدم ، وقال يومها للقائد الشاب :

* إنك تذكّرنى بشبابى ، وسوف تكون (أمينًا) على القضية القومية من بعدى .

وقد وجد الثائر الشاب فى الزعيم العجوز مثلا أعلى : مازال مخلصا لروحه حتى اليوم ، وإنْ لم يتمسك كثيرًا بمبادئه . دائما هناك فرق بين الأصل والصورة .!!

***

بعد انتظارٍ طال أمدُه .. أشرق الضوء ، وتحقق الأمل عندما استلم عمله « مدرسا مساعدا » فى قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة يوم السبت ١٧ يونيو ١٩٧٠ . لحظة تنقش فى الذاكرة ، كما تنقشُ الرسومُ على جدران المعابد .. تلك لحظة تحقق الأمل .. وماذا تكون حياة الإنسان بدون أمل ؟! إن الذين لا يحلمون ، ولا يسعون إلى تحقيق الأحلام ، ساقطون من ذاكرة الوجود .. ومنسيون من دفتر الأيام .!! هل ثمة شئٌ يجعلنا عظماءَ سوى أمل عظيم .؟! إن الأمل ليس حُلمًا رومانسيا .. بل سعيًا واقعيا ، يحقّقُ الحلمَ بالعمل .. والأمل بالكفاح والصبر ، وقد صبر كثيرا .. حتى جاء الفرجُ على مهل ، كما يأتى الفجرُ بعد ليل طال مداه .!!

من المصادفات الغريبة أن الدكتور شوقى ضيف يومها كان رئيس القسم ، وهو نفسه الأستاذ الذى تلقى على يديْه أول محاضرة فى الجامعة .

وقد طلب بعد تسلمه العمل « إجازة دراسية » لمدة سنة ، حتى يستطيع أن يكمل رسالة الدكتوراه ، ويختصر عشرَ سنوات ضاعتْ من عمره ، وهو بعيد عن الجامعة . وقد ظل طوال تلك السنة حبيسَ داره فى

المنصورة ، يعمل كل يوم وليلة ثمانى عشرة ساعة، حتى انتهى من إعداد الرسالة وطبعها .. وتمت المناقشة فى يوليو ١٩٧١ ، وحصل على درجة الدكتوراه .

هكذا استطاع أن يتحرك فى توازٍ متكافئ زمنيا ، مع معظم الزملاء الذين تخرجوا معه ، فقد كان — ولا يزال — واعيا بالزمن إلى درجة عالية الحساسية .

وقد ساعده هذا الإحساسُ اليقظ بالزمن على أن تتم ترقياته العلمية التالية فى الموعد الموقوت . إن الذى لا يدرك خطورةَ وقع الزمن بائر ومقطوع الرجاء . الجندى قد يقضى فى المعركة أياما وليالى طويلة ، لا يغفل ولا ينام ، لأنه إنْ غفل لحظة ، فقد يموت .. ويفنى من معه أيضا .!!

الحياةُ مسرحٌ كبير .. ومن يفشل فى أداء دوره ، فإن الجمهور نفسه — الذى جاء يشهد انتصاره — يكون أول من يقذفه بالحجارة . على هذا النحو من الجد والاجتهاد ، عاملَ نفسه منذ شُغل بقضية التعليم — ولا يزال حتى اليوم . وبعد أن صار « أستاذا » ما زال يعدُّ نفسه طالبَ علم ، يسعى فى درب المعرفة ، لأن العلم طريق طويل ، لا نهاية له .. يظل ممتدا إلى أبد الآبدين . قصيرة قصيرة هى الحياة .. لذلك يمضى الكثيرون دون أن يحققوا بعض ما كانوا يطمحون إلى معرفته ، ويرغبون فى كتابته . كأنما العمر سحابة صيف ..!!

***

لكن الجامعة التى هُيّيءَ له أنها برج عاجى ، متعالٍ ، بعيد عن

الصراعات والخلافات والأحقاد ، لم تكن كذلك ألبتة . فقد تصدى بعضُ الزملاء فى أوائل سنوات تعيينه — من خلال مواقف لا أخلاقية — يريدون إبعاده عن القسم ، ويكيدون له عند بعض الأساتذة الكبار . لكنه حاول بالصبر الجميل والحلم الهادئ واللسان العفّ أن يثبت لهم جدارته العلمية ، وصدق مشاعره الإنسانية نحو الخصوم والأنصار فى آن واحد ......!!

خلال تلك المعارك غير النبيلة ، لا يستطيع أن ينسى وقوف بعض الأصدقاء المخلصين بجواره .. ومنهم : عبد المنعم تليمة ، ومحمود فهمى حجازى ، والنعمان القاضى ، وأحمد شمس الدين الحجاجى ، الذين تتجاوز علاقته بهم حدود الزمالة إلى أواصر الصداقة وروابط الأخوة .. منذ كانوا طلابا فى القسم ، وهذا ما يؤكد أن الصديق القديم هو الصديق الجديد ، فالصداقة ميثاق متصل بين الأصدقاء .!!

وقد انتصر فى النهاية على كل من عاداه ، لأنه أدرك منذ البداية أن كل رسالة لها أعداء مثل « أبو جهل » ، لكن « أبو جهل » وغيره من الجاهلين ، مهما تطاولتْ نزعاتهم الشريرة ، فإنهم لا يقدرون على طمس نور الحقيقة .. حقيقة أن الإنسان الطيب الطاهر ، سوف ينجيه الله من كل حقدٍ وشر ، ليكون لمن خلفه آية ، على أن الله يدافع عن عباده المخلصين . وقد بقى طه .. ومات أحياءً كثيرون — فى حياتهم — من الذين آذوْه .. وعادوه .. « فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ..؟!! » .

***

فى أثناء تلك الفترة .. مات .. (أو استشهد) جمال عبد الناصر مساء

يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، عشيةَ مؤتمر القمة العربى الثالث ، الذى عُقد فى القاهرة ، لبحث مشكلة الوجود الفلسطينى فى الأردن ، بعد أحداث أيلول (سبتمبر) الأسود . ومن المؤسف أن عدد الذين قُتلوا .. أو اغتيلوا من الفلسطينيين بأيدٍ عربية ، أكثرَ مرات ومرات ممن قتلوا بأيدى اليهود .. وقد عُقد هذا المؤتمر لتأمين انسحاب قوات المقاومة الفلسطينية من الأردن بعد ما حدث لهم من قتل وتنكيل .!!

أحدثَ موتُ عبد الناصر صدى نفسيا حزينا فى نفوس العرب أجمعين ، خاصة وأن الميتة قد تمتْ بشكل مأساوى مفاجئ . وهذا ما عمّق إحساس الجماهير العربية بالحزن والأسى وحسرة الفقْد . و لم تتم مراسمُ الدفن إلا بعد الوفاة بثلاثة أيام ، ظلت فيها مواكب العزاء ومحافل الأحزان مقامة فى كل مدينة .. وقرية .. وشارع .. وبيت .. فى كل بقاع الأرض العربية من الخليج إلى المحيط .!!

إن عبد الناصر رجل من الرجال ، الذين احتلوا مساحة عريضة فى تاريخ الأمة ، وسوف يختلف العربُ والمصريون كثيرا فى تقويم دوره ، اختلافا يصل إلى حدّ التناقض ، بحكم اختلاف زوايا الرؤية عند فصائل المحللين .. وطوائف المفكرين . وهذا أمر طبيعى بالنسبة لقائد عظيم — مثل عبد الناصر — لعبَ دورًا فى حياة وطنه وأمته ، وفى حركة العالم الثالث أجمع . وقد يكون المصريون أنفسهم أكثر الناس اختلافا فى تقويم دوره ، لأنه حملهم الجليل من التضحيات ، حتى تفى مصر بكثير من الالتزامات الأخلاقية والقومية ، التى اضطلعت بها طوال سبعة عشر عاما .. تولى فيها الحكم (١٩٥٤ — ١٩٧٠) .

غير أن الأمر الذى لا خلافَ عليه ، بالنسبة لتراث الرجل .. هو (دوره القومى) الجسور فى محاربة أعداء الأمة . ولا ريب أن عبد الناصر فى هذا الدور يعدُّ أكبَر (بطل) قومى — فى التاريخ المعاصر — صاغ أهدافَ الأمة ، وحددها فى : الحرية والاشتراكية والوحدة ، وحاول مخلصا أن يوحِّد (الصفَّ) العربى رغم كل ما كان .. ويكون بين الأقطار من خلافات وتناقضات . إن عبد الناصر قد اختار طريقا — انفرد به عن غيره من كل الحكام العرب — وهو النضال ضد الاستعمار والإمبريالية والصهيونية ، وقبل التحدى معهم ، دون نظر إلى موازين القوى العالمية ، التى كانت تميل بشكل واضح للأطراف المعادية . وقد قبل التحدى دون أن يتأكد — أحيانا — من تأييد الجماهير العربية له ، بل ربما قبل أن يتأكد من تأييد الجماهير المصرية ذاتها لبعض ما يتخذ من قرارات ومعارك .!!

وفى تقديرى أن التقويم الحقيقى لعصر عبد الناصر وفلسفة حكمه ، ما زالا فى حاجةٍ إلى مزيد من الدراسة والتأمُّل ، لا من أجل معرفة دوْر عبد الناصر فحسب ، وإنما من أجل مزيد من الفهم للمراحل التالية عليه أيضًا ؛ لأن خطورة عصر عبد الناصر ، تكمن فى أنه وضعَ الأسس والقواعد ، التى قام عليها نظامُ الحكم وفلسفةُ النظام من بعده ، لدرجة أن كثيرًا من الشخصيات ، الذين أفرزهم عصره ، ما زالوا يقومون بدور سياسى .. حتى اليوم (١٩٨٨) ، سواء من داخل جهاز الحكومة .. أو الحزب .. أو حتى من مقعد المعارضة — إنْ جاز أن نقول إن مثلَ هذا النظام يسمحُ بوجود فعْلى للمعارضة .

كما أن ما أوجده عصرُ عبد الناصر بالنسبة لفلسفة الحكم ومبادئ النظام ، يتعدّى حدودَ مصر إلى بعض البلاد العربية — وبلاد العالم الثالث ، التى تقوم على النظام الجمهورى والحكم العسكرى .

***

وقد تولى أنور السادات رئاسة الجمهورية بعده ، و لم يكن كثيرٌ من رفقاء عبد الناصر والمقربين منه ، يرون أنه جدير بخلافته . وشكّل أعضاء اللجنة المركزية العليا للاتحاد الاشتراكى — فى بداية الأمر — غُصّةً ، وقفت فى بلعوم الرجل .!! وقد فكّروا جديًا فى مناوأته وإزاحته ، غير أن السادات كان (داهية) ، وتغدّى بهم قبل أن يتعشوا به ، وقضى على خصومه أجمعين فى ١٥ مايو ١٩٧١ .. وسماه يوم « ثورة التصحيح » . كما أن الشارع السياسى المصرى ، لم يكن مقتنعا كثيرا بالرئيس الجديد ، ولا سيما بعض مفكرى اليسار ، الذين خشوا على بعض المكاسب الاشتراكية ، التى تمت فى عهد سلفه ، من هنا بدأ السادات يناور ، ويحاول ضرب اليسار بإعطاء الضوء الأخضر لليمين ، وشجع قيام الجماعات الدينية بقوّة ، شكلت أحيانًا بعض الخلافات الطائفية مع الأشقاء المسيحيين ، و لم يكن يظن — هو .. أو غيُره — أن من بين تلك الجماعات من سيتقدم لاغتياله فى يوم ما .!!

وقد أثر كل هذا على حركة السادات السياسية فى الخارج ، لذلك شك السوفييت فى مدى وفائه لخط عبد الناصر ، وترددوا كثيرا فى مده بالسلاح المطلوب لمعركة قادمة ، وقد دفعه هذا إلى طرد الخبراء الروس فى يوليو ١٩٧٢ ، وعزل وزير الحربية المتعاطف معهم وهو المشير محمد

أحمد صادق ، وعيَّن بدلا منه المشير أحمد أسماعيل . ولم يكن أمامه سوى الغرب .. وأمريكا على وجه التحديد ، يطرقُ بابها ، ليحصل على السلاح اللازم .. وبالسعر الذى تحدده .!! ترى هل حدث هذا مصادفة .. أم أن الأمور كانت تسير بترتيب مقصود .؟!! هذا ما سوف تكشف عنه الوقائع التاريخية — إن ظهرتْ — فى يوم من الأيام .

وقد حاول الساداتُ أن يطرقَ أبوابَ الحكام الغرب ، محاولا إيجاد جسْرٍ من التفاهم ، حتى تتحقق « قومية المعركة » . فى هذه الأثناء قام السلطانُ قابوس بن سعيد بن تيمور بثورة ضد والده وعزله ، ثم تولى سنة ١٩٧٠ السلطة بدلا منه ، وكان السادات أول حاكم عربى يعترف به .. ودعاه لزيارة مصر . وكانت أول زيارة رسمية له — بعد توليه حكم سلطنة عمان — إلى مصر ، وقد حفظ السلطان قابوس هذا الجميلَ لمصرَ وللسادات .. وما زال الرجل وفيا لمصر ، حتى اليوم منذ تلك اللحظة .!!

***

البحثُ عن السكن المناسب فى القاهرة .. مشكلة أخرى صعبة ، كان عليه أن يبحث لها عن حل ، لأن وجوده بجوار العمل مطلوب بشكل عاجل وملحّ . أخذ يبحث ، ويبحث دون جدوَى . فجأة جاء إليه أحد أصدقائه وأخبره أن بجوارهم عمارة كاملة كلها للإيجار ، وبينها وبين الجامعة مِسيرة خمس عشرة دقيقة فحسب . حينَ ذهب للتفاوض مع صاحبة البيت من أجل الحصول على شقة ، أحسنتْ استقباله ، غير أنها وضعتْ أمامه شرطا صعبا ، هو ضرورة دفع مقدم « خمسمائة جنيه » ،

وهذا مبلغ كبير بالنسبة له فى نهاية سنة ١٩٧١ ، فقد استدان حتى يطبع رسالة الدكتوراه ، وهو مفلس .. وعليه بعض ديون قليلة .

حين أخبرها أن المقدم كبير ، ردتْ عليه قائلة :

* بصراحة .. إننى أصر على هذا المبلغ ، حتى أضمن مستوى محترما لسكان بيتى .

فرد مستنكرا : وهل هناك ما يؤكد حُسن المستوى أكثر من كونى أستاذا فى الجامعة ..؟!

* اسمعْ يا دكتور .. لا توجع قلبى .. الدكتوراه هذه مطلوبة بالنسبة لعملك فى الجامعة ، أما الخمسمائة جنيه .. فهى التى تؤكد لى أنك إنسان محترم فى المجتمع .

أفزعه منطقها فى التفكير ، وجرأتها فى الحديث .. وتعجب من علاقة الارتباط بين المستوى العلمى والثراء المادى . لا فائدة من الجدال معها ، فهى امرأة صارمة ، تعكس منطقا تقليديا متحجرا ، يربط بين العلم والمال ... مع أن العكس — على طول الخط — هو الصحيح .. والممكن . لكن هذا هو دائما منطق القوة .. وعلى الضعيف أن يستسلم ويقبل .. أو يرفض ويذهب ..!!

ولا شك أن هذه الفترة كانت بداية مرحلة ظهور أزمة الإسكان فى مصر ، تلك المشكلة المعقدة بشكل مأساوى ، حيث أصبح مُلاك البيوت يتحكمون فى المستأجرين ، تحكم الذئب المفترس فى الحمل الوديع . والمأساة أن الحكومة تتفرج على ما يحدث دون أن تقول (نعم) لهذا .. أو (لا) لذاك . وتفاقمت المشكلة من سيئ إلى أسوأ .. ومن صعب إلى

مستحيل ، لأن معظم الملاك الآن يميلون إلى حيلة طريفة تسمَّى « تمليك السكن » بأثمان باهظة ، غير مقدور عليها ألبتة . أكثر من هذا أن بعض هؤلاء الملاك نصَّابون .. يبيعون الشقة لأكثر من مشترٍ ، أو يسيئون البناء والتشطيب ، أو يسلمون الشقة غير كاملة التجهيز لكثير من الضروريات .

وسوف نُواجه بأزمات اجتماعية وأخلاقية رهيبة ، إذا لم تلتفت الحكومة — التى تصنع أذنا من طين وأخرى من عجين — إلى خطورة هذه المشكلة ، التى تُواجه معظمَ الشباب ، وتحُول دون نموهم الاجتماعى واستقرارهم العاطفى ، حتى يبدأوا حياتهم العملية — فى خدمة الوطن — بفكر يقظ وقلب صاف . ولا شك أن كثيرًا من شباب مصر المغتربين هنا وهناك ، خرجوا .. لأنهم لم يجدوا مأوىً يسكنون فيه ، فراحوا يؤسسون لهم بيتا ، دون بصر حقيقى بالخسائر ، التى قد تعود عليهم .. أو على بلادهم — بسبب هذا الخروج .!!

اضطر أن يأخذ مصاغ زوجته وبعض ما عند أمه .. بل لقد أخذ القطع الذهبية الصغيرة الخاصة بابنته منى ، وباع تلك الحاجات العزيزة عند صاحباتها ، واستدان من صهره وبعض أصدقائه ، لكنه لم يستطع أن يكمل سوى أربعمائة جنيه ، ذهب كى يعطيها لصاحبة البيت قبل أن ينتهى موعد الأسبوع ، الذى حددته له .. لكنها فاجأته بقولها :

* سوف أكتفى بهذا المبلغ ، لأنك أول ساكن ، وحتى أكون عادلة لن آخذ من أى ساكن آخر إلا مثل هذا المبلغ .

حيره منطق هذه الأرملة الأرستقراطية الصعيدية ، إنها من ذلك

(الجيل) الذى يتمسك بالرأى ، ويحافظ على الكلمة . قد تتفق أو تختلف فكريا أو إنسانيا معه ، فهذا ليس مهما بالنسبة له . المهم أنه صاحب رأى يحافظ عليه قدر محافظته على وجوده ذاته ، ورغم حنقه عليها .. وغيظه منها ، إلا أنه أكبرها ، واحترم صراحتها وصرامتها .

***

فى بداية صيف ١٩٧٢ نقل أسرته من المنصورة إلى بيته الجديد فى حى الدقّى ، واستقر فى القاهرة مرة ثانية ، وسوف تكون هذه النقلة نهاية المطاف بإذن الله .. فقد نال ما تمنى .. وصار « مدرسا » للأدب الحديث فى قسم اللغة العربية . وهنا تبدأ مرحلة أخرى جديدة .. شائقة .. وشائكة فى نفس الوقت . رحلة طويلة وشاقة تلك التى قطعها من قرية كفر بدواى ، إلى أن وصل إلى الدق ، وحقق أمله فى العمل بالجامعة .

وإذا كانتِ النفـوسُ كبـارًا ‏ تعـبتْ فى مُرادِهـا الأجسامُ

ما أصعب رحلة الحياة .. نخطوها خطوة خطوة ، حتى نحقق ما نودُّ ، لكن الحياة كلها تصبح تافهة عديمة الجدوى ، إذا لم يكن هناك أمل يسعى المرء من أجل تحقيقه . إنّ تحقيق الأمل تأكيد عملى لإيمان الإنسان بربه ، واعتقاد راسخ بأنه يملك إرادة حرة مريدة ، يوجهها نحو ما يحبُّ وما يريد . لا تقُلْ يومًا إنى لا أستطيع .. بل قل إنى لا أريد . الإنسان إذا أراد يصنع المعجزات .!!

تذكر وهو يجلس فى شرفة بيته الجديد ، بيت الأسرة المتواضع فى القرية .. وتذكر أباه ـــ رحمةُ الله عليه ، وتذكر أمه ـــ تلك السيدة التى آمنتْ به ، وغذّتْ فيه كل مشاعر الأمل ودوافع النجاح . أحس فى تلك

اللحظة .. أن رؤيا أمه .. وأمل أبيه ، قد تحققا ..!! ثم نظر بعد ذلك إلى زوجته الطيبة ، التى وقفت بجواره ، وهيأتْ له كل أسباب الراحة والسعادة ، حتى يتفرغ لقراءاته ودراساته ، وتأمل أبناءه الثلاثة محمد ومنى ومؤنس .. يلعبون ويمرحون — مثل الملائكة ، ويشعون بسمات من السعادة والبهجة . تساءل فى نفسه : هل أستطيع رغمَ كل ما حصلتُ من علم وثقافة وتجربة ، أن أربّى أبنائى ، كما ربّانى ذلك الفلاح الفقير الطيب .؟!!

أيقظه من شطحاته وليده الصغير مؤنس ، طالبا منه أن يقعده على رجله ، حتى يرى الشارع . حمله بيديه ، مقبلا إياه ، وهو يقول فى نفسه : تعالَ يا قدم السعد ، لقد تحقق الحلم البعيد ، عندما جئت يا ولدى الحبيب .

***

فى الحديقة ورد وطين

بعد أن عُيِّن مدرسًا للأدب الحديث ، لم يكن من حقه ـــ بحكم تقاليد القسم العريقة ـــ أن يدخل بقوة فى تدريس مواد التخصص ، فقد سنَّ القسمُ سنة علمية حميدة ، تُحرِّم على أى عضوٍ التدريس فيه ، إلا إذا كان حاصلاً على الدكتوراه . كما أن مواد التخصص ـــ داخل القسم ـــ يجب أن يقوم بها أساتذة قُدامى عهْدٍ بالتدريس ، بحكم ما لهم من خبرة ومعرفة . وهذا تقليد علمى رصين . . ترتب عليه أنه بدأ يدرس محاضرات فى عصور أدبية مختلفة لطلاب الأقسام الأخرى ، لذلك درَّسَ ـــ فى بدء حياته الجامعية ـــ كل عصور الأدب العربى تقريبا ، وعرف كثيرا من تفاصيل تلك العصور ، وما يتصل بها من قريب أو بعيد .

فى سنة ١٩٦٠ التقى مع الأستاذ الجليل الدكتور محمد مندور ، ليجرى معه اختبارًا لشغل وظيفة أدبية . . تقدَّم إليها بعد تخرجه . أخذ الأستاذ يُحاوره فى موضوعات كثيرة ، يتذكر منها الآن هذا الجزء من الحوار :

* فيم تنوى مواصلة دراساتك العليا .؟

* سوف أتخصص فى الأدب الحديث ، رغم يقينى أن دراسته أصعب من دراسة القديم .

* كيف ؟

* لأن دارس الأدب القديم ــ قد يكتفى به وحده ، ولا يهتم كثيرا بما جاء بعد الفترة التى يتخصص فيها ، أما دارس الأدب الحديث .. فينبغى أن يكون على وعى بكل العصور السابقة ، هذا بالنسبة لتاريخ الأدب . أما بالنسبة للنقد ــ ولا سيما الحديث واتجاهاته ــ فهو أشدُّ لزومًا ، لأن المادة الأدبية التى يدرسها متأثرة بقواعد هذا النقد ، وعلى ذلك فإنه ــ النقد ــ ليس وسيلة لتحليل النص فحسب ، وإنما هو فى الأساس مفتاح هام لفهمه وتذّوقه .

ورغم أن الأستاذ أعجب بكلام الطالب ، فإنه لم يظفر بتلك الوظيفة لسبب لا يعرفه حتى اليوم وقد تذكر تلك الحادثة ، ليدل بها على أن دراسة الأدب القديم أمرٌ ضرورى لمن يتخصص فى الأدب الحديث .

ولم يقتصر الأمُر على هذا فحسب ، بل إنه تصدى لتدريس محاضرات فى النحو ، والترجمة من الإنجليزية إلى العربية ، والأدب المقارن ، ونظرية الأدب ، وتفسير القرآن الكريم ومذاهب المفسِّرين ، والمكتبة العربية . وقد ساعدته تلك الفروعُ المختلفة المتصلة باللغة والأدب على أن يجوِّد أدواته البحثية والتدريسية فى التأليف والتعليم فى آنٍ واحد . إن أستاذ الجامعة باحثٌ .. معلمٌ ، ولا يمكن أن يُجيد الأمريْن كليْهما ، إلا إذا حصَّل معارفَ شاملةً .. لكل تفاصيل المجال العام الذى ينتمى إليه تخصصه .

كانت عادته دائما أن يُعدَّ موضوعاته باستمرار ، قبل أن يلقيها فى قاعة المحاضرة . يذكر أنه ذهبَ ذات مرة إلى العزاء فى وفاة والد زميل ، ولم يعد

إلى البيت إلا فى الثانية صباحا .. ورغم تعبه الشديد فإنه غسل وجهه ، وأخد يعدّ دروسه حتى مطلع الفجر . إن التعليمّ مسئولية أدبية ، وليس وجاهةً اجتماعية ، والمعلم الذى لا يحترم العلم الذى يدرسه ، لا يحترم وجوده ، لذلك قيل إن « التعليم أمانة وضمير » ، ولا سيما فى الجامعة ، إذ ليس هناك رقيب سوى (ضمير) الأستاذ ، يحاسبه عندما يدرس .. وعندما يضع الامتحان .. وعندما يصحح . فالأستاذ حرٌّ إلى أبعد درجات الحرية . لكن أليست الحرية — فى جوهرها — قيودا يضبط بها الإنسان حركته ، حتى يحافظ على استمرار مسيرته .!؟

إن التدريس ، ليس مهنةً .. أو حرفة .. يُؤديها المرءُ على أى نحو والسلام ، لكنه عملية ، تتعامل فيها مع كائن حى ، يرى .. ويسمع .. ويفهم .. ويراقب ، وبناء عليه يتّخذ (موقفًا) من المادة ومن الذى يقوم بتدريسها ، فإما أن يحب الطالبُ العلمَ والمعلم .. وإما أن يلعن الاثنيْن معا .. ويكرههما كراهيةَ التحريم . والمرءُ حين يراقبُ نفسه — بوعْي — يجد أن سر تفوقه .. أو فشله — فى مادة من المواد — يرجع بالدرجة الأولى إلى المعلم نفسه ، الذى علّمه إياها .

إن التعليم فى أية مرحلة .. وفى أى مكان ، مهنةٌ ليست مجزية (ماديا) بالقدر الكافى ، لكن الجزاء الأوفى فيها يكون عندما يلتقى المعلم بعد سنوات طويلة بتلميذ ، يعرفه .. وهو يكاد لا يتذكّره ، ويقول له : أنت أستاذى وأنا الآن بفضل تعليمك أعمل فى وظيفة كذا . هذه اللحظة التى يقبل فيها تلميذٌ على أستاذٍ بحبٍّ واحترام .. تعْدِل كنوز الدنيا عند مُعلّم صاحب رسالة .!!

المعلم الحق — أبٌ فى أعماقه — يعامل تلاميذه ، كما يعامل الوالدُ ولده ، لذلك فإن هناك رجلين فى الحياة يتمنيان أن يكون الابن والتلميذ فى منزلة أفضل من مكانتهما ، هما الوالد .. والمعلم ، و لم لا نقول إنهما الوالد المعلم .. أو .. المعلم الوالد ، فالوالد يريد أن يكون ابنه أسعدَ حظًا منه ، والمعلم — كذلك — يتمنّى أن يكون تلميذُه أنبهَ ذِكرًا منه .!!

مع نهاية سنة ١٩٧١ وبداية ١٩٧٢ عقد كثير من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات ، اجتماعات مطولة ، مطالبين فيها بزيادة الأجور ، وتعديل بعض قواعد التعيين والترقّى . ومما يؤسف له أن أعضاء هيئة التدريس بجامعات مصر كلها ، ليست لهم (نقابة) مهنية تضمهم — إلى اليوم . والحكومات المتعاقبة تأبى ذلك ، وترفضه بشدة توجسا من مخاوف تجمُّعهم . ومن عجبٍ أن الحكومة تأتمنُ الجامعةَ على وضع خُطط المستقبل ، وبرامج التنمية ، وتربية الشباب ، وتعليم الأجيال ، وتخشى — فى الوقت نفسه — من تجمعهم ، لكى لا يكون لهم رأى فى أحداث الوطن . وهذا منطق غيرُ مفهوم .. وغيرُ مبرر .. سوف تكون له عواقب جد وخيمة ، إذا لم تستجب القيادات السياسية ، والتنظيمات الدستورية لهذه الدعوة العادلة ، دعوة أن يكون لأعضاء هيئات التدريس بالجامعات (نقابة) خاصة بهم .

وقد تمخضتْ عن هذه الاجتماعات عدة قرارات هامة — صدرت فى النصف الأول من سنة ١٩٧٢ — من أهمها :

١ — تحديد الدرجات التى يعامل بها أعضاء الهيئة التدريسية على النحو التالى : معيد — مدرس مساعد — مدرس — أستاذ مساعد — أستاذ .

وقد ترتب على هذا :

أ) إنشاء وظيفة جديدة ، لم تكن موجودة من قبل وهى درجة « مدرس مساعد » .

ب) المساواة بين الأساتذة ، وإلغاء درجة « أستاذ كرسى » ، التى كانت تُحدث قدرًا من المشكلات بين الأساتذة .

٢ — تتم الترقيةُ للدرجات الأعلى دون « إعلان » ، وإنما عن طريق « الترفيع » والترقية الداخلية ، بناءً على موافقة مجلس القسم والكلية والجامعة . وقد حقق هذا القرار قدرًا من الاستقرار النفسى والوظيفى لدى أعضاء هيئة التدريس .

٣ — رفع بداية مربوط كل درجة من درجات الكادر الجامعى ، بنسبة معينة .. مع رفع قيمة العلاوة الدورية سنويا .

٤ — حُددت مدةُ الترقية إلى الدرجات الأعلى ، بحدّ أدنى قدره خمس سنوات فى الجامعات القديمة ، وأربع سنوات فى الجامعات الإقليمية ، التى مُنحت هذه الميزة تشجيعًا لهجرة أعضاء جدد إليها . ومما يدعو للعجب أن هذه (الميزة) لا تزال ساريةَ المفعول ، فى حين ينبغى أن تزيد مدة الترقية الآن — فى تلك الجامعات — سنة عن الجامعات القديمة ، لتصبح مدة الترقى فى الجامعات الإقليمية ست سنوات ، أملا فى مزيدٍ من تجويد أبحاثهم وأعمالهم العلمية .

وكانتْ هذه القرارات — فى حِينها — تمثِّل (طفرة) بالنسبة لقانون تنظيم الجامعات . ولا ريب أن اللوائح التنظيمية لشئون الجامعات ، يجب

أن يعاد النظر فيها بشكل مستمر ، بناء على توصيات أعضاء هيئة التدريس أنفسهم ، من خلال (نقابة) تُعبِّر عن مصالحهم الفئوية ، كما تعبر عن آمالهم الخاصة فى تطوير مؤسساتهم الجامعية .!!

***

فى أثناء ممارسته للعمل فى الجامعة ، صار حتْمًا عليه أن يكون متابعا بشكل يقظ ومستمر لحركة الواقع من حوله ، وهو ــ مثل كل مصرى ــ شغوف بالسياسية وأخبارها ، لأن إنسان العصر الحديث ، يمكن أن يُعرَّف بأنه « كائن مُسيَّس » ، لأن السياسة ــ اليوم ــ تتحكم فى كل خطوة يخطوها الإنسان فى الحياة .

وقد أدرك ــ بعد ما سُمى بـ « ثورة التصحيح » فى ١٥ مايو ١٩٧١ ــ أن هناك أحداثا خطيرة ، تقع فى وطنه .. والفاعل فيها دائما مجهول . أول تلك الأحداث هو «إحراقُ دار الأوبرا» فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧١ .. ثم تلا ذلك بمدة إحراقُ «قصر الجوهرة» بالقلعة ــ وهو قصر محمد على ، الذى كان فيه تراث بيته الخاص».. لكن من يكون وراء تلك الجرائم الحضارية البشعة ، ثم كيف تعجز أجهزة الأمن عن ضبط الجناة .؟!

ثمة اتهام معلوم يمكن ذكره ، هو أن الجناة أرادوا أن يزعزعوا ثقة الناس فى الحاكم والحكومة ، ويظهروا أن ليست لهما هيبة أمام المجتمع المحلى والعالمى . لكن التحليل .. والتعليل .. لا يكتفيان بهذا التبرير وحده ، فقد كان فى مقدور الجناة .. أن يحرقوا شركة ، أو مصنعا ، أو أية مؤسسة عادية ، وقد تكون الخسائر المادية هنا أفدحَ ، وأكثر تأثيرا فى حياة

الناس ، ويمكن القول : إن هناك ماسًا كهربائيا أو أن الحارس أهمل . وسوف يُسلِّم الجمهور بما يُقال — إن صدقا وإن كذبا .. طائعا .. أوْ مُكرها ..!!

غير أن الأمر فيما يبدو أخطر من ذلك ، لأن أمثال تلك الأمور ، ليست أحداثَ شغبٍ وأعمال فتنة فحسب .. إنْ هى فى الواقع إلا جرائم متعمدة فى حق تاريخ مصر .. وتراثها الحضارى . فمن يكون إذن ذلك الخائن الذميم ، الذى ارتكب تلك الجرائم ، وأى أيدٍ حركته نحو هذه الأعمال اللا أخلاقية .. واللاحضارية .؟!!

ومن العجب العجاب أن فاعلى أمثال تلك « الكبائر » لمُ يكشف النقابُ عنهم حتى اليوم ..!! إن هؤلاء الجناة — فى الغالب — لم يقصدوا التخريب المادى لهذه المعالم الحضارية الجليلة وإنما حدث ذلك — كما نظن — من أجل سرقة ذلك التراث الحضارى .. وبيْعه فى سوق النخاسة ، والفاعل ليس فردا بعينه .. وإنما عصابة .. ولها شيخ منسر .!!

إن مصر أعظمُ بلد لها آثار وتراث ، لأن حضارتها تعود إلى سبعة آلاف سنة ، وهى أقدم بلد متحضر فى تاريخ البشرية ، لذلك تُسمَّى « أم الدنيا » ، لأنها أول بلد فى العالم أدرك الحضارة والمعرفة والتمدُّن والتديُّن . وهى تملك — على الأقل — (ربع) آثار العالم كله بالنسبة للآثار القديمة ، كما تحتوى على ما يقرب من (نصف) آثار التراث الإسلامى . أينما توجه نظرك شطر أى مكان فى مصر ، فإن ثمة آثارًا .. وتراثًا ، فوق الأرض .. وتحت الأرض ، لأن كنوز التراث المصرى ، لما

تكتشف كل معالمه بعد ، رغم كثرة ما كشف منه .. حتى اليوم .!!

رعاك الله يا مصر .. يا مهد الفراعنة .. ومعلمة اليونان والرومان . مصر يا صهر إبراهيم الخليل ، وخئولة إسماعيل .. يا مهد موسى وهارون ، وحاضنة المسيح وراعية أمه العذراء ، مصر .. يا جامعة العروبة ومحراب الإسلام .

مصر .. يا مصر .. يا مقبرةَ الغزاة .. يا هازمةَ التتار والصليبيين ، والفرنسيين والإنجليز ، والوارثين — زورًا — مزامير داود ونجمته .

مصر .. يا دار السلام .. لقد باركك الرحمن فى القرآن .. « وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

يا مصر .. تباركتْ أرضُكَ ، وصفت سماؤك ، وفاض نيلك ، وعظُم عطاءُ شعبك ، الذى تحمل ما لم يتحمله شعب .. فى القديم أو الحديث .

ملعون .. ملعون يا مصر .. كل من سولت له نفسه أن يمسَّ تراثك ، أو أرضك ، أو شعبك ، لأنك منارةُ العالم .. التى قد تستغنى بنفسها .. ولكن ليس ثمة شعبٌ فى الوجود يستغنى عنها .. ولا يحج إلى أرضها الطاهرة .!!

***

بدأ العامُ الدراسى فى أكتوبر ١٩٧٢ ، وعندما فُتحتْ أبواب الجامعة بدأت المظاهرات تشتعل .. ومجلات الحائط تنتشر . فقد شك الكثيرون فى جدية الاستعداد للمعركة ، خاصة بعد طرد الخبراء الروس ، وتوتر العلاقات مع السوفييت ، الذين يشكلون المصدر الأول لتسليح الجيش المصرى . كما أن السادات أغضب الروس ، ولم يستطع أن يكسب وُدَّ

الأمريكان ، بالتالى فإن الجيش سوف يكون بلا سلاح .. ولن تقوم للمعركة قائمة . بالإضافة إلى أن حرب الاستنزاف التى بدأت فى أواخر عهد عبد الناصر توقفت تماما . كذلك وضح جليا لمراقب الشارع السياسى أن كل المبادارت المقترحة لحل سلمى ، قد باءت بالفشل[1] . ومعنى هذا استمرار حالة اللاسلم واللاحرب .. وليس ثمة أمل فى خروج اليهود .

بالإضافة إلى أن بعض السلع التموينية لم تكن متوفرةً فى السوق ومعدلات الأسعار فى ازدياد ، ثم هناك حركة اعتقالات واسعة — فى صفوف السياسيين الناصريين — تمت بعد حركة ١٥ مايو ١٩٧١ ، ولم ينسَ الكثيرون تهديدات الحاكم عشيةَ ذلك اليوم ، حين هدد بأن « يفرم » كل من يحاول الخروج أو المعارضة .!!

كل هذا وغيره جعل الكثيرين ، يشكون فى إمكانية قيام حرب لردّ العدوان ، من هنا قام الطلاب بمظاهرات شبه يومية ، ينادون بالحرب .. ويطلبون من الحكومة أن تحدد موقفها من المعركة ، خاصة بعد أن أعلن

---

(١) أهم المشاريع التى طُرحت لحل القضية — سلميا — هى :
— مشروع وزير الخارجية الأمريكى « روجرز » فى ٩ / ١٢ / ١٩٦٩ .
— مشروع السادات فى ٢٨ / ١٢ / ١٩٧٠ .
— مشروع إسرائيلى مقدم إلى « يارنج » فى ٨ / ١ / ١٩٧١ .
— مشروع مصرى مضاد بتاريخ ١٨ / ١ / ١٩٧١ .
— مشروع منظمة الوحدة الإفريقية فى ٢٢ / ١ / ١٩٧١ .
— مشروع الملك حسين فى ١٥ / ٣ / ١٩٧٣ .

السادات نفسه أن هذا العام « عام الضباب » .

كانت المظاهرات — أحيانا — تمر قريبة من قاعات الدراسة ، ويهيب الطلاب بالأساتذة ، حتى يشاركوهم فى العمل الوطنى ، لكن معظم الأساتذة ظلوا يلقون دروسهم . وقد دفع زعيم جماعة من جماعات التظاهر إلى أن يصيح :

يا أساتذة ساكتين ليه .. إنتم خايفين والا إيه .؟!

خرق النداءُ أذنه .. كما يخرق مسمار ملتهب قرصَ زبدة . ودارت به الأرض .. وانخلع قلبه حزنا وحسرة على موقفه السلبى وموقف كثير من زملائه . فجأة دخل طالب مستأذنا ، وطلب منه أن يسمح لطلبته بالمشاركة ، أومأ برأسه علامة الموافقة ، لأنه لم يكن فى حالة تسمح بأن يقول شيئًا .

تحولت الجامعة إلى ميدان للتظاهر اليومى .. وليس للدراسة ، وقد دفع هذا قوات الأمن إلى أن تتصدى للطلبة ، وتحول بينهم وبين الخروج من حرم جامعة القاهرة ، وأحاطتْ قواتُ الأمن بأسوار الجامعة ، وقذفوا الطلبة بالقنابل المسيلة للدموع .. واشتعلت معركة حقيقية .. الطلبة يهتفون ، ويقذفون بالحجارة .. وجنود الأمن يلوّحون بالعصى الغليظة ، ويرمون القنابل ، وهم يلبسون الخوذات ، ويحتمون بالدروع .

يوم أسود رهيب ..!! حُوصر الأساتذة والطلبة داخل الجامعة ، طوال ذلك اليوم — يوم « الأربعاء » الحزين من أيام ديسمبر سنة ١٩٧٢ .

وقد استطاعت أجهزة الأمن بوسائلها الخاصة ، أن تعتقل كثيرا من زعماء الطلبة ، وأودعتهم السجون لفترة طويلة ، حتى يكفروا عن

جريمتهم فى « حبِّ الوطن » ، وكان معظم هؤلاء الطلبة من اليسار ، الذى سماه السادات : « اليسار المغامر » . ومما يؤسف له أنه عندما بدأ التحقيق معهم ، شهد عليهم بعض أعضاء هيئة التدريس — الذين تدربوا فى التنظيم الطليعى ومنظمة الشباب ، وصاروا عيونا مخلصة للتخابر .! وقد أغلقت الجامعة فترة طويلة بعد تلك الأحداث .

***

فى مارس ١٩٧٣ .. كان كثير من هؤلاء الطلبة لا يزال معتقلا ، رغم قرب موعد الامتحانات . وقد رأى بعض الأساتذة والكتاب أن يقدموا التماسا لرئيس الجمهورية للعفو عن الطلبة المعتقلين . وقد نُشر هذا الالتماس فى بعض الصحف العربية خارج مصر .. وكان له دوىٌّ إعلامى كبير ، لكنه جعل السلطة تزداد غيظا من الموقعين على البيان . وقد لام السادات توفيق الحكيم فى خطاب عام ، لأنه وقَّع على هذا البيان ، الذى تزامن مع كتابه « عودة الوعى » . وهذا ما يؤكد أنه ينتقد فى الكتاب طريقة الحكم المستبد — بصفة عامة — وإن كان معظم نقده موجها مباشرة إلى عصر عبد الناصر .

بقى هؤلاء المحتجزون فى السجن حتى موعد الامتحانات ، وقد ذهب ذات مرة (مايو ١٩٧٣) ، ليشرف على امتحان طالب منهم فى « ليمان طرة » . كان مشهدا مؤثرا .. لن ينساه أبدا . فبعد التفتيش .. والدخول .. وأخد الإذن من المأمور ، ذهبَ إلى الحجرة . عندما دخل سلم على الطالب وعانقه — فهو يعرفه جيدا ، وإن كان فى قسم آخر غير قسمه ، وهو شاب ذكى .. مثقف .. متوقد حماسة .. ووعيا . أحس

نحوه بحب وتعاطف شديدين ، تمنى أن يكون ولده محمد فى مثل وعى ذلك الشاب ، وأن يكون إيمانه بالوطن مثل إيمان ذلك المناضل العنيد .

كانت السنة ما بين أكتوبر ١٩٧٢ وأكتوبر ١٩٧٣ سنة مقلقة محيرة . لم يكن ثمة أمل للجميع — رغم كل ما يقاسون — سوى أن تقوم الحرب .. وأن يُطرد المحتل الغاشم الجاثم خلف خط بارليف المنيع .

رغم كثير من السلبيات الموجودة داخل الإطار العام للواقع المصرى فى تلك الفترة بسبب ظروف الحرب القاسية ، إلا أن القيادة المصرية آنذاك نجحتْ فى أمرٍ لا يجوزُ نكرانهُ ، ولا يصحُّ السكوت عنه ، وهو أنها استطاعت أن تقوّى ، الجسورَ التى تربط مصر بشقيقاتها العربية ، وأن تتبادل معها الحوار بشكل إيجابى متواصل . إن معركةَ أى قطر عربى هى فى الحقيقة معركة قومية .. بحكم وحدة الأمن القومى وميثاق الدفاع العربى المشترك . وقد تجمع الصف العربى حول مصر فى هذه المرحلة وقويت العلاقات بدرجة طيبة . كانت هذه الخطوة محسوبةً بدقة ، تفرضها طبيعة الظروف القاسية .. وقد استجابتْ لها الحكومات والشعوب العربية استجابةً صادقة . وكأن طبيعة هذه الأمة لم تزل على عادتها ، التى افتخر بها الشاعر العربى القديم[1] ، حين قال :

---

(١) قُرَيْط بن أُنَيف من بنى العنبر ، وهو شاعر قديم مغمور . وقصيدته هذه هى أول نصّ فى : ديوان الحماسة .. لأبى تمّام الطائى .

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيْه لهم ... طاروا إليه زُرافاتٍ ووحدانا
لا يسألونَ أخاهم حينَ يندبُهم ... فى النائباتِ على ما قال بُرهانا

***

مضت السنة الدراسية بطيئة كئيبة ، فقرر أن يقضى جزءا من عطلة الصيف بعيدا عن القاهرة . فى أوائل يوليو ١٩٧٣ أخذ أسرته ، وذهب إلى القرية لزيارة أمه .. وإخوته .. وأسرة زوجته . مضت سيارة الأجرة نحو القرية ، والحزن جاثم فى أعماقه ومسيطر على مشاعره ، بدرجة مأساوية أحس معها أن كل شىء صار حزينا فى مصر .. الحقول والمزارع .. النهر والترع .. المحلات والمصانع .. البيوت والشوارع .. الرجال والنساء .. حتى الأطفال الأبرياء . ثمة حزنٌ أليم ، يعتصر الجميع .! النكسة جعلت كل شىء أسود .. لا طعم له ، وحالة اللاسلم .. واللاحرب طالت بدرجة جعلت الكثيرين ، يرون أن الحديث عن المعركة ضربٌ من الأمانى والأحلام البعيدة . مصر التى تحدت الزمنَ سبعةَ آلافِ سنة ، وأثبتت من خلال الجغرافيا البشرية عبقرية الإنسان والمكان ، تئن تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلى لبوابتها الشرقية .. سيناء .. أرض القمر ، التى حجَّ إليها كثير من الرسل والأنبياء ، وباركوا أرضها المقدسة .

مضت السيارةُ سريعة بدرجة أحسَّ معها أن القرى متداخلة ومتعانقة ، كأنما أصبحتْ مصرُ كلها « قرية كبيرة » ، تفصل بين أحيائها شوارع من الخضرة وجسور من الماء . وهذا مفتاحٌ من أهم المفاتيح ، التى تبرر كثيرا من سمات شخصية الإنسان المصرى ، ألا وهو

التقارب ، الذى يجعل المصريين كلهم وحدةً متماسكة ، لهم ثوابت معينة فى الفكر والسلوك . وهذا التقارب المكانى يُقرِّب — بالضرورة — بين السمات الفكرية والنفسية ، التى تجمع المصريين كلهم : مسلمين ومسيحيين ، لأن الدين لله .. والوطن للجميع . وهذا الوطن المتقارب المتحد .. هو الذى يجعل المصرى ، أكثر البشر قاطبةً التصاقا بأرضه .. وشوقًا إليها — مهما طالت غيبته . وهذا الالتصاقُ بالأرض .. وبالبعض ، هو الذي يجعله أيضا مُسالِما طيبَ المعاشرة فى أوقات السلم ، ومحاربا جسورا فى لحظات الحرب والتحدى .!!

إن معجزةَ مصر .. تبدو — أكثر ما تبدو — فى وحدة شعبها ، وتلاحمه الأزلى عبرَ العصور ، و لم تُفلحْ قوةٌ ما أن تفسد بينَ طوائفه وجماعاته . إنها « المعجزة المصرية » القائمة على التقارب والاتحاد — شامخة .. شموخ الأهرام والآثار ، لتؤكد للعالم كله .. أن جميع المصريين .. عقلا واحدا .. وقلبا واحدا .. ويدًا واحدة . وهذه المعجزة المصرية — تمنحُ المصرىَّ قدرًا من الثقة الزائدة بالنفس ، الذى يصل — أحيانا — إلى درجة الاستهتار ، بشأن بعض المشكلات التى تواجهه ، لأنه — طوال عصور تاريخه — قد تخطى مشكلات ومعجزات ، لا يقدر على تخطيها غيره ، وحقق معجزات .. لم يستطع أن يفعلها سواه . فهل يمكن أن تستمر المعجزة إلى الأبد يا أبناء مصر .؟!

***

— فرحوا بالأم وفرحتْ بهم .. وشُغلت بالأحفاد .. أكثر من الأبناء . إن هذه الأم تفعل بالفطرة أعمالا ، لا يقدر على فهمها .. وتعليلها .. إلا بعد

تأمل .. وحيرة أحيانا . الأحفاد هم المستقبل ، لذلك تحتفى بهم حفاوة بالغة ، وتدللهم تدليلا زائدا ، وهى تردد « أعز الولد .. ولد الولد » ، شاخت أمه وكبرت .. لكن قلبها مازال قادرا على العطاء .. وعقلها مازال فياضا بالحكمة . لقد مات للأم ابنها .. وزوجها .. وتفرق عنها أبناؤها .. لكنها لم تفقد الأمل فى يوم من الأيام ، وها هى تضاحك الأطفال .. وتداعبهم ، بدرجة أنستهم الأب والأم معا .!!

تأملها فى حزن .. وهو يرى بياض الشعر يغزو مفرقيها ، تساءل فى نفسه : أليس ثمة علاقة بين هذه الأم الحبيبة .. وبين الأم العبقرية مصر ... أم الجميع ، بل « أم الدنيا » .؟!

التقى فى القرية .. بأخيه مصطفى .. وبأخته زينب .. وببنات عمه اللائى يعزهن جميعا معزة الأخ الشقيق . من عجب أنه يحسُّ مع بنات عمه بأخوة حانية .. بعد أن فسدت العلاقة قدرًا ما بينهن وبين إخوتهن الذكور ، لأن الوالدين .. ظلما البنات ظلما بيِّنا فى الميراث ، فقد أوصى العمُّ بأن يكون معظم ميراثه للذكور ـــ دون الإناث ، هكذا كان «العم» ـــ رحمه الله ـــ صعبا فى حياته ومماته .. قاسيا حتى على بناته .!!

كان أبناؤه .. وأبناء إخوته يتنقلون معه من بيت إلى بيت ، ويملأون المكان حركة وصياحا . تعجب كيف استطاع جيلُ الأبناء ـــ الذى ينتمى إليه ـــ أن ينجب كل أولئك الأطفال ، فى تلك المدة الزمنية القليلة .؟!

شكلتْ ـــ فى رأيه ـــ كثرةُ النسل جانبا آخر من جوانب « المعجزة

المصرية » ، التى ما برحت تلحُّ على مخيّلته . فى مصر كل دقيقة يولد طفلان ، أليس هذا أمرا عجيبَ الشأن .؟! إن هذه الخصوبة فى التناسل تعكسُ — بلا ريب — جانبا هاما من جوانب قدرة مصر على التواصل والتحدى . سوف يملأ هذا النشء الجديد .. كل أنحاء مصر فى المستقبل خيرًا وبركة ، بل إنه سوف ينتشر فى كل الأنحاء ، ليشارك فى بناء كثير من الدول والأمم ونشر العمران فيها ، لذلك يسافر أبنــاء مصر .. ويهاجرون .!!

أحس قدرا من الأمل — حين تذكّر الحرب .!! لا شك أن هذا الجيل سوف يقطع دابر العدو .. وإن لم يستطع فإن الأجيال المتلاحقة ، تشكل رصيدًا استراتيجيًا لقدرة مصر على البقاء والتحدى ..!!

***

كان يحس غُربة حادة ، حين يسير فى شوارع القرية وحواريها . كيف تغيرتْ القريةُ إلى هذا الحد .؟! معظم الأشياء مازالت على حالها .. إذن فمن الذى تغير ؟! لقد انقطعتْ علاقتُه بالقرية — على نحوٍ ما — منذ وفاة والده — وسفره إلى القاهرة . لكنه يحس الانتماء والاغتراب فى آن واحد . عندما يحل فى القرية ، يدرك واعيا أنه ابن هذه الأرض .. ويتمنى أن تكون القرية أفضل مما هى عليه . لكن كيف تتغير القرية — وهى مثل أمه — كلما ربَّتْ ولدًا وعلمته .. ذهبَ ومضى بعيدا .؟!

إن القريةَ فى مصر عالمٌ .. والمدينة عالم آخر .. فمتى تتقــارب المسافاتُ بين العالمين .. وتصبح القرية مجتمعا حديثا .. متحضرا .؟ عندما تتم حركة التحديث هذه .. فلن تكون القرية مهد إعداد للبشر

فقط ، وإنما سوف تكون البداية والنهاية .. وتحتضن كل أبنائها ، ليقيموا على أرضها ... وتحول دون جذب المدن القريبة .. والغريبة لهم .!!

أيتها القرية العزيزة .. فليشرّق الأبناءُ أو يغرّبوا ، ويعمروا الأرض هنا أو هناك .. وليؤدوا رسالتهم فى الحياة فى أى مكان .. لكنك — دائما — البدء والختام .. المولد والمدفن .. وهذا يكفيك فخرًا وانتصارا .!!

فى القرية يطيب له دائما أن يجلس مع من تبقى من أصحاب والده .. أو ممن عايشوه وعرفوه ، كان يبحث فى جلساتهم عن سرّ قدرة ذلك الجيل السابق على الاستمرار والبقاء والتواصل . لقد حدثتْ فى القرية أشياءُ جديدة بالنسبة لهم مثل : الجمعيات التعاونية — والتسويق الزراعى — وتحديد الدورات الزراعية — وكثرة عدد المتعلمين والموظفين — وتطور الوعى الثقافى والسياسى — وزيادة عدد المجندين من الشبان المؤهلين — وهجرة كثير من شباب القرية إلى المدن — وسوء الحالة الاقتصادية — وغياب بعض المواد التموينية ... لكنهم رغم كل تلك الأزمات والمشكلات ، كانوا يلحون على سؤال واحد لا يملك له إجابة :

متى ستقوم الحرب ، التى من أجلها نحن محرومون من القوت ، وخارسون من الصوت .؟!

كل شىء مؤجل من أجل المعركة ، ولكن أين هى .. وكيف السبيل إليها .. ومتى .....؟!

***

يوم « الغفران » الملتهب

مع نهايات سبتمبر تدنبه الحياة فى أرجاء مصر قاطبة ، إنه موسم بدء العمل فى المدارس والجامعات ، حيث يوجد حوالى خمسة ملايين طفل وصبى وشاب يدرسون ، بدرجة تستطيع معها القول بأن كل بيت فى مصر ، يتأثر بشكل أو بآخر بهذا الموسم ، لذلك تعطى الحكومة المصرية الموظفين ــ أحيانًا ــ منحةً مالية سنوية فى هذا الموسم ، لتخفيف بعض الأعباء عن الآباء .

كان الواقعُ المصرى قلقا إلى درجة الهدوء ، الذى لا يبشر بعاصفة على نحو ما ، فالمبادراتُ السياسية لحل الأزمة ــ بين مصر وأمريكا ــ قد باءتْ كلها بالفشل ، والروس ــ الذين يُعوَّل عليهم فى قيام معركة ــ العلاقة بينهم فى الظاهر ــ على الأقل ــ شبه مقطوعة أو متوترة بعد طرد الخبراء الروس سنة ١٩٧٢ . أما إسرائيل فقد حصنتْ احتلالها العسكرى لسيناء بمانِعَيْن يستحيل اجتيازهما ، الأول : طبيعى.. يتمثل فى قناة السويس ، التى تحولت إلى بركة راكدة ، حيث أُغلقت بعد حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ ، والثانى صناعى .. خَطط له قائد عسكرى ، وسُمى باسمه ، وهو .. « خط بارليف » ، وقد أسس بطريقة أسطورية ، ودعم ــ بالإضافة إلى البناء المسلح ــ بأعمدة ضخمة من الحديد ، وكميات هائلة من الرمال السائلة ، أو المعبأة فى

أجولة ، ولفات لا تُعدُّ ولا تُحصى من الأسلاك الشائكة ، وقد أقيم على الشط الغربي للقناة مباشرة ، حتى يسمح بدقة المراقبة من ناحية ، ومن أخرى يشكل عقبة أخرى أشدَّ صعوبة واستحالة ، لو فكر المصريون ـ ذات يوم ـ أن يتطلعوا إلى استعادة سيناء ..!!

وقد نجحت القيادة العسكرية المصرية في عمل تعتيم إعلامي حول الواقع الحقيقي لحركة الجيش ، وإمكانية حدوث المعركة ، وبدأت حملةُ تضليل واسعة النطاق ، سواء بالنسبة لحركة القوات على شط القناة .. أو بالنسبة للتصريحات العسكرية ، التي كانت تُنشر داخل مصر وخارجها ، وكلها تشكك في إمكانية حدوث حرب ، بل يبدو أن الحديث العالي الصوت عن طرد « الخبراء السوفييت » كان جزءًا من هذا التضليل المتعمد . وقد تسربتْ هذه الأخبار من مصر إلى الخارج بسرعة ، فقد كتب مراسل صحيفة « الفيجارو » الفرنسية من باريس يوم ٨ ـ ٢ ـ ١٩٧٣ : « تجتاح مصرَ الفضائحُ والمرارة والإحباط ، ويمضى ضباط الوحدات العسكرية على قناة السويس يومَيْن من الأسبوع فقط في الجبهة ، وبقية الوقت في التسلية في القاهرة بتصاريح إجازة مزيفة . وقد حضرتُ مراسيم جنازة لواء مصري ، شارك فيها عشرات من ضباط الجيش الكبار ، كانوا يسيرون دون اتساق ، وينتعل الكثير منهم أحذية التدريب ..... وقد قال لي ملحق عسكري أجنبي : « لم يكن هذا الجيش قط مُصابًا مثل الآن ، فلم يعد لديْه عبد الناصر ، ولا مستشارون سوفييت ، ولم تعد فيْه روح » ..!!

كذلك كتب مراسل صحيفة « واشنطن بوست » الأمريكية في

٢٦ ـــ ٣ ـــ ١٩٧٣ ... « كان نظامُ الدفاع الجوى المصرى مكشوفا لهجوم إسرائيلى من خلال فشل شبكة الرادار المصرى فى كشف طائرة الركاب الليبية ، عندما حلقتْ فوق منطقة عسكرية مغلقة فى الجانب المصرى من القناة قبل تسللها إلى سيناء ، وظهر أنه مازالت هناك نقاط ضعف كثيرة فى نظام الدفاعات الجوية المصرية ، على الرغم من عودة مئات من الخبراء السوفييت فى الشهور الأخيرة ، وإعادتهم لجزء مهم من تجهيزات الرادار ووحدات الصواريخ المتحركة ، التى أخذوها معهم عندما غادروا .... » ظلت أمثال تلك التصريحات المخدرة مستمرة فى وسائل الإعلام الغربية حتى قبيل الحرب ، فقد نشر مراسل « لوموند » الفرنسية فى ٢ ـــ ٩ ـــ ١٩٧٣ تقريرًا جاء فيه :

« إن عددا كبيرا من ال ٥٠٠ ـــ ٦٠٠ ألف جنـدى مصرى ، المعسكرين فى جبهة قناة السويس ، ليسوا جنودا مقاتلين ، ولا تتوفر فيهم القدرة على القتال ، وإنما على القيام بخدمات خرقاء مختلفة ... ولا يستطيع الجنود الشبان ـــ الذين جندوا مؤخرا فى مصر ـــ السيطرة على العتاد السوفييتى » .

وقد صرح أيضا فى مصر بأن وزير الحربية « أحمد أسماعيل » سيزور رومانيا فى ٨ ـــ ١٠ ـــ ١٩٧٣ . كما نشر فى جريدة « الأهرام » أن عددا من الضباط والجنود المصريين سوف يسافرون إلى مكة لأداء العمرة .

هذه الأخبار المختلفة الكثيرة المنتشرة هنا وهناك ، كانت مقصودة ومدروسة . وقد أدت هذه « الحربُ النفسية » دورها بدرجة فائقة . وساعد هذا الأسلوب الدعائىُ على خلق ترسبات لاواعية ، شاركت فى

تقدير وضع الاسترخاء ، على أساس المعطيات الاستخبارية المتناثرة فى مصر وفى الخارج .

وقد التقى صاحبنا فى صيف ١٩٧٣ ببعض الأصدقاء والزملاء من الجنود المؤهليين فى الجيش فى هذه الفترة ، وحدثوه عن كثرة التدريبات وقسوتها ، لكنهم لا يعرفون الفائدة منها .. ولا متى يمكن أن تقوم معركة .؟! كانت هناك تدريبات عملية للعبور المائىّ تتم — سرًا — فى بعض أجزاء من النيل .. بينما كان الجنود — على القناة بعد التدريب — يلعبون الكرة ، ويسبحون على مرأى من الجنود الإسرائيليين ، الذين يراقبونهم يوميا من الشط الشرقى للقناة ، ومن خلال فتحات معدة لذلك فى خط بارليف .

هكذا لم يكن ثمة خبرٌ مؤكد عن إمكانية قيام أية معركة بالنسبة للمواطن العادى فى مصر .. أو فى أى بلد عربى .. أو فى إسرائيل نفسها ، أو فى أية دولة من الدول الغربية ، حتى تلك المتعاطفة مع إسرائيل مثل أمريكا .!!

***

قسم اللغة العربية فى كلية أداب القاهرة ، الذى يعمل فيه ، قسم ذو تقاليد عريقة .. ومحافظة ، لذلك فإن اجتماعاته تعقد دوريا بشكل دائم يوم الاثنين الأول من بداية كل شهر . ولكن الموعد تغيّر هذه المرة — نظرًا لظروف بدء العام الدراسى — وعقد الاجتماع فى يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الموافق العاشر من رمضان ١٣٩٢ . وقد انتهى الاجتماع حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . بعد ذلك توجّه مع صديقه عبد المنعم تليمة إلى

البيت . وجلسا فى حجرة الصالون ، ينتظران موعد الإفطار ، ويتحدثان فى أمور القسم .. وفى بعض الهموم الثقافية المشتركة . فجأة دخلتْ عليهما أم محمد فى الساعة الرابعة تقريبا ، وأخبرتهما أن الحرب قد قامتْ .. وأنها عرفتْ ذلك من الراديو الآن ، وهى تعد السمك المقلى والأرز المُحمَّر لوجبة الإفطار . لم يكن من السهل تصديق الخبر .. رغم أن الراديو يعلن أن القوات المسلحة المصرية ، قد شنت هجومًا على العدو فى سيناء ، لاستعادة الحق وطرد المحتل .!!

شيئًا فشيئًا أخذت تتضح الحقيقة — لقد بدأ العبور العظيم .. العبور من ظلام النكسة الدامس إلى ضوء النصر المشرق ، ونجحت القواتُ المصرية فى عبور القناة وتحطيم خط بارليف قبل أن تختفى أضواء ذلك اليوم الخالد ، كما أن الشمس بعد أن تغيب ، سوف يظهر ضوء القمر فى ليلة إحدى عشرة من رمضان ، ليساعد على وضوح الرؤية والهجوم .

وما ظنه الكثيرون صدفةً .. أو مفاجأة .. كان خطة حربية غايةً فى الدقة والانضباط . فقد كان هناك تنسيق بين القوات المصرية والسورية ، على أن تبدأ المعركة فى هذا اليوم على وجه التحديد ، لأنه يوم « عيد الغفران » فى إسرائيل ، والناس كلهم : عسكريون ومدنيون ، مشغولون بفرحة العيد ، لكنه كان عيدًا أسود على كل فئات التجمع الإسرائيلى داخل فلسطين المحتلة .

وقد بدأت المعركةُ فى الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر ، إمعانًا فى التمويه .. لصعوبة الرؤية والمراقبة فى هذه اللحظة من لحظات القيلولة .

وفى أثناء عبور قوات الجيش لقناة السويس كانت الطائرات المصرية

تحطم مطارات العدو ودفاعاته الجوية ـــ التى كان يزهو بها فى سيناء .
وهكذا بدأت عملية بتر ذراع إسرائيل ، التى ادعت أنها لا تُغلب ..!!

بدأ العبور العظيم .. واستطاعت قوات المهندسين المصرية والمدرعات والمشاة ، أن تعبر القناة ـــ دون خسائر .. تذكر ـــ فى أماكن مختلفة ، وتحطمت أسطورة « خط بارليف » ، ودخلت الدبابات المصرية إلى سيناء ، وبدأت أضخم حرب للدبابات فى تاريخ الحروب المعاصرة . وقد مُنِىَ العدوُّ بخسائر فادحة ـــ فى كل مجالات الحرب ـــ سوف تبقى مرارتها غُصَّةً فى حلقه لسنوات طويلة قادمة .!!

وقد دعَّم صمودَ الجبهة المصرية ـ السورية ما أظهرته الشعوبُ العربية من روح التضامن والتأييد ، وبدأت قواتٌ عربية تستعد لدخول المعركة ـــ إذا دعت الضرورة ، وعرضت تقديم كل ما لديها من إمكانات مادية وأسلحة . ودخل البترول أيضًا المعركة .. وتوقَّف ضخه وتصديره .. وأعلن الشيخ زايد بن سلطان من الإمارات : « أن البترول العربى ليس أغلى من الدم العربى » . وهكذا تضافرت الجهود العربية من أجل إنجاح المعركة .!!

اطردت انتصارات القوات المصرية فى الأسبوع الأول من الحرب ، واعترف جميعُ المراقبين لسيناريو المعركة ـــ من الأنصار والخصوم ـــ بكفاءة الأداء العسكرى وبطولة الجنود .!! تحطمت أسطورة جيش إسرائيل الذى لا يُقهر ، وتهاوت كل الدعايات التى كانت تتباهى بها دُوَيْلة العصابات المزعومة ، بعد أن منيت بخسائر فادحة فى كل مجالات

الحرب : البرية والجوية والبحرية والصاروخية ، بعد أن طوَّرتْ الخبراتُ المصرية صواريخ « سام » الروسية .

***

ورغم توالى الانتصارات الحربية ، إلا أن الرئيس السادات عقد جلسة طارئة لمجلس الشعب المصرى صباح الخميس ١٦ — ١٠ — ١٩٧٣ ، حضره وزير الحربية ، وبعض قادة الجيش وسفراء الدول العربية والأجنبية ، وألقى خطابًا سياسيًا أعلن فيه — وهو يرتدى الزى العسكرى — أن مصر المنتصرة ، تعلن أنها على استعداد لقبول وقف إطلاق النار ، فى مقابل أن تُعلن إسرائيلُ قبولها الانسحاب من الأراضى المحتلة سنة ١٩٦٧ . وأكّد أن مصر قامت بالحرب من أجل السلام ، بعد أن حققت القوات المصرية معجزةً حربية بأى مقياس عسكرى ، ويستطيع هذا الوطن — بعد اليوم — أن يطمئن إلى أنه قد أصبحَ له سيفٌ ودرع .!!

أحسَّ الكثيرون بعد سماع الخطاب صدمة .. أو خيبة أمل — على الأقل — سواء فى الشارع المصرى .. أو بين الجنود فى سيناء ، وربَّما أدت هذه الصدمة إلى قدر من التشاؤم ، ساعد على نجاح إسرائيل فى فتح « ثغرة » بين القوات المصرية ، حيث استطاعت بعض القوات الإسرائيلية — ساعة ١٠٠ ليلة ١٦ — ١٧ أكتوبر — أن تعبر القناة فى منطقة البُحيْرات بالقرب من الإسماعيلية . وقد أحدثت أنباء هذه « الثغرة » — التى كان يقودها الجنرال « إريل شارون » — تأثيرات نفسية حادة على مشاعر الإنسان المصرى والعربى . فى الواقع لم يكن لهذه

الثغرة سلبيات عسكرية خطيرة ، وأعلن بعض العسكريين العِظام من قادة الجيش المصرى رغبتهم فى التصدى لها وسحقها . غير أن القرار السياسى بدا مُحبطًا — بعضَ الشيء — لمشاعر الجندى والمواطن .!!

هناك أمر آخر هام جعل الانتصار العظيم لحرب أكتوبر محدودًا بمعنى من المعانى — بالنسبة للمساحة المكانية ، التى كان يمكن استعـادتها وتطهيرها من سيناء — لأن القيادة المصرية حذّرتْ قواتها من تجاوز منطقة « الممرات » فى سيناء ، وأكدتْ ضرورةَ الوقوف عندها . وكان فى مقدور هذه القوات — لو سَمح لها القرارُ السياسى للمعركة — أن تصل إلى حدود إسرائيل .. وربما إلى ما هو أبعد من ذلك . هكذا كانت قدرات الجيش المصرى وأشواقه فى تحقيق النصر .. أكبر بكثير جدًا من أفق القرار السياسى ، الذى كان يحرك قوات هذا الجيش .!!

وقد حدا هذا ببعض المحللين السياسيين ، بعد وقف إطلاق النار إلى القول « إنها حرب تحريك .. لا تحرير .!! » . وهناك فرقٌ كبير بين معركة محدودة ، تحرك قضية مجمدة من أجل البحث عن حل أو صلح سلمى ، وبين حرب تحرر وتسترد بالقوة ما أخذ بالقوة .

على كل حال .. فإن الصدمة المرة التى مُنيت بها إسرائيل لم تفقد صوابَ المسئولين فيها فحسب ، بل أفقدت الإدارة الأمريكية نفسها الرشد أيضًا ، ومن ثم قررت إقامة جسر جوى متواصل ، لا لتعويض إسرائيل عما فقدته فى الحرب .. وإنما لمدّها بعتاد عسكرى شامل ، يجعل منها « ترسانة حربية » تكفيها لسنوات طويلة بعد الحرب .

***

فى تلك الفترة حضر صهره الشيخ بدراوى من القرية ، وأخبره أن زوج ابنته إحسان ، الذى كان مجندًا فى المعركة ، قد أصيب .. وهو موجود فى المستشفى العسكرى . اغرورقت عينا الشيخ بالدموع ، لأن الجندى المصاب كان ابن أخيه وزوج ابنته .

فى الصباح ذهب مع زوجته أم محمد وأبيها إلى المستشفى العسكرى ، وبعد السؤال علموا أن الجندى يرقد فى حجرة بالدور الثالث . حينما ذهبوا إليه فوجئوا أنه ليس وحده ، فالذى كان يزور قريبًا له ، يزور كل فرد فى الحجرة ، ويبدى استعداده لتقديم أية مساعدة . كما وجدوا عنده هدايا كثيرة قُدِّمت إليه . كان هذا الجندى سائقا لإحدى الدبابات ، وقد أصيب بعد حوالى أسبوع من بدء المعركة ببعض الشظايا فى رجليه . وقد أخرجوا الكبير منها .. وبقيتْ ذراتٌ صغيرة يصعب تحديد مكانها واستخراجها ، وعلم أنه لا ضرر من وجودها . بدا الشابُ حزينًا ، لأنه أصيب ، و لم يستطع أن يكمل دوره فى المعركة . وظل رغم الإصابة يتحدث بحماسة عالية عن العبور والحرب .. وعمن قتل من اليهود وما دمر من دباباتهم ، وعن بعض من استشهد من زملائه ، وختم حديثه قائلاً : إن حلاوة النصر جعلتهم لا يشتهون النوم أو الأكل لليالٍ متواصلة ، وتمنوا ألا تنتهى الحرب إلا بعد أن يصلوا إلى حدود إسرائيل .

وقد سُمح للجندى الجريح بالخروج بعد أيام ، وأقام — عنده — مدة يُحدِّثه عن المعركة ، وعن شجاعة الجنود وقدراتهم القتالية الفائقة ، وكيف كانت الفرحة عندما رُفع العلم المصرى فى اليوم الأول على ربوة عالية فوق خط « بارليف » بعد أن حطموه وعبروه ، واستطاعوا — فى

سرعة البرق — أن ينتشروا فى سيناء — حتى منطقة المضايق — بأعداد كبيرة من المدرعات والمدفعية والأسلحة الثقيلة، لأن الغطاء الجوى حقق لهم — فى أثناء الهجوم — تغطيةً كاملة وحماية تامة .

ومن العجيب أن هذا الجندى الشاب قد نجا من الاستشهاد فى المعركة ، لكنه مات — رحمه الله — بعدها بثلاث سنوات مصابًا بفشل كلوى نتيجة الإصابة بالبلهارسيا .!!

توالت الأحداث بعد ذلك ساخنة ، حيث لم تكتف إسرائيل بمغامرتها الاستعراضية الخاسرة فى « الثغرة » ، ولكنها حاولت أن تحتل بورسعيد ففشلت ، فاتجهت جنوبًا نحو السويس تريد احتلالها ، خاصة بعد أن تأكدت من هدوء الجبهة مع سوريا ، ووصول المساعدات العسكرية الأمريكية بلا حساب ، فأرادت أن تسترد بعض هيبتها ، التى تناثرت فوق رمال سيناء .. ولكن بلا جدوى تُذكر .!!

وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ صدر قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ الخاص بوقف إطلاق النار ، والبدء فورًا فى تنفيذ قراره السابق ٢٤٢ (١٩٦٧) ، وعقد مفاوضات صُلح بين الأطراف المعينة .

***

وهنا يرد سؤال هام : لماذا انتصرت القواتُ العربية فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وهُزمت فى يونيو ١٩٦٧ .؟!

إن قواتنا لم تحارب ألبتة سنة ١٩٦٧ .. فقد كان هناك سوء تخطيط . وكان القصدُ من حشد القوات هو إجراء عملية استعراضية للإخافة ، بالإضافة إلى إهمال شديد من بعض قادة الجيش يبلغ حدَّ الخيانة العظمى .!!

لكن حرب ١٩٧٣ .. كانتْ حربًا حقيقية ، وتحدّيا من أجل إثبات الوجود . وقد استطاعت الكفاءاتُ العسكرية المصرية أن تُطور فى خُطط الحرب ، وفى فعاليات بعض المعدّات والأسلحة ، وصنعت النصرَ بإعجاز واقتدار . ولسوف تمضى سنون عدة ، يرفع فيها العربُ هاماتهم فخرًا ، بسبب انتصارهم فى هذا اليوم التاريخى العظيم .!!

وقد سيطرتْ « روحُ نصر أكتوبر » على مسيرة الحياة فى مصر .. والعالم العربى ، لا سيما وأنّ النصر العسكرى أردفه نصرٌ اقتصادى عن طريق « النفط » ، فارتفعت أسعاره بمعدلاتٍ سريعة . وقد أدى هذا الازدهار الاقتصادى فى دول النفط إلى طفْرة حضارية سريعة ، لكنه أيقظ أذهان الأعداء — بقوة — إلى ضرورة الانتباه لتلك المنطقة (الخليج) ، التى تحتوى على حوالى ٦٠ ٪ من احتياطى بترول العالم . وربما كانت « حربُ الخليج » التى اشتعلت — فيما بعد سنة ١٩٨٠ — بين العراق وإيران مكيدةً من مكائد الإمبريالية العالمية ضد هذه المنطقة — التى تسبح فوق بُحيْرات من البترول .. ومساحات من الغاز الطبيعى .!!

ترتب على قبول قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ ، أن بدأت المرحلة الأولى من المباحثات بين مصر وإسرائيل عند الكيلو (١٠١) فى طريق السويس القاهرة ، للمحافظة على وقف إطلاق النار ، وفضّ الاشتباك بين قوات البلدين ، وتبادل الأسرى تحت إشراف قوات الأمم المتحدة .

بعد ذلك انتقلت المباحثاتُ العسكرية إلى مؤتمر جنيف للسلام يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٣ .. ثم عادتْ مرة أخرى إلى منطقة الكيلو متر (١٠١) .. خلال يناير سنة ١٩٧٤ ، لوضع الخطط التنفيذية للفصل

الكامل بين القوات ، مع الاشتراط بأن تقدم إسرائيل خريطة للألغام التى زرعتها فى المناطق التى ستنسحب منها والامتناع عن تدمير المنشآت المدنية فيها أو تخريبها ، مع ضمان استمرار الحياة الطبيعية للسكان المدنيين فيها .

ولا شك أن هذه أول هزيمة تُمنى بها إسرائيل .. خلال حروبها مع الشعوب العربية ؛ وربما أدت هذه المفاوضات — أثناء مراحل فضّ الاشتباك — إلى إغراء القيادة المصرية — فيما بعد — بتوقيع اتفاقية « كامب ديفيد » سنة ١٩٧٨ .

***

أهم حدث وقع فى مصر بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. هو إعادةُ فتح قناة السويس — بعد تطهير مجراها للملاحة — يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ ، حتى تتحول مرارة ذكرى النكسة ، إلى نشوة فرحة بإعادة هذا الشريان الملاحى الهام ، ليكون همزة وصل بين دول العالم فى الشرق والغرب . وقد صاحبَ ذلك وتلاه بمدة قليلة تعمير مُدن القناة شرْقًا وغربًا .. وإعادة الحياة الطبيعية إليها . وعاد سكان بُورفؤاد وبورتوفيق وبورسعيد والإسماعيلية وفايد والسويس إلى أطلال مدنهم الخربة .. يعيدون إليها الحياة من جديد .. بعد غيبة ، طالت ما يقرب من ثمانى سنوات كاملة (١٩٦٧ — ١٩٧٥) . وقد شاركتْ بعض الدول العربية فى عملية التعمير هذه .. ولا سيما المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة .

ولا شك أن توالى هذه الانتصارات ، كان له أثر كبير فى رفع الروح المعنوية .. بين جماهير الشعب العربى كله ، كما تغيرت صورة الإنسان

العربى فى الإعلام الغربى . وكان صاحبنا فى جلساته مع بعض الأصدقاء والزملاء من المثقفين والأدباء، يتناولون هذه الأحداث الجليلة بالتحليل والنقاش . ورغم الاعتراضات الجزئية على تكتيك بعض المواقف السياسية ، إلا أن ذلك لا ينفى أن مصر قد حققتْ نصرًا (عالميًا) مؤزرًا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. وقد دفع أبناءُ مصر ـــ جميعًا ـــ ثمن ذلك النصر من دمهم وقوتهم وحياتهم . لكن ترى من سيفوز بثمار ذلك النصر .. ومن سيُحرم منها .. ومن سينعم بها .. بل من سيتاجر ويلعبُ بأوراقها .؟!

***

جلبُ المحامدِ .. ودرْءُ المفاسد

واصل أبو محمد حياته ثابتَ الخُطى ، محاولاً أن تستمر مسيرته ـــ في كافة المجالات ـــ ومضى قدر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . لكن شيئًا ما ظل يؤرقه .. إنه يحس أن دوره في الحياة أكبرُ من أن يكون أستاذًا جامعيًا .. يقرأ ويبحث ، ويدرس ويؤلف ، ويعلم ويحاضر فقط .. إنه يتحرَّقُ شوقًا ، ليكون شخصية لها (دور ثقافى) مؤثِّر فى الحياة العامة .

وقد بدأ منذ ذلك التاريخ (١٩٧٣) يحاول أن ينْفُذَ إلى ميكرفون الإذاعة .. وبعض الصحفِ والمجلاتِ المصرية والعربية . كما نشر رسالته للدكتوراه ، حقًا لم يكنْ يهمه الكسبُ المادى ، فقد أخذ من حق الطبعة الأولى خمسين جنيهًا فقط . وقد اشترى بالمبلغ ذاته نُسخًا من الكتاب .. وأهداها إلى كثير من زملائه ومعارفه ، حتى تتحقق أمنيةٌ غالية عزيزة على نفسه ، تلك الأمنية هى أن تكون لاسمه « صفحة » فى دليل المكتبات . يا له من حلم عظيم ، أن يكون الإنسان واحدًا .. من الكتّاب .. الذين لهم اسم فى مصر .. وفى العالم العربى .. بل فى العالم أجمع . كان ولا يزال ذلك الحلم ـــ بأن يكون لاسمه وجود فى دليل المكتبات ـــ أملاً من أعزّ أمانيه .!!

وفى سبيل الدخول إلى الحياة الثقافية العامة قام بخطوة أولية هامة ،

حيث تولى ريادة « اللجنة الأدبية » لجامعة القاهرة ، وكان يعقد لها اجتماعًا أسبوعيًا ظهر كل ثلاثاء فى المدينة الجامعية ، وهى لجنة تضم هُواة الأدب ـــ على اختلاف أنواعه ـــ من كليات الجامعة كلها . وقد استمرَّ لعدة سنوات يُحاضر فيهم عن قضايا الأدب ، ويراجع لهم ما يكتبون ، ويوجههم إلى ما يقرأون . بالطبع لم يكن الطلبة يناقشون أو يكتبون بأيديولوجية واحدة ، فكان يحاول أن يوضح لهم أهم القواعد الأدبية الخالصة التى بها يكون الأدب أدبًا .. فإذا استطاع الأديب أن يجيد استخدام الأدوات الفنية ، فإن من حقه بعد ذلك أن يوظفها لرؤيته الخاصة ، بحسب المنظور الذى يعتقده . كما حاول أن يوضح لهم أن « الموهبة » وحدها ، لا تصنع « أديبًا » ، وإنما لا بد من القراءة الواعية الشاملة فى الأدب واللغة والنقد والفلسفة والسياسة .

فى هذه السنة طلب منه أحد المسئولين فى كلية طب القاهرة أن يُحكِّم مسابقة أدبية، وأن يُلقى على الطلاب محاضرة حول الأدب ، قبل أن تعلن نتيجة المسابقة ، وتوزع الجوائز . عندما جلس يلقى محاضرته ، تأمل الحاضرين ، وفوجىء بوجود الأديب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى بينهم ، عرفه من صورته .. ولم يكن قد التقى به من قبل . جاء الرجل ليشهد فوز ابنه « أحمد » بقصيدة شعر فى هذه المسابقة . وبدلاً من أن يلقى محاضرة عامة .. بدأ ببعض المقدمات حول علاقة المهنة بالهواية الأدبية ، ثم جعل شواهده حول الأدب ودوره فى المجتمع ، من خلال الحديث عن الشرقاوى شاعرًا وروائيًا ـــ رغم كونه خريج كلية الحقوق . كما أشاد بقصيدته « من أب مصرى إلى الرئيس ترومان » ،

وبرواية « الأرض » .. موضحًا القيمة الفنية والاجتماعية لكلا النصين .

في نهاية اللقاء صافحه الشرقاوى بحرارة ، وأبدى إعجابه بالمحاضرة ، وتمنّى له التوفيق فى حياته الجامعية ودراساته النقدية . وقد نشأت بينهما منذ هذه السنة صداقة قوية ، وتردد عليه كثيرًا فى مكتبه فى دار « روز اليوسف » ، حيث كان الشرقاوى رئيسًا لمجلس إدارتها ، وقد نشر فى هذه الفترة أول قصة قصيرة له فى مجلة « روز اليوسف » وكانت بعنوان « باب الخلق »(١) .

كذلك بدأ يتردد على الندوات الأدبية المختلفة مستمعًا .. ومحاضرًا ، وواصل الكتابة — فى مراحل مختلفة — فى مجلات « الآداب » اللبنانية .. و « الأقلام » العراقية .. ومجلة « الحكمة » و « الغدّ » اليمنية .. و « الكاتب » و « الهلال » و « الشعر » و « القصة » و « إبداع » و « القاهرة » و « فصول » المصرية .. و « الدوحة » القطرية .. و « الفيصل » و « الحرس الوطنى » السعودية .. و « عالم الفكر » و « البيان » الكويتية ، و « المنتدى » الظبيانية ، و « الموقف العربى » السورية ... وغيرها من المجلات والصحف المصرية والعربيّة .

***

حدث تحول هام وخطير فى تخصصه الأكاديمى ، ينبغى الوقوف عنده : فقد توجه صاحبنا فى دراستيه للماجستير والدكتوراه نحو نقد

---

(١) نشرت بتاريخ ٥ يونيو ١٩٧٣ فى مجلة « روز اليوسف » ، ثم ضمت بعد ذلك إلى مجموعة « عمار يا مصر » ط . الهيئة المصرية ، سنة ١٩٨٠ ص ٢٠١ .

« الرواية » ، لكنه بعد أن تسلم عمله فى القسم ، وجد أن هناك زميلاً أقدم منه فى هذا التخصص ، لذلك آثر أن يُحوِّل تخصصه إلى « الشعر الحديث » ، ليكون وحده المتخصص فيه .. بدلاً من أن يظل الرجل الثانى فى تخصص الرواية ، وهو فى الحالتيْن كلتيهما لن يتجاوز تخصص « الأدب الحديث » . وقد ظل وفيا لهذا التخصص الجديد ، وأخرج فيه خمس دراسات هى :

١ — شعر شوقى الغنائى والمسرحى (١٩٧٢ — ١٩٧٣ — ١٩٨١ — ١٩٨٥)[١] .

٢ — شعر ناجى الموقف والأداة (١٩٧٦ — ١٩٨١ — ١٩٨٩).

٣ — جماليات القصيدة المعاصرة (١٩٨٢ — ١٩٩٠) .

٤ — ديوان رفاعة الطهطاوى .. جمع ودراسة (١٩٧٩ — ١٩٨٦).

٥ — الشعر والشعراء المجهولون فى القرن التاسع عشر (١٩٨٦ — ١٩٩١) .

ودراساته فى مجال الشعر تمتد منذ جذور الشعر الحديث ، حتى آخر الاتجاهات المعاصرة فيه .. مرورًا بمعظم ما بينها من تيارات مختلفة وشخصيات متنوعة . وهو بهذه الدراسات يكون قد ألقى الضوء على مدارس الشعر الحديث كلها ، وأوضح السمات الفنية لكل منها . هذا بالإضافة إلى أن الكتاب الأخير « الشعر والشعراء المجهولون فى القرن التاسع عشر » ، درس مرحلة شبه مجهولة تمامًا .. و لم يكد يتوقف عندها

---

(١) التواريخ المذكورة تبيّن سنوات نشر كل طبعة من الكتاب .

— بشكل موضوعى شامل — أى من الدارسين السابقين .

ورغم هذا التحول الواعى للتخصص فى الشعر ، لم ينس بين حين وآخر أن يقدم بعض الدراسات المؤلفة أو المترجمة فى نقد الرواية والقصة القصيرة . وعلى هذا يكون مجمل ما أصدره فى مجال نقد الرواية أربعة كتب هى :

١ — محمد حسين هيكل : حياته وتراثه الأدبى (١٩٦٩) .

٢ — مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية (١٩٧١) .

٣ — صورة المرأة فى الرواية المعاصرة (١٩٧٣ — ١٩٨٠ — ١٩٨٥) .

٤ — دراساته فى نقد الرواية (١٩٨٩) .

كما أسهم فى تأليف بعض كتب مشتركة مثل :

١ — حركات التجديد فى الأدب العربى (١٩٧٢ — ١٩٧٤ — ١٩٧٦) ط . الثقافة . القاهرة .

٢ — إضاءة حول شعر عبد العزيز المقالح (١٩٨٢) ط . العودة . بيروت .

٣ — الروائع من الأدب العربى (١٩٨٤) ط . الهيئة المصرية . القاهرة .

٤ — مقدمة رواية « أحمد بن طولون » (١٨٨٤) ط . دار الهلال . القاهرة .

٥ — المدخل لدراسة الفنون الأدبيـة (١٩٨٧) ط . الثقافـة . الدوحة .

٦ — مقدمة أعمال المنفلوطى (١٩٩١) ط . الشركة المصرية العالمية للنشر — لو نجمان .

***

وقد قرر مجلس جامعة القاهرة بجلسته المنعقدة فى ٢٦/١٢/١٩٩٠ ، الموافقة على منحه « جائزة البحث العلمى للجامعة » لعام ٨٩ / ١٩٩٠ فى تخصص : التطور الاجتماعى وأثره فى الأدب العربى المعاصر ، وذلك عن كتابيْه : جماليات القصيدة المعاصرة ، والشعر والشعراء المجهولون .

ولا ريب فى أن هذا التقدير العلمى من الجامعة ، تقديرٌ له دلالته المعنوية الجليلة ...!!

***

الأمل الأول .. والأعزّ — عند صاحبنا — منذ كان فتى .. وشابًا .. ورجلاً ، هو أن يكون كاتب قصة . ومن أجل ذلك دخل قسم اللغة العربية .. واختار موضوعه فى رسالتىْ الماجستير والدكتوراه ، غير أنه بعد أن عمل فى الجامعة أحس أن واجبه الأول أن يكون أستاذًا ، والطريقُ إلى الأستاذية محفوف بالمكاره ، مشحون بالعمل الجاد ، والإنتاج العلمى المستمر ليلاً ونهارًا ، حتى يُرقّى فى موعده ، ولا يتخلف عن زملائه ، من هنا أهمل هوايته .. حتى كاد ينساها . إنه يعتقد اعتقادًا راسخًا أن الحياة مسرح كبير ، ويجب على الإنسان أن يختار (دورًا) يجيده بإتقان ، وعليه أن يلعبه بمهارة ، حتى يكسب رضى زملاء العمل وجمهور الصالة . وقد واصل بهدى من هذا الإيمان دراساته الأكاديمية ، واستطاع — رغم المزاوجة بين متطلبات المهنة ومغريات الهواية — أن يحصل على ترقياته

الوظيفية فى موعدها المحدد .

وقد حدث ذاتَ مرة أن تعرف على سيدة فاضلة مثقفة ثقافة أوربية وعربية واسعة ، كما أنها ذات معرفة واسعة بالحياة ، وزارتْ أكثر من دولة فى الشرق والغرب . كانا يلتقيان — فى إطار عمل مشترك — ويتناقشان بالساعات الطوال .. فى الثقافة والأدب والحياة .. .. وعلاقة الرجل بالمرأة . ذات مرة تحاورا حول الصداقة بين المرأة والرجل والفرق بين علاقة الأوربى بالمرأة وعلاقة الشرق بها . وقد طال الجدل بينهما .. و لم يلتقيا .!! فى تلك الليلة الطويلة لم يأته النوم إلا بعد أن كتب قصة قصيرة بعنوان « القطار يسير بسرعة .. نحو الشمال »[1] .

عندما سلمها القصة ، فى اليوم التالى قالتْ مبتسمة فى وداعة :

* إذا كان كل حوار بيننا سوف ينتهى بقصة ، فهذا شيء عظيم .

عادت إليه بعد يومين ، قائلة :

* هل تنوى أن تنشرها .؟

ردَّ دون تفكير : لقد كتبتها من أجلك أنتِ .

* لكنها جديرة بالنشر .

* لم أفكر فى هذا .

* لقد فكَّرتُ لك .

وقد نُشرت فى مجلة « الكاتب المصرية » عدد يناير سنة ١٩٧٦ ،

---

(١) نشرت فى مجلة « الكاتب » المصرية عدد يناير ١٩٧٦ ، ثم ضمت إلى مجموعة « عمار يا مصر » ص ١٨١ .

وعندما قرأها كثير من الأصدقاء والزملاء أعجبوا بها .. ولاموه على أنه لا يواصل كتابة القصة .!!

وقد شكلت أصداءُ نشر هذه القصة نقطةَ بدْءٍ هامة فى عودته المتصلة إلى الإبداع والكتابة الأدبية . إنها لحظة عود إلى بدء .. كان متوهجًا فى أعماقه ، ومتدفقًا فى وجدانه .

واصل بعد ذلك كتابةَ القصة ، وعندما كان ينتهى من واحدة ، يذهب إليها طالبًا رأيها ، فتقول مبتسمة بسمةَ عزيزٍ مُقتدر :

* القصة جيدة .. لكن القصة التي أتمنى أن أقرأها لك ، لم تكتبها بعد .!!

هذه السيدة الفُضلى كانت الصديقة الملهمة ، التى أعادته إلى عالم القصة ، برغبة متوهجة حارة ، لكى يعود إلى المَسار الذى كاد ينساه .. وينسى ذكره ، لكن كيف يهرب الإنسان من قدرٍ ، يجرى فى دماء عروقه ، وينبض فى خلايا مشاعره .؟!

مرت علاقته بهذه المرأة النبيلة مرورَ الطيف العابر ، ولم تدم صلته بها طويلاً .. فقد رحلت ـــ خارج الوطن ـــ إلى حيث لا يدرى منذ عشر سنوات ، ولا يظن أنه سوف يلتقى بها . وهذا ما يثير فى نفسه تساؤلات كثيرة ، لم يستطع أن يحلها حتى تلك اللحظة . لم أرسل الله له هذه المرأة .. صدفة .؟ ولم رحلت أيضًا صدفة .. دون أن يعرف لها عنوانًا .. أو مستقرًا .؟!

إن الصدفة فى حياة الإنسان شيء عارض .. لكن أليس كل شيء فى حياة الإنسان صدفة .؟ إننا نُولد صدفةً .. ونعيشُ صدفةً .. وأخيرًا نموتُ

صدفة فى البيت .. أو عَرَضًا على قارعة طريق . الحياةُ كلها صدفٌ عارضة ، لكن اللبيبَ هو الذى يحوّل الصدفةَ القدرية إلى صدفة فلسفية ، مفيدة ومثمرة . والإنسان الذى لا يُوظِّف الصدفةَ لصالحه عاجزٌ بمعنى من المعانى .. وليس أدل على ذلك من أن « نيوتن » العالم الشهير ، اكتشف قانون الجاذبية بهذه الصدفة ، عندما رأى تفاحةً تسقط عرضًا من الشجرة ، فصاح فرحًا : « وجدتها .. وجدتها » ..!

أيًا ما كان الرأىُ فى فلسفة الصدفة .. فالذى يُؤمن به صاحبنا إيمانًا لا ريبَ فيه ، هو أن تلك المرأة الفاضلة ــ التى مرت فى حياته .. مثل طيْفٍ عابر ــ كانت الأملَ الملهم ، الذى أيقظ فى وجدانه جذوةَ موهبةٍ ، ظنَّ أنها خَبتْ منذ سنوات ، لكنها اشتعلت منيرةً بفضل تلك « الأميرة .. التى ليس لها اسم فى القاموس[1] » ، ولسوف تظل لها منزلة رفيعة فى ذاكرته ، التى لا تنسى ولا تجحد فضل أولى الفضل ..!!

***

مرت الأيام والليالى .. وأبو محمد قرير العين بزوجته ، وأولاده الذين ساروا فى دراستهم بنجاح وتوفيق ، وسعيد أيضًا بعمله فى الجامعة .. وبالعلاقة الطيبة ، التى نشأت بينه وبين زملائه وطلبته . وكان معظم أعضاء الهيئة التدريسية ــ فى القسم فى هذه الفترة ــ من الشباب الطموح ، ورغم ما كان بينهم من خلافات فكرية وصراعات إنسانية

(١) نُشرتْ هذه القصة فى : مجلة « الكلمة » صنعاء يونيو ١٩٧٧ ، ومجلة « الهلال » القاهرة ــ يونيو ١٩٨٠ ، وضُمَّتْ إلى مجموعة « عمار يا مصر » ص ١٦٩ .

أحيانًا ، إلا أنهم تنافسوا فى التأليف وتحصيل العلم ، وإقامة جسور ممتدة بينهم وبين الواقع الثقافى المصرى .. والعربى .

وقد صار معظم هؤلاء الرجال اليوم أعلامًا فى مجال العمل الجامعى ، وتركوا بصمات واضحة فى مجال الدراسات النقدية والأدبية واللغوية .. وفى إطار الوسط الثقافى عامة . وهؤلاء هم :

د . محمود فهمى حجازى — د . إبراهيم الدسوقى جاد الرب — المرحوم د . النعمان عبد المتعال القاضى — د . أحمد شمس الدين الحجاجى — د . شوقى رياض أحمد — د . عبد المنعم محمد تليمة — د . طه عمران وادى — د . جابر أحمد عصفور — د . عبد الحكيم محمد راضى — د . أحمد على مرسى — د . عبد الحميد عوض السيورى — سليمان العطار .

أيتها الجامعةُ الرهيبة .. الرحيبة .. الحبيبة .. جامعة القاهرة .. يا معقلَ البحث الرصين فى العلم والفكر والفن .. ومركز الإشعاع الحضارى للعالم العربى أجمع ، تحتَ ضوْء من قبتك المقدسة تعلم صاحبنا .. وعمل سنواتٍ طوالاً .. واكتسب خبرة عميقة فى العلم والفكر والسياسة والأدب ، ولولاك أيتها الجامعة العريقة ما تكوَّنتْ تلك الخبرات .. ولا كان أولئك العلماء — الأعلام .!!

***

فى شهر فبراير سنة ١٩٧٥ حدثت مجموعة من الأحداث الجِسام فى مصر والعالم العربى . أما فى مصر فقد انتقل إلى رحمة الله كل من قائد الجيش المصرى السابق — أثناء حرب أكتوبر — المشير أحمد إسماعيل

وسيدة الغناء العربى « أم كلثوم » . أما العالم العربى فقد هُزَّ بفجيعة مقتل فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية — غدرًا — بيد واحد من أبناء الأسرة ، وهو فى مجلس من مجالسه العامة .

لكن الملك فيصل .. والمشير أحمد .. كلاهما شخصية عامة ، لها دور تاريخى ، سوف يكشف عنه الزمنُ .. ويعطى كلا منهما ما يستحق من تقدير وثناء . غير أن ما يحتاج إلى قدر من الإضاءة والكشف هو دور السيدة العظيمة .. « أم كلثوم » ، لأن ذاكرةَ الناس — فى بلادنا — قد تنسى أحيانًا ، وقد تضلُّ أو تُضلل فى أحايين أخرى ، لذلك وجبَ التنويهُ .. والتنبيهُ ، حتى لا ينسى أحدٌ فضلَ ذوى الفضل .. ومآثر من أدوْا دورًا فى خدمة هذه الأمة ، وتعرف الأجيال قَدْرَ من ضحَّى من أجل بلادها ، وقام بواجبه من أجل رفع راياتها ، وتخليد تراثها .. والدفاع عن ترابها .!!

السيدة « أم كلثوم » .. ظاهرةٌ فنية فريدة ، تمثل إحدى معجزات الكِنانة — التى لا تتوقف .. ولا تتضاءل . إنها « هَرَمٌ » فنى شامخ ، استحق — بجدارة على مدى نصف قرن أو يزيد — لقب « كوكب الشرق » ، من خلال دورها الجليل فى تطوير وظيفة الأغنية العربية ، ورفع مستوى « الطرب » الشرقى ، بغناء فنى رائع ، وأداء صوتى مُعجز . سيدةٌ فاضلة فى مجتمع محافظ ، استطاعتْ أن ترفع قدرَ الأغنية والغناء .. من مُستنقع « العوالم » وحانات « السُّكارَى » ، وبُـؤَر « المساطيل » ، لتكون الأغنيةُ فنًا محترمًا ، ويصير الغناءُ وظيفةً شريفة . وبدلاً من أن تكون الأغنية مادة للتسلية والترفيه .. أصبحت فنًا راقيًا .. ووسيلة لتطهير المشاعر والرق بالعواطف .. أكثر من هذا جعلتْ للأغنية

دورًا وطنيًا .. ودينيًا . ودورها فى هذا المجال ـــ مجال تطوير الغناء ليصبح « فنًا راقيًا » ـــ امتداد لدور فنان الشعب سيد درويش .. لأن كليهما ظهر نجمًا ساطعًا فى عالم الغناء بعد ثورة سنة ١٩١٩ .

لم يكن تأثيرُ أم كلثوم الفنى مقتصرًا على مصر .. وحدها ، لأنه من فضل الله علينا ـــ نحنُ العربَ ـــ أن الفن والأدب ، لا يحتاجان إلى « تأشيرة دخول » بين أقطارنا العربية ، وعلى هذا فقد أطربتْ أم كلثوم كل أذنٍ ، تفهم العربية فى كل مكان .. بل كل أذن تطرب للحن الجميل منذ سنة ١٩٢٠ إلى اليوم .. لأنها ماتت ، لكن ثروتها الكبيرة فى الغناء .. لا تزال تملأ الساحات والإذاعات .

وقد مُنحتْ عدةَ جوائز وأوسمة تقديرًا لدورها العبقرى الخالد ، وهى :

* وسام النيل من الملك فاروق ١٩٤٦ .
* وسام الأرز اللبنانى ١٩٥٩ .
* وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى فى مصر ١٩٦٠ .
* قلادة الجمهورية .. مرتين من عبد الناصر سنة ١٩٦٠ ، ١٩٦٥ .
* وسام الجمهورية الأكبر من الحبيب بورقيبة ١٩٦٨ .
* جائزة الدولة التقديرية فى الآداب والفنون (مصر) ١٩٦٨ .

كما مُنحت بعض الأوسمة والنياشين والقلادات من السودان والعراق وسورية والأردن والكويت والمغرب وباكستان وفرنسا والاتحاد السوفيتى .

وفى سنة ١٩٦٨ صار لها جواز سفر « دبلوماسى » . وهذه أول مرة

يحصل فيها فنان على هذه الميزة . وفى سنة ١٩٧٢ مُنحت من السادات لقب « فنانة الشعب » تقديرًا لما كانت تفعله من أجل الوطن .

وقد غنت خلال مسيرتها الفنية — التى تتجاوز نصف قرن — لمجموعة كبيرة من الشعراء العرب والمسلمين ، القدماء والمحدثين . وهذا الاختيار المتميز لكلمات الأغنية ، يدل على شخصيتها المثقفة وذوقها الرفيع . يؤكد ذلك أن أمير الشعراء أحمد شوقى لم يكتب لأحد قصائد تُغنى سوى محمد عبد الوهاب — الذى تبنّاه منذ صباه . لكن شوقى حين سمع صوتَ أم كلثوم .. ورآها ، كتبَ لها — خصيصًا — أغنية مشهورة مطلعها :

سلُوا كؤوسَ الطِّلا هل لا مستْ فاهـا
واستخبِروا الـرّاحَ هـل مسَّتْ ثناياهـا

وقد غنتْ لكوكبة من الشعراء الكبار .. من أهمهم :

عمر بن الفارض — أبو فراس الحمدانى — الشريف الرضى — أحمد شوقى — حافظ إبراهيم — إسماعيل صبرى — أحمد رامى — على الجارم — بيرم التونسى — عمر الخيام — محمد إقبال — إبراهيم ناجى — كامل الشناوى — صالح جودت — صلاح جاهين — نزار قبانى — عبد الله الفيصل — مبارك أدم الهادى — مرسى جميل عزيز — عبد الوهاب محمد — أحمد شفيق كامل — طاهر أبو فاشا ... وغيرهم الكثيرون .

و لم تكد تمر مناسبة وطنية أو قومية أو دينية إلا و كان صوت أم كلثوم نشيدًا يُقوّى العزيمة .. ويُحمّس لطرد الهزيمة .. ويوقظ المشاعر النبيلة .

وقد صنعتْ لوطنها بعد النكسة ما لا تقدر عليه العصبة أولو القوة من

الرجال ..!! كانت تغنّى فى كل مكان .. حتى فى بلاد لا تتكلم العربية ، كى تجمع الأموال الصعبة .. وتعبّىءَ المشاعر هناك من أجل مصر .. ومعركة مصر . ولا شك أن ما فعلته هذه السيدة العظيمة — من أجل مصر قبل سنة ١٩٦٧ — شىء .. وما فعلته بعد ذلك أشياء أخرى ، عظيمة القدر ، جليلة القيمة . فقد كانت تصحب فرقتها .. وتسعى — فى كل أنحاء الأرض — وتُقيم حفلاتٍ تُخصص إيرادها — كاملاً — من أجل تسليح الجيش وإزالة آثار العدوان — دون أن تأخذ لنفسها شيئًا ألبتة .

كم سيدة واحدة تصنعُ ما يَعجزُ عنه رجال كثيرون .!!

***

وقد سعتْ « أم كلثوم » — رحمها الله — فى أيامها الأخيرة .. إلى أن تُنشىء مؤسسة تقوم بدور خيرى شامل فى خدمة الوطن ، باسم مشروع « الأمل » . وبدأت تجمعُ التبرعات ، وتبنى المؤسسة ، لكن تصادف — فى هذه الفترة (١٩٧٢) — أن السيدة جيهان ، تطلعت إلى أن تقوم هى الأخرى — فجأة — بعمل اجتماعى يُبرزها ، كصاحبة دور فى مجال الخدمة الاجتماعية — أو على الأقل كسيدة مجتمع أو نجمة — لأنها كانت صاحبة طموح لا يُحدُّ . وقد حلا لها أن تسلب تلك السيدة العظيمة مشروعها الخيرى ، بسببٍ من هذا الطموح المفاجىء ، ولأسباب أخرى تدخل تحت بند « كَيْدِ النساء » ، خاصة بعد أن أحرجت السيدةُ جيهان السيدة أم كلثوم فى حفل عام .. وأخذت تُعد العدةَ .. حتى تصطاد أكثر من عصفورٍ بحجرٍ واحد .!!

وقد تنمرتْ السيدةُ الشابة للراهبة العجوز ، واستطاعتْ بوسائل — يعلمها الله وحده .. شريفة أو ... — أن تسلب المشروع من صاحبته ، وأن تسميه « الوفاء والأمل » ، ونصبتْ نفسها رئيسًا شرفيًا له .

ليتَ وزارة الشئون الاجتماعى تتدارك الأمرَ .. وتسميه باسم صاحبة الفكرة ، وتطلق عليه « مشروع أم كلثوم » ، لأن هذا تاريخ يجب تصحيحه .

هكذا وجدت الفنانةُ القديرة نفسها مُحاصرةً ، فجنحتْ للسلم .. واستسلمت لقدرها ، بعد أن أحست أنها تتعامل مع أناسٍ تناسوْا دورَها .. وما فعلتْ من أجل وطنها ، لذلك غنت كوكب الشرق .. للثورة ولعبد الناصر وللنكسة ، لكنها لم تغنِ للسادات ، أو لحرب أكتوبر .. رغم أنها — بكل المقاييس — كانت واحدةً من صُنّاع نصر أكتوبر ، ومن جنوده المجهولين ..!!

هكذا حُوربت فنانةُ الشعب ، فماتتْ حسرةً وحُزْنًا صباح يوم ٣ فبراير سنة ١٩٧٥ . ومن عجب أن تُقيم لها محافظة « الدقهلية » تمثالاً هزيلاً فى ميدان المحطة بالمنصورة ، وهو تمثال متواضع جدًا : مادة وشكلاً ، ولا يتناسبُ مع دورها الفنى والوطنى العظيم . والسؤالُ هو : لماذا نشربُ نخبَ النصر فى جماجم الشهداء .؟ إنها لمصيبةٌ كبرى أن نحتفل بعظمائنا هذا الاحتفال غير المشرف . (تمثال محمد فريد فى ميدان « العتبة » بالقاهرة .. وتمثال أحمد عرابى فى الزقازيق ، يجوز عليهما نفس الحكم ، الذى يُقال عن تمثال أم كلثوم فى المنصورة .)

والأعجبُ من أمر هذا التمثال ، ما حدث بالنسبة لبيتها فى الزمالك ،

الذى اشترته بمالها الخاص ، وشهد ذكرياتِ عمرها ، وزُيّن بالأوسمة التى حصلت عليها . هذا البيت باعه الورثة — سامحهم الله — وصار مشروعًا استثماريًا ، وبُنيت مكانه عمارة مستفزة تسمى « بُرج أم كلثوم » . يبدو أن الذين يستحون قد ماتوا من زمن طويل ..!!

قلتُ للنفس لحظة : إن ورثة أم كلثوم فعلوا هذا ، لأنه لم يكن لها أبناء من صُلبها ، يعتزُّون بتراثها ودارها . لكنى تذكرتُ أن أبناء أحمد شوقى حاولوا بيع « كرمة ابن هانىء » فى الجيزة ، وأولاد محمد حسين هيكل باعوا بيت أبيهم فى الدقى أيضًا . فالورثةُ هم الورثة — أبناءً كانوا أم إخوة أم أبناء إخوة — كلهم لا يبحثون إلا عن شىء واحد فقط ، هو المال ، أما المجدُ .. والتراثُ .. والتاريخُ ، فتلك عُملةٌ لا يفقهونها ألبتة .. ولا يريدون .!!

بعد كل ما ذكرتُ .. ألسنا على حقٍ إذْ نقول : إن تلك السيدة العظيمة قد قُتلت حيةً .. وميتةً .؟! رحم الله كوكب الشرق ، لأن تراثها وتاريخها قد جعلاها تعيش فى قلوب كل من أطربتهم طوال نصف قرن ، ولا يزال صوتُها العبقرى ، الذى لن يتكرر ، يُطرب المستمع العربى فى كل مكان على ظهر الأرض . ولن ينسى الناس .. ولا تاريخ الفن دور هذه السيدة .. التى صنعت — بتراثها العظيم — معجزة فنية .. يصعُب تكرارها .!!

***

فى سياق الحديث عن أم كلثوم ، لا بد من وقفة عند الفنان الراحل عبد الحليم حافظ ، الذى توفى يوم ٣٠ أبريل ١٩٧٧ . وهو من مواليد محافظة الشرقية (٢٢ / ٦ / ١٩٢٩) . وقد بدأ يظهر مطربًا عاطفيًا صاحب

أداء شجىّ بعد سنة ١٩٥٢ . ومع أنه حافظ فى البدء على مواصلة جهوده الفنية فى إطار الأغنية العاطفية ، إلا أنه ما لبث أن زاوج بين الأغنية العاطفية والنشيد الوطنى ، وإذا كان سيّد درويش خيرَ مُعبِّر عن نضال الشعب المصرى خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها .. فإن عبد الحليم أيضًا خير مُعبّرٍ عن ثورة ٢٣ يوليو ، وما صحبها .. وما تلاها من أحداث . وكان صوته الطروب سلاحًا من أسلحة التعبئة الوطنية فى كافة المعارك ، التى خاضتها بلاده ، حيث غنى لمصر .. ولعبد الناصر .. وللسد العالى .. وقناة السويس .. وانتصار ١٩٥٦ .. و ١٩٧٣ .

وبعد النكسة ظل يبدأ حفلاته بهذا القسم :

أحلـفْ بسماهـــا وبتـــرابها   واحلـفْ بـدروبها وأبـــوابها
أحلـف بالقمـح وبالمصنـع   أحلـف بالمدنـــة وبالمدفَعْ
بـــأولادى بأيَامـــى الجايّـــة   مـــا تغيب الشمس العربيّـة
طول ما أنا عايشْ فوق الدنيـا

بيد أن « العندليب الأسمر » لا يحتل مكانة سامية فى تاريخ الغناء المعاصر بدوره الوطنى فى التعبير عن روح الأمة فحسب ، وإنما بكفاءته الفذة على الأداء المُطرب ، وقدرته على التدقيق فى اختيار نصّ جيد للأغنية ، لذلك كان أول مطرب يسعى إليه الملحنون الكبار — مثل محمد عبد الوهاب ومحمد الموجى ورياض السنباطى — لكى يُغنّى على أنغام ألحانهم .

ورغم أن صوته كان — ولا يزال — يُشجى الأمة ويُطربها من المحيط إلى الخليج ، إلا أنه كان يعانى مرضًا خطيرًا مُزمنًا ، حيث أصيب ببولينا

الدم ، بسبب إصابته المبكرة — مثل كثير من أبناء ريف مصر — بالبلهارسيا . ومع أنه مات دون الخمسين .. فإنه خلَّف حوالى خمسمائة أغنية ، عبَّر فيها عن معان عاطفية ، رقيقة ، أو قيم حماسية نبيلة ، مثل أغنيته الخالدة .. التى تهزُّ وِجدان كل مُغترب ، وكتب كلماتها المعبِّرة الشاعر صلاح جاهين :

بـالأحضان بـالأحضان بـالأحضان

يـا بلادنـا يـا حِلْـوة بـالأحضان

فى ميعـادك يتلمُّـوا ولادك

يـا بلادنـا وتعـود أعيـادك

والغـايب مـا يطـقش بعـادك

يرجـع ياخـذك بـالأحضان

بـالأحضان يـا حبيبتـى يـا أمـى

يـا بـلادى يـا غنيـوة فى دمـى

على صدرك أرتـاح مـن همّـى

وبأمـرك أشعلهـا نيران

يـا مـا لقّـيت سوّاح متغـرب

وأنـا دمّـى بحبك مـتشرّب

أبعـد عـنك قلبـى يقـرب

ويرفـرف ع النيـل عـطشان

إن الله — جلَّتْ قدرته — قد حبا مصر بكوكبة من الفنانين العِظام فى

مجال الغناء والطرب ، ولكن هناك — فى إطار هذه الكوكبة — ثلاثة من (العمالقة) الكبار .. يقفون — فى تاريخ الغناء — وقفةَ أهرام الجيزة فى الخلود والبقاء ، وهم : السيدة أم كلثوم ، والفنان القدير .. مطرب الأجيال محمد عبد الوهاب ، ثم عبد الحليم حافظ . وقد ارتقوا بالأغنية : كلمة ولحنًا وأداء ، إلى درجة الإعجاز الفذّ ، ورفعوا دور الأغنية من مستوى دغدغة الغرائز إلى منزلة السمو بالعواطف . ومن الصدف العجيبة أن عبد الحليم — مثل أم كلثوم — لم يحاول أهله أن يحافظوا على تراثه .. كما لم تحاول بلاده — أيضًا — تخليد ذكراه بالقدر الذى يستحق .!!

حين يتأمل الإنسان دور هذا الثالوث المطرب ، يتقطع قلبه حسراتٍ على ما أصاب عالم الغناء بعدهم من هبوط وإسفاف ، لأن مطربى اليوم مثل تلاميذ « مدرسة المشاغبين » .. جيل بلا أساتذة .. ولا موهبة أصيلة .. ولا ذوق رفيع .. ولا يقيمون هدفًا يسعون إلى تحقيقه .. سوى المال ، المال من أقصر طريق ... وبأقل مجهود . لكن أرض مصر لنْ تعقمَ أبدًا .. والأمل أن تواصل حركة الفن مسيرتها بمولد مطرب ، يسعى للقيام بدور فنى مُلتزم ، ينقذُ عالم الغناء من المستنقع الذى هَوى فيه .. وانحدر إليه ، وما ذلك على الله بعزيز .!!

***

من أتعس الكوارث التى قد تُصاب بها بعضُ المؤسسات ذات الطبيعة النوعية الخاصة — مثل « الجامعة » و « القضاء » — أن تتدخل « السلطةُ » فيها ، لأن ذلك يفتح الأبوابَ والنوافذ لخرابٍ لا يسهل إصلاحُه . يبدو أن السيدة جيهان كانت تُخطط لمستقبل عريض لنفسها

.. حتى بعد وفاة زوجها ، فأرادت أنْ تمسك المجدَ من أطرافه . فبعد أن ظهرتْ « نجمة » فى مجال العمل الاجتماعى ـــ بعد الاستيلاء على مشروع « النور والأمل » ، وتحويله من مشروع خيرى عام إلى مشروع استثمارى خاص ـــ قامتْ بدور تمثيلى .. وإعلامى كبير مع مُصابى حرب أكتوبر .
بعد ذلك كله حصلتْ على شهادة نجاح فى الثانوية من مدرسة أجنبية ، وأصرتْ أن تدخل الجامعة . ومن سوء الحظ أنها اختارتْ كلية آداب القاهرة ، والأدهى من ذلك أنها نُصحتْ من بعض المقربين .. أو المستشارين أنْ تتخصص فى اللغة العربية . كان من نكد الدنيا أن تحصل طالبة على شهادة الثانوية من مدرسة إنجليزية (G. C. E.) ، ثم تدخل قسم اللغة العربية . وتمَّ لها ما أرادتْ .. خلال العام الجامعى ٧٤ / ١٩٧٥ . وعندما كانت فى السنة الأولى لم تحضر المحاضرات .. ولكن المحاضرين معظمهم سعوا إليها ، وتنافسوا فى الاقتراب من « الستّ الريِّسة » ـــ كما كان يُطلق عليها بعض ضباط الأمن المرافقين .

وإذا كان الغيابُ عن المحاضرات جائزًا ، فإن الغياب عن الامتحانات مستحيل ، على الأقل حتى يعلم القاصى والدانى أن الطلبة سَواسية ، وأن السيدة العظيمة تؤدى الامتحان أمام اللجنة . وكانت أيامُ الامتحانات ـــ مثل أيام الأوكازيونات .. من لا يشترى فيها يتفرج .!!

كانت امتحانات الفرقة الأولى والثانية تتمُّ ـــ عادة ـــ بعد الظهر من الثالثة إلى السادسة مساءً . وقد رأى صاحبُنا بعينىْ رأسه كيف أن سيادة العميد والوكيليْن ، كانوا ينتظرون تحت شجرة ـــ فى عزّ الحرّ ـــ أمام الباب الرئيسى للجامعة ، حتى يهل الموكب العظيم ، ويرحبوا هم .. ومن

يطمعُ فى الحصول على الرضى — وما أكثرهم — بالسيدة « الأولى » ، ويصحبوها فى موكب مهيب إلى لجنة الامتحان . وكى تتم التمثيليةُ فصولاً .. يأتى بعض الصحفيين ومصورى السينما والتليفزيون لتصويرها ، وهى تجيب عن أسئلة الامتحان .!!!

كان بعضُ الأعضاء داخل القسم .. وكثير من الناس خارجه ، لا يستطيعون تفسير « ظاهرة النبوغ الذى يظهر بعد الأربعين » ، لأنها كانت تحصل على تقدير « ممتاز » دائمًا فى المواد كلها ، طوّال سنوات الدراسة ...!!

إن الناسَ هم الناس — سواء أكانوا أساتذة .. أم بشرًا عاديين — يغريهم ويغويهم البريقُ . وقد استجاب كثير من الزملاء الأفاضل والأساتذة الأجلاء لكل الطلبات ، بل كانوا أحيانًا يتطوعون لتقديم الخدمات ، وشرح بعض المقررات ، التى اعتذر أصحابها الجادون عن التدريس للدفعة كلها .. أو عن إعطاء درسٍ خصوصى لتلك السيدة الأولى .. والتى لن تكون الأخيرة ..!!

وقد قبض كثيرٌ ممن قدموا الخدمات — فى القسم .. والكلية .. وإدارة الجامعة ، — الثمنَ فورًا .. وتنقلوا فى وظائف مرموقة فى الداخل أو الخارج ، أو أخذوا أجهزة تليفزيون لحجرات النوم ، أو شُققًا .. ووحداتٍ سكنية ، من التى توزعها محافظة الجيزة . وقد لا يخلو الأمر من صندوقين من زجاجات « سفن أب » و « سُبورت كولا » ، التى تساهم فى شركتيْهما . بل إن السيدة العطوف كانت لا تنسى فى بعض المناسبات أو الأعياد أن تُرسل حلوى المولد النبوى وكعك العيد .. لمن

يرضون عنها .. وترضى عنهم .!!

وإذا كان هناك كثيرٌ من الأساتذة الكبار والصغار ـــ على حدٍ سواء ـــ قد استجابوا بسخاء وأريحية للظاهرة « الجيهانية » ، ورضخوا لكل مطالبها ، فالذى لا شك فيه أن هناك قلة قليلة أبتْ ذلك بكبرياء وشموخ . ورفضتْ التدريسَ للدفعة كلها .. أو على الأقل رفضتْ إعطاء دروس خصوصية « للسيدة الرئيسة » ، ومن هؤلاء الرجال العظام أستاذنا الجليل المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهوانى . وهناك غيره بعضُ الأساتذة الشبان ، الذين رفضوا ذلك بكبرياء العالم .. وشموخ الإنسان الملتزم .!!

أيًا ما كانت المكاسبُ المادية .. التى حصَّلها بعضُ من باعوا ضميرهم العلمى .. أو على الأقل .. لم يحترموا شرفَ المهنة ، التى يرتدون عباءتها ، فالذى لا شك فيه أن وجودَ هذه السيدة ، أدى إلى مشكلة أخرى جد خطيرة .. وهى يقظةُ رجال الأمن فى الاستماع إلى محاضرات أساتذة القسم . وكانت المحصِّلة الطبيعية لهذا أن القسم فُصل منه (ستة) أعضاء ، فى قرارات ٥ سبتمبر ١٩٨١ السوداء ، وحُولوا إلى وظائف أخرى فى جهاز الحكم المحلى ووزارة الشئون الاجتماعية أو هيئة تعمير الصحارى .

ويبدو أن ثمة قائمةً أخرى كانتْ فى الطريق ، لكن « حادثة المنصة » أغلقت بابَ فصل أعضاء آخرين جُدد فى القسم نفسه ، بل لقد ساعدت على عودة المفصولين مرة أخرى إلى القسم فى مارس ١٩٨٢ م .

إزاء ذلك كله قرر صاحبنا ـــ عامدًا ـــ أن يبتعد عن القسم ، وأن

يخرج فى إعارة ، حتى لا يُشارك فى هذه المهزلة ، وحتى لا يدرِّسَ لها فى القسم أو خارجه .. أو يصحح لها ورقة إجابة قط . وقال — فى نفسه — مرددًا قول الإمام الشافعى :

تغربْ عن الأوطانِ فى طلب العُلا
وسافرْ ففى الأسفارِ خمسُ فوائدِ
تفريجُ همٍ ، واكتسابُ معيشةٍ
وعلمٌ ، وآدابٌ وصُحبةُ ماجدِ

***

تغريبة « أبو محمد »

هناك سببان « وجيهان » لخروجه من مصر فى سبتمبر ١٩٧٧ ، الأول أنه أنهى البحوث العلمية المطلوبة للترقية لدرجة « أستاذ مساعد » ، والثانى هو الرغبة فى تحسين الدخل . إن الفقر ليس عيبا .. لكنه فى هذه الأيام الصعبة صار مذلةً وهمًّا ، لأن الغلاء أخذ يشد قبضته ويبرز أنيابه ، كما أن أبواب السفر والخروج ــ التى كانت شبه مغلقة فى عصر عبد الناصر ــ فُتحتْ على مصراعيْها فى عهد السادات . وقد بدأت الأسعار ترتفع ارتفاعا جنونيا ، كان من نتائجه انتفاضة الفقراء فى ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ ، التى سماها الرئيس بسخريته المعهودة « انتفاضة الحرامية » !! ، لأن وزارة « ممدوح سالم » لم تُرح الفقراء الذين حققوا نصر أكتوبر ، كما أن أصحاب المهن الحرة والحرف الخاصة ، زادتْ دخولهم بطريقة خيالية ، بينما وقف الموظفون والفقراء « محلك سِرْ » . وكانت شعاراتُ المتظاهرين من الطلاب وغيرهم تشير إلى أنهم « طالبو قوت » ، ومتضررون من الغلاء . ورغم ثورة الفقراء لم يستجب لاستغاثتهم أحد ، وظل الخط البيانى للأسعار فى ارتفاع مستمر مجنون .!! ولم يكن ثمة شيء يقدم سوى بَيع الأمانى الكاذبة بسنوات رخاء ، لا يعلم إلا الله متى تأتى ..!!

وقد شاهد بعينيه .. وسمع بأذنيه ما حدث فى هذين اليومين

العصبيين (١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٦) ، حيث بدأت المظاهرات من الجامعة .. وامتدت إلى الشوارع المجاورة . لم يكن للمتظاهرين مطلب سياسى محدد ، وإنما كانت معظم الشعارات تناشد « ممدوح سالم » رئيس الوزارة ــ حينذاك ــ بأن يرأف بحال الجوعى والفقراء .. الذين لا يجدون رغيفا أو ثوبا أو حذاء .

ومن الشعارات التى رددها الجائعون :

* « إنت تلبس آخر موضة .. وإحنا نرقُدْ سبعة فى أوضة » .

* « ممدوح بيه ممدوح بيه .. ليه الجزمة بعشرة جنيه » .

* « تعيشى يا مصر .. يا أم الكوخ والقصر » .

لكن وزير الداخلية تصدَّى للمظاهرة والمتظاهرين بقسوة بالغة ، خاصة وأنها لم تكن قاصرة على مدينة القاهرة وحدها ، وإنما امتدت إلى كثير من المدن والقُرى فى الشمال والجنوب . ولم تكتف وزارة الداخلية بقمع الانتفاضة وضرب المتظاهرين فى الشوارع والجامعات فحسب ، وإنما أعقبتْ ذلك حركة اعتقال واسعة ، لكثير من مفكرى اليسار ، الذين اتهموا بالتحريض ، وأنهم يمثلون « اليسار المغامر » .

وقد ألقى القبض على صديقه الدكتور عبد المنعم تليمة فى أعقاب هذه الأحداث ، وقد ترك هذا آثارًا سيئة على نفسيته . يا للمأساة .. أبناء مصر الذين حققوا نصر أكتوبر ١٩٧٣ يضربون ، لأنهم اشتكوا وقالوا إننا جوعى . هكذا يتأكّدُ ما قيل من أن نصر أكتوبر حققه أبناء مصر جميعا .. لكن « الشطار » وحدهم هم الذين قبضوا الثمن ، وأثروا فى ظل سياسة الانفتاح ، التى أباحتْ لهم أن يمتصوا عظام الفقراء ، وأصبح

يصدق عليهم ما لقبوا به .. وهو « القطط السِّمان » ، وإن كان بعضهم قد تحولوا إلى « أبقار سمان » .!!

خلال الفترة التى تعطلت فيها الدراسة عقبَ هذه الأحداث المؤسفة ، جلس أبو محمد مكتئبًا حزينا ، وكتب قصة ... بعنوان « النيل .. يعزف أسطورة الميلاد »[1] . وهذه القصة ـ التى استغرقتْ كتابتها ثلاثة شهور ـ تدور فى إطار عالم فرعونى متخيل ، يشكل معادلاً فنيا لبعض ما كان يؤرقه من هموم وطنية .

وقد ورد فيها على لسان فلاح فقير ، يشكو إلى الحاكم ما حلَّ ببلده ـ دون أنْ يدرى :

« إن هؤلاء الحراس والكتبة قد تعلموا فى مدارس طيبة
وأجريتَ عليهم ـ من عرق شعبنا ـ الأرزاقَ والطيبات
بيد أنهم لا يخلصون لحاكم أستأمنهم
ولا يعدلون بين رعيةٍ ، تولوا أمرها
لقد رأيتهم ـ بعين الحكمة ـ يستولون على حنطة فلاح عجوز
من قريتى ، ولم يتركوا لصغاره حتى الشعير
وساوموا تاجرًا على أن يعفوه من الضرائب
إذا أهداهم ابنته الجميلة !!
نما الفساد يا مولاى .. وظهرت له أيادٍ مسنونةٌ كأنياب أفيال .!!
السمكُ الكبير يحاول أكل السمك الصغير

---

(١) مجموعة « عمار يا مصر » ص ١٤٥ .

وليس ثمة شباك يمكن أن تصيده

إنه يقطع كل شبكة تحاول الاقتراب منه .!!

أينما تولى وجهك .. فثم آثام وآلام .!!

أخشى يا مولاى أمنحوتب الثالث

أن يتحول الوادى الأخضر إلى أرض خراب

والحيثيون رغم الهزيمة النكراء

فى البحر والصحراء

ما زالوا ينظرون .. وربما ينتظرون . »

وبعد أن يستمع الملك إلى شكوى « الفلاح الفصيح » يستنكر أن شيئا من هذا ، يمكن أن يحدث فى مملكته ، وإذا كان قد حدث فلِمَ لم يشك إليه أحد ، فيجيبه :

« كيف يشكو الجائع الخائف يا مولاى .؟!

ضعْ فى يده اللقمة ينطلق ، ازرعْ فى قلبه الأمان ينطق

حذار من دعوة المهضوم وصرخة المظلوم

إن شعبنا وديع مسالم .. ولكن ما أقسى غضب الحليم .!!

معصومٌ كل من يرى الحق ببصيرته

مباركٌ كل من يجعل العدلَ مقصدَه ، والحرية غايته

والويل .. الويل .. لمن يرى بعيون الناس .!! »[1]

***

---

(١) عمار يا مصر ١٥٤ — ١٥٧ .

أحس أنه ربُّ أسرة ، يجب عليه أن يبحث لها عن مصدر رزق مشروع ، خاصة وأن ولده محمد أصبح فى الثالثة الإعدادية ، ومُنى فى السادسة الابتدائية ، ومؤنس فى الثالثة الابتدائية . كما أن زوجته أم محمد تُطالب بحقها فى « تليفزيون مُلوَّن » ، مثل كثيرات من زوجات الأصدقاء والجيران . بالإضافة إلى أن جنيهات الوظيفة كانت تنفد قبل منتصف الشهر ، وأثاث البيت فى حاجة إلى تجديد .....!!

وقد قُبل طلبه للعمل فى الجامعة (الوليدة) « جامعة الإمارات العربية المتحدة » . وقد وافق القِسمُ والكلية .. لكن رئيس الجامعة — آنذاك — لم يوافق ، وطلب مقابلته .

ذهبَ إلى لقائه .. يضرب أخماسًا فى أسداسٍ ، وهو لا يعلم سرَّ هذا الطلب الخاص .. المفاجئ .

استقبله رئيسُ الجامعة بوُدٍّ ، وأخذ يحدثه فى بعض أمور عادية ، كأنهما أصدقاء . طال الحديثُ ، ولم يعرف بعدُ سرَّ استدعائه ، بعد مدة ، قال له :

* لماذا تريد أن تُعار إلى جامعة الإمارات بالتحديد .؟

* إنهم أعلنوا .. ثم قدمتُ طلبا ، فوافقوا .. وأعطيتهم كلمة .

* لكن .. أنت موظفٌ فى الجامعة ، والجامعة بينها وبين بعض الجامعات علاقاتٌ خاصة ، لذلك فإن لتلك الجامعات الأولوية عندما تطلب بعض الأساتذة .

تعمد أن ينظر إلى عينيه خلف المنظار ، ثم سأله :

* ماذا تقصد سيادتك .؟

* أن تُحوِّل إعارتك إلى جامعة ....

انتفض كالملدوغ : مستحيل .

فرد عليه فى ثقة : أنت شابٌ فلا تندفعْ ، وناقشْ الأمرَ بهدوء .!

طال الحوارُ .. لكنهما لم يصلا إلى نقطة لقاء ، أحس أنه يتلقى إهانةً غيرَ متوقَّعة ، فقال بإصرار ، وهو يهمُّ بالوقوف ، رافضًا المساومة :

* أذكِّر حضرتك بما قلتَ لى ، وهو أنى موظف فى الجامعة ، وقد طلبتُ الخروج إلى جهة معينة ، ومن حق الجامعة أن تقبل طلب إعارتى أوْ ترفضه ، لكنى لنْ أذهب إلى جهة أخرى .

* أنت مُصرٌ على رأيك .؟!

* نعم .

* سأوافق على طلبك ، ما دمت مُصرًا .

صافحه شاكرًا .. وخرج مزهوًا بانتصار رأيه . لا يدرى لم تذكَّر فى هذه اللحظة شخصية « خُولى الأنفار » فى القرية ، الذى كان يجمع العمَّال للعمل فى حقول الأغنياء ، ويأخذ على كل « نفرٍ » إتاوةً معينة ، حاول أن يُبعد هذا الخاطر الغريب عن ذهنه .. غير أنه لم يستطع .!

***

كلما اقتربَ موعدُ السفر ازداد حيرةً وقلقا ، إن اسمه بدأ ينتشر فى دائرة الثقافة .. وعبْرَ ميكروفون الإذاعة .. وعلى صفحات الجرائد .. والمجلات ، والحياة لا تتوقف لغياب واحد ، أو حتى لرحيله عن الدنيا كلها . أليس ذلك الغياب بكافٍ لهدم ما بناه .؟!

ثم هناك ما هو أخطر من المجد الثقافى المزعوم ، وهو بقاءُ الأسرة

وحدها ، فامرأته سيدة بيت .. ريفية ، لم تتعوَّد على الحياة — وحدها — فى مدينة مزدحمة مثل القاهرة ، والأولاد فى حاجة إلى رعاية ودروس خصوصية ، ثم إلى عطاء مستمر وحنان دائم ..!! فمن يمكن أن يفعل كل هذا لهم .؟! وهل يمكن تربية أسرة بالمراسلة .؟! لكن أليس هذا كله من أجلهم ، حتى يوفر لهم حياة كريمة ، ويغير أثاث البيت الذى كاد يتحطم .؟!

عندما ذهب لوداع أمه ، لم تقل شيئًا بعد أن فُوجئت بالخبر ، غير أنها لم تستطع أن تحبسَ دموعها ، وهى تُسلِّم عليه ، وقالت :

* إذا متُّ وأنت غريب ، فمن سيحمل نعشى ، ويقيم لى مأتما .؟!

* لا تقولى هذا يا أمى .. أطال الله عمرك .

ظل طوال الطريق من المنصورة إلى القاهرة ، لا يستطيع أن يُبعد خيال أمه الباكى عن ذهنه المرهق ، لقد تعوَّد لديها حاسة رهيفة على التنبؤ ، تُرى ماذا تحمل هذه الرحلة ، وأىّ مصيرٍ يُخفيه القدر .؟!

حين شاهده أخوه محمود متأثرًا ، قال له :

* لا تحزنْ .. فأنا أعلم أنك قادرٌ على التكيف ، ثم لا تنس أن الرسول الكريم خرج من مكة حزينًا مُكرها ، لكنه عاد إليها بعد ذلك فرحا منتصرا . الخروج دنيا جديدة .. والغُربة عالم متجدد ، واحتكاك وتعرُّف .. وانتشار وانتصار ، فتوكل على الله ، ولا تخفْ على أمك أوْ على أولادك .

لم يغمض له جفنٌ ليلة السفر ، كأنه ذاهب إلى معركة . ظل طوال الليل يُوصى الزوجة بالأبناء خيرًا ، ويتأملهم — وهم نائمون — باكيا

حزينَ البال مكسورَ الخاطر مجروحَ القلب ، لكن لم الحزن يا صديقى .. أليس هذا هو اختيارك .. وقرارك ..؟!

زادتْ الرحلةُ من تشاؤمه ، فقد تعطلت الطائرةُ ، وعاد إلى البيت ، لأن الموعد تأجَّل من الثامنة صباحا إلى الرابعة مساء ، قال إنها فرصة للبقاء فترة أطول مع الأسرة ، بيد أن الطائرة لم تقلع إلا مع انتصاف ليلة الخميس ٢١ سبتمبر ١٩٧٧ ، وهكذا بقى ليلتيْن لم ينمْ .. وأحس أن الطائرة تحمله جسدًا بلا روح . عند الإقلاع : « سقطتْ دمعة حارة من عينيه ، وهو يهتف من أعماقه صارخا فى وادى ضميره : عمار يا مصر .. عمار يا مصر .. سأعود .. سأعود إليك . »[1] .

***

هبطت الطائرة — التى تراءت له مثل عربة « الترحيلة » — فى السادسة من صباح الخميس ٢١ / ٩ / ١٩٧٧ بمطار أبو ظبى . عندما فُتحت الأبوابُ قوبل بموجة كثيفة من بخار الماء ، تُغلِّفُ إطارَ الكون ، وبدتْ الشمس عموديةً فوق اليافوخ ، أحسَّ أن سُلَّم الطائرة يهْوِى به إلى عالم مجهول .. تغلفه « شبُّورة » تحجبُ الضوْء والوعى .!

سارتْ بهم عربة « العلاقات العامة » بالجامعة ، التى جاءت تستقبلهم إلى مدينة « العين » ، حيث توجد الجامعة . تلفتَ يمينا ويسارا ، أمامًا وخلفا ، فلم يجد سوى صحراء تمتدُّ بلا نهاية ، إلى أن تلتقى تلالها الصفراء بالأفق البعيد . بدا ضوْءُ الشمس مُبهِرًا يُغْشى البصر ،

---

(١) قصة « عمار يا مصر » ص ٢٧٧ .

والرطوبة أصابتْ أجزاء الجسد العريانة بلزوجة مالحة . أخيرا .. وصلوا إلى مقر شئون العاملين ، حيث عُبِئَتْ استمارات استلام العمل ، وأخذ كل واحد خمسة آلاف درهم « سلفة » ، لكى يدبر بها شئونه الخاصة ، حتى تتم تسوية المعاملات ، وصرف الرواتب بعد مدة . حين تسلم خمسة الآلاف درهم ، أخذ يُقلبها فى يده .. وفى رأسه ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ، يريد أن يعرف كم جنيها تساوى بالعملة المصرية ، لكن ذلك يتطلب تحويل الدراهم إلى دولارات ، والدولارات إلى جنيهات . لم يستطع أن يُدبِّر الحسبة بالضبط ، لكنه أدرك أن هذا أكبر مبلغ أمسكه بيده منذ ولد حتى تلك اللحظة ..!! ابتسم ساخرا فى داخله ، وهو يقلب الدراهم ، ويحدّث نفسه .. صدق منْ قال :

إن الدراهـــم كالمراهـــم   تَجْبُـر العظـمَ الـكسيرا

ليس هذا المبلغ الضخم الفخم هو المفاجأة السعيدة الوحيدة ، وإنما كانت هناك مفاجأة أخرى أروعَ من الأولى ، لأنه سوف يقيم فى فندق « هيلتون » العين ، حتى يُدبِّر أمرُ السكن الخاص .

دخل الغرفة المكيفة المؤثثة — كما دخل صلاح الدين عكا — واستلقى على السرير منبهرا بهذا السعد ، الذى هبط عليه دون توقع ، ثم أردف مخاطبا نفسه بسخرية : « والله لقد صبرتَ .. ونلتَ يا أبا محمد ..!! » أخذت عيناه تتأملان أثاث الغرفة ، وتتنقل بين الثلاجة الصغيرة والتليفزيون الملون ..!! لم يدر كيف استسلم للنوم ، وهو لا يزال بملابس السفر كاملة ، لأنه لم يسترح جسديا أو ذهنيا .. و لم يذق النومَ مدة ثلاثة أيام وليلتيْن كاملتين .

***

لم تكن الجامعةُ قد أعدت للافتتاح بعدُ ، لكن لا بد من الذهاب إليها كل يوم . وهناك لقاءات مع مدير الجامعة .. وعميد الكلية .. وأخيرا مع وزير التعليم الذى كان شابا خلوقا من خريجى قسم التاريخ بآداب القاهرة منذ فترة قصيرة ، وقد تحدث إلى الجميع بأدب بالغ ، ورحَّب بهم — على اختلاف جنسياتهم — وذكر أنهم فى بلدهم الثانى ، وأن بلده تُعلق آمالاً كُبرى على الجامعة ، وهذه الآمال لن تتحقق إلا بمعاونة الأساتذة ، الذين دققوا كثيرا فى اختيارهم نُخبةً منتقاة .

الكارثةُ العظمى .. أو المصيبة الناقعة — كما بدتْ له بشكل مأساوى — حين قام بعضُ الأساتذة الكبار فى السن ، لكى يردوا على الكلمة المتواضعة للوزير ، وأخذوا يتكلمون فى أى شىء — رغبةً فى الظهور واستعجال التعريف بأنفسهم ، أملاً فى الحصول على وظيفة وكيل كلية .. أو رئيس قسم .

وقد استفزت ثائرتَه كلمةٌ لأستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر ، ختمها بقوله :

* لقد جئنا إلى هنا يا معالى الوزير ، لنكون خُدَّامًا للعلم .

يومها لم يستطع أن يهنأ بطعام أو شراب أو نوم ، وانزوى فى حجرته مكتئبا حزينا . خرج فى المساء يتمشى فى حديقة الفندق ، فوجد ذلك الرجل بعينه أمامه وجهًا لوجه ، تطلع إلى لحيته البيضاء ، وعينيه تلمعان خلف المنظار ، وصلعة رأسه الملساء ، فقال له :

* لقد خذلتنا يا دكتور .. (خذلك الله ، قالها فى نفسه) كيف تقول إننا جئنا إلى هنا « خُدَّامًا » .؟!

* قلتُ خُدّاما للعلم .

* المعنى واحد .. العلمُ رسالة يا أستاذ .. والمعلم صاحبُ فضل أينما حل . شوقى يقول « كاد المعلم أن يكون رسولا » ، وأنت تريد أن تجعله « خادما » ، لا .. لا .. لقد كسفتنا يا رجل . (تعمَّد ألا يقــول يا أستاذ .)

بعد حوار طويل قال : إنها فلتة لسان .. أرجو المعذرة .

بكل أسف .. أكدت الأحداثُ فيما بعد ، أن الرجل كان على استعدادٍ ، لأن يقول أى كلام .. أو يفعل أى شىء ، من أجل أن ينال منصبا .

ماذا يفعل المالُ بالبشر ... وكيف يُنسى العالمَ علمَه .. ويُذهل الوالد عن ولده .؟ المال شىء مهم .. وضرورى بالنسبة للحياة ، فهو وسيلة تستعبدها — إن أردتَ ، وإذا اعتبرته غايةً تستعبدك صرتَ له عبدًا ، وقبلتَ أن تفعل أى شىء .. أى شىء من أجل الحصول عليه .!! المال هو الشىء الذى قد يُنسى المرءَ كرامته ، وهيبةَ علمٍ يحمله ، أو منصبٍ يديره ..!!

تعالى اللهُ يا سلْمَ بنَ عمْـرٍو　　　أذلَّ الحرصُ أعنـاقَ الرجـــال

تركه وانصرف ، فقد بلغ الضيقُ بصاحبنا مداه .. لأن أستاذًا للعلوم قد نسى مكانة العلم الذى تعلمه ، وهيبة جامعة الأزهر التى ينتسب إليها ، ووقار لحية بيضاء — أطلقها من أجل « الضحك على الذقون » ، وساء ظنه بذلك الرجل .. وبكثير غيره فى مثل سنه ، وأخذ يردد محدثًا نفسه ، وهو يصعد الدرج إلى أعلى :

يا حُماةَ العِلْمِ يا مِلحَ البَلَدْ　　من يُصلحُ الملحَ إذا الملحُ فسدْ ؟

***

بدأت سلسلةٌ من الاجتماعات مع السيد عميد الكلية ، وهو أستاذ عراق متخصص فى الجغرافيا ، وقد تجاوز الخمسين بثلاث سنوات تقريبا ، أخذ يُلقى عليهم محاضرة مكررة يوميا ، تدخل تحت بند « عملية غسيل المخ » ، يؤكد فيها أن معظم الجامعات العربية تدرس بالطريقة التقليدية ، التى تعتمد على محاضرات الأساتذة طوال السنة ، ثم يأتى امتحان واحد أخير فى نهاية العام . لكن الجامعة التى سوف نُعلِّم فيها تعتمد على الطريقة الأمريكية الحديثة ونظام « الساعات المعتمدة » (Credit Hours) . وأخذ يعدد مساوىء ما أسماه بالطريقة التقليدية ، ومزايا ما أسماه بالطريقة الحديثة « الأمريكية » .

غير أن مرارة صاحبنا لم تتحمل هذا النقد ، ورأى فيه إهانةً للجامعات المصرية ، التى تعلم فيها هذا الأستاذ نفسه ، وحصل على كل درجاته العلمية ، فرفع يده طالبا الكلمة ، وقال :

* من حق هذه الجامعة الجديدة أن تُعلِّم بالطريقة التى تريدها ، ومن واجبنا أيضا أن نلتزم بذلك ، لكن السخرية من نظام الدراسة فى جامعات عريقة أمر غير مفهوم .. وغير مقنع أيضا .

كادت تحدث أزمة بين الاثنينْ ، لولا أن بعض الزملاء تدخل محاولاً تقريب وجهات النظر ، وأقروا رأيه فى أن الحديث يجب أن يُوجَّه مباشرة إلى نظام التدريس فى هذه الجامعة دون سواها .

بعد ذلك صحبه زميل مصرى كان مقيما فى كندا ، وجاء للعمل

بقسم الاجتماع ، هذا الشاب هربَ من مصر .. ومن جامعته ، لأن رئيس القسم أراد أن يكرهه على الزواج من ابنته ، فترك الفتاة وأباها والقسم ومصر كلها .!!

قال الزميل : يبدو أنك حساس جدا ، وقد تكون هذه الحساسية ميزة في بعض الأحيان ، لكنها مع الغربة تجعل الحياة جحيما لا يُطاق .

* لكنه ينتقد جامعات مصر التى تعلّم هو فيها .

* وهل أنت محامى الدفاع عن جامعات مصر .؟

* لكنى مصرى أولاً .. وأخيرًا .

* حتى هذه أيضًا ، يجب أن تنساها يا صديقى العزيز .!!

ردَّ عليه بانفعال : وإذا نسيتُ هذه ، فماذا يبقى .؟!

أخذ يستعيد شريط الأحداث ، ويفكر فى كل ما قيل وما قال .. لكنه ازداد إصرارا على رأيه ، وهنا تذكّر مثلا كانت أمه تردده كثيرا :

« من يعش يرَ كثيرا ، ومن يمشِ ير أكثر . » .

***

شيئا فشيئا بدأ يُجمّع أطرافَ الصورة العامة للهيئة التدريسية فى الجامعة ، ابتسم ساخرا وهو يقول لنفسه :

هذه ليستْ جامعة الإمارات ، وإنما جامعة الدول العربية ، فهناك أعضاء من مصر والأردن وفلسطين وسورية ولبنان والعراق ، ومن العرب المهاجرين ، الذين يحملون جنسيات مختلفة .

ومن الغريب أن التعامل الفردى .. وأحيانا العام بين الجميع ، يكاد لا يخلو ـــ أحيانا ـــ من حساسية إقليمية ، بالطبع كانت الغلبة للإخوة

العراقيين — مع أنهم لا يشكلون كثرة عددية — لأن مدير الجامعة عراق . ومن العجب العُجاب أن الجميع كانوا يتعاملون بقدر من التعصب لأبناء بلدهم ، وبقدر من العداوة لغيرهم .. ما عدا الإخوة المصريين ، الذين لا يتعاملون فى الخارج وحدةً .. وإنما (أفرادًا) ، لكل منهم هواه الخاص .. ومزاجه الشخصى .. وسلوكه الفردى .. الذى تُمليه عليه مصلحته الخاصة فحسب .!!

لم يكن صاحبنا متعصبًا لبلده .. وهو فيها . وكان متعاطفا أشد التعاطف مع كل الإخوة العرب ، الذين جاءوا يدرسون فى القسم ، لكنه وجد أن الحسابات هنا مختلفة فى كثير من الأمور ، وأن الحياة تتطلب قدرا من التغاضى والتغابى عن أشياء كثيرة ، وتتطلب أيضا بعض المجاملة .. وربما أيضا بعض النفاق ، وربما بعض الغيبة والنميمة .. وقدرًا من « الفشر » وتأليف مواقف « عنترية » ، لإثبات الذكاء والفهم والمعرفة وحسن التصرف .. وأخيرا قدرة على الادعاء تُوحى بأن المتكلم أول العلماء وأفهم الفهماء ، وتلك أمور لا يجيدها صاحبنا ألبتة .. ولا يستطيع أن يغيِّر لون فكره وعاطفته ، مهما كان الثمنُ .. ومهما كانتْ النتيجة .!!

***

بعد مدة تسلم فيلا مكونة من دورين .. وبقى فيها وحيدا ، لأنه وطن نفسه على ألا تحضر الأسرة إلا فى العام القادم ، بعد أن يتعرف بشكل جيد على الواقع الجديد ، وبعد أن يتم ولده محمد المرحلة الإعدادية . وتحصل ابنته منى على الشهادة الابتدائية .!!

وقد سببت له هذه (الوحدة) فى السكن « أزمة » عاصفة ، لم يكن يعمل لها حسابا بالمرة ، ذلك أن السيد مدير الجامعة رفض فى البداية أن يسكن مع الأساتذة ، لأن هذا يُفقد هيبته — فيما رأى ، وطلب سكنا له وحده بعيدا ، كأنما ظن نفسه واحدا من الشيوخ أو الأمراء ..!! غير أن كل المساكن المعروضة لم تعجبه .. ورغب فى فيلا من الفلل التى خُصصت للأساتذة . لكن المساكن كلها كانت قد سُكنت ، ومعظم الموجودين معهم أسرهم ، ومن يعيشون وحدهم كانوا بدرجة « أستاذ » ، ويصعب طلب ذلك منهم . و لم يبق إذن سوى صاحبنا ، ذلك المدرس الشاب ..!!

ذات ليلة جاءه زميلان مصريان .. أحدهما يعرفه والثانى لا يعرفه . أما المعروف فقد جاء للتعريف فقط ، وأما المجهول فقد قال له :

* آسف ، لأنى جئت إليك برسالة .

* لا داعى للمقدمات ، تكلم بصراحة .

* سيادة مدير الجامعة يطلب منك أن تُخلى السكن ، وسوف يطلب من إدارة الجامعة تدبير سكن لك فى أى منطقة تريد .

أخذ الصديق المشترك يُهوّن الأمر ، ويطلب منه الموافقة ، لكن صاحبنا صمت فترة مفكرا ، بعد أن فوجئ بالطلب ، ثم قال :

* اسمع يا دكتور .. قل للمدير إننى لم أجده ، ويستحسن أن تتصل أنت به .

* وإذا اتصل فما هو ردك ..؟

* لا .. وألف لا .

* لماذا .؟

* لن أخرج من هنا إلا إلى المطار .

* لم كل هذا .؟

* هذا شأنى الخاص ، لقد أقمتُ فى هذا السكن ، وإدارة الجامعة هى التى حددته لى منذ أسبوعين ، ومن غير المعقول أن أتركه لأى سبب اليوم .

* سوف يدبرون لك سكنا آخر مناسبا .

* اسمع يا دكتور .. إنى لم آتِ إلى هنا من الشارع ، وإنما من جامعة محترمة ، ومن حقها علىَّ أن أتصرف باحترام .. ولا أرضى الدنية .

* لم تُكبّر المسألة .؟!

* المسألة كبيرة بالفعل .. وهذه قضية مبدأ ، فى الأمور الخاصة كل إنسان ، يتصرف بما يعتقد أنه يحفظ كرامته . وأنا أرى أن خروجى من هنا يمس كرامتى .. وإذا طُلب منى الخروج ، فسوف أخرج إلى المطار وأعود إلى جامعتى .

* على كلٍ .. ما على الرسول إلا البلاغ .

* قلت لك رأيى إنْ كنتَ شجاعا فانقله حرفيا .. وإلا فقل للمدير يتصل بى ، وسوف أقوله أنا له .

استمرت هذه الأزمةُ شهرا بطوله .. وتوسط فيها الكثيرون . لكن صاحبنا أصرَّ على موقفه . وصمم ألا يخرج من سكنه ، حتى لو كان الذى يطلب ذلك منه هو مديُر الجامعة نفسه .

كان هذا أول موقف صعب واجهه ، لكنه أصر على رأيه ، وبقدر

ما نال من احترام البعض ، فإن عميد الكلية — وهو عراق أيضا — بدأ يكثر من مضايقته إرضاء لولى نعمته ، الذى جاء به إلى هذا المنصب .

ما أكثر المهازل .. والمآسى ، التى تحدث فى أثناء الإعارة . ومن المؤسف أن الناس — هناك — لا يختلفون حول قضايا علمية أو فكرية ، وإنما فى أمور حياتية جدّ تافهة .. ورخيصة . ومن العجيب أن الزملاء جميعا عرب ، دين واحد .. ولغة واحدة .. وتقاليد مشتركة .. بل تخرجوا فى جامعات متقاربة . لكن الخلافات تكاد لا تنتهى بينهم ، وهم خصوم أشداء مع الزملاء ، لكنهم جميعا مع الرؤساء والوطنيين بردٌ وسلام ، بحيث ينطبق عليهم قول القائل : « أسدٌ علىَّ .. وفى الحروب نعامةٌ » .!!

وقد أغلق على نفسه بابَ داره ، و لم ينجه من أصداء تلك الأزمة ، التى انتصر فيها لنفسه ، سوى كتابة قصة قصيرة بعنوان « عمار يا مصر »[1] ، وكم شفَتْهُ ممارسةُ الإبداع فى الحل والترحال من مواقف وأزمات ، تعرض لها بسبب حرصه العنيد على التمسك بما يراه صحيحا .!!

***

واجه صاحبُنا مصيبةً أخرى ، لم يكن يتوقعها مطلقا ، ذلك أن عميد الكلية تعمد أن يقصر القسم على عضوين فقط — رغم كثرة عدد المتقدمين للعمل .!! حين بدأت الدراسة ظهرت الحاجة ماسة لعضو آخر ، هنا فوجئ الجميع — أو فوجئ هو على الأقل — بزميلة جديدة —

---

(١) قصة « عمار يا مصر » ص ٢٢٧ .

أخت العميد ، وهى عانس فى الخامسة والأربعين .. مكتنزة الجسم ، شعثاء الشعر ، غير مقبولة شكلا أو مضمونا ، أما مؤهلها فهو ماجستير يتيم فى النحو حصلت عليه بتقدير « مقبول » بشق النفس ، و لم يسمح لها بالتسجيل للدكتوراة فى أية جامعة . وكانت تشارك صاحبنا فى التدريس للطالبات ، لأن نظام الجامعة يقوم على الفصل التام بين الجنسين ، فكانت الطالبات — فى الغالب — يهربن منها ، ويسجلن عنده ، وهكذا صار النجاح فى العمل نقمة على صاحبه — كما رأى لأول مرة .!!

الأدهى من ذلك أن القسم لم يكن له رئيس ، وبحكم قانون الجامعات يُصبح العميد هو الرئيس ، وقد حاولت تلك العانس المعقدة أن تدير الأمور كما ترى ، لأنها أخت العميد الرئيس ، وقد حاول أن يشكوها ذات مرة إلى أخيها لكنه تذكّر مثلا كانت تردده أمه .. هو : « كيف تشكو أحمد إلى أم أحمد .؟! » فلم يفعل .. وقد أكدت له الأحداث أنه على صواب ، بعد مواقف كثيرة ، لا ضرورة لذكرها .

وقد ترتب على هذا الوضع الشاذ — الذى لم يكن يرضخ له — بعض المشكلات والخلافات ، مما أدى بدوره — بالإضافة إلى ما سبق — إلى أن يتمادى العميد فى مضايقته .

***

وقعت تلك الكوارث الجسام خلال الشهرين الأولين .. فقاسى مرارة الغربة واكتوى بلظاها ، وأخذ يتجرع همومها قطرة .. قطرة من بئر قطران ، ونظرًا لأنه — لأسباب نفسية خاصة — لا يحب الشكوى ،

ولا يرضى أن يجعل من شئونه الخاصة ، موضوعا لمجالس الفراغ والعبث والنميمة ، كان يجلس وحده فى غرفة النوم بعد أن ينتهى اليوم ، ويدير حوارا صامتا مع الأشياء ، مرة مع النافذة .. ثم الباب .. ثم الدولاب .. ثم المرآة .. ثم مصباح الكهرباء . وأحيانا يمسك بكتاب ، يتحدث إليه بعد أن يعجز عن قراءة سطر فيه . استيقظتْ عند الغريب أشجانه فى السر والعلن ، فى الليل والنهار ، فبات يردد ـــ مع المتنبى العظيم :

بم التعلل .. لا أهلٌ ولا وطنُ   ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سَكنُ ؟

لم تكن الأحزان على الوحدة والغربة والمصائب ـــ التى جاءته دون حساب أو توقع فحسب ، وإنما أيضا على زوجته وأطفاله الصغار ، وعلى الحياة النشطة ، التى كان يعيشها فى القاهرة . تراءتْ له الحياة معادلةً غيرَ مُتعادلة : فإما نشاط وحركة وفقر .. أو ركود وغُربة وغنى ، إنه القانون الأزلى للحياة يا صديقى ، لكىْ تأخذ شيئا ، لا بد أن تُعطى أشياء . ليست هناك حلاوة بلا نار .!!

« الإعارة تجارة » .. تلك هى الحقيقة المرة ، التى بدأت تتضح له وتحرق مشاعره ، إن ما تكسبه ـــ خلال فترة الإعارة ـــ معروفٌ بالضبط .. « حِفنة دولارات » ، يمكن بسهولة أن تُحصى رقمها ، لكن ماذا تخسر على وجه التحديد .. أو حتى التقريب ؟ لا أحد يدرى ..!! لأنه ربما فقدتْ حياتك فى الغربة بسبب أمراض مادية أو نفسية ، تهبط كما يندفع السيل فى يوم عاصف .!!

شيئا فشيئا أحس أنه يعيش فى لظى عدة دوائر محكمة : دائرة البعد عن الوطن ، ودائرة فراق الأهل ، ودائرة البعد عن الأضواء ، ودائرة العزلة عن

مسيرة الثقافة ، ودائرة اكتساب خصومات جديدة ، ودائرة الوحدة والعزلة ، وأخيرا دائرة الفراغ والغربة . أحس أنه يتشرنق داخل تلك الدوائر المركبة ، وأن المال مهما جل شأنه ، لا يعدل لحظة اكتئاب واغتراب . ما فائدة أن تكسب أى شيء ، أو حتى كل شيء .. ثم تخسر نفسك .؟! من العجيب أن تعيش وأنت ميّت ، أو تموت وأنت حيّ ...!!

***

فى يوم السبت ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ — الذى صادف وقفةَ عيد الأضحى — فوجئ العالم بزيارة السادات للقدس تمهيدًا لبدء مرحلة مفاوضات من أجل السلام ، انتهت فيما بعد بتوقيع اتفاقية « كامب ديفيد » (معسكر داود) بين مصر وإسرائيل ، ودخلت أمريكا طرفا ثالثا ، لضمان جدية الحوار والتنفيذ بين الطرفين .

بعد تلك الزيارة المباغتة ، صار وضع الزملاء المصريين فى الجامعة بالغ الحرج ، وبدأ الزملاء الأردنيون والفلسطينيون والسوريون والعراقيون ينظرون إليهم بقدر من الشماتة ويحاولون إحراجهم فى اللحظات التى يتجمعون فيها معا ، بحكم العمل المشترك ، بل إن الأمر تجاوز ذلك — أحيانا — إلى تعمد الإحراج والتعليق أمام الطلبة والطالبات . وكان أكثر الزملاء فاعلية فى هذا الشأن العراقيون والفلسطينيون . وقد حاول صاحبنا أن يبيّن لهم : أن المواطن العربى ليس له أى دخل فى اتخاذ القرار السياسى فى بلده ، وأن هذا إذا انطبق على المواطن المصرى مرة ، فإنه ينطبق على غيره مرات ومرات ، لكنه أدرك فى النهاية أن المناقشة

الموضوعية فى جوٍّ الفتنة ، وفى إطار الغوغائية ، لا مكان لها ألبتة ، لا سيما وإننا — نحن العربَ — قومٌ عاطفيون وانفعاليون فى كثير من المواقف .!!

بعد أيام جدَّ حادثٌ كانتْ له عواقبُ مزعجة .. ومؤلمة . فقد حل موعد رأس السنة الهجرية الجديد ، وأقامت الجامعة حفلا بهذه المناسبة فى مبنى البنين حضره الأساتذة والطلبة ، وألقى بعض الطلبة والأساتذة كلمات تتلاءم مع جلال هذه الذكرى الدينية المقدسة ، وقبيل الختام أعلن مقدم الحفل ، وهو زميل من جامعة الأزهر — حتى يكون وجوده ديكورًا ملائما للمناسبة — عن مفاجأة زعم أنها سارة ، إذ أن هناك زميلا عراقيا متخصصا فى الدراسات الإسلامية (وهو خريج جامعة الأزهر أيضا ...!!!) نظم قصيدة عصماء ، سوف يُمتع الحضور بها .

بدأ الزميل العراقى — (وهو عضو فاعل فى حزب البعث .. ومن كُتَّاب التقارير ، لدرجة أن مدير الجامعة نفسه كان يخشاه ، ويعمل له ألف حساب . ويبدو أنه جاء طامعا — أو على الأقل آملا — فى أن تكون الجامعة أحد فروع حزب البعث العراقى .. وهو بالطبع غير البعث العلوى السورى .) بدأ هذا المتشاعر قصيدته بمقدمة عن الهجرة الشريفة والرسول الكريم ، وبعدها قلب المائدة فى وجوه الحاضرين .. وطفق يردد عبارات بذيئة ، يُعرِّض فيها بمصر وحاكمها — الذى شبهه بكافور الإخشيدى — ثم انطلق بعد ذلك كالثور الهائج يسب زوجة رئيس الجمهورية .

أدهشتْ « قصيدة الإفك » هذه ، كل من حضر من المصريين ، الذين بقوا فى مقاعدهم ماعدا واحدا فقط ، خرج احتجاجا أثناء إلقائها .

تحولت القاعة بعدها إلى سوق ، واختلفت الأصوات بين مؤيد ، ورافض .. وهم يتهامسون لحظة الخروج المضطرب ، بينما رئيس الجامعة وعميد الكلية العراقيّان يهنئانه على ما قال .!!

وقعت القصيدةُ على يافوخ صاحبنا ، كما تقع الصاعقةُ فى ليلة عاتية . ورغم أنه كان أصغر المصريين الموجودين سِنا ، إلا أنه كان أكثرهم غيظا وغضبا . وقد مرَّ على من استطاع أن يلتقى بهم ، وطلب عقد اجتماع فورى لاتخاذ موقف جماعى ، فى بيت أستاذ قانون كبير ، كان من قبل عضوا فاعلا فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى فى عهد عبد الناصر .

جلس المجتمعون يطقطقون أصابعهم ، وهم مختلفون حول قضية الاحتجاج بين مؤيد ومعارض ، وبين من يقول إن الاحتجاج يكون شفويا أو تحريريا . أحس أن أغلبَ الحاضرين يتحدثون — وقد وضعوا أقدامهم فى ماءٍ بارد — كأنما القضية لا تعنيهم فى شىء ، وأن الأمر ليس بالخطورة التى تراءت له ، فصاح قائلا :

* لقد أساء الزميل البعثى إلى مصر وإلى حاكمها .. علنًا ، وسب زوجته دون حياء ، وإذا سكتم اليوم عن هذا ، فلا تلوموا أنفسكم ، إن قذفكم بالحجارة غدا .!!

بعد لأيٍ .. وافقوا على كتابة مذكرة احتجاج ، وتعلل الكثيرون بأن خطهم غير حسن ، ويصعب أن يقرأ غيرهم ما يكتبونه ، فأعلن أنه موافق على أن يكتب بخطه . (بالطبع كانوا يتنصلون من كتابة أى شىء بأيديهم تبرئة لأنفسهم ، إذا ما تصاعد الموقف ، أو حُوسب الكاتب على ما كتب .) كذلك احتج أكثرهم بضعف الأسلوب ، وطلبوا منه

باعتباره متخصصا فى الأدب أن يكتب المذكرة . ولم ينتبه وهو يكتب المذكرة فى حجرة مجاورة إلى أن بعض الموجودين .. خرج .. أو هرب ، بحجة تأخر الوقت (الثانية بعد منتصف الليل) ، حتى يأخذ فرصة للتفكير .. هل يوقع أم لا .؟!

بعد أن وقَّع الحاضرون فى الليلة نفسها ، طلبوا منه — باعتباره صاحبَ الاقتراح وكاتبَ المذكرة — أن يتولى بنفسه إقناع باقى الزملاء بالتوقيع عليها ، وقد استمر أسبوعا يركض ويلهث .. ورغم ذلك لم يوقع الزملاء كلهم ..!!

فى أثناء هذا الأسبوع كتب باسمه — وحده — مذكرة احتجاج ، وأرسلها إلى الوزير باعتباره رئيس الجامعة ..!!

أخيرا اكتفى المتحمسون للاحتجاج بتقديم المذكرة غير كاملة التوقيع ، لأن البعض خشى مغبة تسجيل اسمه . ورغم كل هذا التعب المضنى رفض الكثيرون مقابلة الوزير وتقديم المذكرة ، وهى فى حقيقتها عرضٌ هادئ للقضية .. وطلب بأن تكون الجامعة للعلم لا للسياسة ، ورجاء بأن يستدعى الوزير الزميل المخطئ ليعتذر عما بدر منه ، أى أن المذكرة مكتوبة بدبلوماسية هادئة ، لأنه لا يجوز إصلاح خطأ بخطأ مثله . كان الوحيد الذى أبدى استعدادا لتقديم المذكرة هو الزميل الذى خرج احتجاجا أثناء القائها ، وهو الدكتور أحمد الباز ، وطلب أن يرافقه واحد من الأساتذة الكبار .. كما رأى صاحبنا أن يحضر باعتباره مثلا للأساتذة الشبان .

وقد اضطروا إلى الانتظار لعدة أيام حتى يأتى الوزير .. وأخيرا قُدمتْ

له المذكرةُ بحضور مدير الجامعة العراقى ، وقد وعد بالنظر فيها وتلطف فى الحديث مع مقدميها ، ووعد بأن يفعل ما يرضى الخاطر . لكن شيئا لم يحدث ، ومات الموضوع بالتقادم .!!

كم آلمه هذا الموقف المخجل من زملائه ، خاصة بعض كبار السن ، وبعض شبان الكليات العلمية . إلى هذا الحد المزرى يتهاون إنسان فى حق وطنه ويتنازل عن أدنى حقوق كرامته ..!! تذكَّر قول السياب :

« إنى لأعجبُ كيف يمكن أن يخونَ الخائنون .؟!
أيخون إنسانٌ بلاده ؟
إنْ خان معنى أنْ يكون
فكيف يُمكن أن يكون .؟! » .

ومع أن الجهد كله ضاعَ سُدى .. ولم يحدث لوم أو عتاب رسمى للمخطئ ، فإنه كان مستريحَ القلب والفكر ، لأنه عبَّر عن رأيه .. واحتج لكرامة وطنه . ورغم أنه كان غير موافق على الطريقة التى تمت بها مبادرة السادات — فإن انتقاد سياسة الوطن من أبنائه فى الداخل شىء .. وحدوث الأمر نفسه من غريب فى الخارج شىء آخر ..!!

بعد هذا الموقف بدأ معظم الزملاء العراقيين — الذين علموا فيما بعد أن صاحبنا هو المحرض على الاحتجاج وكاتب المذكرة وصاحب فكرتها — يطلقون عليه اسم « طه المصرى » . وكم كان سعيدا بهذه التسمية .. وقال لمن ذكرها له : إذا كان حبُّ الوطن إثمًا ، فأنا أول المذنبين .!!

وكانت هذه نقطة أخرى أُضيفت إلى ملفه « السرى » الخاص عند عميد الكلية دون أن يدرى .!!

***

بعد حوالى شهر تقريبا .. وعلى وجه التحديد فى بداية شهر يناير ١٩٨٧ ، حضر إلى الجامعة المفكر الكبير الدكتور زكى نجيب محمود لإلقاء محاضرة عامة ، تحت عنوان « مكونات الشخصية العربية » . وقد ركز على الثوابت فى سمات الشخصية العربية ، ممثلة فى وحدة اللغة والدين والعادات والمصير المشترك . بعدَ المحاضرة فُتح باب الحوار ، وكان أول المتحدثين هو البعثى المتشاعر نفسه ، حيث قال :

* تحدث أستاذنا عن الشخصية العربية فى الماضى ، ولكن ماذا عن مشاكلنا فى الحاضر .. وعلى وجه التحديد ، ما رأيكم فى اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل .؟!

انتابته الحيرة لحظة ، وأدرك مدى الحرج الذى وُجّه إلى المفكر الكبير ، لكنه كان على ثقة من قدرته على حُسن التصرف ، وقد رد عليه قائلا :

* أود أن أقول للسائل أولاً أنى لستُ رجل سياسة ، ولا أحب العمل بها ، لأن السياسة فى تقديرى تحتاج إلى دهاء عمرو بن العاص ، وليس إلى طيبة أبى موسى الأشعرى . ورغم ذلك فأنا مواطن يعيش الأحداثَ السياسية ، ويتأملها من وجهة نظره — على الأقل . أنا أفكر مع نفسى .. وقد أقول هذا الرأى لبعض الأصدقاء أو الزملاء ، حين تجمعنا جلسة مثل هذه . وعلى هذا فسوف أقول لك رأيى الشخصى ، ولك أن تقتنع به أو ترفضه .

الحديثُ فى السياسة أولاً يتطلب رؤية واقعية للأمور ، لذلك فإن إسرائيل أصبحتْ دولة موجودة بالحق أو بالباطل . وقد حدثت بيننا وبينها

أربعةُ حروب فى ربع قرن . النتيجة المأساوية هى أننا هُزمنا فى ثلاثة منها سنة ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .. وحققنا نصرا محدودا فى المرة الرابعة سنة ١٩٧٣ ، أى أن النتيجة ثلاثة إلى واحد . معنى هذا — من الناحية النظرية على الأقل — أننا غير قادرين على الحل العسكرى .. فلم لانجرب الحل السياسى .؟ فإذا حقق ما نريد كان بها ، وكفى اللهُ المؤمنين شرَّ القتال ، وإذا لم يحقق ما نريد ، فلن يمنعنا أحد — فى أية لحظة — من اتخاذ قرار الحرب ، مهما تكن هناك من اتفاقيات ، لأن الاتفاقيات — كما يتضح من استقراء التاريخ — لا يتمسك بها دائما إلا الطرف الضعيف ، من هذا المنطلق لا أرفض الحل السلمى باعتباره وسيلة مرحلية على الأقل لاستعادة الحق وتحرير الأرض ، ولا تنسى أن القرآن الكريم نفسه قد ورد فيه هذا النص « وإن جنحوا للسلم فاجنحْ لها .. » .

دوت القاعة بتصفيق حاد لهذه الطريقة المنطقية فى الإقناع ، فى قضية ساخنة ، تمزقت إزاءها المشاعر ، وتناقضت الآراء .

حاول صاحبُنا أن يتأمل هذه القضية المعقدة ، فرأى أن القيادة المصرية قد نجحت وهى تمهد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ فى تجميع الصف العربى كله من أجل المعركة ، فما كان أحراها بأن تتذرعَ — بالصبر الجميل — من أجل توحيده مرة أخرى فى مؤتمر سلام شامل . ولا شك أن هذا التجمع — لو حدث — كان سيعطى كل طرف — على حدة — قوة دفع فى المفاوضات ، ويشكل ضمانا لتسوية عادلة وشاملة .

لا شك أن القيادة المصرية — لأسباب كثيرة خاصة وعامة — قد تعجَّلتْ بعضَ الشىء فى السعى نحوَ مشروع السلام ، وليتها استطاعت

أن تُقنع الأطرافَ العربية الأخرى بحضور المؤتمر التحضيرى للسلام ، الذى عُقد فى فندق سميراميس بالقاهرة فى أبريل ١٩٧٨ ، تحت إشراف الأمم المتحدة . لو حدث هذا ، لتغيرت إلى الأحسن والأفضل أمورٌ كثيرة فى الواقع العربى ، لكن (لو) هذه تدخل فى باب « الشرط المستحيل » ، لأن فعل الشرط لم يحدث ، فكيف نفترض تحقق الجواب .؟!

***

عندما كان يعيش فى مصر ، كان إيمانه بالوحدة العربية متوهجا بمشاعر رومانسية فيَّاضة ، لكن وجوده بين مواطنين مختلفى الهوية من شعوب عربية شتى أثناء عمله فى جامعة الإمارات ، جعله يقلق ويتحيَّر ، عندما وجد أن « الإقليمية » تعيش بشكل يقظ داخل أبناء كل قُطر ، فمواطنو كل بلد يعاملون غيرهم بقدر من الريبة .. والتحفظ ، يصل أحيانا إلى درجة الرغبة فى الإيذاء ، وتشويه السمعة والتشكيك فى القدرات ، بدرجة يصح معها القول : « أنا أشكُّ إذن فأنا عربى » ..!! والمصيبة الناقعة أننا لا نشك بنفس الدرجة فى الأجانب والغرباء . وقد أفضى به هذا القلق ــ على الوحدة ــ إلى أن يسأل نفسه : إذا كانت هذه حالة كثير من المثقفين ، الذين يفترض فيهم ــ بالضرورة ــ أنهم طلائع الفكر والعمل الوحدوى .. فكيف تكون حال البسطاء والأميِّين .؟!

ازداد أسىً وحسرة ، حين تأمل التاريخ عن قُرب بعيد بحس نقدى ، فرأى أن الوحدة لم تتحقق إلا فى فترات الخطر ، وبعدها تعود كل دويْلة إلى إطارها الإقليمى ، ووجد أن الحدود (الوهمية) بين معظم البلاد

العربية ، تشكل — فى الغالب — حالة من التوتر والتنازع غير المفهوم .. كما أنها — أى قضية الحدود — تمثل قنابل قابلة للاشتعال فى أية لحظة .

أغراه اليأسُ المحبط أن يظن أن الوحدة العربية ، ليست إلا « وحدةً شِعرية » ، ننشد حولها الأشعار ، وننشىء من أجلها الخطب ، ونطلب من التلاميذ الكتابة عنها فى موضوعات « الإنشاء » . لكن حقيقة الوحدة فى الواقع المؤلم .. ليست إلا وهْما متخيلا ، غير قابل للتنفيذ .. على الأقل فى المستقبل القريب .!!

إن الوحدة الشاملة — كما نتمنّى — لا يمكن أن تتم بين يوم وليلة وإنما يمكن أن تتم بعد مراحل ، تنشأ فيها مجموعة من « الوحدات الصغيرة » ، التى تشكل خطوة — مبدئية — لا بد منها ، حيث يتم اتحاد بين أربع مجموعات هى :

أ — **دول وادى النيل** : مصر والسودان والصومال وجيبوتى .

ب — **دول الخليج والجزيرة** : الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية وعمان واليمن (بقطريْه) والمملكة السعودية .

جـ — **دول الشام والعراق** : سورية والأردن وفلسطين والعراق ولبنان .

د — **دول المغرب العربى** : المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا .

وبعد أن ينجح تنفيذ هذه الخطوة (المرحلية) ، ينشأ بعد ذلك اتحاد « فيدرالى » بين هذه المجموعات الأربعة ، تمهيدًا لوحدة شاملة بعد ذلك .

الذى لا ريب فيه ، أن هذا المشروع المتخيل للوحدة .. حُلم عزيزُ المنال . لكن ذلك .. لا يمنع من أن نرفع الأكف بالدعاء ، للمولى — جلّت قدرتُه — على أن يُقرِّب يوم الوحدة ، ويجمع الإخوة الأشقاء .. على كلمة سواء . وليس شيء على الله بعزيز ..!!

***

فى غمرة الأحداث والأحزان بدت بارقة أمل ضمدت بعض جروحه ، ذلك أنه رُقى إلى وظيفة « أستاذ مساعد » . وسرعان ما مرت الأيام وانتهى العام الدراسي ، وعاد إلى مصر .. وإلى أسرته .. وإلى أهله .. وإلى عالمه ، يحمل مشاعر شوق عارم . تمنى أن يقبل أرض المطار ، كان مثل أسير استرد حريته أحس للهواء .. والأرض .. والسماء .. والبشر .. والكون ، بل للدنيا كلها طعما جديدا . ازدادت الفرحة بالأبناء حين علم أن ولديه محمد ومنى قد نجحا فى شهادتى الإعدادية والقبول ، كما انتقل مؤنس من السنة الثالثة الابتدائية إلى الرابعة .

لم يكن يدرى .. هل ما يكابده إحساس عام أم خاص ..؟ لكن الذى وقر فى اعتقاده ، أنه رجل عاطفى شديد الارتباط بكل من يألـف ويعرف ، كما أنه يقظ الانتماء للوطن . فهل هذا الارتباط القوى بالوطن عند المصرى ينشأ نتيجة لعدم الارتحال والسفر من بلد إلى بلد .. أم أن المصرى — بحكم أنه فلاح فى أعماقه .. والفلاح دائما مرتبط بالأرض — له جِبلة خاصة ، تجعله شديد الارتباط بالأرض .. عظيم الحنين إلى الأهل ..؟!

إن الظواهر الاجتماعية ظواهر مُركبة ، لذلك لا يُحَلُّ التساؤل حولها

ببساطة ، إذ ليس هناك سبب واحد فقط ، يؤدى إلى وجود ظاهرة ما . المصرى فيما يبدو إنسان طيب .. ومتسامح .. وحبوب .. ومتدين .. ومتواضع .. بسبب سهولة التضاريس ، واعتدال المناخ ، وخصوبة الأرض ، ووفرة المياه ، ويُسر الرزق ، وبساطة الحياة . كما أنه غير معتاد على كثرة الترحال والأسفار ، لذلك يتمسك بوطنه ، ويفضله على كل بلاد الدنيا ، التى قد لا يكون رأى منها بلدة واحدة . ولا شك أن التعود على السفر ، سوف يؤدى إلى أن تكون علاقة المصرى بوطنه أكثر « واقعية » ، مما هى عليه فى هذه الأيام وما سبقها من مراحل الاستقرار الاجتماعى ، نتيجة الاعتماد على نمط الاقتصاد الزراعى ، الذى يؤدى — بالضرورة — إلى قدر من المحافظة على القيم والعادات .. والارتباط بالأرض — أرض الوطن .

***

فى العام التالى ١٩٧٨ / ١٩٧٩ رجع مرة ثانية إلى جامعة الإمارات ، وصحب معه أسرته . مضت السنة بغير هموم كبيرة ، وشغله وجود الأسرة عن كثير من مشاعر الوحدة والغربة ، التى طالما عانى منها فى السنة الماضية ، وبدأ يحس قدرا من الراحة والطمأنينة . فى إجازة منتصف العام ذهب مع طلبة الجامعة فى رحلة إلى « هونج كونج » و « الفلبين » ، لمدة عشرة أيام فى أوائل سنة ١٩٧٩ ، وقد أعجب ببلاد الشرق الأقصى — التى يراها لأول مرة ، وحاول أن يتعرف على مظاهر الحياة فيها . الشىء الذى حيرّه كثيرا — ولا يزال — هو أن هذه البلاد شرق أقصى ، وبلادنا شرق أوسط .. ومع أن كلينا « شرق » ، فإننا لا نعرفهم ولا يعرفوننا

بالقدر الكافى . التقى ذات ليلة ببعض الشباب من الفلبين ، وأخذوا يسألونه — بأدب مبالغ فيه :

* من أى بلاد الدنيا الجميلة أنت يا سيدى .؟

* فرد عليهم بالإنجليزية — التى يتكلمون بها : من مصر .. يا صديقى .

* أين هى .؟

* بلد الأهرام .. وأبى الهول .. ونهر النيل .

* لا يبدو أننى أعرفها .. سيدى .

* أنا عربى .

* أوه .. عربى .. بترول .. يركب جمل .!!

فُجعتُ فيهم بعد أن بدأت أعرف نواياهم .. لكنى أدركت أننا فى بلاد الشرق ، لا نحرص — كثيرا — على إقامة جسور قوية بيننا ، رغم التقارب الواضح فى كثير من مظاهر الحياة وتقاليد البشر .!!

أكثر ما يشدك فى « هونج كونج » هو تجاور كل المتناقضات فى وحدة غريبة : الفقر والغنى ، البساطة البدائية والتعقيد الحضارى ، الشرق والغرب ، الصينى والأوربى ، البحر والجبل ، الشاى الأخضر والخمر المعتَّق ، الدير والكنيسة ، السكن فى قوارب الصيد وفى ناطحات السحاب ، فقير يجر عربة « الركشو » ومغامر يقامر بالملايين ...!!!

وليس غريبا أن تكون هذه المقاطعة الصينية ، التى تخضع للاحتلال الإنجليزى ، مركزا خطيرا لتجارة المخدرات ، والمضاربة فى بورصة الأسواق المالية ، ومقرًا لبعض العصابات العالمية المتخصصة فى السرقة

والإرهاب[1] .

إذا كانت الرحلة إلى « هونج كونج » تدعو إلى الدهشة والانبهار ، فإنها إلى « الفلبين » تدعو إلى الأسى والحسرة ، فلا تزال آثار الحرب العالمية الثانية موجودةً بقوة .. ويكفى أنها خرَّبتْ المجتمع من الداخل ، حيث قُتل معظم الرجال ، وصارتْ نسبةُ الإناث والذكور (٤ — ١) . كما أن الفقر موجود بشكل حادٍ ومُرهق ، وإنْ كان ذلك لا ينفى وجود بعض الأثرياء والمستغلين ، وعلى رأسهم حاكم البلاد الإمبراطور « فرديناند ماركوس » وزوجته « سيدة مانيلا الأولى » . وقد سَلَّم هذا الإمبراطور بلاده للأمريكان ، واعتمد على حمايتهم له فى الداخل والخارج ، ومضى هو وزوجته يتاجران ويجمعان الأموال بالحق وبالباطل ، غير عابئيْن برضى الشعب أو سخطه . وقد قامت بين هذا الإمبراطور الطاغية .. وبين الرئيس السادات صداقة قوية ، وكانتْ زوجة السادات تتخذ من زوجة ماركوس مثلاً أعلى ، وقد أشار إلى ذلك — من قبل — فى قصة قصيرة :

« اسمع يا عزيزى إن سيدة مانيلا ليست زوجة رئيس للبلاد فحسب ، إنما امرأة دولة بمعنى الكلمة ، إن لها دورا سياسيا .. ولها مشروعاتها التجارية الخاصة ، كما أن لها عناية بخدمة المجتمع ، وقد أدركت بحكمتها صعوبة المواصلات فى مدينتنا المزدحمة ، لهذا سيَّرتْ هذه

---

(١) هناك قصة من وحى هذه الرحلة بعنوان « فندق العالم الجديد » فى مجموعة « عمار يا مصر » ص ٦ — ٤٤ .

الأتوبيسات الفاخرة ، التى تملكها حلاً لمشاكل المواصلات .. وأسمتها أتوبيس الحب .... »[1] .

ورغم الغبطة بزيارة بلاد جديدة .. إلا أنه عاد مُحمَّلا بكثير من مشاعر الألم والسخط . أدرك أن حال الشرق الأقصى ليس أفضل من حال الشرق الأوسط أو الأدنى ، حيث إن « كلنا فى الهمِّ شرق » .

***

كانت الزوجة أم محمد أسعدَ الجميع بحياة الغربة ، لأنها استطاعت أن تشترى — لأول مرة — كل ما تريد .. من ذهب .. وسجاد .. وستائر .. وملابس .. وأدوات منزلية ، كما أنها حرصتْ على ممارسة عادة يومية طريفة ، وهى أن تكون وجبة إفطارها « تفاحا » ، وهذا مظهر من مظاهر العز ، لم تعتده من قبل .

ورغم الهدوء النسبى لمسيرة الحياة فى القسم والكلية ، فإن صاحبنا فُوجئ — ذات يوم قرب نهاية العام الدراسى — باستدعاء الأمين العام للجامعة له .. وهو رجل وطنى من أبناء الإمارات . بعد اللقاء قال وهو يدارى خجله :

* الجامعة سوف تستغنى عنك فى العام القادم ، لذلك يُفضل أن تكتب طلب استقالة ، ونقول إننا أنهينا التعاقد معك بناء على رغبتك .

سكت لحظة ، وقد أدرك أن المدير والعميد — العراقيان — لم ينسيا

---

(١) راجع التفصيل قصة « للقمر .. وجوه كثيرة » فى مجموعة « عمار يا مصر » ص ٦١ وما بعدها .

ما فعله فى العام الماضى ، وأيقن أنه عُوقب ، لأنه محب لوطنه وحريص على جامعته . أخذ يقلب الأمر فى رأسه ، بينما أيقظه الرجل قائلا :

* لقد عرفتَ الخبر الآن.. فاكتب الاستقالة وأحضرها إلىَّ بعد ذلك.

* لماذا بعد ذلك .. هات ورقة الآن .

* ليس هناك مبرر للعجلة .

* وليس هناك فائدة من التأخير .

فى لحظة خاطفة كتب الاستقالة ، وصافحه .. وخرج . كان سعيدا بالقرار رغم اليقين بأنه مظلوم ، بعد مدة عرف أن المسئولين العراقيين فى إدارة الجامعة ، قد أنهوْا — دونَ مبرر — تعاقد كثير من الأساتذة المصريين ، وللأسف أسهم فى هذه المهزلة بعض المصريين أنفسهم ..!! وقد حاول كل العائدين أن يلتقوا بالوزير .. وأن يشكوا له .. إلا صاحبنا .. لم يتحرك .. ولم يَشْكُ .. بل كان سعيدا غاية السعادة .

وقد فُجعت أم محمد حين أخبرها بالنبأ ، وأخذت تُبدى أسفها ، لأنهم لم يدّخروا شيئا للمستقبل ، ولم يحققوا شيئا من أحلامهم وتطلعاتهم البرجوازية . فرد فى حسم :

* حددى ماذا تريدين بالضبط .. هل تريدين حياة زوجك أم حفنة دولارات .؟

* لماذا تُعقّد المسألة بهذا الشكل .. هل كل الزملاء الذين بقّوا سيموتون .؟

* هذه وجهة نظر خاصة ، كل إنسان أعلمُ بظروفه .

تبادلا نظرات صمتٍ .. وانتهتْ القضية .!!!

***

الفردوس المفقود

جاشت فى خواطره ــ أثناء العودة ــ كل أناشيد الحب والحنين للوطن . تمنى أن يكون له جناحان ، حتى يسابق الطائرة ويسبقها . هل كل الأوطان مثل مصر .. أم أن مصر وطنٌ من نوع خاص .؟! أخذ يتذكر أشعار البارودى وشوقى وأغانى سيد درويش وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ .

شىء ما جعله يحسُّ بانقباضٍ حين ركب الطائرة ، لأن ولده محمدا ضاعتْ منه « حقيبة اليد » فى مطار أبو ظبى ، لم يهتم كثيرا ــ رغم كل ما كان فيها ــ وقال :

* فلتكنْ هذه فداءً لسلامة العودة .

عاد إلى بيته .. ودخله ــ كما دخل صلاح الدين بيتَ المقدس . دارُ الإنسان جنته . ها قد عدتُ إليك يا جنتى . هنا كنا نجلس .. وهنا ننام . هناك كان يقرأ .. ويقابل أصدقاءه وتلاميذه . هذه مكتبته .. تلك كتبه ودفاتره . هذا الكرسى البنى اللون شهد معه ليالى السهر ، ليالى القراءة والكتابة . أوه .. وهذه البلكونة البحرية .. كم جلس فيها ــ والكون نائم ــ يُناجى القمرَ .. ويتأمل الأفقَ البعيد .!! هذه الطاولة الصغيرة كسرها الولد الشقى مؤنس . تأمل الغبار ، الذى كسا الشقة بشبورة ترابية . قال فى نفسه والهواء المحبوس المختلط برائحة « المبيدات »

يسدُّ فتحتى أنفه : سيعود كل شىء أفضل مما كان ..!!

أول مهمة يجب أن يقوم بها بعد العودة هى الذهاب إلى جمرك بورسعيد ، لاستلام سيارة « تويوتا » ، شحنها فى باخرة من الشارقة . وقد نصحه بعض الزملاء أن ينتظرها يوم الوصول بالتمام والكمال ، حتى لا يخرب فيها شىء .. أو لا تُسرق منها أشياء . أخذ يبحث عن السيارة فى الباخرة .. وعلى الرصيف دون جدوى . قال له شرطى ، يبتسم طمعا فى البقشيش :

* لم لا تبحث جيدا يا أستاذ .؟

* عن أى شىء أبحث يا رجل .؟ إنها ليست إبرة فى كوم قشّ .. إنها سيارة كبيرة ، تستطيع رؤيتها على بعد كيلو متر .

همس فى أذنه حمَّال ضخم الجثة :

* هل يوجد فى سيارتك بضاعة يا أستاذ .؟

* نعم .

* هذا هو السبب .. سأدلك على مكانها بشرط أن تعطينى الحلاوة .

ركب معه سيارة جيب مكشوفة ، سارت مسافة بعيدة . سامحك الله يا أم محمد .. أنتِ السبب .!! أم محمد زوجتى هذه سيدة « عِشرية » ، يصعبُ عليها أن تتخلَّى عن أى شىء من متاع بيتها ، وتصلح « مديرة متحف » ممتازة . أصرتْ أن تحضر كل أشياء البيت الخاصة .. كما اشترت بعضَ الأدوات المنزلية الجديدة . كانت الأمتعة تملأ حقيبة السيارة والكرسى الخلفى والأمامى . خلف حائط من « شكائر الأسمنت » كانت العربة ـــ وعربات أخرى ـــ « مدفونة » ، حتى تُسرق الأشياء الثمينة

منها فى الليل — إذا لم ينقذها أصحابها قبل فوات الأوان . عندما اقتربا من سيارته ظهر ذئب ، وصاح فيهما :

* إلى أين .؟

قال الحمال وهو يشير إلىَّ : هذه سيارة الأستاذ .

* لكن الأستاذ حسن طلب منى ألا أسلِّم المفاتيح لأحد .. إلا بإذنه .

صحتُ فيه : من حسن هذا .؟ تسرقون سيارتى جهارا نهارا ، وتطلبون أخذ الأذن .

قال الحمال الضخم : لا تعكر دمك يا أستاذ .. أعطه الحلاوة ، ونرحل فى سلام .

أية حلاوة .. وأىُّ سلام .؟! تأمل سيناريو سرقة بالإكراه ، وقع ضحية له . عصابةٌ من اللصوص .. وأنت مسروقٌ .. أو مبتـزّ .. لا خيار . لو لم تأتِ لسرقوا ما فى السيارة ليلاِ ، وإن أتيت فلن يفكُّوا « أسْر » السيارة إلا بعد دفع الإتاوة .

فى الجمرك لا تجد مُؤمنًا يُوحِّد الله .. لا أحد يُجيبك عن سؤال .. أو يوقِّع على ورقة .. أو حتى يقول لك كلمة .. إلا إذا أعطيته رشوة .. يسمونها — أحيانا — « حلاوة » أو بقشيشا . أكثر من هذا « غيْظا » أنهم يتعاملون معك بمنطق : « هات حسنة .. وأنا سيدك » . الأمور تتعقد .. وكل واحد يطلب تفريغ السيارة من كل ما فيها لعمل جرد وإحصاء وتثْمِين . وقد استجاب صاحبنا أول مرة ، وظن الأمر سهلاً ، بيد أنه استغرق ثلاث ساعات حتى يعيد الأشياء إلى وضعها ، بعد أن ضاع ما ضاع .. وتكسر ما تكسر .. وتمزق ما تمزق . يتمنى الإنسان —

فى مثل تلك الأزمات ـــ أن يُنهى هذا العذاب الأليم ، حتى لو ترك الجمل بما حمل .!!

استمرت عملية « التخليص » أسبوعا كاملا ، وفى أثناء الجرى ـــ حول المكاتب ، التى لا تعدُّ ولا تُحصى ، من أجل إنهاء الإجراءات الروتينية المعذِّبة ـــ نسى حقيبة اليد ، وكان يوجد بها خمسة آلاف جنيه مصرى وثلاثة آلاف دولار أمريكى وبعض الأوراق الرسمية وجواز السفر والبطاقة العائلية . عندما طلب منه أحدُ الموظفين بطاقة إثبات الشخصية ، تلمس الحقيبة التى لم يكد يتركها ـــ لحظة من يده ـــ فلم يجدها . سأل الصديقيْن اللذين كانا معه ، فتذكرا أنها ربما نُسيت فى مكتبٍ سابق ، وجرى كلٌّ منهما وراء الآخر ، يبحثان عنها . قال الموظف بعد أن طلب منه أن يترك مكانه فى الصف لمن بعده إلى أن يجد البطاقة :

* كيف تضع البطاقة فى الحقيبة يا دكتور .؟

* ما المانع .؟

* قد تضيع .

* إذا ضاعت الحقيبة فإن أهون شىء فيها هو البطاقة .!!

مرت لحظة كأنها دهر كامل ، ماذا يحدث لو ضاعت الحقيبة .. وضاع معظم ما عدتُ به من رحلة العذاب .؟! فكَّر وقدَّر .. لو ضاعت الحقيبة تكون قيمة جمرك السيارة قد ضاعتْ ، وإذا ضاعت فيجب أن أترك العربة « صدقة » لرجال الجمارك ، الذين وهبهم الله سبحانه وتعالى قدرةً على جعل أى مؤمن بالوطن كافرًا بكل ما فيه .. بل يتمنى أن يُغيِّر الجنسية إلى أىّ عالم آخر . مما يزيد الطين بلة أن قيمة جمرك السيارة تزيد

عن ثمنها الأصلى بكثير جدا ، فكأن المسئولين عن الجمارك يعاقبون كل قادم من الغربة بهذه الضرائب غير المحتملة — دون رحمة ..!!

***

بعد أن انتهت إجراءاتُ الجمارك والمرور ، كانت السيارة فى حاجة إلى بعض إصلاح وتنجيد . بينما كان العاملُ يصلحها ، مرت حملة تفتيش من رجال شرطة المرور ، وانتزعوا اللوحات المعدنية . أخذ يتنقل من قسم شرطة إلى آخر .. بلا فائدة . أخيرا — بعد أن نفد صبُره — هجمَ على حجرة مأمور قسم شبرا ، الذى حدثتْ الواقعة فى إطار دائرة عمله . وضع أمامه بطاقة تحقيق الشخصية ، وارتمى متهالكا على الكرسى ، وهو يقول :

* أنا أستاذ جامعى .. والبطاقة أمامك تثبت ذلك .

* ماذا تريد يا أستاذ .؟

* أطلبْ لى وزير الداخلية على التليفون .

* نعم ..؟

* يومان كاملان بين قسم شبرا البلد ، وشبرا الخيمة ، وشبرا مصر ، وساحل شبرا ، حتى طلعتْ روحى .

أخذ يشرح ما حدث ، وحين رآه منفعلا قال :

* كيف تشرب القهوة .؟

* أية قهوة .؟!

* اشربْ قهوة عربونَ صداقة .. وقبل أن تنتهى ستكون المسألة قد انتهت .

ضغط على جرس فى مكتبه . حضر فى التوّ أمين شرطة وسيم ، فطلب منه القهوة بصوت عال ، ثم همس وغمز له .. فأنصت ثم انصرف ، وهو يؤدى التحية — قائلا : أمرك يا باشا .

أيقظته كلمة « باشا » من شطحاته . وزارة الداخلية ، التى تحفظ الأمن ما زالتْ تتباهى بالألقاب .. التى ألغتها الثورة .؟! أية ثورة .. وأية داخلية .؟! لنا .. ولكِ الله .. يا مصرُ .!!

كأنما المأمور سليمان .. وأمير الشرطة هو الجان ، الذى أحضر عرش بلقيس قبل أن يرتدَّ إليه طرفُه .

* هذه لوحات سيارتك يا أستاذ .؟!

* نعم .

قالها .. وهو متحيِّر ، وقد غاص فى كرسى الفوتيه . أيقظه المأمور قائلا : هل أنت سعيدٌ الآن .؟

* لا سعيد .. ولا مرتاح ، أنا فى غاية الحزن والنكد .

* لماذا يا دكتور .؟

* كنتُ فى الغربة أشكو من ظلم الناس ، وقد تحملتُ ظلمهم لأننى بينهم غريب . وقد جئتُ وأنا فى قمة الشوق والحنين .. لأخْدم وطنى ، حتى لو طلبوا منى تنظيف الشوارع . وقد تعاملت خلال شهر مع إدارات الجمارك .. والمرور .. والشرطة .. أتعرف بالضبط ما الشعور الذى أحسست به .؟

* خيرًا .. ما هو .؟

* أحسستُ أنى أعامل مثل كلب أجرب ، وأن كرامة الإنسان هذه

لا تساوى شيئا .. إلا إذا دفع رشوة .. أو كانتْ له واسطة .!!

خرج من عنده يجر قدميه المجهدتينْ .. وقد ضاع منهما الطريق ، وسحابة سوداء تجثم أمام ناظريه . تحمل يا قلبى المعذب .. هذا هو الوطن الذى كنت به تحلُم ، وإليه تشتاق ، وهؤلاء هم الأهل يضنُّون عليك حتى بكلمة طيبة . آه يا وطنى .. إن مصر التى كانت — على البُعد — أنسًا تضاحكنا ، صارت — فى القرب — غمًا تُبكِّينا .!!

***

أول رحلة قام بها بعد العودة ، كانت إلى مسقط رأسه ، حيث سلَّم فى الصباح على أمه وأقاربه ، وبعد العصر زار قبر والده وأخويْه محمد وأحمد — الذى تُوفى أثناء وجوده فى أبو ظبى — وقرأ الفاتحة على روحهم الطاهرة — رحمهم الله .!! أحس أن له (مِزاجًا) خاصا ، يجعله يشتاقُ إلى الأحياء والموتى — بدرجة واحدة ، بل ربما كانتْ أشواقُه إلى الموتى أشدَّ وأحدَّ . أليس أمرًا غريبا — أو غيرَ عادىّ على الأقل — أن يرتبط إنسانٌ — عاطفيا — بالموتى أكثرَ من الأحياء .؟! حاول أن يبحث — داخله — عن مبرر لهذا السلوك ، فلم يهتد إليه بسهولة . وقد اكتشف — بأخرةٍ من العمر — أنه أكثر ميْلاً إلى الوحدة والحزن والتأمل . دائما يتوقع المصائبَ قبل أن تقع .. وبالحجم الحقيقى الذى هى عليه ، بل ربما وقعتْ بحجم أقل مما تخيل . هكذا أدرك أنه فُطر على قَدْر من التشاؤم فى الحياة .. وقدر آخر من سُوء الظنِّ بالبشر والخوف منهم ، لذلك يصعُب عليه أن يطلب .. أمرا خاصا ، ليس له حق فيه ...، وأن يقحم نفسه فى جماعة ، لا يعرفها .. أو لا يطمئن إليها ، وأن يَغْشَى التجمعات العامة إلا لضرورة ؛ لذلكَ

تراه فى كثير من المجالس واللقاءات أميلَ إلى الصمت والهدوء ، يسمع .. ويتأمل ، ولا يتحدث إلا عند اللزوم . وأحيانا ــ قد لا يرضيه مجلسٌ من المجالس ــ لسببٍ أوْ لآخر ــ فيصم أذنيْه عن المجلس ومن فيه ، ويسرحُ بعيدا ــ عن كل من معه ــ ويشغل نفسه بِهَمّ يُقلقه ، أو فكرة يتأملها ، أو صورة يتخيلها ، أو قصة يشكل بناءها ..!!

ومع أنه يتعامل مع الناس بقدر من الحذر والتحفظ والشك ، إلا أنه نادرًا ما يحمل لأحدٍ ضغينة ، أو يصنع لأحد مكيدة ، أو يحاول الإساءة .. حتى إلى منْ أساءوا إليه .!!

يُقوِّى هذه الخصال فى نفسه حياءٌ جمٌ ، وخجل شديد ، لدرجة أنه قد يستمع ــ أحيانا ــ إلى متحدِّث يقول كلاما ، لا يوافق عليه ، ومع ذلك يواصل الإصغاء إليه ، مستحيا أن يقول له : أنت مخطئ .. أو كاذب .. أو دعىّ .. أو « فشار » .!! كما أنه لا يرغب ألبتة فى أن يطرق بابَ مسئول ــ دون طلب أو سبب مُلحّ . كما أنه لا يميل أنْ يقعد فى كل مجلس محدثًا ــ بالصدق .. أو الكذب ، مثل كثيرين ــ عن أمرٍ حدث له ، أو طُرفة وقعتْ أمامه . أما الشيء الذى دونه قطعُ الرقبة .. فهو الغيبة والنميمة وأكل لحم البشر حيا .. والإساءة إلى غيره ، بأىّ معنى من المعانى .!!

ورغم أن تلك الخصال قد فوَّتتْ عليه بعض الفُرص ، وأضاعتْ عليه بعضَ الحقوق ، فإنه ــ فى النهاية ــ راضٍ كل الرضا عن نفسه ، سعيدٌ كل السعادة بما خلقه الله عليه .!!

ولا ريب أن نشأته الريفية وتربيته المحافظة .. فى أسرة ميسورة الحال

— فى غير ما عُسْر شديد — بين أب متدين وأم طاهرة القلب وإخوة يحبون الخير للجميع ، بالإضافة إلى كونه أصغر الأبناء ، وإلى تركيبته النفسية الخاصة — التى تُقرِّبه من عالم الأدب والكتابة ، وتجعل مفتاح الشخصية عنده « شخصية الأديب » فى المقام الأول . كل ذلك — قد يُفسِّر ما يتسم به من حياء .. وأدب .. وتواضع .. وحب ، بحكم علاقته بالبشر أجمعين .!!

***

عاد إلى العمل بالقسم ممتلئا رغبة وشوقا ، لذلك جعل موعـد محاضرات « الشعر الحديث » — مادة تخصصه فى الفترة من السادسة إلى الثامنة مساء الإثنين ، وكان الوقتُ يمتد به إلى التاسعة أحيانا ، حتى يعطى طلبته الكثير .. ويناقشهم فيما يحاضرهم .

وقد زاد من قدرته على العطاء .. أنه صار من حقه أن يشرف على رسائل الماجستير والدكتوراه . وكان مع طُلابِه ، يتعامل بروح أب عطوف ، وأستاذ نصوح ، وفتح لهم مكتبته يستعيرون منها ما يشاءون .. وحدد لهم موعدا أسبوعيا فى بيته مساء كل ثلاثاء ، حيث يلتقى بهم ويناقشهم فيما يريدون أن يستفسروا عنه . وقد اتسع نطاقُ « ندوة الثلاثاء » فى بيته ، فكان يحضر بالإضافة إلى الطلبة بعض الشعراء وكتَّاب القصة والصحفيين مصريين وعربا . وقد تحولت كثيرٌ من هذه الأمسيات المفتوحة إلى ندوات حية ، حول بعض قضايا الثقافة والأدب والنقد والفكر والسياسة . وقد تخرج على يديْه مجموعة من طلبة الدراسات العليا .. هم :

أ ــ طلبة الدكتوراه :

١ ــ **علي إبراهيم أبو زيد** (مصرى) : الصورة الفنية فى شعر دعبل الخزاعى .

٢ ــ **محمد صالح الشنطى** (أردنى) : تطور الرواية العربية فى مصر (١٩٥٢ ــ ١٩٦٧) .

٣ ــ **بشير عباس بشير** (سودانى) : الاتجاه الواقعى فى الرواية السوادنية .

٤ ــ **أحمد موسى الخطيب** (أردنى) : الشعر فى الدوريات المصرية (١٨٢٨ ــ ١٨٨٢) .

٥ ــ **أحمد عبد الحي يوسف** (مصرى) : شعر صلاح عبد الصبور .. الموقف والأداة .

٦ ــ **يسرى العزب** (مصرى) : القصيدة الرومانسية فى مصر (١٩٣٢ ــ ١٩٥٢) .

٧ ــ **فتح الله أحمد سليمان** (مصرى) : شعر البارودى ــ دراسة أسلوبية فى بعض قضايا التركيب .

٨ ــ **سهير عبد الرحمن عطية** (مصرية) : الرؤية الدينية فى تراث عبد الحميد جودة السحار .

٩ ــ **عبد الرحمن العمرانى** (يمنى) : القصيدة الرومانسية فى الشعر اليمنى .

١٠ ــ **حمدى سلامة** (مصرى) : الرؤية السياسية فى الرواية الواقعية فى مصر .

ب ــ طلبة الماجستير :

١ ــ **إبراهيم الفيومى** (أردنى) : أحمد شوقى ناثرا .

٢ ــ **حسن محمد عليان** (أردنى) : القصة القصيرة فى فلسطين .

٣ ــ **أحمد محمد عبد الله** (كويتى) : شعر صقر الشبيب .

٤ ــ **أحمد عبد الحى يوسف** (مصرى) : شعر صالح مجدى .

٥ ــ **حسين أبو بكر** (أندونيسى) : تأثير المنفلوطى فى أدب حامكا .

٦ ــ **نصر الدين صالح سيد** (مصرى) : الشعر فى كتب الجبرتى التاريخية ــ جمع ودراسة .

٧ ــ **حمدى حسين سلامة** (مصرى) : الشخصية الروائية عند محمود تيمور .

٨ ــ **هيا محمد الدرهم** (قطرية) : صورة البحر فى شعر الخليج المعاصر .

٩ ــ **خالد عبد اللطيف رمضان** (كويتى) : مسرح سعد الله ونوس .

١٠ــ **أحمد محمد سليمان** (مصرى) : شعر صالح الشرنوبى .

١١ــ **البدرى أحمد** (مصرى) : مناهج النصوص فى الصف الخامس الابتدائى .

١٢ـ **حامد عبد اللطيف** (مصرى) : البناء الروائى عند يوسف السباعى .
١٣ـ **عبد الرحمن العمرانى** (يمنى) : الغزل فى شعر الإحياء فى اليمن .
١٤ـ **محمود شحاته** (مصرى) : أدب على فهمى رفاعة ـ جمع ودراسة .
١٥ـ **سحر أبو العزم** (مصرية) : بناء الشخصية فى روايات إحسان عبد القدوس .

وقد شارك أيضا فى مناقشة كثير من الرسائل فى : كلية آداب القاهرة ـ ودار العلوم ـ وآداب عين شمس ـ وكلية بنات عين شمس ـ وآداب الزقازيق ـ وآداب طنطا ـ وآداب بنها .

***

التقى بعد العودة فى القسم ـ صدفة ـ بجيهان السادات ، التى تخرجت فى أثناء سفره وعُينت معيدة ، وسجلت موضوعا للحصول على الماجستير . تصادف أنْ جلستْ بجواره ، وأخذتْ تسأله عما شاهد فى جامعة الإمارات ، فحدَّثها عن بعض أمور عامة ، لكنه لم يذكر ما حدث له بسبب الدفاع عنها . لو كان صاحبنا وصوليا أو انتهازيا ، لحاول أن يُتاجر بهذا الموقف المتشدد ، الذى دافع فيه عنها وعن زوجها ، لكنه كان يؤمن بأنه لم يدافع عن شخص بعينه ، وإنما عن الوطن نفسه بالدرجة الأولى . فالمرءُ باعتباره مواطنا من حقه أن يختلف مع حاكم بلده ، وأن يقول رأيه فى سياسته فى الداخل ، وألا ينشر هذا الرأى المعارض فى الخارج ـ إلا إذا كانت هناك موانعُ وأسباب قوية تَحُول دونَ ذلك ، لأن بعض الذين ينقدون بلادهم فى الخارج يتاجرون ـ أحيانا ـ بهذا النقد . وقد

يسمح الإنسانُ — وهو موجود خارج حدود الوطن — لغريب بأن ينقد سياسة بلده ، بشرط أن يكون النقد موضوعيا ، أما النقد الذى يصدر عن حقد ، ويتعمد السب والتجريح فى أى أحد من أبناء الوطن ، فهذا أمر يستحيل — أو يصعُب على الأقل — قبولُه .

من أجل هذا وقف صاحبنا ضد الزميل العراق .. الذى أراد أن يهاجم الرئيس السادات ، لأنه وقع معاهدة كامب ديفيد . لكنه اتخذ من ذلك مناسبة للهجوم على مصر نفسها .. وعلى أخلاق الرجل وكرامة زوجته ، لهذا رفض صاحبنا هذا الموقف منه ، وأصرَّ أنْ يحتج عليه .

وحتى لا نخوض — مرة أخرى — فى الحديث عن هذه السيدة ، التى حصلتْ من القسم على الماجستير فى حياة زوجها .. وعلى الدكتوراه بعد وفاته ، ثم رحلت — إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، نقول : إن دخول مثل تلك الشخصية إلى بعض المؤسسات العامة ، قد يفسد هذه الأماكن فسادا لا حدَّ له ، ويفتحُ البابَ على مصراعيْه لخراب مادى وأخلاقى كبير . ولا شك أن وجودها فى القسم قد ساعد على خراب ذمم بعض الأساتذة ، الذين سعوْا إلى بعض المكاسب الخاصة ، كما أصاب الشرفاءَ منهم بإحباط شديد .

الجامعةُ — فى أى مجتمع — ليستْ بُرجا عاجيا منعزلا ، وإنما هى شريحة من شرائح الحياة الاجتماعية ، غيرُ معزولة عن الحَراك الأخلاقى الصاعد أو الهابط الذى توجد فيه ، وبالتالى فإنه ليست هناك مؤسسات — قضائية أو جامعية أو سياسية أو عسكرية أو بوليسية .. أو حتى دينية — معصومةً من فعل خطأ .. أو ارتكاب خطيئة ، وإنما كل تلك

المؤسسات يمكن أن تُصاب بخراب واسع ، إذا دخل فيها من ليس منها . وليس أدل على ذلك من أن هذه السيدة نفسها استطاعتْ أن تُغيِّر قانون الأحوال الشخصية رقم (٤٤) لسنة ١٩٧٩ ، ليكون بيتُ الزوجية من حق المرأة عند الطلاق . وقيل إن هذا القانون قد صيغ من أجل عيون امرأتيْن فى مصر — كانتا على خلاف مع زوجيهما .!!

وإذا كانت هذه السيدة « الأولى والأخيرة » قد استطاعتْ إقناع بعض علماء الدين والقانون — بالحق .. أو بالباطل — بتغيير قانون شرعى أو مدنى ، فهل يصعب عليها — أو على من تكون فى مثل مكانتها — أن تجد أستاذا يُساعدها فى فهم محاضرة أو إعداد رسالة .؟!

المأساة الحقيقية فى مجتمعاتنا العربية أن « جماعة الصفوة » — على كل المستويات — مازالتْ تحكم بالحق الإلهى المقدّس ، وعلى هذا فمن حقها أن تفعل أو تقول ما تشاء ، إذ ليست هناك تقاليدُ راسخة ، تحدد مالها .. وما عليها .!

ومن الأمثلة على ذلك أن محافظة الدقهلية — التى ينتسب إليها صاحبنا — عُيِّن فيها محافظ من ضباط الجيش الكبار فى بداية الستينيات ، وبدأ ينشىء « مصيف جمصة » . ولا يستطيع مدقق .. أو محقق ، أن يحدد حتى اليوم حجم السرقة والنهب والفوضى ، التى حدثتْ فى أثناء ذلك .

ومن العجيب أن الوزير أو المحافظ .. أو رجل الحكومة بصفة عامة إذا أخطأ فى حق الشعب واستغل سلطاته فى منفعة نفسه ومحاسيبه ، وأهمل فيما أسند إليه إهمالا يصل إلى درجة الخيانة ، رغم كل ذلك فإنه قد لا يُحاسب ولا يُعاقب ؛ بل قد يُرقَّى أحيانا ، أو يُنقل إلى مكان آخر يفعل

فيه ، ما كان يفعله من قبل .!!

أتمنَّى أن يأتى يومٌ يُحاسب فيه كل من تولى منصبا عاما فى مصر : وزيرا .. أو محافظا .. أو رئيس مجلس شعب أو شورى .. أو رئيس مجلس إدارة شركة .. أو حتى رئيس جامعة ، لأن بعض هؤلاء المسئولين الكرام اشترى مائة فدان فى أثناء شغله للوظيفة .. هذا غير العملة الصعبة والسهلة ، والهدايا والتحف .. التى قد يُحصِّلها بالحق أو بالباطل .!!

رحم الله عمر بن الخطاب الذى استن قانون « مِن أين لك هذا ؟ » .، وقال : ما بالنا نبعث الولاة ، فيقولون هذا أُهدى لكم .. وهذا أهدى إلىّ . أفلا قعد فى بيت أبيه وبيت أمه ، ونظر هل يهدى إليه أم لا .؟ وأمر أن يُرد كل ما كان يُحصله الولاةُ إلى بيت المال .!!

وصدق رسول الله ﷺ فيما قال : « إنما أهلك من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق الشريفُ تركوه .. وإذا سرق الضعيفُ أقاموا عليه الحدّ . واللهِ لو أن فاطمةَ بنت محمدٍ سرقتْ ، لقطع محمدٌ يدها .....!! »

***

كانت ليلة باردة من ليالى شتاء ١٩٨٠ . عاد بعد سفر طويل متعب ، حيث كان يشارك — منتدبا — فى تدريس بعض المواد فى كلية آداب المنصورة ، وفاء منه للمحافظة ، التى ينتسب إليها . تناول العشاء مع الأسرة ، واطمأن إلى أن ولديْه محمد ومنى قد انتهيا من عمل الواجب المدرسى ، وأنهما يذاكران فى حجرتيهما ، أما الولد « اللعوب » مؤنس ، فقد نام مبكرا . جلس فى السرير — مرهقا — يحتمى من البرد ، ملتفا باللحاف والبطانية . أحضرتْ له أم محمد كوب الشاى ، قبل أن تنام بعد

يوم مُرهق فى عمل البيت .. ومتابعة الأولاد . أشعل سيجارة .. وفتح التليفزيون انتظارًا لنشرة أخبار الساعة التاسعة . سمع خبرًا لم يكد يصدقه : طائرة عسكرية احترق من فيها ، وهم ثلاثة عشر ضابطا من الضباط العظام ، كانوا بصحبة اللواء أحمد أحمد بدوى — رئيس الأركان . ومن العجيب أن يموت الضباط كلهم .. وينجو السائق وحده ، الذى بدا على شاشة التليفزيون سليما مُعافى .. رغم كثرة الأربطة الطبية ، التى تُوهم أنه قد أصيب هو الآخر . وقف شعر رأسه ... وغلى الدم فى عروقه . إن أبسط قواعد الأمن العسكرى ، تقضى ألا .. تتحرك مجموعة من الضباط الكبار فى وسيلة نقل واحدة . كيف نُسيت هذه القاعدة .؟! وهل شاهد الإثبات صادق أم أنه « شاهد ملك » .؟ لم يكن قلبه مطمئنا إلى أن ما حدث كان عفوًا .. ومصادفة .!!

وقد ضاعف من شكوكه أن الحادث وقع بعيدا على حدود مصر الشرقية .. قرب واحة « سيوة » ، حتى تكون الواقعة بعيدة عن أى تجمع سكانى ، كما تصعب — أيضا — زيارة مكان الحادث . بالإضافة إلى أن الانفجار قد حدث ، والطائرة لم تكد تتحرك . كم آلمه أن ينجو هؤلاء الأبطال من الحرب ، ويخرجوا منها منتصرين .. أحياءَ ، ثم يموتون ميتةَ الفراخ الوديعة .!!

أخذ يحاول وضع النقاط على الحروف ، فبدا له أن معظم قادة حرب أكتوبر ، قد أبعدوا عن دائرة الضوء منذ وقت مبكر . ومن أعطى منهم (دوْرا) فى الحياة المدنية ، فإن هذا الدور يكاد لا يتكافأ مع خبراته .. أو الدور الذى قام به . ترى هل حدث مع قادة أكتوبر ، ما حدث مع

زعماء ثورة يوليو من قبل ، وهو أنهم أبعدوا عن الساحة العامة .. وعن المشاركة فى قطف ثمار النصر الذى صنعوه .؟!

أحس بإرهاق شديد ، فأطفأ الضوء ، وشدَّ اللحاف ، وظل مع ذلك مستيقظا — فى الظلام — رغم شدة البرد .!!

***

ازداد الوضعُ الاقتصادى سوءا قبيْل وبُعيْدَ سنة ١٩٨٠ . ومن العجيب أن رئيس الدولة — رغم قسوة الغلاء وغياب كثير من السلع التموينية الضرورية ، وصعوبة الحياة خاصة على محدودى الدخل ، وتفاقم أزمة المساكن — كان يُمنِّى الناسَ فى كل خطبه ، طالبا منهم الانتظار حتى تأتى سنواتُ الرخاء ، وفى كل مرة يطلب إعطاءَه مهلةً . لكن الرجل لم يكن صادقا ، وإنما كان يبيع أحلاما صفراء .. للجوعى والفقراء .!!

ولكى تُسهم الحكومة فى حل الأزمات التموينية اتخذت قرارا عجيبا — لم يحدث فيما يعلم فى أى بلد من بلاد الله — وهو فتح فروع « فئوية » للجمعيات التعاونية فى كل مكان ، كم كان منظرًا لا يُنسى ، حين تجد عضوَ هيئة تدريس يُعطل محاضرةً ، حتى يأخذ علبة سمن أو كيلو سكر أو قطعة صابون أو ....!! وصار من المألوف أن تجد موظفا خارجا من مقر عمله ، وهو يحمل كرتونة بيض أو زجاجة زيت أو شيكارة أرز أو كيس سكر ...!! هكذا أصبح الحصول على الضروريات الشغلَ الشاغل لكثير من الناس ، وإذا الناسُ ألهاهم تحقيقُ الحدِّ الأدنى للوجود .. فماذا يمكن أن يُنتظر منهم .؟!

أىُّ عبثٍ بالبشر ذلك الذى حدث .؟! وإذا كانتْ أماكنُ العمل

سوف تتحول إلى « جمعيات فئوية » ، فما فائدة الجمعيات الأصلية .. و لم نفتحها أساسا ، إذا كانتْ السلع لا تصل إلى مستحقيها .؟!

ما فائدةُ وزارة التموين كلها ... على بعضها .؟ وما فائدة صرف التموين وبطاقات صفراء وحمراء وخضراء ، ومراكز توزيع ، وجمعيات تعاونية ، وبقالين معتمدين ، وموظفين لا حصر لهم ، واستيراد وتصدير وتوزيع .؟ إن هذا الجهاز الإدارى الكبير يبتلع أىَّ دعم . فلو أن الحكومة عملتْ خيرا ، وحلت وزارة التموين كلها — ووزعت رواتب موظفيها على أبناء المجتمع — وحلت الجمعيات التعاونية .. وألغتْ أفرانَ مؤسسة التموين ، التى تبيع الخبز عجينا ، لا يُؤكل — لكان ذلك أكثرَ راحةً للحكومة وفائدة للناس ، ويكفى هذه الوزارة مسئولية أن تستورد السلع الناقصة ، وأن تُراقب الأسعار مراقبة حقيقية .

***

لم تكن القرى أسعدَ حالا فى هذه الفترة من المدن ، فقد تكاسل الفلاحون عن الزراعة ، وهجر كثير من العمال والفلاحين الوطن بحثا عن الرزق فى بلاد الله القريبة والبعيدة ، التى قد تسىء أو تحسن معاملتهم ..!!

بدأتْ طائفةٌ من العمال والحرفيين ، تبرز شريحة اجتماعية جديدة ... وقد دعَّم وجودَ هذه الشريحة من « البرجوازية المستفِزّة » ظهورُ وظائف وأعمال جديدة ، أفرزتْها سياسةُ الانفتاح الاقتصادى ، مثل : تجارة قطع الغيار ، والأدوات الكهربائية ، والملابس الجاهزة المستوردة ، والعطور ، وغير ذلك من الأدوات .. والكماليات .. والحلويات .. والمشروبات ، مما يتاجر فيه أصحابُ « البوتيكات » و « السوبر ماركت » ، والمطاعم

والأكشاك السياحية ، والفنادق ، والكازينوهات النهارية والليلية ، والسمسرة ، وتجارة العملة ، وبيْع المساكن ، وتأجير الشقق المفروشة ؛ من هنا حدث تحول اجتماعى خطير قلبَ الحدودَ الطبقية — دون قاعدة أو تمهيد — وجعل (المال) أساسَ تقويم البشر ، وليس العلم أو الأخلاق .!!

وفى الوقت الذى صارتْ فيه الأغلبيةُ تكاد لا تجد الضروريات ، كان هناك مئات من أصحاب الملايين فى مصر ، بل إن بعضهم زادتْ ثروته زيادة فاحشة ، بحيث أصبح فى الإمكان أن يُعَدُّوا من الأثرياء — « المليونيرات » — على مستوى العالم كله . وقد أطلقت عليهم تسمية ساخرة هي « القطط السمان » .. وهى فى الحقيقة كناية لا تكفى للدلالة عليهم ، لأنهم يجب أن يسموا « الأبقار السمان » .!!

ولا شك أن مرحلة السبعينيات وما تلاها ، تعدُّ من أخطر الفترات فى تاريخ مصر المعاصر ، حيث حدثَ اضطراب اجتماعى وأخلاقى على كل المستويات ، أدى إلى ظهور كثير من السلْبيات ، التى أحدثت شروخا هائلة فى بنية المجتمع ، وأدت إلى سيادة أنماط استهلاكية جديدة ، وبوار كثير من القيم الأخلاقية والعادات المحافظة . وليس أدل على ذلك من طبيعة أشكال الجرائم ، التى حدثت فى هذه المرحلة المضطربة . الانحرافُ — إذا ظهر فى مجتمع ، ولم يُحارب فإنه — قد يُصبح قاعدة .. وينتشر ، كما تسرى النار فى الهشيم .!!

وقد نشر صاحبنا فى هذه الفترة (١٩٨٠) مجموعته القصصية الأولى « عمار يا مصر » ، وقد علّق عليها بسخريته المعهودة الصديق

الدكتور إبراهيم شتا قائلا :

* أنت أديب ماكر ، لأن البلد أصبحتْ — اليوم خرابا ، ومع ذلك تقول « عمار يا مصر » .. أليستْ هذه التسمية من قَبيل المتناقضات ، كما نقول عن الأعمى « بصيرا » ، وتسمّى الملدوغ « سليما » .؟!

***

كانت نتيجة طبيعية لكل ما أحدثته سياسة الانفتاح الاقتصادى — وغيرها — أن يسوء رأىُ الجماهير فى الحاكم والحكومة . وبدأ اليمين واليسار والمسلمون والمسيحيون وكثير من الصحفيين والساسة المستقلين يتململون من حكم السادات ، وظهرتْ أكثر من محاولة لاغتياله . وقد حذّرته المخابراتُ الأمريكية نفسها من ذلك ، وقيل إنه سوف يُغتال يوم عيد العمال — أول مايو ١٩٨١ — الذى عُقد فى مدينة المنصورة . لكن الرجل كان واثقا من نفسه بدرجة قوية ، ومن جهاز مخابراته بدرجة أقوى ، غير أن تزايد النقد لسياسته دفعه إلى أن يعلن فى آخر خطبة له (قرارات ٥ سبتمبر ١٩٨١) ، التى تمّ بموجبها اعتقال المئات من مفكرى اليسار الاشتراكى واليمين الدينى ، بل إن الأمر تعدَّى ذلك إلى بعض رجال الدين المسيحى . كما شملت تلك القراراتُ أيضا اعتقال بعض الإعلاميين ، وتحويل عدد آخر منهم ومن أعضاء هيئة التدريس بالجامعات إلى وظائف ، لا تمت بصلة إلى تخصصاتهم أو خبراتهم ، رغبةً فى حجب تأثيرهم الفكرى عن الجماهير .

كانتْ هذه القراراتُ هى (السقطة المدمِّرة) لدراما عصر السادات ، الذى تكبَّر وتجبَّر .. بعد حصوله على جائزة « نوبل » للسلام

(١٩٨٠ — بالاشتراك مع مناحم بيجن) ، وبعد أن أصابه قدرٌ من الغرور ، نتيجة ما كُتب عنه فى بعض الصحف الغربية ، من أنه حاكم متحضّر ، استطاع أن يعقد اتفاقية سلام ، لم يجرؤ عليها غيره ، والإشادة بوسامته باعتباره معنيًّا أشدَّ العناية بأن يلبس أحدثَ صيحات الموضة . بينما الرجل منتشيا بأناقته وإعجاب صُحف الغرب به ، واستئثاره — وبعض أعوانه — بجنْى ثمرات حرب أكتوبر ، كان الشعب يعيش مرحلة من أكثر المراحل خرابا واضطرابا فى تاريخه المعاصر .

***

إن الله — جلَّتْ قدرتهُ — يُمهل ولا يُهمل ، حتى إذا جاءت اللحظة نفذَ السهمُ فى مقتل ، وقد حدث هذا ظهر الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، وتصادف أن كان اليوم — يوم وقفة عيد الأضحى ، وموعد العرض العسكرى احتفالا بنصر أكتوبر .

وقد تشكلت — سِرّا — مجموعة انتحارية لقتل « الفرعون الجديد » فى يوم عيده ، وهو محاط بالجيش والحرس الخاص وكبار رجال الدولة ، وإذاعاتُ العالم المسموعة والمرئية تذيع على الهواء مباشرةً وقائعَ الاحتفال . فى أثناء ذلك اغتاله بعض الشبان ، وعلى رأسهم : خالد الإسلامبولى ، وعبد الحميد عبد السلام ، وعطا طايل ، وحسين عباس ، وعبُّود الزمر ، وقد استقر فى الجسد المسجى ما يزيد على ستين طلقة .. وتناثرتْ أجزاء جسده ، بدرجة لم يستطع معها حاملو الجثة جمعَ أشلائها المبعثرة . و لم يحاول أولئك الفدائيون أن يُصيبوا غيره من رجال الدولة — الذين كانوا بجواره ، لأنهم كانوا قد حددوا لأنفسهم هدفا واضحا ، لم

يحيدوا عنه .. هو اغتيال السادات ـــ وحده ـــ فقط لا غير ..!!

ومن الصعب أن يُقرَّ إنسان عاقل سياسةَ العنف والاغتيال ، وأسلوب التصفية الجسدية ، إلا أن هؤلاء الفتية قد استطاعوا أن يضعوا حدا لمرحلة بلغ الظلم .. والخراب .. فيها أقصى مدى ..!!

عصر ذلك اليوم المشهود سار صاحبنا من بيته فى الدقى لمقابلة صديق له فى مصر الجديدة ، ورأى على وجوه الناس ارتياحا ورضا لما حدث ، أكثر من هذا أنهم مضوْا يُعدون العدة للاحتفال بالعيد الكبير ..!!

تلك عادةُ شعب مصر ـــ دوْمًا ـــ يتحمل ويصبر ، حتى يظن من لا يعرفه أنه يقبل الاستبداد ، ويرضى الاستعباد ، فإذا به يثور ـــ فجأة ـــ ثورةً عارمة ، يُنهى بها سيطرةَ طغيانٍ استحكم فساده ..!!

***

هكذا انتهتْ مرحلة .. وبدأ عصرُ حسنى مبارك ، ورغم نزاهة الرجل ، فإنه ورثَ تركةً مُثقلة ، وتسلم ظروفا بالغة الصعوبة والتعقيد ، من أهمها : العزلة عن العالم العربى ، ومشكلة ديون مصر العسكرية ، التى أصبحت الميزانية عاجزة ، حتى عن أداء الفوائد وحدها ، وازدياد حجم البطالة بين الشبان خاصة المؤهلين ، الذين وصل عددهم سنة ١٩٨٥ إلى مليونىْ فتى وفتاة . ثم ظهور مجموعة من المغامرين والنصَّابين تخفوا وراء ستار شركاتٍ إسلامية وهمية لـ « توظيف الأموال » بطريقة شرعية ، وقد استولى كثير من مؤسسيها على أموال الناس بالباطل ، بل إن بعضهم أخذ من البنوك الحكومية نفسها قروضا ضخمة ، بحجة المساهمة فى مشروعات وهمية وهربوا إلى الخارج .

وقد صاحب ذلك ارتفاعٌ جنونى للأسعار ، وانخفاض فى منسوب

النيل ، وظهور بعض حالات صارخة من سرقة « المال العام » فى بعض المؤسسات الحكومية وشركات القطاع العام . كذلك سادتْ بعضُ صيحات عالية من الإرهاب الدينى . وأخيرا الصراع بين أحـزاب المعارضة وحزب الحكومة ، من أجل الحصول على حقّهم الديمقراطى ، الذى كفلَهُ الدستور .. ولم تسمح به مُعطياتُ الواقع .

هذه المشكلات وغيرها .. ورثها عصر الرئيس مبارك ، الذى ورث تركة مثقلة ، ولا سيما فى مجال الإصلاح الداخلى لشئون المجتمع والاقتصاد . والأمل أن يتجاوز الرجل — بدمائته .. وطهارة قلبه ويده — هذه المشكلات .. وغيرها ..!!

***

حين وصل صاحبنا إلى هذه المرحلة من تأمل ذكرياته ، صاح من سويداء قلبه فى أعماق الضمير :

يا وطنًا .. عذّبنى حبُّه فى القرب وفى البُعد
أرسـمُ لـك خارطـةً تحتَ الضـوء
أخـطُ — بـدمـى — الشعـار
الديمقراطيـةُ أسـاسُ الحكـم
والخبـز .. قـوامُ العـدل
والعلـم .. سبيـل البنـاء
والمحبـة .. طريـق الأمـل
يـا مصـرُ .. لقـد طـالَ الطريـق
وأنـا جئتُكِ كيْـما أستريح .!!

***

أصوات متعددة .. وعالم واحد

الحريصُ على أولاده فى هذا العصر ، كالحريص على الجمر ، فقد صار تعليم الأبناء وتربيتهم عملية شاقة ، خاصة وأن وزارة « المعارف » بعد أن تغير اسمها إلى وزارة « التربية والتعليم » ، أصبحتْ لا تهتم بالتعليم ، ولا تقيم وزنًا للتربية ؛ معنى هذا أن يكون « البيت » هو المسئول الأول عن الأولاد . عندما كان الأطفال فى المراحل الأولى من التعليم الابتدائي والإعدادي ، كانت « أم محمد » قادرة على متابعتهم ، ومعرفة خط سيرهم . شيئًا فشيئًا اتسع نطاق العلوم وكثر عددها ، وأصبح الأمر يحتاج إلى « دروس خصوصية » فى بعض المواد بالنسبة لمحمد ومنى .. ولمعظم المواد بالنسبة لمؤنس ، بالإضافة إلى أن الأولاد الذكور لم تعد معاملتهم مريحة .. وأصبحوا يطالبون بممارسة بعض هوايات جديدة مثل اللعب والسينما وزيارة الأصدقاء ....!!

فى حقيقة الأمر كان عبءُ متابعة الأولاد ، مُلقى كله على عاتق الأم ، تقوم به عن رضا وصبر ، خاصة وأنى كنت أعمل كل يوم تقريبًا : أدرس يوم السبت فى آداب المنصورة ، والأربعاء فى معهد المسرح أو معهد السينما ، وأيام الأثنين والثلاثاء والخميس فى آداب القاهرة ، بالإضافة إلى التأليف العلمى والإبداع الأدبى ، والإشراف على

طلبة الدراسات العليا . هكذا كانت الحياة تمضى جريًا وعدوًا من أجل تحقيق الوجود العلمي والأدبى من ناحية ، ومن أخرى من أجل توفير احتياجات البيت والأسرة ، فى زمن أصبح فيه « القوتُ كالياقوت » بسبب الغلاء الفاحش .!!!

العام الدراسى ١٩٨٠ / ١٩٨١ كان عامًا مزعجًا ، يتسق مع ما فى الواقع العام من مشكلات وأزمات ، ذلك أن ولدنا « محمد بيه » — كما كانت تدلله أمه — وصل إلى « الثانوية العامة » ، التى تمثل « شبحًا مخيفًا » فى كل بيت مصرى . فى هذه السنة تُعلن « حالة الطوارئ » .. وتشتد حركة المراقبة والأمن ، وتتأزم العلاقة بين الوالدين والولد تأزمًا ، يصل إلى حد يرتفع فيه معدل ضغط الدم إلى درجة لا توصف . ويزيد الموقف خطورة أن كل أسرة تحلم أن يكون ابنها طبيبًا ، أو مهندسًا ، أو صيدليًا — إذا كان فى القسم العلمى ، ومحاسبًا أو وكيل نيابة أو على الأقل مدرسًا — إذا كان فى القسم الأدبى . ومن أجل تحقيق « الحلم الذهبى » للأسرة ، تُعطى الولد بلا حدود ، لكن الولد بدوره يكون قد وصل — زمنيًا — إلى مرحلة « المراهقة » ، ومعنى هذا فى تصوره أنه أصبح « رجلاً » ، لا يحتاج إلى نصيحة أو توجيه . كما أنه يبدأ بالفعل — فى ممارسة بعض حقوق « الرجولة » — كما يتصورها أبناء هذا الزمان — وهى أن يعرف الحب وتكون له فتاة أحلام ، أو يدخن السجائر « اللعينة » ، أو يمارس لعب الكورة ، أو يرتبط بـ « شلة » من الأصدقاء ، يتحرك معهم واعيًا أو دون وعى . وهنا تنشأ « معركة » نفسية رهيبة بين الوالدين .. والولد . فى الغالب يرضخ الكبارُ لكثير من

مطالب الصغار ، أملاً فى تحقيق الحلم .. وطمعًا فى ألا يعكروا صفو مزاج « سعادته » ، لكى يذاكر بجد واجتهاد .!!

نعود إلى الحديث عن « محمد بيه » ولدنا البكر — وولى العهد — الذى أتعبنا فى هذه السنة بالدروس الخصوصية أحيانًا فى البيت ، وأخرى خارجه . ثم إنه ارتبط بمجموعة من الأصدقاء أراد أن يذاكر معهم ، لكنى رفضت ذلك رفضًا قطعيًا ، فاستأذن أن يحضروا للمذاكرة معه فى البيت ، فقبلت على مضض . انقلب البيتُ إلى فندق : « عشاء يا ماما .. قهوة .. شاى .. عصير ليمون ....!! »

سألت أمه ذاتَ مرة :

* ما أخبار المدرسة ، التى أقامها لنا محمد فى البيت .؟

* إنهم يذاكرون ، وإن كنت لا أعرف ما وراء الباب المغلق .

* لكن صوت المسجل لا يتوقف .

* يقولون إنهم لا يستطيعون المذاكرة إلا على هذه الحال .

قلت لنفسى : حكم القوى .!!

انتهت السنة الطويلة العريضة بخير ، ودخل الولد كلية هندسة البترول بالسويس . حمدنا الله على هذا .. وبدأت دورة جديدة فى حياة محمد .

لم تكن تربيةُ مؤنس بأسلس من تربية محمد ، لأن ولدنا الصغير « آخر العنقود » ، كان ميّالاً إلى اللعب — بشكل لا مثيل له . المذاكرة عنده عمل الواجب على أى نحو كان ، ثم مشاهدة التليفزيون ، واللعب فى الشارع . وقد حصل على مجموع ضعيف فى الشهادة الإعدادية ، فطلبتُ منه أن يُعيد السنة ، كى يحسّن مجموعه ، فرفض رفضًا قاطعًا . قررتُ فى

النهاية أن يدخل التعليم الفنى « التجارى » . وقد سعد به ، ونجح فيه دون أن يرسب سنة واحدة .

الوحيدة التى أراحت أمها وأباها فى التعليم ، تلك كانت « الأميرة منى » .. حبيبة بابا . كانت تعرف ما عليها بوعى ، وحريصة على أن تكون « ممتازة » فى الدراسة والسلوك . كانت « الأولى » دائمًا فى كل شىء ، وتذاكر إلى أن تنام والكتاب بين يديها . الولدان كنت أصيح فيهما كى يذاكرا .. أما هذه فكنت أرجوها أن تريح نفسها ، لأنها جادة أكثر من اللازم ، لكنها ظلت مصرة على أن تكون دائمًا ممتازة .!

عندما انتقلت منى إلى الثانوية العامة .. وهى فى السابعة عشرة من عمرها فوجئت بأمر غريب ، فقد تقدم شاب طبيب ــ ابن خالة لها ــ يطلب يدها . أربكنى هذا الموقف الجديد ــ الذى لم أكن أتوقعه بمثل هذه السرعة . سألتُ أمها ، فردت :

* الخطيب قريب لى .. والحكم عليه من ناحيتى لن يكون موضوعيًا .

أغلقت « أم محمد » بابَ الحوار ، وأخذتُ أقلب الأمر على كافة نواحيه ، متذكرًا « مثلاً » كانت تردده أمى ــ رحمها الله : « اخطب لابنتك ، ولا تخطب لابنك » . لقد كبر محمد الآن ، وأصبحتْ له صداقات من الجنس الآخر ، ويكلمهن ويكلمنه فى تليفون البيت . أليس من حق هذه الفتاة ــ التى تصغره بعام واحد ــ أن تحب أيضًا ، وما دام هذا حقًا لها ، فلم لا تحب فى الضوء .؟! قرأنا « الفاتحة » ــ دون أى إجراء رسمى إلى أن تنجح فى الثانوية العامة . وقد نجحت بعد ذلك (١٩٨٣)

بمجموع ممتاز (٩٣٪) . كانت الفرحة فرحتين : فرحة دخولها كلية طب القاهرة ، وأخرى إعلان خطوبتها لسيد حلمى .

***

محمد .. ومنى .. ومؤنس ، هذا الثالوث المقدس ، فنيت فيهم .. وكاد يفنينى ، فالأبوة « وظيفة » جد شاقة عند أب ، نشأ نشأة قاسية ، وأراد أن يعوض أبناءه بعضَ ما حُرم هو منه .!!

حين أتأمل الأولاد الثلاثة ، أجدُ أنى قد انقسمتُ فيهم قسمة عادلة . أما منى فقد أخذتْ عنى .. الذكاء والكفاح والمثابرة والاعتداد بالرأى . إنها باختصار قد ورثتْ جانبَ « العقل » ، وهى جريئة فى الحق عنيدة فى مجال الطموح ، حادة فى مشاعرها ، متطهرة فى عواطفها ، علاقتها طيبة بكل من تتعامل معه ، وتُجبُر كل من يقابلها على احترامها . هذه الفتاة .. قادرة على أن تقرأ ما فى ضميرى ، دونَ أن أتفوه بكلمة أو أنطقَ حرفًا . لم أسعد .. ولم أبكِ فى حياتى ، قدر ما حدث لى — يوم زفافها فى ١٦ / ٧ / ١٩٨٦ .!!

أما محمد فقد ورث عن أبيه طيبةَ القلب وحب الناس ، وهو على درجة كبيرة من الأدب والحياء . كما أنه عاقل فى حركته ، وعلاقته بالناس رشيدة ، وإن غلبتْ عليه الطيبةُ والتسامح . لقد ورث « قلبى » بعواطفه المشبوبة .. وحبه الفياض لكل البشر . ولم يرتكب أى خطأ فى مسيرته التعليمية ، ولم يقع فى أية مشكلة كبرى مع زملائه أو أصدقائه . حين يراه بعض المعارف ، يسير معى بعد أن كبر ، يقولون : « إنه أخوك الصغير » ، لأنه صورة مصغرة منى فى الشكل .. والمضمون .!!

عندما كان محمد ومنى صغيرين ، كنتُ حازمًا فى تربيتهما ، وحين جاء مؤنس دُلل بعضَ الشىء فى صغره ، لأنه كان هزيلاً مريضًا ، بسبب الرضاعة الصناعية . وقد أغراه التدليل ، بمزيد من الرغبة فى اللعب والاستهتار بالمذاكرة . ورغم ما أصيب به من مرض فى الصغر ، فإنه عندما كبر ، صار أقوى إخوته بنيانًا ، وأكثرهم حبًا للاستمتاع بالحياة . لكنه رغم ذلك يمتاز بقلب أبيض ، يعطى أصدقاءه وزملاءه كل ما معه — دون مقابل ، فهو كريم إلى حد السفه أحيانًا . أما عند الجد فهو أكثر الأبناء تحملاً للمسئولية ، وقدرة على أداء الواجب . إذا أرسلته فى أداء طلب لا بد أن يحققه ، وإذا كلفته بأداء عمل لا بد أن يفعله . إنه الوحيد القادر على شراء الخبز من « طابور الفرن » ، وإحضار لوازم البيت من السوق ، وزيارة الأهل فى القرية ، لأنه وصّال .. ودود لذوى القربى بصورة نادرة . لا شك أنه قد ورث عنى التواضع وتحمل المسئولية .. والعلاقة الطيبة بالأقارب والأصدقاء .!!

زوجتى العزيزة « سعدية » .. أو « سُوسو » — كما أدللها .. أحيانًا — سيدة بيضاء القلب ، نقية السريرة .. لا تحمل شرًا لمخلوق ، ولا تُعادى أحدًا . وقد حافظتْ على بيتها ، وأخلصت لأسرتها .. رغم أنها تزوجت صغيرة ، و لم تكمل تعليمها . كان البيت مملكتها .. وأبناؤها كل شغلها .. ورعاية الزوج والإخلاص له غايةَ آمالها . ولا شك أن هدوءها وإخلاصها ، وتواضع مطالبها ، وحُسن إدارتها للبيت ، كانت سببًا فى تفرغ الزوج لأعماله الكثيرة .. ونجاح أولادها فى دراستهم ، الذين ما زالتْ ترعاهم ، حتى بعد زواجهم . إن دور المرأة فى البيت عظيم

وخطير . وكم خسرتْ البيوتُ كثيرًا بسبب عمل المرأة وانشغالها عن واجبها الأول ، ودورها الأساسى فى الحياة ، لأن المرأة خلقت — فى المقام الأول — لتكون سيدة بيت وراعية أسرة .!!

إن البيت — يصير جنة ، إذا كانتْ هناك زوجةٌ تعمره ، وتؤنس أهله على الدوام ، فالبيت بلا زوجة صالحة قبر موحش ، بل ربما يكون .. حفرةً من قاع الجحيم .!!

وقد سعد صاحبنا بأبنائه ورفيقة دربه وعمره .. ولا شك أن زوجته — الطيبة .. الصالحة — سر نجاح الأولاد ، وتوفيق الزوج .. فى آنٍ واحد .

***

لم يكن صاحبنا أبًا لأبنائه فحسب ، وإنما هو محب لأهله وأقربائه .. وكل أبناء قريته . ويسعى — فى عمل الخير — أنى استطاع إلى ذلك سبيلاً . ورغم أنه أصغر إخوته وأبناء عمومته سنًا ، فإن الظروف جعلته مسئولاً — بشكل ما — عنهم ، وملتزمًا بأن يقف بجوارهم فى كثير من المناسبات والأزمات ، لذلك صار البيت — مثل « دوار العمدة » — مزارًا لكل صاحب مصلحة فى القاهرة ....!!

وهذه العلاقة الطيبة ليست مقتصرة على أهله وذويه فحسب ، وإنما يقوم بها — عن طيب خاطر — مع تلاميذه أجمعين ، الذين فتح لهم قلبه وعقله ومكتبته وبيته . وقد أصبح الآن يشترى من بعض الكتب نسختين ، نسخة لمكتبته وأخرى للإعارة ، لأنه يعز عليه أن يطلب طالب كتابًا — وهو عنده — فلا يعيره إياه ، حتى لو كان الطالب تلميذًا لغيره من الأساتذة .

ذات مرة جاءه طالب « تونسى » يعمل فى هولندا ، ويعد رسالة دكتوراه عن « طه حسين » . زاره لأول — وآخر مرة — فى البيت ، وسأله عن بعض الكتب والمراجع .. واختار منها عشرة ، كان معظمها غير مطبوع فى مصر .. أو نفدت طبعته ، وأخذها ، كى يصور من كل كتاب فصلاً ، ثم يعيدها . وقد اختفى بعد ذلك وادعى أنه نسى الكتب فى التاكسى . ورغم تأكده أنه « كذّاب » ، لم يجرؤ أن يوبخه أو يلومه .. أو أن يأخذ الثمن . وكم من كتب قيمة ، استعيرت من مكتبته و لم تعد . إن الجود — بالكتب — أقصى غاية الجود بالنسبة للأستاذ .

كما أنه مع طلبته — أجمعين — يتعامل بأبوة رحيمة ، و « أستاذية » نبيلة ، لأن الأستاذ — فى تقديره — أب فى حقيقته .. وغايته . وهناك طلبة كثيرون ، يحبهم ويحنو عليهم ، ويتابع مسيرتهم الإنسانية والعلمية بإخلاص شديد ، كأنما هم أبناء حقيقيون له . وهو سعيد بهذه « الأبوة » المسئولة ، لكل طلبته وتلاميذه . العطاء كل متكامل ، والشحُّ فى العواطف ، شح فى الإخلاص للمهنة والوظيفة ، بل للوجود الإنسانى نفسه . هذا ما يؤمن به .. ويعتقده .. وذاك فى اللحظة نفسها ، ما يهبه سعادة لا تُوصف .!!

وفى معرض الحديث عن العلاقات الإنسانية ، فإن صاحبنا يعتز بمجموعة كبيرة من الأصدقاء الأوفياء فى مصر .. وفى كثير من البلاد العربية . وإنه ليحمد الله حمدًا جزيلاً .. على ما حباه به من أصدقاء أوفياء ، يعتز بهم كل معزّة ، ويكن لهم كل تقدير ومحبة . إنه يعتز بصداقة كثير من الأدباء والنقاد المعاصرين ، والأساتذه الجامعيين ، والمفكرين ،

والصحفيين ، والإذاعيين ، وبعض الفنانين . ولولا أن ذكر الأسماء لا مبرر له هنا .. لذكر مئات من الأسماء الجليلة ، التى يعتز بها ، ويخلص لها ، وينعم بصداقة سامية معها . إن الإنسان الذى لا يحيا مع الآخرين .. وبهم ، إنسان خائبُ الرجاء .. مقطوع الأمل .. قليل الحيلة . هو الكون حى ، يحب الذين يحبون الحياة ، ويعملون من أجل تحقيق السعادة لأكبر عدد من الأحياء . الإنسان المعزول « ميت » بمعنى من المعانى . قد تستطيعُ بالمال أن تفعل أشياء كثيرة .. لكن حبَّ الناس ، لا يقدر عليه إلا من خالق الناس بخُلق حسن . إن خير الناس أنفعهم للناس ، وأفضل البشر هم الموطأون أكنافًا ، الذين يحبون الناس ويحبهم الناس . الحياةُ بلا صداقة نبيلة جحيمٌ لا يُطاق . إن كنوز الأرض لا تعدل لحظة ذكرى فى قلب صديق مخلص .!!

أعظمُ من كل العلوم والفلسفات
وأخلدُ من الأشعار والحِكايات
ألا تمـوت ذكـرى إنسـان
فى قـلب مـن أحبّ ... !!

***

المجموعة القصصية الأولى « عمار يا مصر » (١٩٨٠) تمثل مرحلة « الهواية » فى الكتابة ، وكتبت قصصها خلال سبع سنين . وقد أقيمت أكثر من ندوة أدبية حولها ، شارك فيها مجموعة من النقاد الكبار هم : د . شكرى عياد ـ د . الطاهر أحمد مكى ـ د . أنجيل بطرس ـ د . نبيلة إبراهيم ـ د . سيد النساج ـ د . سيد حنفى ـ د . عبد الفتاح عثمان ـ د . يحيى عبد الدايم ـ د . سمير عبد الحميد .

وقد قال عن هذه المجموعة د . شكرى عياد : إن طه وادى فى هذه المجموعة يذكرنى بشبابى وتجربتى فى القصة ، ومحاولة المزاوجة بين الأدب والنقد . وهو كاتب جامعى يسخر أحيانًا من الجامعة والجامعيين ، وموهبته من خلال المجموعة تؤكد أن قدراته أقرب إلى فن الرواية ، وأن نسيج القصة القصيرة لا يتيح له تقديم كل ما عنده . وأخشى عليه — كما خشيت على نفسى منّ قبل — أخشى أن يكون العمل فى الجامعة ، هو الحائل بينه ، وبين ما يريد أن يكتبه ، وما يتمنّى أن يحققه ..!!.

وقد حدثْ حفاوةُ النقاد بها إلى مواصلة الطريق ، فأصدرتُ سنة ١٩٨٢ المجموعة الثانية « الدموع لا تمسح الأحزان » . وقد أقيمتْ حولها أيضًا ندوات أدبية كثيرة .. شارك فيها : د . أحمد عثمان — د . أحمد شمس الدين الحجاجى — إقبال بركة — أحمد الشيخ — جلال العشرى — د . أنجيل بطرس — د . شكرى عياد — د . الطاهر مكى — كما كتب حولها نقد من بعض الصحفيين وأساتذة الجامعة : إسماعيل النقيب — فتحى سلامة — حسن شاه — بركسام رمضان — د . محمد الشنطى — د . بشير عباس — د . صلاح رزق ....

وعلى هذا فقد أصبح لزامًا علىَّ مواصلة طريق الإبداع . ومن عجب أن البعض قد ظن أنى — بهذا — أبتعد عن مجال تخصصى فى النقد ، وغاب عنهم أن تلك كانت هوايتى الأولى .. وحلمى الكبير ، الذى كنت ولا زلت أحلم به .. وأخلص له .. وأعيش من أجله . وقد تجاوز صدى هذه المجموعة الواقع الثقافى المصرى إلى المحيط العربى ، حيث نُشرتْ بعض منها فى الدوريات العربية . ثم كان أن ترجمت بعض قصصها إلى

اللغات الصينية والإنجليزية والفرنسية . كما تحولت بعض قصصها إلى تمثيليات فى الإذاعة والتليفزيون .

هكذا ينتهى المرء من حيث بدأ .. وأعود ، أعود إلى هوايتى .. وحلمى .. وأملى الباكر البعيد . وقد كتبتُ بعد ذلك أول « رواية » طويلة تنشر لى — وإن كانت قد سبقتها محاولات كثيرة فى القصة والرواية لم تر النور حتى اليوم — تلك كانت رواية « الأفق البعيد » ، التى انتهيت من كتابتها سنة ١٩٨١ ، قبيل حادث « المنصة » بأيام معدودات . ولأسباب .. تعثر نشرها ، إلى أن نُشرتْ أخيرًا ، على نفقتى الخاصة فى « دار المعارف » سنة ١٩٨٦ . وهذا ما أدى إلى أن تنشر قبل ظهورها المجموعة الثالثة « حكاية الليل والطريق » سنة ١٩٨٥ .

وقد أقيمت حول رواية « الأفق البعيد » ندوة أدبية كبيرة فى « كرمة ابن هانىء » بالجيزة ، شارك فيها : د . ماهر حسن فهمى — د . شاكر عبد الحميد — د . يسرى العزب — د . عبد الحميد شيحة — د . صلاح رزق — د . سليمان العطار . وقال عنها د . ماهر فهمى فى هذه الندوة : « إن رواية الأفق البعيد ، تعد خطوة فنية متقدمة ، تؤذن بأن هناك جيلاً جديدًا من الروائيين ، قد ظهر بعد نجيب محفوظ ، والكاتب باعتباره واحدًا من هذا الجيل ، له أسلوبه الواقعى المتميز .!! » .

أما مجموعة « حكاية الليل والطريق » (١٩٨٥) فقد أقيمت حولها ندوة فى « نادى القصة » شارك فيها : د . محمود فهمى حجازى — د . يوسف نوفل — د . أحمد عثمان — د . يسرى العزب — عبد العال الحمامصى .

بعد ذلك صدرت الرواية الثانية « الممكن والمستحيل » سنة ١٩٨٧ ، عن الهيئة المصرية للكتاب . وكان من المقدر أن تقام حولها ندوة أدبية فى « دار الأدباء » ، يشارك فيها : د . الطاهر مكى ـــ د . محمد حسن عبد الله ـــ د . أحمد عثمان ـــ د. يسرى العزب .. ولكن صهرى ـــ رحمه الله ـــ مات فى اليوم نفسه (٢٧ / ١ / ١٩٨٨) ، فتأجلت الندوة بسبب سفرى بعدها إلى قطر .!!

هناك مجموعة رابعة فى طريقها إلى النشر ، وهى « دائرة اللهب » (١٩٩٠) .. وقد كتبتْ قصصها فى مدينة « الدوحة » فى الفترة من ١٩٨٦ إلى ١٩٨٩ ، وتصور بعض مشاعر الغربة ، التى عانى منها الكاتب خلال هذه المرحلة .

وقد ساعد ـــ صاحبنا ـــ على مواصلة « الإبداع » بشكل مطرد ، أنه قد انتهى من آخر الترقيات الأكاديمية فى الجامعة ، وهى درجة « أستاذ » سنة ١٩٨٤ .

***

لست أدرى ما الذى يدفعنى إلى الكتابة الأدبية بهذا الشكل المحموم .. كأنى موتورٌ يطلبُ ثأرًا ، أو محروم يعوِّض ما فقد من حرمان ، أو أسير طال سجنه ، وانفك عقاله صدفة ، فمضى ينشد حريته ، أو كأنى قد شُلَّ لسانى فترةً طويلة ، وعادت إليه الروح فجأة ، فأنشأ يقول كلمته ، أو كأنى عين فنار ، تلمح من علٍ وعن بُعد خطرًا محدقًا ، فتظل تصيح .. وتصرخ ..؟!!

لا شك أنى كاتب .. ملتزم ، صاحب قضية ، ولى رؤية أدبية خاصة ،

تتجاوز هموم الإنسان المصرى ــ أحيانًا ــ كى تتواصل مع هموم الإنسان العربى . لكن لا تسألونى عن هوية تلك القضية .. فأنا معذب تحرقنى الكلمات ، ومستجير تهزه الصيحات ــ صيحات من يبحثون عن كسرة خبز فى أرض جدباء ، وينشدون لحن الحرية فى أذن صماء .!!

أحسُّ ــ أحيانًا ــ أنى العاشقُ الوحيد لهذه الأمة ، أحمل ــ أنّى ذهبتُ ــ همومها على كتفى ..!! بينما يهجع كثير من الناس يداعبون أطفالهم ، أو يدلكون ظهور نسائهم ... أقوم ــ وحدى فى الليل ــ رغم كل الآلام والمشاغل ــ أتلقى الوحى من أفق بعيد ، ثم أخط ما يُوحى إلىّ ، حتى تصل رسالة .. ألزمتُ بها نفسى .!!

بيد أنى لست صاحب قضية إنسانية ورسالة فكرية فحسب ، وإنما يعذبنى ويشقينى ــ دوما ــ أسلوب القص وطريقة الحكى ، فأسعى ــ دوما ــ نحو « التجريب » ، مستعينًا بمعطيات التراث ، ومنجزات الحداثة . البحث عن « تكنيك » مُتجدد ــ إذن ــ همٌّ يؤرقنى فى كل عمل أكتبه ، بدرجة أخشى فيها ــ أحيانًا ــ أن يُقال : عابر يبحث عن سبيل ، أو كاتب يفتش عن أسلوب .!!

***

أشرتُ ــ من قبل ــ إلى الدراسات الأدبية ، التى كتبتها حتى اليوم ، وهى دراسات تدور حول محورين كبيرين :

الأول : الرواية والقصة القصيرة : وقد صدر لى فيه أربعة كتب : هيكل ، حياته وتراثه الأدبى ــ صورة المرأة فى الرواية المعاصرة ــ مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية ــ دراسات فى نقد الرواية .

الثانى : الشعر الحديث والمعاصر : وقد صدر لى فيه خمسة كتب : شعر شوقى الغنائى والمسرحى — شعر ناجى الموقف والأداة — ديوان رفاعة الطهطاوى : جمع ودراسة — جماليات القصيدة المعاصرة — الشعر والشعراء المجهولون فى القرن التاسع عشر .

وهذه الكتب تدرس بشكل مفصل تاريخ الرواية والشعر ، وتتوقف عند المذاهب والتيارات ، التى سادت فى كليهما ، وتترجم — فنيًا — لكثير من الشخصيات الأدبية الهامة هنا .. وهناك . بيد أن التأريخ للأدب أو الأدباء — لم يكن وحده الهدفَ المقصود فى تلك الكتب ، حتى ما كان يُؤرخ فيه لفترة أدبية بعينها ، لكن دراسة النصوص من « الداخل » وربطها بالواقع ، كانت شغلى الشاغل فى كل ذلك . وعلى هذا فإن المنهج الذى أخذت به فى الكتابة النقدية هو « المنهج الاجتماعى»، الذى يُعنى ببيان المحتوى الأدبى والموقف الفكرى وربطهما بالواقع الذى أنتج الظاهرة الأدبية، وجعلها تتخذ إطارًا خاصا بها، مع بيان السمات الجمالية للنص . ومعنى هذا أن « الواقعية » كما أو من بها ، ليست وعيًا أيديولوجيا بالواقع ، ورصدًا موضوعيًا للمضمون فحسب ، وإنما تتجاوز ذلك إلى تحليل جماليات الكتابة الأدبية . ليس هناك — فى الحقيقة — مضمون يقف وحده .... وشكل ينتظر بعيدًا ، وإنما هناك « مضمون يتشكل » بطريقة فنية . وإذا لم نؤمن بأن الأدب « فن صياغة الكلمة » ، فإننا نهزل فى مجال لا يتحمل الهزل . إن النص الأدبى « عالم » تشكله الكلمات ، وتوحد بين أجزائه العبارات . وإذا لم نفتش عن أسرار النص التعبيرية ، ونتعرف على سماته الأسلوبية ، وخصائصه الجمالية ، فإننا نتهاون فى كثير من مقدسات المهنة وأدوات الوظيفة .!!

هكذا شاء الله ــ جلت قدرته ــ أن أعذب بدورين فى الحياة ، وأن أجمع بين عالمين متباعدين فى الكتابة ، هما : عملُ الباحث الأكاديمى ، ودورُ الكاتب الأديب . ورغم ما فى العالمين ــ من تناقض ظاهرى على الأقل ــ فإننى أتحمل قدرى .. وألتزم بالوفاء لكليهما فى آنٍ واحد ، رغم أنى أدرك ــ سلفًا ــ أن بعض الأدباء ، قد لا يستريحون لوجودى بينهم ، بحجة أنى ناقد ، وأن بعض النقاد قد يغمطونى بعض الحق بحكم أنى واحد منهم . ومع ذلك كله ، فأنا على يقين من أن الكلمة الطيبة ، تصل فى النهاية إلى قلوب الطيبين ، الذى أكتب عنهم .. ولهم ..!!.

إن « الكلمة » مسئولية وأمانة ، ويوم اخترت طريقَ اللعب بالكلمات ، حملتُ روحى على كفى ــ فداء لما أومن به ، وأدعو إليه .!!

إن طريقَ الأدب ــ فى عالمنا العربى ــ طريقٌ محفوف بالمكاره والأخطار ، حيث يتعذب المرء حتى يشكّل قدراته ويجوّد أدواته ، ثم يعانى حتى يكتب سطوره وكلماته ، وتزهق روحه وتطلع عينه ، حتى ينشر كتابه . ثم يحمله إلى من يظن أنهم أهل الصناعة والدراية .. فإذا بهم يصمتون صمتَ أهل الكهف .!! وإذا كان من تُهدى إليهم الأعمال لا يقرأونها ، فما ظنك بمجتمع استشرتْ فيه الأمية حتى بين المتعلمين ....؟!!

ومما يزيد الإنسان حسرة أنى قرأتُ منذ وقت قريب ، رواية « من قتل موليرو » لأديب أمريكا اللاتينية « ماريو فارجاس إيوسا »[1] ،

---

(١) ترجم الصديق حامد أبو أحمد هذه الرواية ، وصدرت عن الهيئة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ . وكاتبها من دولة « بيرو » .

وعلمتُ أن روايته تطبع منذ ظهرت سنة ١٩٦٨ ، مرة كل شهر تقريبًا ، فانتابتنى حسرةٌ أليمة على حال الأدب والأدباء فى بلادنا ، لأن هذا الكاتب وغيره — من كتّاب أمريكا اللاتنية — ليسوا من دول أوروبا أو أمريكا ، وإنما يقعون فى إطار بلاد « العالم الثالث » مثلنا .

مثال آخر : أسوقه بيانا على سوء حظ الأدب والأدباء فى عالمنا العربى ، هو أن معظم الأدباء فى كثير من البلاد المتقدمة تسعى إليهم دور النشر سعيًا ، وتحرص على أن تظل موزعةً لكتبهم ، ومسئولة مسئولية أمينة عن كافة حقوقهم . أما الأديب عندنا فيصعب أن يجد ناشرًا .. وإن وجد ، فلن يأخذ منه حقا ، يساوى ثمن الورق والحبر ..!!

مثال ثالث : عملاق الرواية العربية نجيب محفوظ (١٩١١) لم تفكر أية بلدة عربية ولا حتى مصر ، فى عمل « فيلم تسجيلى » عن حياته اليومية والأدبية ... وإنما يفعل هذا التليفزيون الألمانى ، حيث جاء وفد — خصيصًا — من تليفزيون بافاريا ، لتصوير الفيلم برئاسة الدكتورة « أومونت هيللر » المستشرقة الألمانية ورئيسة تحرير مجلة « فكر وفن » . وهذا الفيلم « الوثائقى » يصور الكاتب فى حياته اليومية ، والأماكن التى عاش فيها فى القاهرة القديمة ، ولقاءات مع أصدقاء عمره ، وحوارات مع الأدباء المعاصرين له ، لكى يتحدثوا عنه . إلى هذا الحد نتجاهل أدباءنا الأحياء ، إلى أن يلفت نظرنا وافدٌ غريب ، يذكرنا بما قد نسيناه .. والنسيان مع أمثال « نجيب محفوظ » الحائز على جائزة « نوبل » ليس خطأً .. وإنما خطيئة ..؟! وإذا كان هذا يحدث مع كثير من الأحياء .. فما بالك بما قد يحدث مع بعض الموتى — رحمهم الله .؟!!

مثال رابع : هناك أكثر من أديب عربى تُرجمتْ بعضُ أعماله إلى لغات أخرى ، ويُطبع منها فى المرة الواحدة فى حدود خمسين ألف نسخة . وهذا ما لا يحدث مع الأديب نفسه فى بلاده ، التى يكتب عنها .. ولها . ذلك هو ما حدث مع بعض أعمال نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس والطيب صالح ... وغيرهم الكثيرين ..!!

أخيرًا .. من يصدق أن أحمد شوقى .. شاعر مصر والعروبة والإسلام ، لا يوجد له تمثال « محترم » ، إلا فى « روما » عاصمة إيطاليا .؟ أما كل من تغنى بهم أولهم .. فلم يقيموا له تمثالاً يليق بعظمة دوره . وبالمناسبة فإنى أقترح على من يهمه أمر الثقافة فى مصر ، أن يتحول اسمُ حديقة الأورمان ، ليصبح « حديقة الخالدين » ، وتقام فيها تماثيل لمن أثروا الحياة الأدبية والفنية والفكرية فى مصر الحديثة ، أمثال : رفاعة الصهطاوى — على مبارك — قاسم أمين — أحمد لطفى السيد — محمد عبده — أحمد شوقى — حافظ إبراهيم — محمود سامى البارودى — عباس العقاد — توفيق الحكيم — طه حسين — محمد مندور — إبراهيم ناجى — بيرم التونسى — محمد حسين هيكل — سلامة موسى — زكى نجيب محمود — نجيب محفوظ — سيد درويش — أم كلثوم — محمد عبد الوهاب — صلاح عبد الصبور — يوسف إدريس — يوسف وهبى — فاتن حمامة — عبد الحليم حافظ ....

أرجو أن يتحقق هذا « الحلم » .. وفاء من مصر لكل أبنائها البررة ، الذين أثروا الحياة الفنية والفكرية .. وقاموا بأدوار خالدة لا تنسى .!!

اللهم بلغت ... اللهم فاشهد ..!!

الليالى

لعل فى ذلك كله ، ما يدل على أن الأدبَ والأدباء فى عالمنا العربى .. مظلومون — ظلمَ الحسن والحسين : فلا حكومة تؤازرهم .. ولا هيئة تساندهم .. ولا جمهور يتحمس لهم .. ولا نقاد يعرّفون بهم .. ولا .. ولا .. وقل ألف « ولا » ، فلا فائدة تُرجى للأديب فى حياته .!! بعد أن يموت .. ويأكل الدودُ لحمه ، ويفنى الترابُ عظمه .. قد نلتفت إليه . إننا أمة تحتفى « بالطلل » أكثر من احتفائها بالأصل ذاته . هذا هو ماضينا .. وحاضرنا .. والله أعلم بمستقبلنا . أيها الأدباء العرب فى كل مكان .. اكتبوا .. أو موتوا ، أو اكتبوا حتى تموتوا .. وإن ماتت الأجساد ، فلن تموت كلمة ملتزمة ، لأن الحق نفسه « كلمة » ، وفى البدء كانت « الكلمة » ..!!

***

فى خلال سنة ١٩٧٩ نجح الزعيمُ الإيرانى « آية الله الخمينى » فى القيام بثورة كبيرة ، انتهت بطرد « الشاه » وأسرته . وقد شجع نجاحُ هذه الثورة كثيرًا من الحركات السياسية الإسلامية ، التى تتمخض فى رحم الأمة . بيد أن الصراعات الداخلية سرعان ما تفجرت — عاصفة .. دموية . ودبَّ خلاف كبير بين أجنحة الثورة والثوار . وقد شجع هذا — وغيره من الأسباب — حكومة العراق على أن تقوم بهجوم عسكرى ، لاسترداد أجزاء من شط العرب ، سبق أن استولت عليها إيران .

وفى سبتمبر ١٩٨٠ قامتْ أطولُ حرب فى التاريخ المعاصر ، واستمرت ثمانى سنوات كاملة ، حتى وافق الطرفان على الصلح فى أغسطس ١٩٨٨ . وهى الحرب التى عرفت باسم « حرب الخليج » .

وقد أحالت هذه الحربُ مياه الخليج إلى بارود .. وألغام .. ودم ، وأحرقت ثمن « النفط » المستخرج من آباره ، واستهلكت الكثير من ثروة المنطقة ، واستشهد فيها آلافُ الضحايا من الطرفين . وكادت تُحدث « فتنة » فى المنطقة كلها ، بل كادت تؤدى إلى حرب عالمية . ولا يستطيع أحد أن يقدر القيمة الحقيقية لخسائر الطرفين المسلمَيْن ، إلا بعد أن تمضى على هذه الحرب المدمرة أجيال وأجيال . وقد انتهت هذه الحرب « الأسطورية » دون انتصار طرف على آخر .. وإنما انتهت بطرفين مهزومين .. أحدثا خرابًا هائلاً فى بلديهما .. وفى المنطقة بأسرها ..!!

ومما يجدر ذكره أن العراق التى كانت أعلى صوت هاجم مصر بعد توقيع « كامب ديفيد » ، لم تجد المساعدة الكبرى إلا من مصر .. بينما تولى عنها هاربين بقية — من أسموا أنفسهم — أعضاء جبهة الصمود والتصدى . أكثر من ذلك ، أن بعضهم وقفوا ضد العراق وقوفًا عدائيًا صارخًا .

بعد اشتعال لهيب هذه الحرب فى شرق الشام ، بدأتْ تعصفُ — كالرياح اللعوب — لفحاتُ معركة أخرى « شيطانية » فى غربه .. فى لبنان . فبعد أن تولى أمين الجميل (١٩٨٢) رئاسة الجمهورية بعد مصرع أخيه بشير ، دخلتْ لبنانُ فى أتون حرب أهلية ، لا يفهمها إنسان ولا يدرك سرها عاقل . واحترق الأخضر واليابس فى لبنان .. وصارت مرتعًا لكثير من الصراعات المذهبية والإقليمية والدولية . وكانت مذابح « صبرا وشاتيلا » فى ١٧ سبتمبر ١٩٨٢ — التى قُتل فيها الكثير من

المجاهدين الفلسطينيين ـــ نكبة لا تقل[١] .. بل تزيد عن نكبة أيلول الأسود (١٩٧٠) وغيرها من المعارك الدامية التى تعرض لها هـذا الشعب المظلوم ، الذى اضطر أن ينقل جنوده من لبنان ـــ بعد أن نقلها قبل ذلك من الأردن ـــ إلى بلاد عربية أخرى بعيدة عن مجال المعركة .

هكذا خيم شبحُ الدم والقتل على بعض البقاع العربية . كما قامتْ خلافات على الحدود بين الجزائر والمغرب ، وبين ليبيا وتشاد ، وبين السودان وإثيوبيا ، وبين اليمن الشمالى والجنوبى ، وأخيرًا بين قطـر والبحرين .

ولا شك أن هذه المعارك والخلافات المدبرة بأيد أجنبية ، تستنزف كثيرًا من طاقات الأمة ، وتحول بينها وبين التقدم والنهضة ، وأخيرًا تحول بينها وبين يوم الوحدة المنشود .!!

***

أما فى مصر فإن « حادث المنصة » قد خلف بعض الاستقرار والرضا السياسى فى البلاد . تلك عادةُ مصر .. تتحمل وتصبر ، حتى إذا طفح الكيلُ ، ضربتْ بيد من حديد . ومن يتأمل تاريخ مصر المعاصر ، يدرك أنه لا تكاد تمر عشر سنوات ، إلا ويحدث حدث جلل ، يصحح وضعا

---

(١) فى مجموعتى القصصية « حكاية الليل والطريق » قصتان تصوران هذه الأزمة ، الأولى « الرقص فوق بحار الدم » التى كتبت بعد المذبحة بيومين فقط ، والثانية « حكاية الليل والطريق » التى تستوحى حياة المناضلة اللبنانية « سناء محيدلى » .

وفى المجموعة التالية « دائرة اللهب » قصة تصور مأساة لبنان بعنوان « الضرب تحت الحزام » .

غير صحيح ، أو يحقق نصرًا بعد هزيمة ، أو يرجع حقًا مغتصبًا . إن فى مصر رجالاً ، يؤمنون بوطنهم .. ولا يستسلمون أمام جبروت ظالم أو طاغية من الداخل أو الخارج ، فاعتبروا يا أولى الألباب .!!

وقد عادت سيناءُ إلى مصر سنة ١٩٨٢ بموجب اتفاقية الصلح مع إسرائيل ، باستثناء بعض أجزاء متنازع عليها مثل مدينة « طابا » وبعض نقاط المراقبة على الحدود . لكن فرحة النصر العظيم بعودة سيناء ، كانت تَحدُّ من الإحساس به والتعبير عنه ، بعضُ المشاكل والأزمات الداخلية ، مثل : غلاء الأسعار ونقص بعض السلع التموينية ، وأزمة السكن ، وانتشار البطالة ، وسوء المرافق العامة مثل: التليفونات والمواصلات والطرق ، والمجارى والمياه والكهرباء ، وظهور بعض الجماعات الدينية المتطرفة ، ونشأة فئات جديدة من الأغنياء «الطفيليين» فى ظل سياسة « الانفتاح » الاقتصادى ، والفساد الذى أصاب كثيرًا من مؤسسات القطاع العام . أخيرًا .. وليس آخرًا ظهور مجموعة من النصابين عملوا — جهارا .. نهارًا ، أمامَ كل الهيئات المسئولة — تحت ستار شركات استثمار وهمية — أسموها « شركات توظيف الأموال » — والكارثة أنهم كانوا يستترون تحت « عباءة الإسلام » ، والإسلام منهم برىء إلى يوم الدين .!

الذى لا ريب فيه أن عهد حسنى مبارك قد ورث كل هذه المشاكل نتيجة تراكمات كثيرة سابقة ، لأن المعارك مع العدو قد تؤخر ، أو قد تَحُول دون أى إصلاح داخلى . وحين يتم النصر ، تظهر كل نواحى القصور والضعف والفساد . ولا شك أن حل المشكلات الداخلية يحتاجُ

إلى حكمة وكياسة وسياسة ، أكثر — ربما — من الحرب مع العدو ؛ لذلك فإن التحدى الحقيقى أمام أىّ حاكم مخلص ، هو أن يقوم بعملية « إصلاح الوطن من الداخل » ..!!

***

ثمة سؤال سألته لنفسى أكثر مما وجهه إلى الآخرون ، وهو أن أعمالى الأدبية كلها ذات أبعاد سياسية ، ومحملة بكثير من القضايا العامة .. الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والوطنية والقومية . وهنا يرد السؤال : ما دمتَ صاحبَ « رؤية سياسية » ، فلم لا تمارس السياسة « عمليًا » ، وتنتمى إلى حزب من الأحزاب القائمة ، خاصة وأن هناك عدة أحزاب فى الساحة .؟!

إن من يحاول رسمَ « خريطة سياسية » للأحزاب فى مصر اليوم ، سوف يجد أحزابًا ستة ، هى : الحزب الوطنى — التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى — الوفد الجديد — العمل — الأحرار — الأمة . وهذه المنابر تُعطى واجهةً براقة — من حيث الشكل على الأقل — على أن هناك ديمقراطية حقيقية ، غير أن المضمون الذى يعبر عنه كثير منها غيرُ مقنع : فالأول يمثل حزب « الحكومة » . وقد ورثَ كثيرًا من سوءات هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى وحزب مصر ، كما أساء إليه كثير من الانتهازيين . ويرى بعضُ منظريه أنه يمثل « الوسط » .. لكن أى وسط .. لست أدرى ..!!

أما حزب التجمع — الذى يضم بعض اليساريين والناصريين فى جبهة

واحدة — فإنه يلبس عباءة الفكر اليسارى ، لكن ممارسات كثير من أعضائه الخاطئة والمتعصبة ، لا تساعد على المشاركة فى أى عمل معهم .

وأما حزب الوفد الجديد فإنه يحيا على أطلال درستْ وذكرياتٍ ولّتْ ، ويضم مجموعةً من بقايا الحزب القديم وأنصاره .

أما الأحزابُ الأخرى .. فهى أحزاب مُبتسرة .. وتكوينـاتٌ هلامية ، لا يسندها فكر منسجم ، أو أنصار فى الواقع .

وعلى هذا فإن تلك الأحزاب جميعها — على مستوى الفكر والسلوك — لا تقدم اقتناعًا فكريًا ، يساعد على الانضمام إليها والتعبير من منبرها .

هناك أمر ثان ، وهو أنى أرى أن الأديب — فى مجتمع مثل مجتمعنا — ينبغى أن يكون فوق التحزب والتعصب ، ويجب أن يكون فكره « شموليًا » ، يرفرف فوق الجميع ، ويبسط ظله عليهم ..!!

هناك احتراس يجب أن أنوه به وأنبه إليه ، وهو أن عدم ممارستى للسياسة ، لا يعنى أنه ليستْ لى « هوية » . إننى أستاذ .. وأديب ، ويصعُب أن يكون الأستاذُ بلا « منهج » ، ويستحيل أن يكون الأديبُ بلا « موقف » ، لذلك فأنا أومن بالمنهج الاجتماعى والموقف اليسارى ، وأصدر فى كل ما أكتب بوحى من أدبيات ذلك الفكر ، فأنا يسارى غيرُ منظم . وهل يمكن للأديب إلا أن يكون يساريًا .؟! بيد أن « اليسارية » التى أعنيها ، ليست متزمتةً ضيقةَ الأفق ، وإنما هى يسارية رَحبة مُتفتحةٌ ، تناصر كل ما هو جديد ، وتؤيد كل ما يُسهم فى صنع التقدم ، وتشجب كل ما يحدُّ من حرية الإنسان ويعوق حركته . وأود أن أضيف أنى على

مستوى الفكر السياسى لا أقبلُ سياسةَ « الحزب الواحد » ، وأدعو إلى « يسار ديمقراطى » : يقبل تعدد الأحزاب ، ويؤمن باختلاف المنابر ، ما دام لكلٍ .. أفكارٌ فى الواقع تُؤيدُها ، وأنصارٌ فى المجتمع تُمثِّلها .!!

***

فى يوم الأربعاء ١٧ نوفمبر سنة ١٩٨٢ وقع أمرٌ جلل فى دائرة الأسرة ، هزَّ كيانى وأدمى فؤادى . فقد ماتت السيدة الوالدة — رحمها الله — فى إطار هذه الأحداث المتعارضة والظروف المعقدة . أبلغت بالنبأ فى منتصف الليل . لم أنم ، و لم أتحمل الخبر . إن الخبر ليس مفاجأة ، فقد داهمتها أمراضُ الشيخوخة والوحدة والحسرة ، خاصة وأن بعض الإخوة قد طمعوا فى ميراثها ، وهى لا تزالُ على قيد الحياة . حين دخلتُ الحجرة التى تمدد فيها جسدها المسجى ، بعد أن صعدت الروح إلى بارئها . وقفتُ باكيًا . كنت أتمنى أن أرفعَ الملاءة البيضاء .. وأرى وجهها .. وأودعها الوداع الأخير . لكنى عجزتُ .. أو ضعفتُ .. دون أن أدرك لهذا سببًا حتى الآن . كان وجهها — حيا — يُعطينى قوة وأملا ، لكن كيف أنظر إليها وهى جثة هامدة .؟! حين أبصرتنى زوجةُ أخى محمود واقفًا كالتمثال ، قالتْ مهونة : كان اسمُكَ آخرَ اسم نطقتْ به ، ودعتْ له .. كانت المرحومة تريد أن تراك .

سكت .. و لم أجب ، فقالت : اقرأ الفاتحة ، واذهبْ لتجلسَ مع الرجال ، فما يليق أن تبقى هنا مع النساء .

عندما مشينا فى الجنازة أصررتُ على أن أشارك فى حمل النعش . رغم

كل شيء أحسست أني مازلتُ ذلك الطفل ، الذى ما برح محتاجًا لأمه . يا أمى العزيزة لم رحلتِ .؟ لا بد أن الشوق قد جذبك ناحية الراحل العزيز الذى سبق من قبل . كلنا — نحن أبناؤك الستة — لم نعطك ما أعطاك إياه . ألم تصيحى ذات يوم : « لماذا مت وتركتنى يا شيخ عمران .؟! » لقد قصَّرنا فى حقك جميعًا ..!! إن التقصير — دائمًا — شأنُ الأبناء .. والعطاء — فطرةً — شيمةُ الآباء .!!

أحسستُ أنى فى عالم آخر .. عالم الأعزاء الراحلين .. عالم الأم الحبيبة ، التى خطفها الموت بلا استئذان . غبتُ وتهت عن الكون كله إلى أن أيقظنى رجل من أهل القرية الطيبين .. جذبنى من ذراعى ، وقال :

* يا رجل وحد الله .. كلنا أموات وأبناء أموات .

رحمةُ الله عليك يا أمى . بعد خمسة وعشرين عامًا تعودين إلى زوجك ... وتودعين أولادك وأحفادك .. تلك سنة الله ..!! مسحتُ دموعى ، ووقفت فى الصف ، آخذ العزاء على روحها الطاهرة . بين حين وآخر كنتُ أتأمل بعضَ مشاهد القرية ، وأحس غربةً موحشة . من الذى تغير فينا أنا أم أنت أيتها القرية العزيزة .؟! أيقظنى الفقيه بصوته الخشن : كل من عليها فان .. الفاتحة على روح المرحومة .!!

***

ولدى العزيز مؤنس .. « سُئل بعض الحكماء .. أى أبنائك أعز لديك .؟ فقال : الصغيرُ حتى يَكبر ، والغائبُ حتى يَعود ، والمريضُ حتى يُشفى .!! » وأنت الآن أصغرهم .. وإن كان لا يليق بشابٍ فى مثل

سنك ، أن يُقال عنه صغير ، فأنت اليوم جندى يؤدى حق الوطن ، ويقضى فترةَ التجنيد . لكن الأبناء ــ مهما كبروا ــ يظلون صغارًا فى عيون الآباء .

لقد كتبتُ كتابى هذا إليك ، وبينى وبينك آلاف الآميال .. وبحارٌ وصحارى .. وأرض وسماء ، فأنت فى بر مصر « المحروسة » ، وأنا فى دولة « قطر » الشقيقة ، أعمل ــ معارًا ــ فى جامعتها ، وأعيش ــ وحيدًا ــ رهين الدار والغربة . وقد قاسيتُ هنا وتعذبت ، ودخلت معاركَ وخصوماتٍ ، كنتُ فيها ــ جميعًا ــ صاحبَ حق .. وصاحب رأى سليم . وقد حدثتْ بينى وبين بعض الزملاء واقعة ، اكتشفت بعدها أن أكثر العلاقاتِ قائم على دَخَل ، وأن الذين قد تحسبهم من الأنصار لك ، سرعان ما يكونون أول المهاجرين عنك ، وأن أى سر يُذاع بعد أول لقاء .. وأن كثيرًا من المعارف والأصدقاء خصوم وأعداء . فآثرت السلامة ، وقلت إن الفتنة قد أقبلتْ كقطع الليل المظلمة .. وإن العاقل من نجا بنفسه عن معارك وقضايا ، لا ناقةَ له فيها ولا بعير . فألزمتُ نفسى حدودَ بيتى ، وجلستُ أستدعى هذه الذكريات البعيدة ، قائلاً لنفسى قولة .. أرددها كثيرًا : لا شيء يجعلنا عظماء سوى ألم عظيم . وكنتُ أستلهم مداد القلم من جَمر الألم ، وأستمد الفكرةَ من حرارة الوحدة ، وأستنشق عبير الذكرى من سكون الوحشة .!!

***

وقد سطرتُ فى هذه الصفحات أهمَّ معالم سيرتى .. فى زمن مقداره

خمس وأربعون سنة (١٩٣٧ ـــ ١٩٨٢) ، بيد أنى لم أقص مراحل سيرتى الذاتية ، وحلقات ذكرياتى الخاصة فحسب ، وإنما كانتْ مخيلتى لا تفتأ ترصدُ أحداثَ الواقع من حولى ، سواء فيما يتصل بأحداث مصر أو العالم العربى . إن الإنسان ـــ أولاً وأخيرًا ـــ جزء من كل ، ولبنة فى صرح ، وقطرة فى بحر ، ويوم فى دهر ، وورقة فى دوحة باسقة . ولا نستطيع أن نفهم الجزء ، إلا إذا كانت رؤيتنا محلقةً ـــ مثل عين نسر ، يطير فى السماء ـــ تبصر ما هنا .. وما هناك ، فى كل الأنحاء ، وتربط الذرة بالفلك ، الذى تدور فى إطاره .

وعلى هذا فإن الذكريات العامة هنا ـــ حول الوطن والأمة ـــ ليست منفصلةً عن وجودى ، أو بعيدة عن مداركى ، لذلك حرصت كل الحرص أن أسجل قصتى للفن ، وذكرياتى للتاريخ . إن عدم الوعى بالواقع ـــ الذى تتشكل فى رحمه أية ظاهرة فكرية أو إنسانية ـــ يجعلنا ندورُ فى فراغ ، أو نجدف فى بحر لجّى بلا قرار .!!

وما سجلته هنا ـــ يا بنى ـــ يحمل رؤيتى الخاصة ، ووجهةَ نظرى الذاتية ـــ إزاء ما عاصرته وعايشته . إننى لا أقص طُرفًا ونوادرَ ، أو أحكى مادةً للتسلية والترفيه ، وإنما تلك « شهادةٌ للتاريخ » ، موثقة بحب شديد للوطن والأمة ، وإيمانٍ خالص بدور الكلمة .

إن هذه « الشهادة » ـــ يا بنىَّ ـــ صفحةٌ من تاريخ جيل ، ينتمى إليه أبوك . ولستُ أرضى لك ، ولا أظنك ترضى لنفسك ، أن تبدد ـــ تراثًا ورثته ، وألا تصونَ أمانةً ، ائتمنت عليها . فلعل لك فى هذه الليالى عبرة ،

تزيدك أملاً فى المستقبل ، وحرصًا على مواصلة الطريق ، حتى تستبين النصح ، قبل أن يأتى ضُحى الغدِ .!!

***

أى بنى : إنى أعلمك كلمات — هى أغلى ما يورث والدٌ لولد — فاحرصْ عليهن ، واستمسكْ بهن — ما دمتَ حيا .. تحبُّ الحياة :

الوطنَ .. الوطنَ يا بنى ، فالوطنُ هو أنت ، وأنت أنت الوطن . انقشْ اسمَه فى عقلك ، واحفرْ رسمَه فى قلبك ، وكن حُرًّا ينشد الحرية ، لا عبدًا يرضخ للعبودية . واعلمْ أنه لا شىء فى هذه الدنيا العريضة ، يَعدل الإخلاصَ للوطن .

أى بنى : كن رجلاً بارًا بأهله وعشيرته ، مخلصًا لكل ما يؤمن به ؛ فالإيمان — بكل المقدسات ، أولى سمات الرجولة . واستعنْ على قضاء ما تريد بالحِكمة والصبر . واعلمْ أن الإنسان يضع نفسه .. حيثُ يشاء ، بالإرادة الحرة والسعى الدؤوب .

واستعن بالله .. ولا تعجزْ ، فالعجزُ مطيةُ الضعفاء .

أحب الفقراءَ والمساكين ، وانصر الضعفاءَ والمظلومين ، لأن أباك .. كان — ولا يزال — منهم .

يا بنىّ : إننا لا نأخذُ من الحياة إلا بقدر ما نُعطيها ، فمن كانت رحلته من أجل عَرَض زائل ، أو شهوة فانية ، فإنه ميّت يومَ مولده . الحياةُ أمل عزيز ، يحققه العِلمُ والعمل ، وحلم بعيد تقربه رغبة عنيدة فى مواصلة السير والسرى . وما استحق أن يُولد من عاشَ من أجل أن يصير « كائنا »

بلا هدف ، أو « شبَحا » بلا هويّة ..!!

أى بنى : آخر ما أوصيك به ، هو أن تحرص على الإيمان بأمرين فى هذه الحياة ، هما : قدسيةُ الله فى السماء ، وحريةُ الوطن على الأرض . وما عليك بعد هذا من سبيل ..!!

طُويت الصحف ، وجَفت الأقلام ، وانتهت حلقةٌ من الليالى ، بكل ما كان فيها ، وبقيت أخرى .. لا ندرى ما الله صانع بها ...!!

***

انتهى الجزء الأول .. من « ليالى » طه وادى[1] .

* * *

---

(١) مدينة الدوحة — قطر .. فى يوم : الجمعة ٤ من ربيع الأول سنة ١٤٠٩ هـ . الموافق ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٨٨ م .

فهرس .. الليالى

صفحة

* * *

مؤلفات د. طه وادي

أولا : في مجال الإبداع الأدبي

١ ــ عمار يا مصر	(مجموعة قصصية)	١٩٨٠ ــ ١٩٩١
٢ ــ الدموع لا تمسح الأحزان	(مجموعة)	١٩٨٢ ــ ١٩٩١
٣ ــ الأفق البعيد	(رواية)	١٩٨٤ ــ ١٩٩٢
٤ ــ حكاية الليل والطريق	(مجموعة)	١٩٨٥ ــ ١٩٩١
٥ ــ الممكن والمستحيل	(رواية)	١٩٨٧ ــ ١٩٩٢
٦ ــ دائرة اللهب	(مجموعة)	١٩٩٠ ــ ١٩٩١
٧ ــ الليالى	(سيرة أدبية جـ ١)	١٩٩١ ــ ١٩٩٢
٨ ــ العشق .. والعطش	(مجموعة)	تحت الطبع

* * *

ثانيا : فى مجال الدراسات النقدية

١ ــ شوقى ضيف سيرة وتحية ــ دار المعارف ــ ١٩٩٢
٢ ــ الشعر والشعراء المجهولون فى القرن التاسع عشر
ــ دار المعارف (٢) ــ ١٩٩١
٣ ــ شعر ناجى ــ الموقف والأداة ــ دار المعارف (٣) ــ ١٩٩٠
٤ ــ جماليات القصيدة المعاصرة ــ دار المعارف (٢) ــ ١٩٨٩
٥ ــ صورة المرأة فى الرواية المعاصرة ــ دار المعارف (٣) ١٩٨٥
٦ ــ شعر شوقى الغنائى والمسرحى ــ دار المعارف (٤) ١٩٨٥
٧ ــ ديوان رفاعة الطهطاوى ــ دار المعارف (٢) ١٩٨٤
٨ ــ دراسات فى نقد الرواية ــ الهيئة المصرية ــ ١٩٨٩
٩ ــ مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية ــ النهضة المصرية ــ ١٩٧١
١٠ ــ د . هيكل : حياته وتراثه الأدبى ــ النهضة المصرية ١٩٦٩

* * *

رقم الإيداع ٢١٨٧ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى 9- 0711- 11 - 977